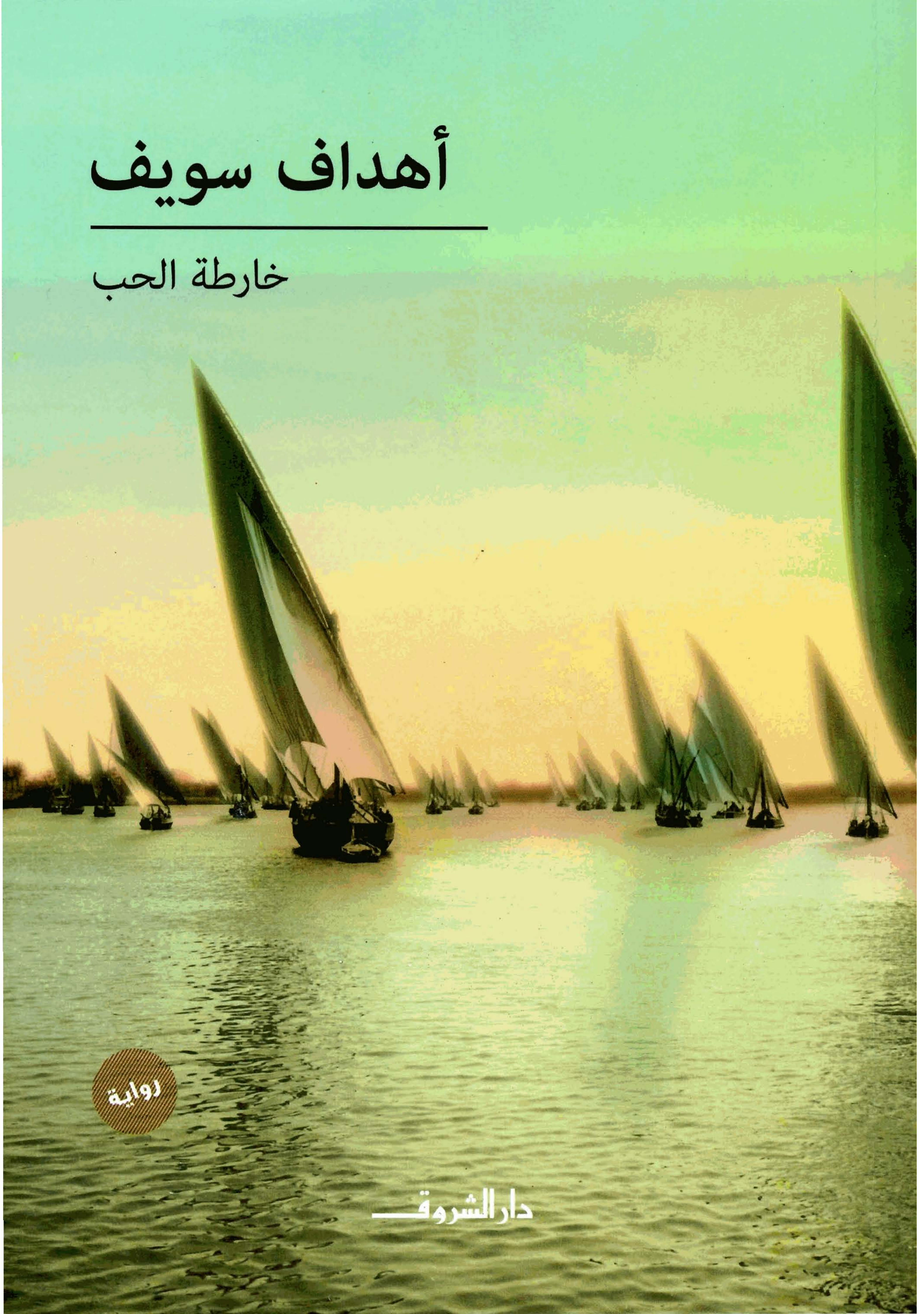
أهداف سويف

خارطة الحب

رواية

دار الشروق



خارطة الحب

The Map of Love, (a novel)
by Ahdaf Soueif
Bloomsbury, London, 1999

الطبعة العربية الأولى
الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٤

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع ١٤٢٧٩/ ٢٠٠٩
ISBN 977-09-2045-2

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢)+
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

أهداف سويف

خارطة الحب

رواية

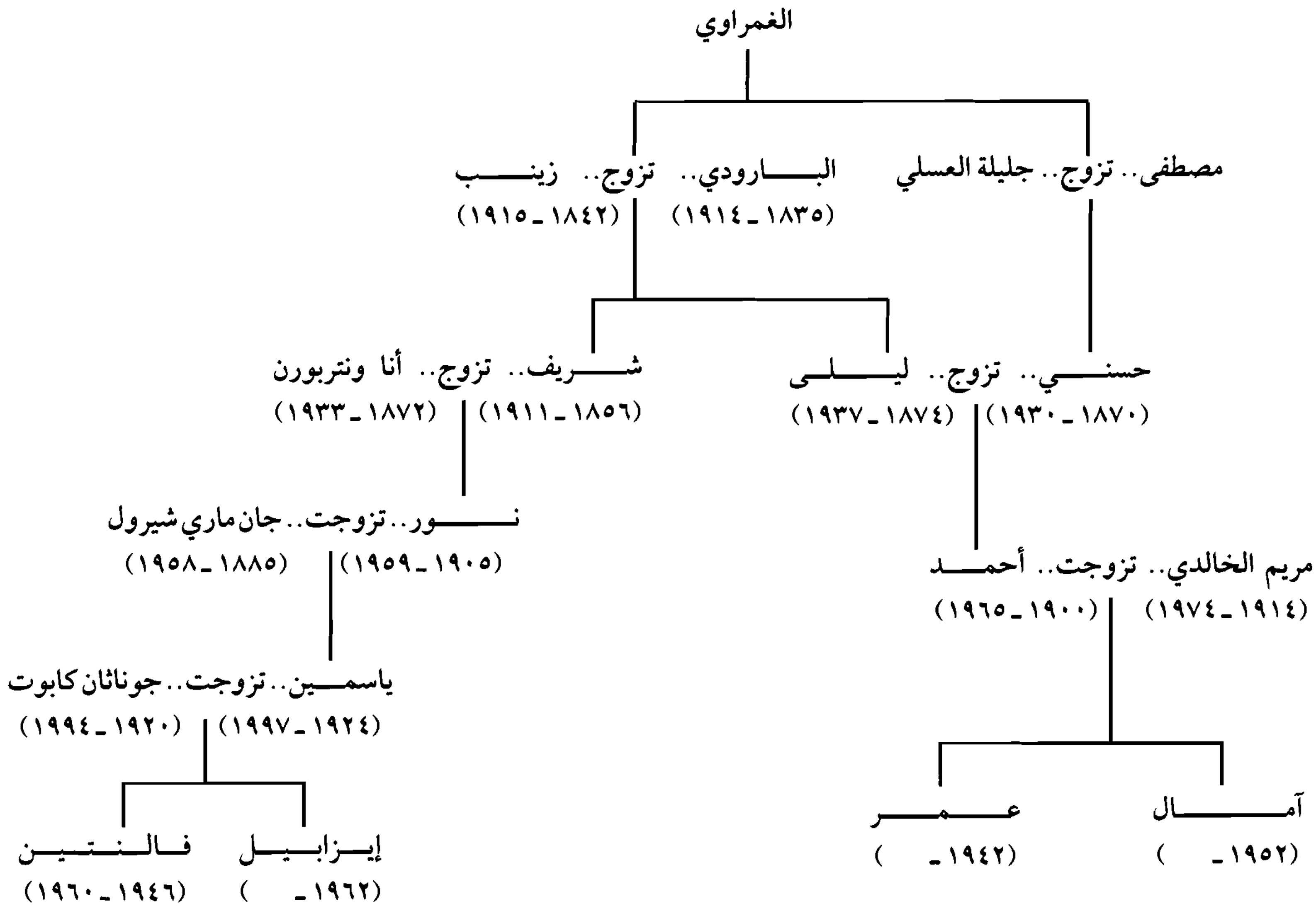
ترجمة: فاطمة موسى

دار الشروق

الإهداء:

إلى أمي: فاطمة موسى
منها بدأت، وإليها أرجع

أهداف سويف


الغمراوي
مصطفى.. تزوج.. جليلة العسلي
البارودي.. (١٨٣٥ـ١٩١٤)
تزوج.. زينب (١٨٤٢ـ١٩١٥)
حسني.. تزوج.. ليلى
(١٨٧٠ـ١٩٣٠) (١٨٧٤ـ١٩٣٧)
شريف.. تزوج.. أنا ونتربورن
(١٨٥٦ـ١٩١١) (١٨٧٢ـ١٩٣٣)
مريم الخالدي.. تزوجت.. أحمد
(١٩١٤ـ١٩٧٤) (١٩٠٠ـ١٩٦٥)
نور.. تزوجت.. جان ماري شيرول
(١٩٠٥ـ١٩٥٩) (١٨٨٥ـ١٩٥٨)
آمال (١٩٥٢ـ)
عمر (١٩٤٢ـ)
ياسمين.. تزوجت.. جوناثان كابوت
(١٩٢٤ـ١٩٩٧) (١٩٢٠ـ١٩٩٤)
إيزابيل (١٩٦٢ـ)
فالنتين (١٩٤٦ـ١٩٦٠)

«ومن عجب أن هذه الفترة التي ظن فيها الاستعمار والمتعاونون معه أنها فترة الخمود كانت من أخصب الفترات في تاريخ مصر؛ بحثًا في أعماق النفس، وتجميعًا لطاقات الانطلاق من جديد».

جمال عبد الناصر
الميثاق الوطني
الباب الثالث: في جذور النضال المصري

بدايــــــة

الإله نفسه لا يقدر على تغيير الماضي

أجاثون (٤٤٧ - ٤٠١ ق م)

... وهنا، على المائدة، تحت شباك حجرة نومها، يرقد الصوت الذي أحيا في نفسها ملكة الحلم من جديد. شذرات من حياة من زمن بعيد... بعيد. صوت المرأة يحدثها عبر مائة عام، حديثًا واضحًا موجهًا إليها هي بالذات، حتى إنها لا تصدق أنها ـ إن التقطت القلم ـ ل ا تستطيع أن تجيب.

الطفلة نائمة. نور الحياة: نور حياتي.

تنظر أمل في الورق فتري: تري آنا تضع القلم جانبا، وتنظر إلى الطفلة الملتصقة بجنبها، وجهها متورد بالنوم وثغرها مفتوح قليلا، وخصلة من الشعر الأسود مبللة بالعرق تلتصق بجبينها.

حاولت، حاولت بصدق أن أخبرها. لكنها لا تستطيع ـ أو لا تريد ـ أن تفهم وتتخلي عن الأمل. إنها تنتظره في كل لحظة...

يوغل الليل وأمل تقرأ. تقرأ وتترك كلمات آنا تنساب إلى عقلها، تلتف متسللة حول أحلام وآمال وأحزان كانت قد قننتها وصنفتها ووضعتها جانبا، فرغت منها.

أوراق صقلها الزمن ورققها، أوراق وأوراق، أغلبها مغطي بكتابة بالإنجليزية بخط صغير، واثق، مائل الحروف. مرت أمل

في الأوراق تصنفها حسب نوع الورق، ومقاس الصفحات، ولون الحبر. بعضها مكتوب بالفرنسية. بعضها محفوظ في مظاريف، والبعض في ملفات بنية قديمة. هناك مفكرة كبيرة خضراء، وأخري من الجلد البني السادة لها حزام وقفل صغير، وجدت أمل مفتاحه في كيس من الجوخ الأخضر؛ كيس مُعْوج قليلًا، جاف لا يلين في اليد كأن من خاطته كانت تنفذ واجبًا في حصة أشغال. ومع المفتاح وجدت أمل دبلتين إحداهما أصغر من الأخري، حاولت قراءة ما نقش عليهما من الداخل، وفي البداية لم تميز إلا التاريخ: ١٨٩٦. وفي مظروف بني كبير وجدت دفتر فولسكاب: ٦٤ صفحة من خط الرقعة المنتظم. تعرفت أمل على الخط في الحال: الألف القصيرة العمودية على السطر، الزوايا الحادة للحاء والخاء، ذيل الياء المطوي تحت جسم الحرف. هذا الخط المحكم المحدد هو خط جدتها. الورق ذو السطور المتقاربة حافظ على لونه الأبيض، بين دفتين من ورق مقوي رمادي مرخم. متيبس، يقاوم الفتح ويستعصي عليه. وجدت أيضا بعض قصاصات من الجرائد: «الأهرام»، «اللواء»، «التايمز»، «الديلي نيوز»، وغيرها. برنامج حفل مسرحي إيطالي. كيس ثاني، من القطيفة الكحلي، تقلبه فتُفَرِّغ منه في يدها مسبحة: ٣٣ حبة من الخشب المصقول لها شرابة قصيرة من الخيط الحرير الأسود. وعلقت بيدها طول اليوم رائحة خفيفة لخشب صندل قديم. وهناك عدد من كراسات الرسم فيها رسومات متنوعة، وعدد من كراسات الخط العربي.. تقلب أمل الصفحات وتلحظ الفروق في انسيابية الخط وثقة اليد الكاتبة.

وجدت عددا من كتب النحو العربي، كما وجدت حلية غريبة على شكل علبة من معدن ثقيل في سلسلة رقيقة من الصلب، ضغطت على المشبك فانفتح الغطاء عن صوره امرأة شابة تنظر إليها، صورة بديعة الصنع، تكثر أمل من النظر فيها بعناية وتقول لنفسها يجب ان أفحصها جيدا بعدسة مكبرة. الشابة في الصورة ذات شعر ذهبي تركته طويلًا منسابًا، مموجًا حسب الموضة التي خلدها بيرن جونز في رسوماته. وجهها بيضاوي لطيف ذو ملامح دقيقة، يبدو ثغرها وكأنه يستعد للابتسام. أما عيناها فلونهما غريب، أقرب إلى البنفسجي، وهي تنظر إليك وعيناها تقولان ـ تقولان أشياء كثيرة، هناك قوة في تلك النظرة، ونوع من التحدي، إلا أنه تحد لطيف. هذه نظرة يمكن أن نتصورها في عيني امرأة تخرج عن العرف فتتقدم من شاب غريب في حفل وتطلب أن يراقصها. نقش التاريخ على ظهر الحلية: ١٨٧٠، وبداخل تقويس الغطاء ثبت أحدهم مفتاحا ذهبيا صغيرا.

في كيس من القطن الأبيض وجدت أمل ثوب طفل من القطن الفاخر الرقيق، صدره مطرز بعناية بخيوط من الحرير الأزرق والأصفر والـوردي. وفي كيس من الموسلين وجدت نسجية عجيبة، عليها رسم فرعوني وكلمات عربية. هناك أيضًا شال أبيض من القطيفة الزبدة، تستطيع أن تشتري مثله اليوم في الغورية، وهناك شال آخر من الصوف الرقيق، مطرز بالورود الدقيقة، بَلِي حتى إنك تستطيع الرؤية خلال النسيج في بعض المواضع.

وكانت هناك أشياء أخرى، أشياء ملفوفة في ورق رقيق أو في

القماش، أو محفوظة داخل مظاريف: صندوق من العجائب كأنه كنز.

كثيرا ما تبدأ القصة من أغرب الأشياء: مصباح سحري، نتفة من حديث وقع على الأذن، خيال يتحرك على حائط. أما قصتنا هذه فتبدأ بصندوق، صندوق قديم من الجلد البني جف وتشقق، صندوق ذي غطاء أحدب مربوط بحزامين اسودت الأبازيم فيهما من القدم والإهمال.

جاءت الأمريكية إلى شقة أمل. كان اسمها إيزابل باركمان وكان الصندوق في شنطة السيارة التي استأجرتها. لم تنكر أمل حذرها وضيقها المسبق. صحفية أمريكية! لكنها قالت إن شقيق أمل أعطاها الرقم، وطلب منها أن تتصل. وافقت أمل على لقائها وهي في ضيق. بأي موضوع ستبدأ هذه الأمريكية؟ المتطرفون، الحجاب، السلام البارد، تعدد الزوجات، وضع المرأة في الإسلام، ختان البنات...؟

لم تتكلم إيزابل باركمان في أي من هذا. ولم تكن جريئة متجاسرة، بل لعلها خجولة، التقت بشقيق أمل في نيويورك، وأخبرته أنها سوف تزور مصر في إطار مشروع تعده حول «الألف الثالثة»، فأعطاها رقم أخته. قالت أمل إنها لا تظن أن إيزابل ستجد أحدا في القاهرة عنده نظريات ضخمة حول «الألف الثالثة». وفي ظنها أن إيزابل سوف تجد الجميع في قلق، قلق مخيف مضن، حول ما عسي أن يحدث لمصر، للبلاد العربية، لما يسمونه (العالَم الثالث) في القرن الواحد والعشرين. قدمت أمل القهوة لإيزابل، وأعطتها عددا من الأسماء.

وفي زيارتها الثانية فتحت إيزابل موضوع الصندوق: كيف وجدته حين دخلت أمها إلى المستشفي، دخول بلا رجعة فيما تظن. نظرت بداخله فوجدت أوراقًا قديمة بالإنجليزية، كتبتها، فيما تعتقد، جدة أمها. لكنها وجدت أوراقا ووثائق بالعربية، وأشياء أخرى. أما الأوراق الإنجليزية فكثير منها بدون تاريخ. وبعضها يبدأ في منتصف الجملة. إيزابل تعرف أن جزءًا من تاريخها موجود بهذا الصندوق، لكنه ـ فيما يبدو ـ جزء من قصة أكبر. نظر شقيق أمل في المحتويات واقترح أن تحضره إليها.

مس تردد إيزابل قلب أمل فأرسلت في طلب عم مدني البواب وطلبت إليه أن يحضر الصندوق من سيارة الضيفة. وحين وضع الرجل الصندوق على أرض غرفة الجلوس قالت أمل:

ـ أتراه صندوق باندورة تخرج منه مصائب الدنيا؟

فهتفت إيزابل منزعجة: لا، لا. أرجو ألا يكون كذلك.

* * *

اسمي آنا ونتربورن. ولا أتفق ـ بالضبط ـ مع الذين يزعمون أن النجوم تتحكم في أقدارنا.

(١)

طفل هُجِرَ، يصحو فجأة
يمر بنظرة خائفة على كل ما حوله
فلا يرى
نظرة الحب تلتقي بعينيه

نص ورد في رواية «ميدلمارش» لـ «چورچ إليوت»

القاهرة في إبريل ١٩٩٧

بعض الناس قادرون على البكاء بإرادتهم، أما أنا فقد أفزع ـ بإرادتي ـ حتى يصيبني الغثيان. حين كنت طفلة، وقبل أن يصبح لديَّ أطفال، كنت أفعل ذلك بالتفكير في الموت. واليوم أفكر في النجوم. أنظر إلى النجوم وأتخيل الكون. ثم أتراجع إلى المجرة ثم إلى كوكبنا، يدور ويجري في الفضاء الشاسع. يلف ويدور ويجري من أجل البقاء. وللحظة يضربني شعور قاهر بالخطر يحدق به. بم يمكن أن نتشبث ؟

في الليلة الماضية، رأيتني في الحلم أسير ثانية في البيت الذي شهد طفولة أبي: تحت قدمي رخام صالة المدخل البارد، وفوق رأسي السقف العالي من عروق الخشب المنقوش، ألف زهرة مرسومة تومض في ظلمة البُعد. رأيت مشربية الحرملك، ووراء خشب المشربية رأيت خيال امـرأة. ثم شعرت بباب المدخل الكبير وهو يفتح فالتفتُّ ورائي. فتح الباب عن طاقة من النور الباهر رأيت فيها (كما لم أر في حياتي) شخص خالي الكبير، خال أبي، شريف باشا البارودي، واقفا، طويل القامة، عريض الكتفين. فتحت عيني وسحبت ملاءة الغطاء حتى وجهي وراقبته في خيالي

يخلع الطربوش ويناوله، مع عصاه الأبنوس، إلى السفرجي الذي مال نحوه بالتحية. ألقى نظرة سريعة نحو المشربية وخطا نحوي وعبرني إلى المدخل المظلل الذي أعلم أنه يؤدي إلى السلم ومنه إلى الحرملك. لم أقرب هذا البيت منذ كان أصغر أبنائي في التاسعة، منذ عشر سنوات. كان يحب هذا البيت، وكنت أرقبه وهو يلعب ويستكشف والحراس يتابعونه بلطف، وكنت أحيانا أسمح لنفسي أن أتساءل: ماذا لو كنا احتفظنا بالبيت؟

ولكن، هذه ليست قصتي. هذه قصة وجدتها في صندوق. صندوق جلدي قديم، جاء من لندن إلى القاهرة، ثم عاد وسكن سندرة منزل في نيويورك لسنوات عديدة قبل أن يجد طريقه مرة أخرى إلى القاهرة فيستقر على أرض غرفة معيشتي في يوم من أيام الربيع عام ١٩٩٧ . وهي قصة امرأتين: إيزابل باركمان، الأمريكية التي أتت إليّ بالصندوق، وآنا ونتربورن، جدتها الإنجليزية وصاحبة الصندوق أصلا. أما أنا، فإن كان لي دور في هذه القصة، فهو نفس الدور الذي قامت به جدتي منذ مائة عام: دور الراوية لقصة غرام أخيها.

يوما بعد يوم أُخرج ما في الصندوق، أفض الأغلفة وأفك الألغاز. جلسنا على الأرض أمامه أنا وإيزابل نصيح إعجابا لرقة الكشكشة في رداء الطفل، ولنعومة حبات المسبحة، ولمعان الشمعدان. ترجمت لها فقرات من قصاصات الصحف العربية وتحدثنا عن الزمن ،والحب، والأهل، والفقدان.

أخذت المفكرات والأوراق إلى حجرة نومي وقرأت كلمات آنا مرات ومرات. أكاد أحفظها عن ظهر قلب، أسمع صوتها وأراها في

الصورة الصغيرة في الحلية، صورة الأم التي كانت تشبهها كثيرا. على المائدة القائمة أسفل شباكي أدخل المفتاح في ثقب القفل الدقيق للمفكرة البنية، وأديره فأجدني في خريف إنجليزي عام ١٨٩٧ وقد انفتح أمامي قلب آنا المثقل بالهموم:

أنا بالفعل أحبه، بمعني أني أتمني له الخير، ولو كان في وسعي أن أجعل حياته أسعد وقلبه أكثر اطمئنانا لفعلت بنفس راضية ـ لكن للحق أقول إني حاولت. خبرتي محدودة ـ وبالذات فيما يخص الرجال، ولكن أحاول ـ بقدر فهمي ـ أن أكون زوجة ورفيقة مخلصة، مُحِبَّة.

ليس الأمر كما تصورته، في أحلامي الصغيرة، منذ سنتين فقط، حين كنت أجلس على حافة ملعب الكريكيت، وأرقبه وقلبي يفيض بالسعادة إذا نظر نحوي باسمًا بعد رمية ناجحة، أو إذا ركبنا الخيل معًا فلامست ساقه ـ للحظة ـ ساقي.

لو وضعنا كرة القدم بدلًا من الخيل والكريكيت لكان هذا وصف حبي الأول. أو كان وصفًا لحب أروى، أو دينا، أو أي فتاة من صديقاتي ونحن نَشب هنا في القاهرة في الستينيات. ما الفرق بين ما يحدث لنا وما حدث منذ مائة عام ـ وفي قارة أخرى؟

كم أشعر ـ أكثر من أي وقت مضى ـ بالحاجة إلى أمي. ولكني لا أستطيع أن أقول إن إدوارد تغير. لم يتغير. مازال يتعامل بنفس اللطف المهذب الذي ظننته علامة أشياء أكبر، الذي ظننته بداية حب حميم وتقارب الروح والوجدان.

نحن الآن في منتصف المفكرة، التي اختلفت إلى حد كبير عن بداياتها البريئة حين كانت آنا تستعد لتدوين تفاصيل حياة زوجية سعيدة ـ بدايات يرق القلب لافتراضاتها المتفائلة. كانت تنظر إلى المستقبل فتري حياة منتظمة، تتفتح بنمط مفهوم مقدر.

أفكر في أمي كثيرًا. أكثر حتى مما أفكر في أبي الحبيب. أتساءل عن حياتهما معًا. لا أذكرهما معًا. أراها في ذاكرتي وحدها ـ إلى أن وافاها الأجل. وفي ذاكرتي يحوطها النور دائمًا. أراها تركض سريعًا على الفرس. وأراها ضاحكة: على مائدة الطعام، أو في غرفتي، أو في حلبة الرقص، أو يوم أجلستني أمامها على الحصان وعلمتني كيف أمسك باللجام. وكأن أبي ظهر في حياتي وأنا في التاسعة، وبعد أن ماتت. أذكره في الحداد. يمشي في أراضينا أو يجلس في مكتبته. رقيقًا محبا معي دائمًا، لكنه حزين. لم تعد هناك حفلات راقصة، ولا مآدب عشاء أنزل إليها بملابس النوم لأتلقي قبلة المساء. كان السير تشارلز يأتي كثيرًا لزيارته. وكانا يتحدثان عن الهند وأيرلنده، عن الملكة والقنال، عن مصر. كانا يتحدثان عن التمرد و القصف و المحاكمة. لم يتحدثا أبدًا عن أمي.

منذ عدة أشهر، وبعد جنازة أبي، سألت السير تشارلز عن أمي. سألته كيف كانت مع أبي؟ هل كانا سعيدين؟ بدت عليه الدهشة وقال: «أتصور ذلك يا عزيزتي. كانت سيدة رائعة، وكان جنتلمان أصيلا».

لا يتحدث سير تشارلز كثيرًا في الأمور الشخصية ـ فهو يرتاح أكثر في الحديث عن الموضوعات العامة ـ ولو أن «يرتاح» هنا في غير محلها، فهو لا يرتاح أبدا لما يدور في حياتنا العامة هذه الأيام وكان متعكر المزاج طوال احتفالات اليوبيل في يونيو.

نزلنا منذ أسبوعين إلى سيتون لزيارة چورچ ويندام، وتعشينا هناك مع ديك جروفنور، وهنري ميلنر، و چون إيفلين وليدي كليفورد. وطرح أحدهم قضية إن كان للأمم البدائية حق في البقاء، وكان موقف چورچ ـ بناء على نظرية داروين عن البقاء للأصلح ـ أن الأمم البدائية ليس لها هذا الحق، وقد وافقه معظم الحاضرين. وثار غضب سير تشارلز وقال إن الإمبراطورية البريطانية الحقت أضرارًا جسيمة بأناس كثيرين وأنها هي التي تستحق الفناء، وحينئذ لن يجدي قول أو فعل. وقد صمت إدوارد لأنه ـ كما أتصور ـ وجد نفسه متفقًا مع الآخرين لكنه لا يميل إلى إغضاب أبيه. وكان حليف سير تشارلز الوحيد هو چون إيفلين الذي أعلن أنه ينوي إرسال ابنه في رحلة في النيل إلى الصعيد «ليتعلم العربية، ويسجل يومياته، ويكتسب عادات الملاحظة والاعتماد على النفس ويبتعد عن الأجواء المليئة بالتعصب». آه كم كنت أتمني ـ إن لم يكن في هذا التمني نوع من الشر ـ أن أكون أنا هذا الإبن.

يأتي إدوارد إلى غرفتي من وقت لآخر، ويكون لطيفًا رقيقًا معي حين يغادر. وقد أدركت منذ زمن أن ما ينتابني

في تلك الأوقات علامة على تمرد في شخصيتي، نزعات وعواطف مقلقة وعنيفة تفقدني اتزاني فأبكي في وسادتي وأذهب وأجيء في غرفتي بل أفتح النوافذ لهواء الليل البارد وأطل منها وأتمنى - سامحني الله - لو لم أكن على هذه الصحة وليتني أصاب ببرد قاتل ينهي تعاستي. وفي الصباح كثيرًا ما كنت ألوذ بالمكمدات الباردة على عينيّ كي لا تبدو مظاهر البكاء على وجهي حين أنزل إلى مائدة الإفطار.

أتساءل إن كان هو أيضا يصاب بهذه المشاعر المضطرمة، فكم كنت أحب أن أواسيه وأمده بالحنان، لكنه يتركني في كل مرة بنفس السرعة ونفس الرضا الظاهر، فأخلص إلى أن هذه المشاعر تخصني وحدي، وهي وليدة ضعف ما في تكويني الأنثوي وأحاول - كم أحاول - أن أسيطر على نفسي وأتغلب عليها.

ابتكرت بعض الحيل البسيطة أكثرها نجاحا ترك مهمة صغيرة غير مكتملة وقريبة من يدي. فإذا هم زوجي من فراشي قمت معه، وأوصلته إلى الباب، حتى إذا خرج أغلق الباب وأعود في الحال إلى لوحتي أو كتابي إلى أن أطمئن أن تلك المشاعر الشريرة قد مرت وأنني أستطيع أن أرفع رأسي من العمل في أمان.

إن دفتر مذكراتي هذا لا ينفعني في تلك الأوقات فهو يشجعني على التعبير عن تلك المشاعر التي تتهددني والتي يجب علي أن ألقيها جانبًا.

لا أعتقد أنه سعيد.

(٢)

آه ما أحلى بداية الحب!

إفرا بن (١٦٨٠)

القاهرة، مايو ١٩٩٧

تحكي لي إيزابل أجزاء من حكايتها. تحكي لي ـ مثلا ـ كيف التقت بأخي. حكاية مختصرة خالية من الإثارة، أملأ أنا فراغاتها كلما ازدادت معرفتي بإيزابل وازدادت قدرتي على تخيلها. إيزابل تفكر بالصورة، هي تتحدث وأنا أرى في خيالي بقعة الضوء تتماوج على المائدة العتيقة من خشب البلوط.

نيويورك، فبراير ١٩٩٧

بقعة من الضوء تتماوج على المائدة العتيقة من خشب البلوط، تُبرز حبيبات الخشب الداكنة ثم تظللها. في المركز يتوهج إناء زجاجي تطفو فيه ثلاث شمعات كأنها زهرات زنبق ذهبية.

تقول إيزابل:

ـ أتصور أن الأمر ربما يشبه أعياد الميلاد.

يحمل صوتها رعشة خفيفة لحظتها مؤخرا ولا تعرف إن كان أحد غيرها يسمعها ولا تعرف لها سببا. تضع الشوكة بحرص على الطبق أمامها، تقول وهي تنظر إلى أصابعها التي مازالت على الشوكة:

ـ أعني... ونحن أطفال كان لكل عيد ميلاد أهمية كبيرة.

ترفع بصرها، نعم مازال ملتفتا إليها، تستمر متشجعة،

ـ حتى يخيل إليك أن كل شيء سيكون مختلفا بعد عيد الميلاد، ستتغير أنت، ستصبح إنساناجديدا.

ـ وبعد ذلك؟

ـ بعد ذلك، تدرك أن لا شيء يتغير.

ـ يا فتاتي العزيزة ـ آسف أيتها السيدة العزيزة، هل أدركت هذا حقا؟ لا يمكن، ليس بعد!

هل هذا غزل أم دعابة؟ يركن ظهره إلى مسند المقعد. معصمه على المائدة وذراعه الأخري ملقاة على ظهر كرسيه. على الجانب الآخر من وعاء النور تلتفت المرأة التي حضرت في صحبته إلى راجيف سيث ضاحكة، تنحدر خصلات شعرها الكستنائي فتحجب وجهها. تتلمس أصابع أخي عنق كأسه، ظاهر يده مغطي بشعيرات سوداء ناعمة. للحظة تحدق إيزابل في وجهه المألوف لها من الصحف والتليفزيون: يكرهونه لكنهم لا يشبعون منه، عندما يقود الأوركسترا في حفل يتلوي طابور طالبي حجز التذاكر حول المبني وكأنه العرض الأول لفيلم من أفلام سبيلبرج. يطلقون عليه «مايسترو المولوتوف»، و «قائد أوركسترا الكلاشينكوف»، لكن شباك التذاكر يعبده. والآن تلمع عيناه الغائرتان وقد ثبت نظره عليها. أيضحك منها؟

تنادي ديبورا من مجلسها على رأس المادة: «من يريد مزيدا من

السلطة؟» يسود رنين الشوك والسكاكين وحركة الأطباق، ثم تعلن ديبورا:

ـ سأحضر الآيس كريم. ويحتج لويس رفيقها فتمنحه ابتسامة سريعة. تهب إيزابل واقفة وترفع طبقها وطبق أخي وتحملهما إلى المطبخ بالرغم من زجر ديبورا: «اجلسي، اجلسي مكانك لا أحتاج مساعدة...».

* * *

تهمس لها ديبورا وسط القدور والطاسات والمصافي النحاس اللامعة:

ـ أليس جذابا؟

توافقها إيزابل ولا تتظاهر بأنها لا تفهم من تعني:

ـ رائع في الواقع، ويبدو قابلا للصداقة. من السيدة التي معه؟

ـ سامانثا متكالف، تُدَرِّس في جامعة نيويورك.

ـ هل هي ـ هل هما معا؟

ترد ديبورا وهي تنحني إلى الفريزر:

ـ ربما حاليًا. لماذا؟ تشد قامتها وتبتسم ابتسامة واسعة: هل يهمك؟

ـ ربما.

تضع ديبورا وعائين من الآيس كريم على صينية قائلة:

ـ إنه في الخامسة والخمسين.

ـ في سن أبي ـ تكمل إيزابل الجملة مبتسمة:

ـ هل حقا له علاقة بالإرهابيين؟

تهز ديبورا كتفيها، وترص أصابع البسكوت في صحن من الصيني الأزرق:

ـ من يدري؟ لكن هذا احتمال ضعيف في رأيي فهو لا يبدو إرهابيا.

* * *

تحمل إيزابل السلطانيات الصغيرة وتخرج من المطبخ خلف ديبورا، وعندما تعود للجلوس في مقعدها يلتفت إليها:

ـ لم أكن أسخر منك. ما زالت الابتسامة في عينيه.

ـ حقا؟

ـ تأكدي! إلا أنك ـ لماذا كل هذه الجدية؟ والآن أكملي. كنت تتحدثين عن أعياد الميلاد؟

ـ كنت أعني ـ أننا ـ بالنسبة لنا نحن الأمريكيين هذه هي المرة الثالثة فقط التي نشهد فيها مولد قرن جديد ولم نشهد ألفية أبدًا، فربما نحن مثل الأطفال الصغار.

ـ قيل هذا من قبل.

ـ ماذا ؟ ماذا قيل من قبل؟

كان لويس يميل في اتجاههما من جانب إيزابل الأيمن، وضوء الشموع يلمع على جبهته العالية. كان فخورا بالصلع الزاحف في مقدمة رأسه وكـان يمشط شعره الأسود الي الخلف على طريقة رجال الإسبان.

صاحت ديبورا:

ـ هذا لا يليق.

وتساءل لويس:

ـ ما الذي لا يليق؟

ـ أن تدخل في حديث الآخرين بهذه الطريقة. لسنا هنا في البورصة.

ـ لم لا؟ لم أدخل في محادثة خاصة! هل كانت محادثة خاصة؟

تسارع إيزابل:

ـ لا، أبدا. كنت أقول إن كل هذه الضجة حول الألفية ـ

ـ مرة أخرى الألفية ـ هتفت لورا وهي تضع يديها على رأسها:

ـ الألفية، الألفية، أينما توجه نظرك تجد حديث الألفية. كنت فهمت أنك لا تريدين الكتابة عن الألفية ؟

سأل لويس:

ـ ماذا تكتبين؟ كنت أظنك على وشك الانتهاء من ـ فقالت لورا:

ـ لقد أضافت اختيارا جديدا.

قالت إيزابل:

ـ هذه هي النقطة. من المحتمل أن الألفية مهمة في نظرنا لأننا أمة شابة. يعني، قد يكون من المثير أن نستطلع رأي بلد قديم فعلا في هذا الأمر.

تؤَمِّن ديبورا :

ـ زاوية تصلح للنظر.

يهتف لويس:

ـ الهند! ربما نجد الجواب عند راجيف، راجي؟

يلتفت الرأس ذو اللحية من الحديث مع سامانثا فيعاود لويس:

ـ ما رأي الهند؟ كيف تري الألفية؟

ـ لمَ لا تسألها يا رجل؟

رعشة خفيفة في ركن الشفة السمراء لكن العينين لا تبتسمان.

تتمتم ديبورا :

ـ ليس هكذا يالويس، ألا تعرفه؟

ويرد لويس:

ـ ابن كلب! لا يفصح عن شيء.

تقوم ديبورا واقفة:

ـ هيا نشرب القهوة في حجرة المعيشة

يسألها وهما يسيران إلى الحجرة الأخري :

ـ ما هذا المشروع؟

ـ فكرت في السفر إلى مصر، لأعرف رأيهم في الألفية.

ـ مصر؟ ولماذا مصر بالذات؟ لم لا تذهبين إلى روما؟ روما بلد قديم.

ـ نعم لكن مصر أقدم، كأننا نعود إلى البداية. ستة آلاف سنة من التاريخ المسجل.

تناول ديبورا إيزابل فنجان القهوة:

ـ هل عندهم احتفال بالألفية هناك؟ تريدين قشدة مع القهوة؟

وتنتظر وإبريق القشدة الفضي الصغير ساكن في يدها:

ـ ألا يستخدمون التقويم الإسلامي؟

يقول هو:

ـ يستخدمون الاثنين. وعندهم تقويم قبطي كذلك.

تقول إيزابل:

ـ أعرف أنهم يحتفلون برأس السنة الهجرية والميلادية.

تصب لنفسها قطرات من القشدة ثم تعيد الوعاء إلى ديبورا. يقول:

ـ نحب الاحتفالات.

ثم يبتسم لديبورا :

ـ شكرا لن أشرب قهوة. علينا أن نذهب بعد قليل.

تبادر إيزابل:

ـ ألا يمكنك أن تعطيني بعض الإرشادات؟ لقد زرت مصر من مدة طويلة، ولم أداوم الاتصال بأحد هناك.

ـ ستكتشفين أنهم يذكرونك.

ـ ها أنت تسخر منى مرة ثانية!

ـ أبدا يا عزيزتي، أنا متأكد أنك تركت انطباعا طيبا. ماذا كنت تفعلين؟

ـ درست هناك سنة بعد التخرج

تنضم لورا إليهما قائلة:

ـ ما أجمل هذه الشقق!

ـ أنيقة فعلًا وذوقها جميل

تقول إيزابل:

ـ جميلة فعلا، وتعجبني هذه الجدران الحمراء.

يقلبون النظر في الحجرة ذات السقف العالي والشرفات تدور حولها.

قال أخي لإيزابل:

ـ اتصلي بي. أتحبين أن تتصلي بي؟ سأفكر في عدد من الأشخاص يمكنك مقابلتهم. خذي رقمي.

يتحسس جيوبه:

ـ هل معك بطاقة أو ورقة أو أي شيء؟

تبحث في حقيبتها ثم تناوله نوتة صغيرة بيضاء. يخلع غطاء قلمه ويكتب بسرعة بحبر أسود:

ـ أيمكنك قراءة هذا الخط؟ متى تريدين أن نتحدث؟ هل عندك موعد محدد للتسليم؟

ـ نعم. وهو قريب جدا.

ـ حسنا، هاتفيني وسنتحدث.

يهم بالخروج ثم يلتفت ثانية:

ـ كيف تعودين إلى بيتك؟ هل نوصلك إلى أي مكان؟

ـ شكرا أسكن على الجانب الآخر من الحديقة، وقد رتبت تاكسيا.

تعكس السماء أنوار المدينة وتصبها في نوافذ شقتها ومن يدري كم شقة غيرها؟ تتخلص إيزابل من حذائها وتقف أمام النافذة، تنظر عبر رءوس الأشجار المكدسة في حديقة سنترال بارك الواسعة. لو أنها فتحت النافذة ومالت إلى الخارج لرأت فيما بعد الظلام أنوار فندق البلازا ومزيدا من الأنوار حتى الشارع الخامس حيث ينبعث الوهج من متجر تيفاني للمجوهرات. هل تري وهجا حقا أم أنه الخيال؟ تفكر في فتح النافذة وتضع يدها على المزلاج، لكنها ليلة باردة من ليالي فبراير. تعدل وتستدير إلى الحجرة وتضيء مصباحا واحدا. لقد مضى عامان على انفصالهما ومازالت مأسورة بشعور الحرية، بمتعة العودة إلى البيت فلا تجد إلا السكون، فلا شعور الارتياح إذا كان إرفنج قد استمتع بالأمسية ولا الاضطرار إلى تعويضه ومصالحته إن لم يعجبه الحفل. ما أجمل أن تخلو حياتها من النكد!

الوقت بعد منتصف الليل لكنها متيقظة ومليئة بالحيوية. تعبر الحجرة إلى مكتبها وتجرب جهاز الرد على التليفون. لا شيء. ولا شيء على الكمبيوتر أو الفاكس، تتجه إلى أحد الرفوف وتلتقط دليل المشاهير:

غمراوي، عمر. ابن أحمد الغمراوي ومريم الخالدي.
مواليد القدس، ١٥ سبتمبر ١٩٤٢، درس بجامعة كورنيل

بنيويورك و... تدرب على يد... المهنة: عازف بيانو، وقائد أوركسترا وكاتب.. بدايته مع الفيلهارمونيك نيويورك ١٩٦٠.. جولات فنية.. كتبه: «السياسة والثقافة» ١٩٩٢، «الإرهاب: حالة ودولة» ١٩٩٤، «الحدود واللجوء» ١٩٩٦..

سبعة وثلاثون عاما مع الموسيقى وخمسة أعوام مع الكتابة، وهذه الأعوام الخمسة هي التي أدت إلى شهرته. في حجرة نومها تدير إيزابل التليفزيون وتلتقط جيري سبرنجر يشير إلى محدثته ويصيح بها: «أنت تعمدت الحمل وأوقعته في المصيدة»، أمامه امرأة بدينة تسيل دموعها مختلطة بالكحل في قنوات على وجهها ترد صارخة: «عليه أن يدرك الواقع» ـ تُسكِت إيزابل الصوت وتدخل إلى الحمام وتفتح الصنبور.

شعرها مرفوع ومشبوك على قمة رأسها بمشبك أسود على شكل فراشة كبيرة، ومنشفة مبرومة خلف رقبتها والماء أخضر باهت يتموج بين تلال من رغوة الصابون، تعلق ساقيها على حافة البانيو وتدع ذراعيها تطفوان على الماء وتستقر في وضعها المفضل. يخطر لها مباشرة أنها تود لو استمعت لبعض الموسيقى لكنها تبعد الفكرة، فما أكثر ما وضعت أسطوانة على الجهاز ثم يضايقها الصوت فتضطر للخروج من الحمام والسير بأقدام مبتلة إليه لتسكته قبل أن يصيبها الصوت بالجنون، ولا يمكنها إسكاته عن بعد بسبب موقع الجهاز في حجرة نومها.

كلا ستستقر في السكون، وإذا احتاجت إلى ما يكسر الصمت، ستحرك جسمها وتكتفي بصوت الماء الناعم فهذا كل ما تحتاج إلى سماعه.

هل تهاتفه غدا أم أن هذا أسرع مما يجب؟

أصابع قدميها فرعونية، هكذا قال إرفنج عندما كان لا يزال يتحدث عن قدميها ـ أو عنها. أصابع قدم طويلة مستقيمة متساوية الطول، وكأنها لواحدة من تلك الصور الجانبية في نقوشهم ورسومهم الجدارية. إلا أن أصابعها بيضاء وأصابعهم سمراء. تفرد أصابع قدميها وتقطب وهي تركز بصرها على الأظافر النظيفة المقصوصة بالعرض مدهونة بطبقة واحدة من الطلاء في لون اللؤلؤ. الطلاء سليم لم يخدش بعد، يمكن أن تحتفظ به يومين أو ربما ثلاثة، ثم إن الوقت شتاء فمن يرى أصابع قدمها؟ تنزل ساقها وترتخي أكثر في الماء.

قدم فرعونية، تناسب اسمها. كان والدها هو الذي شرح لها معنى اسمها. (إيزابلا): إيزيس الجميلة قال لها يومًا ذلك الصيف في الغابة وراء البيت في كونتيكت: «سُمِّيت باسم أول إلهة، أم ديانا أرتميس وجميع الربّات، أم العالم».

كانت تسير إلى جانبه وفي يدها عصا طويلة تتفرع نهايتها إلى فرعين، مشغولة بمهمة نبوئية، تمد العصا إلى الأمام، وتترقب الرعشة التي تدلها على أنها وجدت الماء يجري هناك تحت الأرض المُعْشِبَة. ثم بزغت في ذهنها نغمة تتغني بها وهي على الأرجوحة، وأبوها يدفعها، وهي تعلو وتعلو بعد كل دفعة: إيزا ـ بلا، إيزا ـ بلا. تحرك إيزابل يدها في الماء بإيقاع منتظم وهي تنزلق في ذكريات عن أبيها: يدها الصغيرة آمنة في قبضته الكبيرة الدافئة، وأقدامهما تثير الرذاذ وهما يسيران في الماء على حافة الشاطئ في مين، وأمها على مسافة قريبة منهما، قلقة تكاد تمسك أنفاسها خشية

أن تسترخي لحظة فيخطف الموت هذه الطفلة كما خطف طفلها الأول، فياسمين شيرول كابوت لم تتوقف يومًا عن الحزن على ابنها، تتمسك بذكري ميلاده في كل عام، باسطواناته الموسيقية، بصوره. شبت إيزابل محاطة بصور أخ يكبرها بستة عشر عامًا وهو دومًا في الرابعة عشرة من عمره يستدير للحظة من النظر إلى السمكة التي اصطادها، إلى الكرة الطائرة إليه، إلى سفح الجبل المغطي بالثلوج أمامه، يستدير لينظر لحظة في عدسة الكاميرا. أخ غائب.

هل تهاتفه غدًا؟

تنزلق في البانيو برأسها وشعرها ومشبك الفراشة، تنزلق حتى تغطي المياه وجهها وتشعر بلسعتها تتخلل شعرها إلى فروة الرأس.

(٣)

مهما حدث، لنا التميز والفخار
فنحن نملك رشاش مكسيم
أين لهم مثلها عند فتح النار؟

هيلير بيلوك (١٨٩٨)

القاهرة، مايو ١٩٩٧

تلك المفكرة بنية اللون تملك عليَّ تفكيري هي وصاحبتها. آنا ونتربورن أصبحت شخصية حقيقية في مخيلتي مثلها مثل دوروثيا بروك في ميدلمارش. عليّ أن أملأ الفراغات، أتعرف على الناس الذين تتحدث عنهم، أرسم خلفية لحياتها التي تعيشها هنا أمامي على صفحات المفكرة. أقصد إلى دار الكتب وإلي مكتبة المجلس البريطاني، إلى محلات الكتب القديمة رغم أنها انتقلت من سور الأزبكية إلى الدرّاسة ولم يعد للبحث بين الكتب فيها متعته الماضية، أكتب إلى ابني في لندن أطلب منه قصاصات من أعداد قديمة لجريدة التايمز، وأجمع أجزاء قصة متناثرة.

لندن، أكتوبر ١٨٩٨ إلى مارس ١٨٩٩

كان الضوء في الصور فريدا لم تشهد آنا مثله من قبل، يجتذبها فتعود لتتأمله يوما بعد يوم، ويوما بعد يوم تراه منثورا على السجاد النفيس، على الأرضيات من بلاط أو رخام، على حصر من القش. يتسرب خلال زخارف الخشب في المشربيات ليرسم أشكالا على جدران من الفسيفساء وأبواب مطعمة بالصدف وقطع من النسيج مبسوطة طبقة فوق طبقة، فيضيء زهورا ووجوها، وأيد ممدودة

أو مطوية. تنظر آنا إلى يديها مطويتين في حجرها، وخاتم الزواج الذهبي له بريق منطفئ على جلدها الشاحب، ترخي قبضة يديها، تفرد أصابعها وتعيد وضع اليدين مفتوحتين، برفق، على ركبتيها.

تبدل. ليست هذه طبيعته. سمعت هذه العبارة من قبل، والآن كتب عليّ أن أقولها، إدوارد زوجي، تبدل.

سبعة أشهر وأنا أتتبع مع سير تشارلز أخبار الأحداث في السودان، سبعة أشهر وأنا أدعو له أن يعود سالما، والآن عاد، لكنني لا أكاد أعرفه، هزل جسمه، ومع أن وجهه متورد لفحته شمس الجنوب إلا أنه يبدو وكأن الشحوب كامن تحت بشرته.

فحصه مستر وينثروب ورأي أنه التقط عدوي من تلك البلاد الحارة، وسيتعافي؛ فدواؤه السكينة والطعام المغذي والرياضة فيما بعد. وبناء على إصراره (أعني مستر وينثروب) أخرج للتمشية في الهواء الطلق يوميا، فأصبحت عادتي أن أسير إلى متحف ساوث كنزنجتون. وجدته مكانا بديعا يُنعم عليّ بالهدوء، ووجدتني فيه أمام مجموعة من اللوحات من رسم مستر فريدريك لويس تشع بالجمال، فأشعر أمامها وكأن يدًا حنونة تصل إلى أعماق روحي فتهدهدها.

على ديوان منخفض ترقد امرأة مستغرقة في النوم. جسمها غارق في تل من الوسائد الحريرية، وستارة كبيرة مدلاة خلفها، موجات من حرير يبرق بالاخضرار، تُميز من خلال ثنياته المتكسرة

ظلال المشربية، وخلفها الضوء. مثلث من نور الشمس ينفذ من النافذة المفتوحة فوق رأسها، فيضيء وجه المرأة النائمة، ورقبتها، وقميصها الأبيض، تكشف عنه أزرار صدريتها المفتوحة، وعلي رقبتها يلمع حجاب صغير من الذهب. تنظر آنا في ساعتها: مازال لديها عشر دقائق.

اليوم التقيت بسير وليام هاركورت في الردهة، كان إدوارد وسير تشارلز يودعانه عند الباب، وشد سير تشارلز على يده مرارًا وقال بصوت قوي غاضب: إنه ليوم أسيف في تاريخ إنجلترا أن يستقيل رجل مثله من القيادة لتحول الحزب إلى الإمبريالية المتعصبة، وعبر عن استيائه من روزبري وتشامبرلين قائلا: إنهما من دعاة الحرب، وقال سير وليام إنها روح العصر وأنه كبر ولم تعد سنه تمكنه من الوقوف ضدهم. زاد اضطراب إدوارد واعتكف في حجرته ورفض أن يسمح لي بالجلوس معه أو حتى أن أحضر له الشاي.

مرت ٨ أسابيع منذ عودة إدوارد من السودان، وكنت أظن أن ذلك وقت كاف ليستعيد صحته، لكنني أخشي اليوم أن الأمر ليس ما أصاب بدنه بل أسوأ، إنه مرض في الروح، فهو يصمت عن الحديث معي فيما يشغله، ويرد عليَّ بالكاد إذا خاطبته في الأمور العادية، يجلس ساعات طويلة في حجرة المكتبة مشتتا ضعيفا، ينتفض إذا دخل أحد عليه فجأة، ولذا عودت نفسي أن أصدر جلبة خفيفة قبل الدخول إلى أي حجرة، وأتعثر في إدارة مقبض الباب، إنه لا يطيق حتى خشخشة فنجان الشاي في الطبق...

درجت آنا بعد ذلك على وضع فوطة مطوية من الموسلين الرقيق في الطبق تحت الفنجان، تعرف أنه لن يشرب الشاي، لكنه يتقبل الفنجان الذي تقدمه له، ويتحمل على مضض جلوسها معه، أو يتحمل جلوسها في نفس الحجرة فلا يمكن القول إنها حقا معه، فهي ـ مثلا ـ عاجزة عن التكهن بما يدور في ذهنه من أفكار في تلك اللحظة، عدا أنها ليست أفكارا سعيدة أو حتى مريحة. يجلس منتصبا في المقعد الكبير في روب منزلي من الصوف الرمادي، وحزام الروب معقود عقدة محكمة على خصره، شعره مرجل إلى الخلف، شاربه يخفي شفته العليا، يركز بصره على شيء ما في الحجرة خلف كتفها اليسرى، ثم تتحرك عيناه إلى النافذة مسدَلة الستائر ثم إلى الأرض، لا تلتقيان قط بعينيها. من وقت لآخر تتحرك عضلة في فكه الحليق. إنه ينتظر، ينتظر أن تنتهي جلسة شرب الشاي الرسمية هذه حتى تتركه وتغادر الحجرة. تقول له:

ـ إدوارد، كنت أتحدث مع مستر ونتروب ووافقني أن تغيير الجو قد يفيدك.

ـ لا أعتقد.

ـ إدوارد يا حبيبي، يمكن أن نزور الضيعة في هورشام لبضعة أيام، تركب جوادك وتخرج في الهواء الطلق.

ـ كلا يا آنا، لن أذهب إلى أي مكان.

ما زال يشيح ببصره عنها، لكن قبضته تشتد على ذراع المقعد. صوته لا يرتفع لكنه يخرج في نبرة أحدّ:

ـ أرجوكِ، لن أذهب إلى أي مكان، إذا كنتِ تريدين الذهاب...

ـ لا أريد شيئا لنفسي، إنما فكرت...

ـ أرجو ألا نتحدث في هذا الموضوع، ليس لدي الرغبة ولا القدرة.

ـ أرجوك يا حبيبي، لا تنفعل...

تضع آنا فنجانها وتقوم لتنحني إلى جانب زوجها، تضع يدها على يده محاولة أن تدخل أصابعها بين كفه ومسند المقعد لتلين قبضته، وإذ تفشل تدع يدها ببساطة ترقد على يده.

ـ لا تنفعل يا حبيبي، لن نفعل شيئا ضد رغبتك، أنالا أريد إلا مساعدتك، أن أساعدك لتعود إلى سابق عهدك، أتوسل إليك يا حبيبي أن تخبرني بما أستطيع أن أفعله من أجلك...

لا تسمع آنا ردًّا. تضع شفتيها ثم خدها على جبهته فتشعر بها ساخنة منداة بالعرق. يربت إدوارد ونتربورن على يد زوجته الساكنة فوق يده. ثم يسحب يده:

ـ لا داعي لكل هذا القلق، كل ما أحتاجه هو الراحة.

تقف آنا إلى جواره. تعرف أنه لن يرحب بعودتها إلى الجلوس في مقعدها، لكن الأمر ليس مجرد هواجس امـرأة، فالجميع يشعرون بالقلق: الخدم يقومون بعملهم في المنزل ولا تسمع لهم خطوا، العواد يمرون بالبيت ويتركون بطاقات الزيارة، وترد عليهم برسائل مقتضبة مهذبة تفيد أن إدوارد متوعك، وبمجرد أن يشعر بتحسن.. إلخ والده قلق لدرجة الغضب. بالأمس بعد الظهر دخلت عليه حجرة المكتبة وكان يتحدث مع كبير الخدم، وعندما سمع خطوها عند الباب أسرع إليها وأخذ يديها في يده:

ـ آنا، لقد طلبت من وِلْسُن أن يفرغ كل الطلقات من البنادق، من باب الاحتياط. لا معنى لترك كل هذا الرصاص في متناول اليد، ما رأيك؟

أَمَّنَت على كلامه:

ـ طبعا يا سير تشارلز، لا ضرورة له بالمرة.

وعندما غادر وِلْسُن الحجرة وأغلق الباب خلفه سمحت للخوف أن يظهر في صوتها وعينيها:

ـ هل تظن حقا أنه يمكن...

ـ لا، لا، بالطبع لا، بالطبع لا..

كان قد ابتعد عنها بضع خطوات، فمشي منتصبا بقامته العسكرية حتى آخر منضدة المكتبة:

ـ أرجو ألا يضايقك هذا؛ مشيرا إلى حذائه العسكري الثقيل: لقد حضرت فجأة كما ترين.

هزت آنا رأسها تطمئنه. في منتصف المسافة وهو يخطو عائدا، توقف وضرب بقبضته ظهر مقعد أمامه:

ـ يا لله، اعذريني يا عزيزتي، بودي لو ألهب ظهره بالسوط. إذا لم يكن قادرا على تحمل هذه الأمور ما الذي دفعه للذهاب؟ هو الذي طلب وأصر على الخدمة في الجيش.

ـ كان يعتقد أنه يؤدي واجبا ـ وأضافت لنفسها ـ وكان يبحث عن الفعل، عن مغامرة وهدف ورسالة.

ـ قلت له، نصحته. قلت له هذه ليست حربا شريفة، هذه حرب من صنع خيال الساسة، حرب لإرضاء تلك الأرملة الغارقة في إمبراطوريتها، إمبراطورية الرعاع، آه ما الفائدة؟

توقف وجاءت آنا لتقف إلى جانبه. أراهما يقفان جنبا لجنب يحدقان خارج النافذة إلى الأشجار يلفها الظلام في الميدان الهادئ. التفت إليها:

ـ يجب أن تخرجي يا عزيزتي، هذه حياة لا تلائم شابة مثلك.

ـ إني أداوم الخروج فعلا يا سير تشارلز، أخرج يوميا لمدة ساعة. مستر ونثروب أمر بذلك وقال يجب أن أمشي في الهواء الطلق. أخرج من البيت كل يوم في الساعة الثالثة ولا أعود قبل الرابعة. إدوارد يرتاح في تلك الفترة...

ـ لكن وجهك الصغير أصبح شاحبا ذابلا يا آنا يا بنيتي...

وضع يده تحت ذقنها لينظر في وجهها وشعرت بلمسته الرقيقة فتدفقت الدموع من عينيها، كما تتدفق الآن.

ـ إدوارد يا حبيبي هل تريد أي شيء؟ أي شيء أحضره لك أو أفعله من أجلك؟

أحتاج أن أرتاح الآن، قليلا.

يا للعار يا للعار يا آنا، تبكين على نفسك؟ الآن؟ في الوقت الذي يحتاج هو فيه إلى كل تفكيرك؟ إلى كل مشاعرك؟ هو يحتاج إلى الراحة، ولا يجدها. كم تختلف هذه العودة عن عودة أبيه حين كنت طفلة في العاشرة، فقدت أمها حديثا،

ترقد على ركن من السجادة في غرفة التدخين، تدرس خارطة مصر التي أعطاها لها سير تشارلز، وتستمع إليه يحكي كيف هزموا عرابي وسيطروا على التل الكبير. وسمعته يتحدث عن البطولة، والخيانة، والسياسة، والسندات، واستشعَرْتِ غضبه من المهمة التي أجبر عليها.

لكن إدوارد لا يحكي وأنا أشعر بالخوف. لم أجرؤ على بلورة الفكرة في كلمات لكني أخشي أننا في قبضة قوة شريرة؛ زوجي في قبضة قوة شريرة، قوة لا تسمح له بأن يتغلب على هذا المرض ويعود إلى نفسه.

تخبرني كارولين بورك أن سير وليام بَتْلر حين التقى الجنرال كِتْشنَر فور وصوله إلى دوفر قال له إن لم تنزل اللعنة على الإمبراطورية البريطانية بسبب ما فَعَلْتَ، فليس هناك حق في ديننا. وحملق فيه كِتْشِنَر ولم يجب.

سألت كارولين ماذا كان يعني سير وليام؟ ما الذي فعلوه سوى استرداد السودان وإعادة الاستقرار؟ أجابت بأنها لا تعلم، وكان في نظرتها ما ملأني بالتشاؤم. أريد أن أسأل زوجي عن معنى كل هذا، فإحساسي يقول لي إن هنا مفتاحًا لما يمرضه؛ لكنني أخاف. هو الآن لا يطعم سوى أبسط الحساء وكسرات الخبز الجاف.

تقوم آنا وتمشي ببطء حول قاعة المتحف، إلى أن تتوقف أمام رجل عجوز، الذقن بيضاء والعمامة ناصعة وخلفه جدار من الطوب ذهبي اللون معلقة عليه أوراق مخطوطة، وعلي الأرض

عند قدميه، يجلس الأطفال بملابسهم الحمراء والزرقاء الزاهية يتلقون دروسهم. يرقد قط تخططه الشمس على وسادة خضراء يرقب زوجا من اليمام يلقط الحب من حصيرة منثورة بالضوء. وفي الباب الموارب يقف أصغر الأطفال مترددا.

في الطريق تسرع آنا من خطاها. الساعة أصبحت الرابعة والظلام يهبط سريعا.

إنني أخذله. أخذله دوما وتكرارا. لو وجدت مفتاحًا لعقله لكنست منه كل المخاوف الرابضة في الأركان المظلمة. وشفيته.

فأنا أعلم أن هناك مخاوف مفزعة، وأنها ترتبط بالمهمة التي كان فيها، والتي انتهت في الأسبوع الماضي بتوقيع اتفاقية السودان، وهي اتفاقية أثارت حنق سير تشارلز وأصدقائه فكتبوا خطابًا إلى جريدة «التايمز»...

سيدي:

«ماذا نقول في الحياة الخاصة إذا وجدنا وصيًّا وُلِّي على أملاك قاصر فسمح لتلك الأملاك أن تتدهور ثم استولي عليها باعتبارها فاقدة القيمة؟ في عام ١٨٨٤ أجبرنا الحكومة المصرية على التخلي عن السودان وإهماله، والآن نستولي عليه وكأنه لا يخص أحدًا. ويا له من حكم على عصرنا هذا أننا نقوم بهذا الفعل والدنيا كلها ـ الأخلاقية والدينية ـ تظهر لنا الرضا.

ويبدو أيضا ـ حسب الاتفاقية التي وقع عليها لورد كرومر

وبطرس باشا ـ أننا نحمل مصر كل تكلفة التمويل والعمالة لحرب إعادة الغزو التي لم تكتمل بعد، ونضع مسئولية الأموال المطلوبة للسودان عبئًا على ميزانيتها.

إن هذا الاختراع ـ الإمبراطورية البريطانية ـ سوف يدمر مكانتنا واحترامنا كأمة شريفة..».

يخبرني سير تشارلز أن چورچ ويندام قال له صراحة إن هناك اتفاقًا بين القوى العظمى أن الهدف من العمليات الإفريقية هو إدخال المدنية إلى إفريقيا لصالح أوروبا، وأن كل الوسائل التي تخدم هذا الهدف تعتبر مباحة.

وأنا لا أعتقد أن چورچ قصد أن يقول (كل) الوسائل مباحة؛ لكنه وكيل وزارة الحربية والمتوقع منه أن يكون أمْيَل إلى المبادئ العسكرية عن سير تشارلز.

أفكر أن أطلب من سير تشارلز أن يحدث إدوارد حول موضوع السودان ويحاول أن يسبر ـ لكني أخاف أن سير تشارلز ينقصه الصبر المطلوب لهذه العملية. لو عاش أبي لكان أفضل من يقوم بالمهمة، فقد كانت الرقة في طبعه.

* * *

يارب، ويا سيدي المسيح، أصلي دومًا أن تَحفظ عقل زوجي وروحه، فقد صار ضعيفا ولا يريد ولا يقدر أن يغادر غرفته.

* * *

جاءت كارولين لزيارتي وأخبرتني أنهم يقولون إن رجال كتشنر مثلوا بجثة المهدي وهو الذي يقول عنه أهل البلاد إنه من رجال الرب، وكيف أن بيلي جوردون قطع رأسه كي يستعملها الجنرال محبرة. لا يمكن أن يكون هذا صحيحا، فإن صح... آه كم أخاف على إدوارد الآن.

* * *

يخبرني سير تشارلز أن بيلي جوردون يؤكد قصة قطع الرأس، لكنه غاضب من أن تعزي هذه الفعلة إليه، لكنه أيضًا لن يصرح باسم من فعلها، لم يكن سير تشارلز يرغب في الحديث عن هذا الأمر، لكنه، حين أدرك قدر ما أعلمه عرف أن لا فائدة من المواراة، وأنه من الرفق بي أن يسمح لي بالحديث معه فليس هناك من أحدثه في هذا الموضوع غيره.

آه كم أتمني اليوم ـ أكثر من أي وقت مضى ـ لو أن أمي الحبيبة كانت حية، كانت سترشدني إلى طريق بسيط أنثوي أنفذ به إلى زوجي المسكين حبيس النفس. ليس لي صديقة أسر لها بهمومي سوى كارولين بورك، وأخشي أنها أكثر اهتماما بما تظنه مصلحتي من أن تدلني على خير طريق لمساعدة زوجي.

* * *

إدوارد الآن يتقيأ كل ما يدخل جوفه. لا تطيق معدته حتى

فنجانا من الحساء الخفيف، ويخيل إلَيَّ أنه يحاول أن يطهر نفسه من أشياء لا أفهمها. أتوسل إليه أن يتشجع؛ فالرب بكل تأكيد يرعاه ويحرسه كما يرعانا جميعا، وهو إذ يحاسبنا على ما نفعل، لا بد أن يحكم مقدرا ما في القلوب والعقول والنوايا؛ وإلا كيف يمكن التمييز بين فعل وآخر؟ والرب يغفر ذنوبنا، لكن إدوارد يشيح بوجهه بعيدا.

ومن أبحاثي عرفت أن شقيقة الجنرال جوردون أعلنت تحفظها على حملة السودان على طول الخط، وأعلَنَت أنه إذا كان هدف الحملة الثأر لأخيها فهي لا ترغب في الثأر له، وأنها متأكدة أنه هو نفسه ما كان ليرغب في ذلك، تقول إنها تعلم أن المهدي لم يكن يريد أبدا أن يُقْتَل الجنرال جوردون، بل كان يريده حيا حتى يقايض به لإطلاق سراح عرابي باشا، زعيم ثورة ١٨٨٢ المنفي.

تقول وتكرر لكل من يسمع لها إن أخاها كان من أول المتبرعين عندما فتح مستر بلانت باب التبرع لدفع نفقات الدفاع عن عرابي أثناء محاكمته، وأن جوردون تقدم قائلا: «هاك النقود، وأراهن أن عرابي نفسه سيردها بعد بضع سنوات.»

* * *

الأمر يزداد سوءا يوما بعد يوم، وتزداد وطأة المرض على إدوارد، فلا أجد رغبة في مغادرة البيت وأكتفي بالتمشية في الحديقة عندما يغلبه النوم. كل ما في الحديقة يبدو قاتما عاريا، ميتا، وكأنه من المستحيل أن مايو سيأتي قريبا وستورق الأشجار وتعم الخضرة المكان. إلا أنني اليوم

لمحت ما بدا كأنه تباشير البهجة: بوادر من زهرات قطرة الثلج، خمس زهرات مثل كل عام، وَفِيّة لموقعها المعتاد أسفل شجرة البرقوق العتيقة. وملأ قلبي أمل شاحب.

يا مريم العذراء، يا أم المسيح، إني أصلي من أجل روح زوجي كما أصلي من أجل أرواح كل الرجال الذين شاركوا في تلك الواقعة الرهيبة...

أخبارها تملأ صفحات وصفحات: جيش من ٧ آلاف جندي بريطاني و ٢٠ ألف جندي مصري يخسرون ٤٨ جنديا، ويقتلون ١١ ألفًا من الدراويش، ويجرحون ١٦ ألفًا في ٦ ساعات. ونستون تشرشل يعد بنشر كتاب يروي فيه كيف أمر الجنرال كتشنر بقتل جميع الجرحي، وأنه رأي بعينيه جنود الكتيبة ٢١ لانسرز (الرمّاحين) يطعنون الجرحي المنتشرين في أماكن سقوطهم، ويتكئون بكل ثقلهم على السلاح لينفذ خلال ملابس الرجال وهم في النزع الأخير، وأن كتشنر أطلق العنان للجنود، بريطانيين ومصريين، فعاثوا في المدينة لمدة ٣ أيام من النهب والاغتصاب.

قال الچرنون بورك قريب ليدي كارولين لسير تشارلز: «كانت لائحة جزار حقا تلك التي صدرت في ذلك اليوم»، وقد قطعت الاتصالات مع لندن بحجة واهية حتى لا تصل الجنرال أي أوامر أن يخفف من غلوائه.

آه كم أخشي على زوجي الآن، فإذا كانت تلك الأخبار صحيحة وأنه شهد تلك الوقائع الرهيبة وهو رجل يضع الشرف فوق كل اعتبار، وكان يظن أن الخروج في تلك

الحملة عمل من أعمال الشرف والرفعة، لا أظنه يستطيع أن يلقي بما حدث وراء ظهره، خاصة وهو عليل البدن وتحت رحمة الحمي التي تلهب جسده لساعات طويلة، ثم تتركه منهوكا لا يقدر حتى على ارتشاف جرعة ماء نقربها من شفتيه.

توفي إدوارد ونتربورن في العشرين من مارس ١٨٩٩. كان قد وقف على السهل في أم درمان، وهناك تملكت رأسه الفكرة التي كانت تحوم حوله في عطبرة، وفي سواكن، وفي الخرطوم. وتجاهلها لأسابيع. انتصبت قائمة من تراب الميدان، ميدان المعركة، وضربته في وجهه بوضوح ونور يعمي البصر، وبمجرد أن كشفت عن نفسها ودخلت عقله تحول الأعداء، الدراويش المتعصبين، إلى رجال من بني الإنسان، مساكين، بخيامهم الرثة وأتباعهم في الأسمال، نساء وأطفالاً وماعز، وسيماء شهور من الجوع على أجسادهم، وحرابهم الأسيفة والبنادق القديمة في أيديهم، وأعلامهم المهلهلة تخفق فوق رءوسهم، رجال تدفعهم فكرة عن الحرية والعدل في وطنهم. لكنهم لا يتوقفون، يزرعون رايتهم ويندفعون إلى الأمام بحرابهم. فات الأوان ولا وقت الآن للتفكير، لا وقت لفعل أي شيء إلا الثبات في الموقع وإطلاق النار.

قلت لسير تشارلز إنني أؤمن أن إدوارد كان في قرارة نفسه شريفا ومحبا للعدل حتى النهاية. وإنني أتصور أنه ـ في النهاية ـ كان أقرب إلى مواقف ومعتقدات أبيه وإن لم يستطع أن يصرح له. أملي أن يجد سير تشارلز في هذا ـ بمرور الوقت ـ العزاء والسلوي.

(٤)

حزنت وسوف أحزن كلما عاد الربيع

والت ويتمان

وأين تجد آنا عزاء أو سلوي؟ كانت هناك الجنازة. ثم التأبين والقداس التذكاري. ثم الإجراءات العملية: إعلام الوراثة، ولقاء المحامين والتوقيع على الأوراق. كل هذا مسجل بأسلوب مسطح خالٍ من العاطفة وكأنما تسجل آنا كل التفاصيل بدقة مع إدراج الأسماء والتواريخ لتؤدي واجبها أو ما تبقي لها من واجبها نحو زوجها وزيجتها.

وكان هناك الحزن والتساؤل والحسرة. أقرأ مذكرات تلك الشهور في المفكرة البنية: تقارير قصيرة حول حقائق واقعة، شذرات، صرخات ألم:

لو أنه مات راضيًا..... لو أنه مات في سلام....

لم تُرْزَقْ أطفالًا تطيب خاطرهم وتسري عنهم، لم يخلف زوجها مذكرات أو رسائل تفحصها وتفرزها وهي تذرف الدموع، ما من حكاية تُحْكَي فتبعث الثقة والأمل، ليس لديها طقوس للحداد. في سنوات تزيد على العشرين عشتُها في إنجلترا لم أكتشف كيف يمارس الإنجليز الحداد على موتاهم، فهم على ما بدا لي يقيمون جنازة ثم.. لا شيء، مجرد فراغ، لا أصدقاء أو أقرباء يملئون البيت ولا ليالي خميس ولا يوم أربعين. لا شيء.

البيت صامت أصلا منذ طال غياب زوجها ثم مرضه. أرى آنا بعين الخيال تجول في الغُرُفَات. أراها تجلس في حجرة المكتبة، فنجان شايها لم يمس، وعلي ركبتها كتاب لم يفتح.

لو أنه مات راضيا....

ثم كان هناك حزن سير تشارلز ولوعته.

يأتي سير تشارلز لزيارتي كل يوم تقريبا، نجلس معا، وفي الغالب يخيم علينا الصمت....

يحضر بعض الأصدقاء لزيارتها، وصيفتها إميلي تؤنبها وتدفعها إلى الخروج على الأقل إلى الحديقة.

جلست ساعة في الحديقة اليوم. لم أتمكن حتى من إقناعه بالخروج في الهواء، لو كنت أحسنت فهمه، لو استطعت أن أجعله يتحدث معي....

ويوما بعد يوم تعيد إلى خيالها صورته في مرضه: يجلس في حجرة المكتبة، يجلس في حجرته، يرقد في فراشه. وجهه شاحب ممصوص، وعيناه تشيحان عنها، كلماتها لا تصيب لديه قبولا، ولمساتها لا تلقي استجابة بالمرة.

لو أنني نجحت في جعله يصارحني بما يعاني.....

لا تستطيع آنا أن تحدث أحدا بما يثقل خاطرها من أفكار، في أيام حزنها الأولى سألت سير تشارلز: «ماذا كان عليَّ أن أفعل؟» وكان رده: «لا شيء! فعلت كل ما في وسعك يا عزيزتي» ولم يعودا إلى هذا الموضوع، فهي حريصة ألا تثير أحزان سير تشارلز. هناك

حزن سير تشارلز ولوعته وغضبه، وهي تحمد الله على غضبه الذي يبقى ظهره مستقيما وخطوته ثابتة.

يأتي سير تشارلز لزيارتي كل يوم تقريبًا. نجلس معًا، وفي الغالب يخيم علينا الصمت إلا إذا بدأ حديثا غاضبًا عن الإمبراطورية؛ أو بالأصح عن الروح الإمبريالية، فهو غاضب على أفعال كتشنر في جنوب إفريقيا، وملك بلچيكا في الكونغو، والأمريكيين في الفلبين، ودول أوروبا كلها في الصين. وحين أستمع إليه لا أجد مفرًا من الاقتناع بأننا نعيش في عصر فظيع الوحشية، وحتي هو لا يستطيع أن يقاوم بأي شكل سوى كتابة الخطابات إلى التايمز والانتظار إلى أن يدور التاريخ دورته. وخلف هذا الغضب، أستشعره يفكر مرة بعد مرة: من أجل هذا فقدت ابني.

وفي ليلة من الليالي الأولى من شهر يونيو أخبرها سير تشارلز أن آرثر بلفور قد أقنع مجلس اللوردات بمكافأة كتشنر على نجاح حملته، وأنهم صوتوا مؤيدين لمنحه ٣٠ ألف جنيه إسترليني ولقب (لورد)، إلا أن أقرانه من النبلاء غادروا قاعة الجلسة بدون أن يوجهوا له كلمة واحدة: «الأمر صعب يا عزيزتي، صعب» أسمعه في خيالي يعتذر إذ يشعر أنه أطال الحديث وخرج عن لياقة الاعتدال، أراه يضع يده الكبيرة الخشنة لحظة على يد آنا النحيلة الشاحبة. علامة الحزن الوحيدة التي يسمح هذا المحارب الإنجليزي القديم لنفسه بكشفها، ثم هناك جزعه على هذه الشابة الغارقة في حزنها، هذه الابنة التي تركت في رعايته.

تمشيت اليوم - كما كنت أتمشي كل يوم أثناء مرضه - إلى متحف ساوث كنزنجتون. لكني وجدت - حين وصلت - أنني لا أستطيع أن أنظر إلى صور مستر لويس التي أحببتها كل ذلك الحب.

أرقب ما يحدث لها وأنصت، عاجزة عن المساعدة، لا فائدة من القول «هذا الألم أيضا سينتهي»، فنحن حتى لا نريد للألم نهاية. نتمسك بالحزن إلى حين، خشية أن يمثل رفعه عنا قمة الخيانة.

لا بد أنها ارتدت السواد وإن لم تذكر شيئا عن خياطين أو مقاسات أو بروفات. وفي يناير عام ١٩٠٠ أقنعوها أن تصحب ليدي كارولين بورك في السفر إلى روما.

روما في ١٣ يناير

نظرت كارولين - معترضة - إلى ملابس الحداد التي أرتديها، واقترحت أن نضيف إليها شيئًا من البهجة ببعض المجوهرات أو الورود. فذكرتها برفق أنه لم تمر بعد سنة على وفاة إدوارد، فوافقت على مضض أن أحافظ على الحداد.

عرضت عليها أن أبقي بالفندق لكنها رفضت واستسلمت لظهوري إلى جانبها في هيئتي الحزينة. وقد كنت صادقة في عرضي؛ إذ إن الأضواء والضوضاء تجعلني أشعر، ليس بالضبط بالمزيد من الحزن، ولكن بنوع من الانفصال والتباعد. أما فكرة تخفيف الحداد، ولو بشكل بسيط، فقد أصابتني للحظة بشيء من الجزع.

جزعت من أن تخذله في مماته كما خذلته في حياته، إذ لا يخامرها شك أنها خذلته فعلا، فالرجل السعيد لا يغادر موطنه جريًا وراء الموت في الصحراء، الرجل الذي يعيش في ظل وارف من الحب لا يموت والرعب ينهش عقله في صمت. لو أنها ملكت حبه، لو عرفت كيف تحبه لما احتاج للذهاب إلى السودان، ولو أحسنت فهمه لاستطاعت أن تنتشله من المرض، أن تجعله يتعافي.

لو كان بإمكاني أن أصدق أن موته كان لغاية نبيلة.

لو كان بإمكاني أن أعتقد أنه مات مطمئنًا.

هناك الكرم من جانب الأصدقاء، والبيت الساكت، والفراغ. وغيابه، غياب من طال غيابه في الماضي، لكنه غياب مختلف، غياب نهائي. انتهي زمن المحاولة، محاولة أن تقترب، أن تأمل في حدوث شيء ما، أن تأمل في حياة جديدة تبعث الروح في عالمها، التساؤلات التي تتعب فكرها لا طائل وراءها، والإجابات التي يتوق لها قلبها بعدت منالا إلى الأبد.

وجاءتني فكرة صدمتني: إنني في حزني هذا لا أحزن لنفسي. لم أجدني مرة واحدة أفكر: ماذا أفعل بدونه؟

تهتف إيزابل: «لكنها كانت بدونه منذ البداية!» تجلس على البساط البدوي الأحمر في حجرة المعيشة في بيتي، وأوراق جدتها منثورة حولها، والمفكرة البنية في يدها. يشع ضوء المصباح خافتا على الورق القديم ويبرز اللمعان في شعرها الذهبي: «كانت بدونه حتى وهو معها في البيت وليس فقط عندما ذهب إلى السودان».

لو عرفت كيف أحبه بشكل أفضل. لو كانت حاجتي إليه أكبر، ربما كنت وجدت المفتاح، حين كان مريضًا، حين كان يائسًا.

قالت إيزابل: «وَقَعَت في الفخ، نحن النساء مدربات منذ نشأتنا على لوم أنفسنا، هذا رجل ثبت عجزه، وبطريقة ما ينتهي الأمر بأن تتحمل هي، المرأة، المسئولية».

بعد فترة وَضَعْتُ مزيدا من قطع الثلج في أكوابنا من ماء بيرييه بركة. هواء الليل منعش لطيف في شرفتي، والظلام يخفي الأنقاض والقمامة على أسطح المنازل المجاورة. أرشف ماء بركة من كأسي وأقول لإيزابل: «في الماضي كانت الحدائق الصغيرة تغطي الأسطح في القاهرة، ترين على السطح كرمة وتكعيبة وبرجولا وأصص الياسمين الهندي، وعلي الأرض قطعًا من البساط والحصير ووسائد، بعد الغروب يجلس الناس على الأسطح، الفتيات والفتيان يتبادلون النظرات عبر الأسطح، والأطفال يلعبون في طراوة المساء...» وأثناء النهار ينشر الغسيل على الحبال، وعندما ينزلون الملايات والفوط بعد جفافها وتوضع مطوية في السلة الكبيرة كنت أدفن وجهي في الغسيل النظيف فأستنشق عبير الشمس...

ـ ما أجملها ذكري!

نعم، نعم كانت أيام. الشباب اليوم يجلسون على السيارات المركونة في الشارع، يثرثرون، يرقبون، ينتظرون شيئا يحدث. تتناهي إلينا أنغام عليها مسحة إسبانية: آخر أغنيات عمرو دياب

تصعد إلينا من الدكان الذي مازال مفتوحا أسفل البيت. كان أطفالي يشترون منه البُمْب في إجازة الصيف، يجربون الحديث بالعربية، يصعدون السلم جريا ليلقوا بالبُمْب من الشرفة إلى الشارع.

حبيبي، يا نور العين   يا ساكن خيالي
عاشق بقالي سنين   ولا غيرك في بالي
حبيبي، حبيبي   حبيبي، يا نور العين....

أسمع إيزابل تقول: «أظن أن أمي ستموت قريبا..».

أنظر إليها وأحتاج برهة لأعيد نفسي وفكري إلى الحاضر، فياسمين والدة إيزابل في الحيز الصغير الذي تحتله من تفكيري طفلة حديثة الولادة، كان أبي قد قص علي حكايتها: نور ابنة آنا وشريف وضعت في باريس طفلة سمتها ياسمين، والآن تقول إيزابل إن الطفلة تحتضر.

ـ عندها مرض «الزهايمر». اضطررنا إلى إدخالها مصحة للمسنين. أقمت معها لفترة بعد وفاة والدي، ثم استفحل مرضها.

سألتها بقلق:

ـ لكنك تذهبين لزيارتها؟

ـ طبعا! أذهب، لكنها أغلب الوقت لا تعرفني.

ـ لا بد أنك تتألمين.

ـ لا تعرف حتى نفسها، في الغالب.

ـ لا بد أنها... يا إلهي، لا أستطيع حتى أن أتخيل ألا يعرف المرء نفسه...

ـ أظن... أحيانا يخيل لي أن هذا ما تريده.

ـ ماذا؟ أن تتخلص من ذاتها؟

ـ كانت دائما مهمومة، أو حزينة، راقبتها مرة وهي لا تعرف أنني في الحجرة، كانت جالسة في حجرة المعيشة وكان وجهها.. كانت تبدو حزينة جدا...

ـ لماذا لم تذهبي إليها وتحتضنيها، ألم يكن في مقدورك إسعادها؟

ـ لم تشف أبدا من صدمة فقدان أخي.

ـ ألم تكوني قريبة منها؟

ـ ليس بالضبط، ربما كنت أقرب إلى أبي، كانت أمي بالغة التوتر، لا يمكنك الاسترخاء في حضورها...

كنت أقف في النافذة اليوم حينما أتى سير تشارلز للزيارة، وللحظة ـ قبل أن أتعرف عليه ـ رأيت رجلًا مسنًا يراعي أين يضع قدميه. وقد ملأني ـ سامحني الله ـ ملأني الغضب على إدوارد: كان عليه أن يحافظ على نفسه لأجل خاطر أبيه.

أصبحت أعرف آنا كما لو كانت أعز صديقاتي، أو أكثر. عرفت أسوأ وأجمل ما يجول بخاطرها. حياتها كاملة كالكتاب المفتوح أمامي هنا في الصندوق الذي أحضرته إيزابل، أفرد الأوراق وأسويها، ألمس الأشياء التي لَمَسَتْها واعتزت بها وحفظتها. قرأت ما كتبه الآخرون عنها، وأصبح حضورها في ذهني حقيقيا حتى ليخيل لي أنها جالسة في هدوء بالقرب منى، هنا، وأنا أحاول تسجيل قصتها.

لو أستطيع ان أقنع نفسي أنه مات في سبيل هدف نبيل....

أريد أن أقول لها: ما حدث حدث وانتهي الأمر، كيف يمكنك الوصول إلى من لا يريد التواصل؟ ذلك الباب المغلق الذي نقضي العمر نلقي بأنفسنا عليه، أَعْطِهِ ظهرك واستديري بعيدا عنه، اخرجي إلى الهواء الطلق، اركبي فرسك، تنزهي، انغمسي في الأعمال الخيرية، خذي دواء مقويا، ارحلي...

حدث في روما، في التياتروكوستانزي، في الرابع عشر من يناير، عندما تملك آنا النغم المتصاعد وتمكن منها حزن البطلة فلوريا وحيرتها، وإذا بحزنها هي الدفين يكبر في داخلها حتى إنها اضطرت أن تسد فمهابمنديلها، والفراغ القاتل في داخلها يمتلئ بالألم الرحيم:

وكأني كنت أحاول ألا أتحرك بالمرة، أتشبث بباب مغلق لأبقيه مغلقًا لا يتحرك، أضغط بثقلي على شيء ما يحاول الانتفاض، إلى أن تسربت الموسيقى إلى هذا الشيء تملؤه وتقويه فكسر السدود وفاض. وفي الأيام التي تلت ـ والتي لم أستطع فيها أن أعبر عن مشاعري بالكلمات ولا أن أكتبها في هذه المذكرات ـ في الأيام التي تلت كنت أشعر بتلك الموسيقى تجري مع دمي، وكالنهر وقت الفيضان تجرف في طريقها الطمي والرواسب وتضرب في الشطآن، ومرضت بنوع من الحمي، وتخبرني كارولين المسكينة التي تحملت كل هذا أني لم أكن في وعيي لعدة أيام، إلى أن

استيقظت ذات صباح ووجدتني ـ لم أكن بالضبط عدت إلى هذا العالم، إلا أنني أبصرت طريق العودة...

سألَت إيزابل:

ـ كم استغرقها ذلك الخواء؟ عشرة أشهر؟

ـ كانت الحياة تسير أبطأ وقتها.

ـ معك حق.

تتمطى، يعكس ذراعاها الطويلان في بياضهما ضوء القمر العالي هناك في السماء الداكنة، تتثاءب:

ـ سهّرتك؟

أهز رأسي نفيا، فأنا لا أنام قبل الثانية.

ـ هل من المعتاد أن تعيش امرأة وحدها؟ هنا في مصر؟

ـ لا، ولكنه يحدث الآن...

في يوم من الأيام كنت أعيش مع أسرة، زوج وأطفال، كان ذلك في إنجلترا، في بيت مثل بيوت روايات القرن التاسع عشر، له سلم داخلي، ومدافئ، وإفريز في تشكيلات مورقة حول سقوف الحجرات، وصوت قطار الضواحي تكتمه الأشجار في آخر الحديقة الممتدة. وتعلمت مظاهر الفصول الأربعة، فعرفت أن المجموعات الصغيرة من الأوراق الخضراء المكتنزة ستتفتح عن زهيرات زعفران زرقاء وبيضاء، وأن زهرات اللبن الثلجية تطرح ما بين يوم وليلة وأن أزهار النرجس الأصفر يمكن قطفها، أما التوليب فلا، وأن شجرة الورد يمكن مع العناية والحظ الجيد أن تزهر مرتين في العام الواحد. تعلمت أنك في نهاية الشتاء تستطيع ـ إذا دققت

النظر ـ أن تتبين على الأغصان العارية كثيرة العقد براعم دقيقة مغلقة على نقطة خضراء في المركز تنبئ بوفرة الزهر الآتي في الربيع.

اليوم، من شباكي، رأيت بساط الأوراق الوردية تحت شجرة الزان. أزهرت الشجرة ثم أسقطت أزهارها وأنا لا أدري. أما الكرزة البيضاء فكانت في عنفوان ازدهارها. خرجت وتجولت في الحديقة، ووجدت زهور قفاز الثعلب في مخابئها السرية، والبنفسج بقلوبه الذهبية النضرة، ثم إذ وقفت تحت شجرة الزان ونظرت إلى أعلى، فرأيت مجموعة أخيرة من الزهور الوردية تتواري في ركن بعيد تحت الأفرع الممتدة، تتدلي كالنجفة الصغيرة المضيئة، وتملكني شعور كبير بالعرفان وكأنها بقيت خصيصا لتقول لي: انظري! ما زال في الوقت بقية!

تتحسن صحة آنا وكذلك حالتها النفسية، يبدو وجهها في مخيلتي وأنا أبتعد عن المطبخ أقل شحوبا وأقل حزنا، أكاد أسمع خطوتها في ممرات بيتي أسْرع وأخف، وخشخشة فستانها الحريري أوضح وأنشط.

مشيت اليوم إلى المتحف وذهبت أزور تلك اللوحات. ولا أزعم أن بالي لم يعد مشغولاً على الإطلاق ـ ولم يكن هذا ليليق على كل حال ـ ولكني استطعت، مرة أخرى، أن أجد راحة ما في هذه اللوحات، في ألوانها الزاهية، في الشعور بالسلام والرضا الذي يملؤها. وتساءلت ـ كما تساءلت مرارًا من قبل ـ هل ذلك العالم موجود حقا؟

(٥)

شيء ما يدفعني للحب،

وأنا أعلم جيدا أني أحب، لكني لا أعرف كيف ولماذا

ألكسندر بروم (حوالي ١٦٤٥)

نيويورك، مارس ١٩٩٧

كيف يصيبنا الحب هكذا فجأة؟ بدون إنذار؟ بدون استعداد؟ أليس المفروض أن يزحف علينا وئيدًا، يأخذ وقته، حتى إذا جاءت اللحظة التي نُصَرِّح فيها «أنا أحب»، نعرف ـ أو على الأقل نظن أننا نعرف ـ ماذا نحب؟ كيف يحدث هذا؟ وضع الكتفين، اتساع الخطوة ظل خصلة من الشعر على الجبهة، كيف تحرك مشاعر القلب إلى هذه الدرجة؟

أيهما وقع أولا؟ نخعة القلب إذ يتوقف لدقة واحدة، أم ظهوره في باب المطعم؟ كانت إيزابل قد خفضت بصرها إلى المائدة. سكينها وملعقتها في وضع انتظار، صلبة ساكنة بجوار الطبق الأبيض المتوج بشارة المطعم، وركن فوطتها الوردية يتدلي بأناقة من طرف الطبق لا يكاد يلامس الأدوات المصنوعة من الصلب المفضض. أغمضت عينيها لحظة وأخذت نفسا عميقا. كان أخي قد قطع نصف المسافة إليها ويده مرفوعة بالتحية، ثم إذا بمعطفه وحقيبة أوراقه في المقعد الثالث وقائمة الطعام بين يديه

«هل طلبت ؟ هل تنتظرين من مدة ؟ لم أتأخر؟ كم الساعة؟» نظر في ساعته: «تأخرت فعلا. بضع دقائق. آسف. لم

أستطع الانصراف مبكرا. ماذا تختارين؟ هل أنت جائعة؟ لعلك جائعة مثلي».

يداه تمسكان بالقائمة، يمد يده عبر المائدة ليربت على يدها. ربتة مختصرة.

* * *

«تعرفين..» كان قد اضطجع إلى الخلف في مقعده، مسح ركني فمه بالفوطة:

ـ أشعر كأني أعرفك من مكان ما؛ أعني من قبل.

كانت ترقبه وقد أمالت رأسها جانبا فابتسمت.

«لا، إنني جاد» لوَّح بيده في حركة مختصرة من النفي كأنه يقول لست متذرعا، لا أقصد مغازلتك:«هناك شيء ما، لا أعرف ما هو».

ـ التقينا في حياة سابقة؟

ابتسم، لكن النظرة الحائرة ظلت في عينيه.

أخي! أراه أمامي وإيزابل تتحدث عنه. ليست في حاجة لأن تصف لي طريقة دخوله إلى المكان، الحيوية التي تنبعث عنه كالشرار، الرءوس التي تستدير لتنظر إليه. يدخل الحجرات بنفس الطريقة التي يقطع بها الممر بين المقاعد في قاعة الموسيقى، مندفعا بخطوات واسعة وكأنه لا يطيق أن تمر دقيقة بلا عمل. وحتي على المنصة لا يحيي القاعة إلا بانحناءة مختصرة، ثم يلتفت إلى الأوركسترا: إلى العمل. في النهاية فقط، عندما ينفجر السكون في عاصفة من التصفيق، يلتفت شبه مذهول ليواجههم،

ثم يبدو أخيرًا أنه يعي وجود الجمهور، وتظهر ابتسامته الكبيرة التي تخطف القلب، والانحناءة العميقة، ثم الإشارة الواسعة التي تشمل الأوركسترا والنظارة، ثم قبضة اليد تمتد إلى السماء. أخي هذا يستطيع أن يجعل المرء يشعر بالدفء المقرب بمجرد نظرة عبر حجرة مزدحمة. طار إليّ عند سماع الألم في صوتي على الهاتف، وجلس إلى جانبي وواساني طوال ذلك الليل الطويل وساعدني أن أصل إلى القرار، ساعدني أن أملك نفسي وأتصرف بخير ما عندي من قوي.

إيزابل واقعة في غرامه ولا ألومها، الأمر خارج إرادتها، نساء كثيرات حدث لهن هذا ولا أرى أن حبه سبب لهن ضررا أو أذى.

كانا يشربان القهوة بعد أن أعطاها أسماء وعناوين وأرقام تليفونات. سألته:

ـ هل تعود؟

ـ أعود؟ إلى مصر؟ طبعا أعود.. ليس كثيرا كما أحب. لكن ـ وأشار إشارته المعبرة مع ابتسامة الأسف.

ـ هل تعتبر نفسك مصريا؟ آسفة هذه مسألة شخصية.

أدهشت نفسها بالسؤال لكنه أجاب ببساطة:«نعم! وأمريكيا وفلسطينيا. ليس عندي مشكلة هوية».

ـ من حسن حظك!

ـ أو من سوئه. اسمعي يا عزيزتي، لا بد أن أذهب.

يده مرفوعة، هذه المرة لطلب الحساب.

ـ هل تسمح لي.. عرضت مترددة.

ـ لا، لا، بالطبع لا، إطلاقا.

ـ ألم أُصَدِّعْ دماغك بالأسئلة؟

ـ تريدين دفع أتعاب رأسي؟

كانت نبرته حادة بعض الشيء، ثم هلت ابتسامته:

ـ لا عليك يا عزيزتي، سعدت بلقائك.

ـ إذن، أرجو أن تسمح لي..

سألها إذ ترددت:

ـ بم؟ أسمح لك بماذا؟

ـ ربما مرة ثانية أدعوك أنا للعشاء.

مرت فترة صمت.

ـ هل تريدين ذلك حقا؟

قالت بهدوء:

ـ نعم.

ينظر إليها ويومئ باختصار وهو يقرر:

ـ سأحدثك بالتليفون.

عندما غادرت المطعم عصر ذلك الثلاثاء من شهر مارس، أحكمت ربط حزام معطفها الصوف الطويل حول خاصرتها، ورفعت الياقة حول رقبتها ودست يديها في الجيبين، وسارت. كان مدخل متحف الفن الحديث مضاء، مرحبا. دخلت لتتمشي

في أرجاء المتحف بلا هدف. عندما أفاقت لنفسها كانت تقف أمام لوحة لميرو: اللون الأزرق الحي، المخلوقات البراقة ذات العين الواحدة تسبح، تنطلق متحفزة لا يعرقل حركتها شيء. اشترت بطاقة مصورة من محل التذكارات. والآن أمامها جحيم انتظار أن يتصل بها.

ـ أمي، لقد التقيت بشخص، برجل.

إيزابل قلقة، لا تستطيع أن تعتاد رؤية أمها هنا في هذه الغرفة. ليس هناك ما يعيب الغرفة، إلا أنها تختلف تماما عن أي غرفة كان يمكن أن تختارها ياسمين لنفسها: لا أزهار ولا وسائد ولا موسيقي ولا لوحات ولا قطع صغيرة من الفضة أو الكريستال تلتقط الضوء وتعكسه على الرخام المعرق أو الخشب اللامع. لا شيء، ولا حتى صورة في إطار بسيط تنبئ عن حياة خارج هذا المكان. وياسمين ساكنة هادئة في روب منزلي أزرق حائل اللون، وطرف قميص نوم أبيض يبدو تحت ذيل الروب، تقول إيزابل:

ـ يعجبني كثيرا، وأظن أنه سيعجبك أنت أيضا. ربما تعرفينه فهو مشهور. أريد أن أحكي لكِ: هو أكبر منى، أكبر كثيرا، في الواقع تعدي الخمسين، لكن يبدو وكأنه في الأربعين، طويل وشعره أسود، به بعض الشيب. شكله محترم جدا. عيناه شديدتا السواد، حتى لتبدوان غائرتين، ولكنهما ليستا غائرتين.

شعر ياسمين أبيض ناعم مقصوص قصير كأنه شعر صبي مما يثير في فكر إيزابل صورة كتكوت حديث الفقس، ولا تعرف أين جاءتها هذه الصورة، تفحص ذاكرتها بحثا عن لحظة يمكن أن

تحمل صورة ذلك الكتكوت فتتذكر صورة في التليفزيون؛ إعلان عن ماذا؟ لا تذكر.

يقولون إن ياسمين وجدت مقصا، فقصت خصلات كثيرة من شعرها وكان قد طال وغزر على رأسها، فشذبوه ورتبوه، قالوا رأينا أنه أفضل مقصوصا هكذا. لا تعرف إيزابل هل تصدقهم أن أمها قصت شعرها هكذا؟ كانت ياسمين دوما فخورة بشعرها. طبعا هو الآن أسهل في التنظيف والترتيب ولا حاجة لتضييع الوقت في تسريحه وتثبيته. غضبت أولا، ثم حزنت، فياسمين تزداد بعدا عن الأم التي تعرفها. وتتساءل إيزابل عن الشعر: هل ملمسه ناعم أم خشن كالشوك؟، لكن لو حاولت لمسه، لو اقتربت منها بالمرة يحط على أمها القلق وتهب مذعورة، يستحسن أن تترك الأمور كما هي: ياسمين جالسة هادئة ومبتسمة في الفوتيل الجلدي الرمادي، وإيزابل في مواجهتها على حافة الفراش. تنحني إيزابل إلى الأمام:

ـ أمي، أمي حبيبتي، هل أنت مرتاحة؟

يعبر وجه ياسمين ظل من الشك، تنفك قبضة يديها من حجرها وترتفعان فوق مسندي المقعد، كما لو كانت توشك أن تستند إليهما لتقوم وتبتعد. ما زالت يداها جميلتين بالرغم من تناثر بقع الكبد عليهما. جوناثان أيضا، (والد إيزابل) عاني من بقع الكبد في سنواته الأخيرة. دبلة الزواج مازالت في إصبع يدها اليسرى، أما بقية الخواتم فذهبت. أظافرها قصيرة متساوية. تعتدل إيزابل في جلستها وتخفض الأم يديها لكن نظرة عدم التأكد مازالت في عينيها.

تقول إيزابل:

ـ هذه حجرة جميلة.

وهي تحاول أن تطمئن أمها بصوت مشرق، فلا تضيف، أليس كذلك؟ مما قد يغمرها ثانية في الحيرة.

تقول ياسمين:

ـ جوناثان لم تعجبه الحياة هنا أبدا....

وتبدأ في الربت على ذراع المقعد. ترتبك إيزابل بدورها وتسأل بحذر:

ـ حقا؟ لم تعجبه؟

ـ لا، وبهزة رأس مؤكدة: «لا لم تعجبه. كان يقوم بعمله، كان يؤدي واجبه، كان يفعل ذلك وإنما لم يكن أبدا على راحته. لم يحب الإنجليز يوما. كان يعتقد أنهم يتعالون على الأمريكان، ولم يُكَوِّن أي صداقات بينهم، فيما عداي، لكن الأمر مختلف، كما قال لأني ربع إنجليزية فقط، على أني لست متأكدة، قال يوما إنه عاجز دوما عن تخمين ما يدور في ذهني.»

ـ هل هذا صحيح؟

ـ ماذا؟

ـ إنه ـ أبي ـ جوناثان ـ كان عاجزا عن حدس أفكارك؟

ـ نعم صحيح...

ـ هل كنت أنت قادرة على حدس أفكاره؟

ـ نعم، لكنه أمريكي، ورجل!

وللحظـة تضـيء ابتسامتها القديمة شحوب عينيها الزرقاوين، ويلوح شبح جمالها الماضي على وجه ياسمين، لا تتوقف يدها عن التربيت على ذراع المقعد في حركة منتظمة، تشعر إيزابل بقلبها ينقبض وتستدير إلى النافـذة، فتري نهر الهدسون رصاصيا ساكنا في شمس مارس الباردة.

ـ كنت أريد أن أحدثك عن هذا الرجل يا أمي. قابلته في حفل عشاء، والتقيت به مرة بعد ذلك. مُطَلَّق، أولاده كبار، موسيقار، قائد أوركسترا عالمي، الفيلهارمونيك وما أشبه، يداه هشتان، بارع، ويؤلف كتبًا. يخيل لي أني وقعت في حبه.

ياسمين تبتسم، تنظر إليها، تري هل تراها؟ ماذا تري؟

ـ آه ليت بابا كان معنا! تدفن إيزابل وجهها في يديها، ويد أمها تربت على المقعد.

المُسِنّون محرومون من اللمس، لا زوج ولا حبيب ولا طفل تمسك بيده، يطبع قبلاته المبللة على الأنف والخد والثغر، لا يكف عن الحركة حتى يلتصق بحنايا الجسم. كنت ألاحظ جدتي ـ أم أمي ـ في سنواتها الأخيرة، يدها المعروقة، الجلد جاف ومشدود عليها، تربت بانتظام، تربت على المقاعد والمنضدة ومفرش السرير...

ـ على أي حال، تسترد إيزابل نفسها، تسوي شعرها تمشطه بأصابعها: «لا أعرف بعد شعوره من ناحيتي. عندما أكون معه أشعر به يركز انتباهه عليَّ، أشعر بطاقة تسري بيننا، لكنني لا أعرف إذا كان يفكر في وأنا لست معه.» تنظر بحزن إلى أمها:

ـ لا أعرف ماذا أفعل؟

تخليت عنه طبعا. تقول ياسمين. «لم يكن أمامي طريق آخر، أترين؟ إنه شاب صغير، أما عيناه! يذكرني طبعا بابني، لست في حاجة لأن يقول لي أحد هذا، كنت أعرف طول الوقت، منذ رأيته، ربما لهذا السبب آويته. لا أذكر لم كانت المظاهرة: الجزائر أو حركة السلام أو أي شيء. كانت المظاهرات كثيرة ذلك الصيف، لكنه كان مصابا، كان في خطر وآويته فأصبح في مأمن لأنه على أرض أمريكية وإن لم يعلم ذلك. كان جوناثان مسافرًا في مهمة، أدخلته البيت وضمدت جرحا في رأسه، كان الجرح متورما ويزداد سوءا. كدمة فظيعة. كان مشتعلا بالحماس عن سوء الأحوال في العالم وكيف سيغيرون كل ذلك هو وأصدقاؤه. كان شابا. جلست إلى جانبه وهو في الفراش، وعندما دخل في النوم، نمت إلى جواره، لم أستطع المقاومة. هذا ما حدث. ذهبت الي مسكنه مرتين بعد ذلك، وكنت أعرف أني لا بد أن أتخلي عن هذه العلاقة. كان الأمر صعبا، كما لو كنت أفقد فالنتين مرة ثانية».

هبت إيزابل في جلستها:

ـ كيف يا أمي؟

كانت ياسمين تتحدث تقريبا بطريقتها العادية، طريقة ما قبل المرض، تثرثر، نادمة، مسلمة أمرها، لكن علاقة غرامية؟ أمها كان لها علاقة غرامية؟ متى؟ من؟ هل كان أبوها يعرف؟ تنظر إلى العينين الغائمتين والشعر الحليق وتسأل:

ـ هل كان أبي ـ هل كان جوناثان ـ يعرف؟

ـ كان فتي لطيفا، وتهز رأسها: «ما كان أجمله، وكان يحبني بجنون».

تدفع نفسها قائمة من المقعد وهي ترتعش، تدفع قدميها في الخف الوردي:

ـ يجب عليَّ أن أذهب الآن.

إيزابل جالسة منتصبة الظهر، تخشي أن تمد يدها وتمسك بالذراع الواهن، تخشي أن تتمسك بها:

ـ ماما؟ متى كان ذلك؟ من كان ذلك الشاب؟ هل عرف أبي شيئا؟

ترد ياسمين بنسخة حائلة من ابتسامتها البراقة القديمة:

ـ وداعا، كان الحديث معك ممتعا...

(٦)

ألا تعرف أن مصر صورة من الجنة

وأنها الحرم المقدس للعالم أجمع؟!

كاتب مصري (حوالي ١٤٠٠ قبل الميلاد)

بمصادفة عجيبة، وأرجو أن تكون فألًا حسنًا، وصلنا إلى الإسكندرية في يوم وصول البطريرك الجديد للكنيسة الأرثوذكسية ـ وهي كنيسة مركزها في هذه المدينة. وقد صعد إلى السفينة حال دخولها الميناء شاب عرفني بنفسه على أنه (جيمس بارنجتون) وقال إنه موفد من مكتب المعتمد البريطاني ليصطحبني إلى القاهرة ـ وهذه مجاملة ترجع بالتأكيد إلى الخطابات التي أرسلها سير تشارلز إلى مكتب المندوب. وعرض عليّ مستر بارنجتون أن أذهب لمشاهدة الاحتفالات، فأتممنا إجراءات الوصول ووجدنا أنفسنا نجلس في عربة ظريفة (تشبه عربات الفيتون عندنا)، وحقائبنا تتبعنا في عربة أخرى، ومستر بارنجتون يجلس في المقدمة مع سائق العربة ويتحدث معه في حبور. لم تكن الخيل التي تجر العربة مميزة بأي شكل، ولكن بدا أنها تعرف طريقها، فكانت تستجيب بهزة من رءوسها المزينة لفرقعة السوط ـ فرقعة شكلية فقط متفق عليها ـ وهكذا وصلنا إلى محل للشاي (على طراز فيينا للأسف وليس على طراز شرقي)، وطلبنا من سائقي العربات الانتظار (وقد رأيت سائق عربتنا بعد حين يقف إلى جانب رأس حصانه

ويطعمه بكل حنان نباتا أخضر يخبرني مستر بارنجتون أن اسمه برسيم - وهو يشبه الكلوفرِ عندنا) وجلسنا إلى مائدة ملاصقة للشرفة وطلبنا شايا وكعكًا إنجليزيا (حين جاء كان أشبه بما نسميه «فطيرة الرمل» لكنه جيد) وانتظرنا مرور الموكب.

وقد لاحظت كثرة الزينة: أعلاما وقطعا من أقمشة ملونة ورايات وزهور ورقية حمراء وبيضاء تزين سروج الخيل ورءوسها، وحين سألت إن كان من المعتاد تزيين المدينة هكذا لمناسبة مسيحية، علمت أن الخديو (الذي عاد مؤخرًا من أوروبا) يقضي الآن بقية أسابيع الصيف في قصره في رأس التين، وأن سموه بلغ عامه السادس والعشرين منذ ثلاثة أيام وزينت المدينة لهذه المناسبة فاستفاد البطريرك الجديد من هذه المصادفة. كان موكبًا مثيرًا ذلك الذي اصطحب البطريرك من الميناء إلى الكاتدرائية، موكبًا حافلًا بالأزياء والعربات والخيل والبدلات الرسمية ووجدتني أتساءل عن وقع كل هذا على إميلي - إلا أنها لم تتخل للحظة عن موقفها المعتاد المترفع عن الدهشة وأبعدت مقعدها قليلًا عن الطاولة وانشغلت في شيء ما في حقيبتها. حاولت فيما بعد - في البنسيون - أن أشرح لها القليل عن وضع مصر الغريب، حيث استقلت في كل شيء عدا الاسم عن الدولة العثمانية منذ ستين عامًا. الآن تحكمها بريطانيا من خلال المعتمد فقالت «فعلًا يا سيدتي، ثلاثة حكام بدلًا من حاكم واحد، غريب جدًا ». وهي على العموم سعيدة الآن فنحن في

بنسيون راق، تمتلكه أرملة يونانية يؤكد مستر بارنجتون أنها سيدة محترمة تضطر الآن للقيام على نفسها وعلي طفلتها.

استأجرت في البنسيون غرفة نوم وغرفة جلوس تطلان على البحر. المفروشات معقولة بالرغم من أنها أثقل وأكثر تعقيدًا مما أحب، ولم يرضِ السيدة إلا أن تعطيني أكثر الغرف فخامة بفراش ضخم منَ الواضح أنها فخورة به جدًا. قلت لها إن أحوالي الزوجية مماثلة لأحوالها وليس بي حاجة لهذا الفراش لكنها أصرت. وهو في الحقيقة ليس جميلا، فهو مزدحم بالزهور والأوراق النحاسية، لكنه متين ونظيف وتحميه الستائر من الناموس. ومن الصراصير الطائرة التي يرعبني مجرد التفكير فيها، والتي أكد لي الكابتن بورك ـ وله الشكر ـ أنها سمة عادية للحياة في إفريقيا. ولا أتصور أني في إفريقيا حقًا فكل ما رأيت من هذا المكان حتى الآن يوحي بأوروبا البحر المتوسط ولولا زي أهل البلاد من العرب ووجود اللافتات العربية لتصورت أننا في مدينة إيطالية أو يونانية.

يجب ألا أطيل عليك يا كارولين العزيزة، لكن لدي انطباعات كثيرة جدا من هذا اليوم ـ يومي الأول هنا ـ وهي كلها تختلف كثيرًا عما كنت أتوقع ـ خلال قراءاتي أو ما سمعت من الناس ـ بحيث إني لا أشعر أنني قد سجلتها تمامًا فأكف عن الكتابة.

قرأت الآن هذا الخطاب قبل أن أبعث به إلى البريد،

فوجدت أنني ذكرت مستر جيمس بارنجتون أربع مرات (وهذه هي الخامسة)، وحيث إني أعرف صديقتي جيدًا، وأعلم أن رغبتها في سعادتي من الممكن أن توجه أفكارها في اتجاه معين، أثبت هنا أن هذا السيد، چنتلمان فعلًا (درس في ونشستر ثم كمبردج) ومرشد متميز، صغير السن جدا، فهو لا يتعدي الرابعة أو الخامسة والعشرين، وربما صار بمرور الوقت صديقًا طيّبا وهذا كل ما يجب أن تتمنيه الآن لصديقتك...

وهكذا وصلت آنا إلى مصر، وهذه فيما يبدو رسالتها الأولى، ربما تبدو متكلفة بعض الشيء، وعلي وعي بالموضة الشائعة لهذا النوع من الكتابة: «رسائل من مصر»، «رحلة على النيل»، «مزيد من الرسائل من مصر»... أفترض أن هذا الخطاب الذي وجدته في أوراقها نسخة من الأصل الذي أرسلته إلى كارولين، ربما كانت تفكر في نشر رسائلها في المستقبل، على أي حال أغفر لها النبرة التقليدية التي تتحسس بها طريقها في وطني؛ فهي لا تعرف طريقًا آخر بعد، ويسعدني أنها تحررت من ذلك الماضي الحزين، إذ نحت المفكرة البنية جانبا برفق. لم تجر خطا سميكا تحت آخر مدخل، لم تنزع الصفحات الباقية. أمر فيها بسرعة، أكاد أتوقع أن أجد ملاحظة، أو تعليقًا على ذلك الحزن الأول كتب في سنوات متأخرة، لكني لم أجد شيئا. تركت الصفحات بيضاء.

يتنابني الفضول كما لو أن صديقة أجنبية جاءت لزيارة مصر، أتساءل كيف ترانا؟ ما مدى بصيرتها بنا؟ كيف تفهمنا حقا؟ أتمني لو كنت هناك لأرحب بها وأصطحبها لأفرجها على البلد. أفرجها

على البلد؟ أنا التي وضعت نفسي تقريبا في حبس منزلي، أتحرك من حجرة المعيشة إلى حجرة نومي إلى المطبخ، أتجنب حجرات الأولاد. غاضبة من المدينة، من البلد، وقد عدت إليها لأجد كل هذا التغير.

الآن أجد نفسي في خضم حركة المرور، في البيروقراطية والإجراءات وأنا أحاول أن أتخيل لنفسي البلد الذي حضرت أنا إليه. أحاول أن أعيد تخيله، أعيد تشكيله من أجل إيزابل. في البناية الشاهقة من الخراسانة والزجاج التي تضم مكاتب الجريدة (ولو أن الحروف التي تشكل اسمها مازالت قائمة في أعلى البناية المهدمة المهيبة التي كانت مقرها في السابق) أبحث في أرشيف الأهرام، أدير الميكروفيلم المطموس في القارئة، تحت رقابة ثلاث موظفات يجلسن إلى مكتب واحد مرتديات بونيهات مزركشة بحواف من الكروشيه.

أفردت الجريدة صفحتها الأولى يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٠٠ لوصول البطريرك فوتيوس في اليوم السابق إلى مقره البابوي في الإسكندرية. يذكر المقال خطب الترحيب التي قدمت أمامه وهو مازال على متن السفينة في الميناء، ويصف بالتفصيل الموكب الذي حمله في شوارع الإسكندرية: الخيالة والعربة الرسمية للبطريرك، عربات الأساقفة والقسس، قناصل الدول الكبرى والدول الأجنبية، أصحاب المناصب الرسمية، المراتب الأدني من القسس، زعماء طائفة الأرثوذكس، وممثلون عن الطائفة من جميع المحافظات، ممثلون للاتحادات والجمعيات، العلماء من شيوخ الأزهر، رجال الأدب، رجال المال، التجار وأصحاب المهن، كل أولئك ساروا

في موكب بهيج أمام التريانون حيث كانت أرملة شابة وصلت لتوها من إنجلترا تجلس مع وصيفتها وملحق من القنصلية، وحقائبها في عربة مستأجرة تنتظر في مكان قريب، والحوذي يمد يده بقبضة من البرسيم إلى الحصان ويرفع رأسه ليرقب موكب أهل القمة والذكر.

٢٩ سبتمبر ١٩٠٠

الوالد العزيز سير تشارلز

أفكر فيك كثيرًا (أكثر من الكثير المعتاد) منذ أن سمعنا الصيحة فأسرعنا جميعا إلى سطح الباخرة نرسل النظرات إلى الأفق ونحاول تبين ذلك الشاطئ البعيد الذي رأيته أنت لأول مرة في تلك الظروف المؤسفة منذ ثمانية عشر عامًا.

أما نحن فدخلنا الميناء في سلام، وجاء للقائي شاب باسم جيمس بارنجتون، أرسله لورد كرومر ليعاونني. أعلم أن هذا من أثر خطاباتك للمعتمد وأشكر لك هذا حيث إننا انتقلنا بسهولة من الباخرة إلى الشاطئ، وقد أوضح لي مرشدي أن السراي والحكومة والقناصل ـ المجتمع كله باختصار ـ ما زال بالإسكندرية، والأفضل أن أبقي هنا بضعة أيام. وحتي لا تتصور أنني لم أعد الابنة التي تعرفها والتي لا تحب كثيرًا المجتمعات والمظاهر أسارع بالتأكيد لك أنني شعرت أني إذا صممت على المضي إلى القاهرة في الحال فسوف أسبب بعض الإزعاج لمستر بارنجتون ولآخرين

غيره لا أعرفهم بعد يشعرون أن واجبهم معاونة وحماية سيدة وحيدة في بلد غريب.

لذلك فنحن الآن نقيم في البنسيون «ميرامار» في رعاية سيدة يونانية محترمة لها طفلة جميلة في الرابعة تعلقت بإميلي وتثرثر لها باليونانية وترجوها بالإشارات اللطيفة أن تمشط شعرها وتزينه بالضفائر والشرائط، وإميلي سعيدة بهذا حيث إنها تعتقد أنها لا تمنح فرصة القيام بما يكفي من هذه الواجبات في محلها الصحيح!

كتبت بالأمس خطابا لكارولين بورك وبما أني متأكدة أنها سوف تحكي لك ما جاء في خطابي فلن أعيد ما كتبت لها إلا أن أضيف أن المدينة تمتلئ اليوم بالاحتفالات بمناسبة أن سمو الخديو قد بارك له الرب بميلاد أميرة جديدة.

تبدو الإسكندرية مدينة بهيجة، وقد خرجت اليوم وحدي أتمشي قليلًا على البحر في مرأى من البنسيون، لم أر أي آثار لذلك القصف الشهير بمدفعية أسطولنا، وبما أني لم أقابل سوى الابتسامات من الأهالي والتحية من الأوروبيين لا يمكنني تخيل مناظر التطرف المخيف التي سمعت بها. ولكني حديثة العهد بهذا المكان ولا أرى منه سوى ما تتيحه أكثر النظرات سطحية.

يقول مستر بارنجتون إنه يجب عليّ أن أذهب لرؤية عمود بومبي، والمقابر المحمدانية والمتحف. وقد ذكر أن الإسكندرية كان بها مسلتان عظيمتان وأنه يتعجب أن حكام

مصر أهدوا واحدة لنا وواحدة للأمريكيين. ثم قال إنه لو لم يهادونا بهما لأخذناهما على أي حال، وذكر شيئًا عن بادج ومورجان؟ إنه يعلم الكثير جدا عن هذه البلاد وأتصور أنه يحبها ويبدو أنه يجيد اللغة العربية فمن حسن حظي أنه يقوم بإرشادي والترجمة لي.

أفكر فيك كثيرًا يا أعز الأهل والأصدقاء. كم كنت أود لو تمكنت من إقناعك فأتيت معي. ويعزيني على أي حال أنني لم أقم بهذه الرحلة إلا بتشجيعك ومباركتك ـ ولم أكن لآتي بدونهما ـ وأن الغرض الذي قررنا من أجله أن أسافر بدأ يتحقق، فأنا أشعر فعلًا بتحسن كبير في صحتي وفي روحي المعنوية فأرجو أن تنقل هذا الخبر إلى مستر ونثروب، المسكين الذي عاني الكثير معنا في العامين الماضيين. سأبحث عن الأعشاب التي طلبها حين أجد طريقي إلى أسواق القاهرة ـ هناك بالتأكيد أسواق في الإسكندرية أيضا بالرغم من أنها تبدو كمدينة أوروبية لكنني أشك في أن الوقت سيتاح لأجدها ـ وأريد أن أحضرها له طازجة بقدر الإمكان.

سير تشارلز العزيز، أعرف أنني أثرثر فأنا أفتقد صحبتك وأحاديثنا معًا. حين تجد نفسك على ضفة نهر التيمز في الإمبانكمنت في المرة القادمة أرجو أن تتأمل «إبرة كليوباترا» وتذكرني هنا في بلاد تحتمس الثالث. أدعو الرب أن يديم عليك الصحة وأن أجدك بخير عند عودتي وأن تكون دائما راضيًا عن ابنتك المحبة...

يعيش سير تشارلز أيامه في منزله في ماونت ستريت، أما البيت الذي تركه لابنه وعروسه فيظل مهجورًا. يأتي البستاني مرة في الأسبوع ليعتني بالحديقة.

وتبدأ آنا الكتابة في مفكرة جديدة: مجلد جميل عميق الاخضرار له كعب من الأزرق النيلي:

٢٨ سبتمبر

تظل أفكاري الليلة تعود إلى إدوارد العزيز، فقد قام - منذ أربع سنوات - بنفس الرحلة، ورأي الشاطئ الذي أراه اليوم ونزل في الميناء نفسه. الأمواج التي تتكسر على سور البحر تحت نافذتي لا يختلف صوتها عن صوت الأمواج التي سمعها. وأجد نفسي أتساءل، وأنا أجلس هنا في هذا الفراش الكبير: هل كنا نفترشه معًا لو أتينا هنا سويًّا؟ هل كانت صحبة السفر تكسر ولو بعض ذلك التحفظ الذي لازم زواجنا؟ أفكار لم تعد ذات جدوي...

(٧)

في أول حديث له مع حاكم جزيرة سانت هيلينا قال نابليون بتأكيد: «مصر أهم بلد في العالم».

لورد كرومر (١٩٠٨)

أراها في خيالي الآن: بطلتي، تجلس في شباك حجرتها في بنسيون الأرملة اليونانية، الرسائل التي انتهت من كتابتها مطوية بعناية، والمفكرة الجديدة مفتوحة أمامها على الطاولة التي تتكئ عليها لتجيل بصرها في الميناء الشرقية: ذراعا المدينة تمتدان لتحيطا بجزء من البحر المتوسط. هل رأت آنا وهي تنظر إلى اليسار أنوار قلعة السلطان قايتباي؟ فنسختها من «دليل توماس كوك السياحي» تخلو من ذكر القلعة القديمة. هل قال لها جيمس بارنجتون إن أمامها هنا خير مثال لتلك العبارة التي أنهكها التكرار: في مصر ترى طبقات التاريخ بالعين المجردة. فهنا قامت في إسكندرية الإغريق منارة الفاروس الشهيرة، واستخدم السلطان قايتباي أحجارها المنهارة ليشيد على أنقاضها قلعته عام ١٤٨٠ حصنا ضد هجمات الصليبيين، وفيما بعد بُنِي داخل القلعة مسجد، حطمت مئذنته مدافع أمير البحر السير بيتشام سيمور عند قصف الإسكندرية عام ١٨٨٢.

تتحدث إيزابل عن إنتاج فيلم سينمائي عن حياة آنا، تتحدث عن افتتاحيته: لقطة طويلة للقلعة تدور عليها أسماء العاملين وأماكن التصوير وكل ما يتعلق بالإنتاج. أقول لها القلعة اليوم متحف حربي وأشك أن يسمح لك بالتصوير فيها، فترد بثقة:

سيسمحون لي. يقول الدليل إن أحجار القلعة تبدو عند الفجر كما لو كانت مصنوعة من الزبد، لقطة مدهشة: قلعة كأنها كعكة في حكاية خرافية، تظهر في البعد على البحر الأزرق. زاوية النظر الأولى من البحر ثم تلف الكاميرا وتدور حول الباخرة فنراها من البحر ترسو إلى جانب الرصيف...

ـ الباخرة كانت ترسو في الميناء الغربية ـ

ـ ثم تتراجع الكاميرا إلى الخلف، تستمر في التراجع حتى نصبح مع آنا في نافذتها نري ما تراه...

ـ كان الوقت ليلًا. أردف بعناد. أريد أن أحتفظ بآنا لنفسي، لا أن تستولي عليها ممثلة من الممثلات. تشيح إيزابل بيدها:

ـ هذه مجرد تفاصيل.

تطل آنا من شباكها والوقت ليل، أصر على أن الوقت ليل، وبين أنوار القلعة وأنوار السلسلة يمتد المتوسط أمامها، مساحة من الظلمة والفراغ. شعرها منسدل على جيدها وكتفيها، ترتدي بينوار (يسمونه بينوار؟ تعجبني الكلمة، لها مذاق القرن التاسع عشر، توحي بالموضة وبسيدات يهتممن بأنفسهن وبأوروبا وجو روايات تلك الفترة. ربما ارتدت آنا كارنينا بينوارا وهي تستعد للنوم، من المؤكد أن عددا من بطلات كوليت كن يرتدينه، إلا أن بطلتي الإنجليزية تبدو بعيدة عن عالم ريزي وكولين وإن عشن جميعا في نفس العصر) بينوار يضم كتفيها تتدلي طياته الحريرية لتغطي صدرها، ربما يزينه شريط من الفراء الناعم يدور باستدارة الرقبة وعلي طرف الأكمام الواسعة الطويلة. لونه فاتح، رمادي فاتح

مظلل بالأزرق. البطاقة المسندة على التسريحة أمامي تسمى هذا اللون «رحّال». بطاقة الألوان هذه لم أستخدمها منذ سنوات، لكني لا أملك أن أتخلص منها، وأتعجب أن بطاقة بهذا الجمال يمكن أن تلقي في سلة المهملات، ومع ذلك فمئات من هذه البطاقات معروضة ميسرة في جميع محلات الأدوات المنزلية والبويات تدعو الداخل والخارج أن يلتقط واحدة، يلقي عليها نظرة ثم يلقي بها في أقرب صندوق للمهملات. مع ذلك تأمل ما تفعله البطاقة بالألوان السبعة: تدخلك البطاقة برفق إلى قلب قوس قزح، ثم تطلقك في اللون الأزرق، تدعك تتجول على راحتك في الأزرق من طرف إلى طرف: بحار وسماوات وعيون نرجس وخزف أصفهان وأثواب العذراء واللمعة الباردة لفيروزة في مقبض خنجر يمني. تعال إلى الخط الفاصل بين الأزرق والأخضر. يمكن أن تقول بثقة: هذا أزرق وهذا أخضر. لكن هذه البطاقات تكشف لك عن التدرج والذوبان والتحول، عن استحالة أن تضع إصبعك على نقطة وتعلن: هنا ينتهي الأزرق ويبدأ الأخضر. ضع نفسك في منطقة التحول؛ مد ذراعيك على الجانبين بطولهما.. الآن يدك اليمني في الأزرق، ويدك اليسرى في الأخضر، وماذا عنك؟ أنت بين الاثنين، في منطقة التحولات. كفي. كفي. ولكن، يخيل إليَّ أن آنا كان يمكن أن تراودها مثل هذه الأفكار؛ كانت امرأة تستوقفها الأشياء الصغيرة، ظلال الألوان.

القاهرة، ٨ نوفمبر ١٩٠٠

الوالد العزيز سير تشارلز

مضى اليوم أسبوع منذ وصولي إلى القاهرة وقد لقيت خير تقدير ومجاملة من الجميع هنا، دعيت إلى العشاء في مقر دار المعتمد، حيث تقوم نينا بيرنج بدور ربة منزل عمها منذ وفاة زوجته. العاملون في السفارة تنفسوا الصعداء عندما حضرت مس بيرنج لأنها مليئة بالحيوية والنشاط، وهي تشاكس عمها وتداعبه إلى أن يبتسم، وقد قدمت له هدية طقما كاملا من الفُرش الفضية للشعر والملابس، حفرت عليه حرفي «ل ي»، مما أثار فضول طاقم السفارة وحيرتهم، حتى قصت عليهم مس بيرنج نادرة عائلية عن اللورد كرومر في طفولته: كان يلتقط أي شيء يستطيع حمله ويصيح: «لي لي» حتى أصبح يعرف في طفولته باسم (لي). فكرت فيك عند سماع هذه القصة وتخيلتك تلقي برأسك إلى الخلف وتضحك ـ كعادتك ـ ثم تقول: هذا يفسر محاولته الاستحواذ على مصر إذن.

أجدني أنظر إلى كثير من الأمور هنا فأراها بعينيك، فأنا أظن أني أعرف رأيك في كل موضوع. أعتقد أنه يهمك أن تعرف ـ إن لم تكن تعرف بعد ـ أن هناك صحيفة صدرت هنا حديثا، تكتب معارضة الاحتلال البريطاني. علمت بهذا عندما ذكر أحد الضيوف في العشاء أن تلك الصحيفة، «اللواء»، تثير الرأي العام بمهاجمة حرب البوير وتصف تصرفات الجيش البريطاني ووحشيته وطريقته في الحرب. أصغيت باهتمام

لهذا الموضوع لأني أعرف اهتمامك به، وعندما سألت عن هذه الصحيفة، قال لورد كرومر باختصار إنها نشرة لا أهمية لها؛ يمولها الفرنسيون وتقرؤها الطبقات الثرثارة. بعد هذا الرد لم يعد أحد إلى الموضوع وكأنه اتفاق صامت، وانتقلوا إلى الحديث عن شخص اسمه البارون أمبان وشركة فرنسية اشترت مساحة هائلة من الأرض في الصحراء شمال شرق القاهرة، وتخطط لبناء مدينة فيها على الطراز الفرنسي. ولما سألت مستر بارنجتون فيما بعد عن تلك الصحيفة قال إنه يعتقد أن تمويلها يعتمد على اشتراكات القراء ـ وربما ساعد الفرنسيون في تمويلها في البداية ـ وأن الصحيفة تطبع ١٠ آلاف نسخة من العدد الواحد كل يوم، وبدا لي هذا العدد كبيرا في بلد تنتشر فيه الأمية. سأحاول الحصول على نسخة من الجريدة وأرسلها لك، ولو أنها ستكون ـ بطبيعة الحال ـ مكتوبة باللغة العربية.

أؤكد لك يا سير تشارلز أن آراءك الناقدة معروفة هنا للجميع، إلا أن ما تتمتع به من احترام وتقدير ضَمَن لي الرعاية وحسن المعاملة.

أخذت غرفًا في فندق شبرد ـ كما أعلمتُك بالتلغراف ـ وهو ـ كما تعلم ـ في موقع متوسط بين القاهرة القديمة والقاهرة الجديدة. وقد ذهبت مرة إلى البازار مع إميلي فوجدته كما تخيلته تماما: بضاعة مكدسة وألوان زاهية وعطور وروائح صارخة مميزة ـ كلا لم أتصور الروائح ـ أنى لي ذلك؟! ـ لكنها جزء من المنظر كله: رفوف ورفوف

من الزيوت العطرية، جوالات من الأعشاب والبهارات، مفتوحة تظهر تلالا صغيرة من الحناء الناعمة، وعروقًا سميكة من الجنزبيل وقرون خروب سوداء لامعة، وكلها تطلق في الهواء روائحها الحريفة وكأنها بخور، تكاد تصدعك. على أني لم أكن أتصور الشوارع بهذا الضيق، ولا الدكاكين بهذا الصغر، بعضها لا تكاد تسميه دكانا بل مجرد فتحة في الحائط يجلس فيها رجل متربعا يعمل: ينقش قطعة بديعة من النحاس أو الخشب. ومن الصعب أن تتفحص المكان على مهل، فالبائعون ينادون عليك طول الوقت أن تشتري بضاعتهم. أسمعك تقول هؤلاء الناس في السوق ليبيعوا بضاعتهم ويكسبوا رزقهم، ومعك حق، وأنا أود أن أشتري لكني لا أعرف الثمن المناسب، وقد سمعت أنه لا بد من الفصال، وليس لدي أي خبرة في هذه العملية، ولكن سأتعلم بلا شك. ارتاحت إميلي لعودتنا إلى الفندق، كانت خائفة طول الوقت أن نختطف ونجرّ إلى حارة من الحواري المظلمة الضيقة التي صادفناها أحيانا بين دكان ودكان، وعندما سألتها لأي هدف يختطفوننا؟ قالت ليبيعونا في سوق الرقيق فمن المعروف أن القاهرة مركز لتلك التجارة، ولم أفلح في طمأنتها، وهي مصرة على أننا لن نغامر بالنزول إلى الأحياء القديمة في القاهرة - لا أنا ولا هي - بدون حراسة بريطانية! ولعل هذا - يا سيدي - يطمئنك أنني بخير وأنني في رعاية صارمة هنا في القاهرة.

ابنتك المحبة

وماذا عن إميلي؟ إشارات آنا لوصيفتها تعطينا الصورة التي نتوقعها لوصيفة في تلك الفترة: إميلي تعنف آنا لتدفعها للخروج إلى الحديقة حيث الهواء الطلق؛ إميلي تتمني أن تسمح لها آنا بتصفيف شعرها في تسريحة تناسب مقامها؛ ترفض الالتفات إلى الموكب والاحتفال في الإسكندرية، وتشعر بالخوف (على سيدتها وعلي نفسها) في السوق. أحاول أن أركز خيالي عليها وهي تنتظر على الجانب، تحرس سلة الطعام في الرحلة وقطع السجاد وصندوق الإسعافات الأولية. ما عمرها؟ ماذا تريد لنفسها؟ هل تقتصد مرتبها لتفتح محل قبعات عند عودتها؟ هل لها طفل غير شرعي يعيش مع أسرة بديلة في مدينة على الساحل البريطاني؟ هل تبغي شيئا لنفسها؟ أم أن سيدتها هي كل حياتها وشغلها الشاغل؟ هل يقع لها يوما ما وقع لوصيفة ليدي هستر ستانهوب يوم أعجب بها شيخ عابر من بالميرا لكن سيدتها رفضت السماح لها بالزواج منه؟ أم تفعل ما فعلته سالي خادمة لوسي داف جوردون التي اختفت في الشوارع الخلفية في الإسكندرية، حامل بطفل عمر الحلواني خادم سيدتها المفضل؟ لا أدري، فحتي الآن لم أجد في أوراق آنا دليلا على شخصية إميلي كإنسان مستقل.

القاهرة في ١٤ نوفمبر ١٩٠٠

عزيزتي كارولين

مضى اليوم قرابة أسبوعين منذ وصولي إلى القاهرة وقد رأيت فيها عجبا، ولعل أعجب ما رأيت هي زرقة السماء:

السماء زرقاء طول النهار بلا نتفة سحاب، ما أشد اختلافها عن سماء نوفمبر في إنجلترا. بودي لو تحضرين إلى مصر فأنا متأكدة أن الزيارة ستمتعك. تناولت العشاء أمس في دار المعتمد للمرة الثانية منذ حضوري، وكنت أتخيل نفسي أتبادل معك النظرات عبر المائدة عندما تطرق الحديث إلى نجاح زيارة الخديو لإنجلترا في الصيف الماضي، وكيف أنه جدير أن يشعر (الصبي) بالشرف الذي ناله إذ منحته الملكة وسام فيكتوريا (هذه من لورد كرومر)، وتذكرتك تضحكين ونحن نقلب صفحات مجلة أخبار لندن المصورة وكيف قرأنا المجلة في الحديقة، وقد احتفظت بالعدد.

أمامي على غلاف المجلة «نخب سمو الخديو»: مائدة مثقلة بالشمعدانات والأزهار وأواني الفاكهة، يصطف خلفها ـ حسب المذكور تحت الصورة ـ أمير ويلز ولي العهد، وأميرة ويلز، دوق يورك، لورد سالزبوري، عمدة مدينة لندن وجيكوار بارودا. الجميع يرفعون كئوسهم، وفي وسط الصورة ـ مائل قليلا إلى اليمين في اتجاه الأميرة بتاجها الماسي واقفة منتصبة ـ يقف الخديو، أصغر الحاضرين بثلاثين سنة على الأقل، منحنيا قليلًا يستند إلى المائدة بكلتا يديه، وهو بالطبع لا ينبغي أن يصور وهو يشرب خمرا. يطل من يمين الصورة رأس آخر يرتدي الطربوش، سفير تركيا المسن، يمسك عنق كأسه بقلق، وينظر إلى الخديو الشاب، وفوق رأس عباس حلمي تتدلي آلة ثقيلة مهددة.

وأتي سير تشارلز ونظر إلى غلاف المجلة وإلي صورة صولجان السلطة المدلي على حائط القاعة فوق رأس

الخديو وقال: «وهذه لتقرعه على طربوشه إذا خرج عن الخط المرسوم». ربما كانت المرة الأولى التي ضحكت فيها بعد وفاة إدوارد.

لا بد أن آراء سير تشارلز عن الاحتلال الانجليزي معروفة هنا فهو لا يخفيها بل ينشرها ويعلنها في كل مكان، ولا أتخيل أن أي أحد من الرفقة هنا يوافقه على هذه الآراء. لكنهم لا يتحدثون في هذا أمامي، أولًا من باب المجاملة، وثانيا مراعاة لذكري إدوارد، لكني سمعتهم يذكرون مستر بلانت الذي يتفق مع حماي في الرأي، ويعتبرونه إنسانًا شبه مخبول، إذ يختار الحياة في الصحراء، وأسمعهم يستخدمون تعبير «عَبر الحدود» في الحديث عنه، ولعل هذا يعني أنه ينظر إلى الأمور من وجهه نظر مخالفة، وأعترف أنه يثير فضولي وأحب أن أقابله، لكنه لا يتردد على مجتمع القاهرة، ولا أستطيع زيارته إلا إذا وصلتني دعوة من ليدي آن. أما الحياة في المفوضية فهي أبعد ما تكون عن روح الصحراء، والواقع أنك فيها تشعرين أنك في ميدان كادوجان، وحديقة هايدبارك - وليس النيل - على مرمي البصر.

لا بد أن الأمر شديد الصعوبة، يأتون إلى بلاد مخالفة وشعوب مختلفة، يتولون الأمر ويصرون أن يجري كل شيء بطريقتهم، يعتقدون أن طريقتهم هي الوحيدة. أقرأ وصف آنا وأقرأ مذكرات وكتابات أولئك الإنجليز من الزمن الماضي، وأفكر في العاملين في السفارة الأمريكية والوكالات الأمريكية اليوم: يقطعون شوارع

القاهرة في سياراتهم الليموزين المغلقة، نوافذها من الزجاج المدخن، لا يفتحون أبوابها إلا داخل مجمعاتهم التي يحرسها جنود من القوات الأمريكية.

لورد كرومر (أو «اللورد» كما يطلقون عليه هنا ويقول رجال السفارة إن اللقب ينم عن الإعزاز والاحترام) رجل طويل عريض آمر، له عيون حزينة ثقيلة الجفون وشعر خفيف ناصع البياض. ولا أدعي طبعا أنني أعرفه جيدًا لكنني لاحظته وراقبته وهو يجلس على رأس مائدة العشاء يشع قوة هادئة، له رأي محدد قاطع في كل شيء، والحديث في حضوره دوما يحترم رأيه ويوافق عليه، وأشك أن يتمكن أحد من العمل معه طويلا إذا لم يؤمن بآرائه بشكل مطلق. يحيط به الدبلوماسيون من رجاله، وعلي رأسهم هاري بويل، السكرتير الشرقي، وهو (مستر بويل) شخصية تثير الاهتمام والتأمل، أظن أنه يتعمد أن يكون قليل الهندام بل رثه، وشاربه متمرد منكوش، والشائع أنه يحسن فهم شخصية أهل البلد وأنه يتحدث لغتهم، لكن مستر بارنجتون أفهمني أن لغته العربية قاصرة على العامية. ومعرفته باللغة هذه تقربه من لورد كرومر الذي ينتفع به كثيرا، وقد أطلق زملاء بويل عليه اسم (أخنوخ) (لأنه يمشي مع الرب)، أما لورد كرومر نفسه فلا يتحدث العربية ولا يعرف إلا كلمة «امشي» وهي أول كلمة يتعلمها الجميع هنا وتعني «اذهب بعيدا»، وطبعا كلمة «بقشيش».

أملي أن أعرف شيئا عن حياة أهل البلد هنا، وأقول الحق

ليس عندي أي فكرة عن كيفية تحقيق هذا الأمل ولكن أشعر أنه من الغريب أن أقطع كل هذه المسافات لآتي إلى مصر ولا أتعلم شيئا سوى مزيد من التعرف على أهل وطني. لو كان سير تشارلز هنا لاستطاع أن يريني أشياء لا أستطيع الوصول إليها وحدي، على أي حال أنا أشعر فعلا بجهلي بهذه البلاد، وسأعمل على تثقيف نفسي حتى يحين الوقت الذي يؤهلني لأن أكوّن رأيا خاصا في شئونها...

في نفس العدد من مجلة (أخبار لندن المصورة)، صورة مما نسميه اليوم «انطباع فنان» عن فتح الترانسفال: جمع غفير من أناس صغار الحجم يقفون على جانبي طريق واسع مترب، البعض يلوحون بعصي رفيعة ترفرف عليها مصغرات لعلم بريطانيا، وفي وسط الطريق رجل في بزة عسكرية يتقدم الجنود على جواده، لكن الفنان اختار أن يضع في مقدمة الصورة عجوزا ملتحيا (هل يمثل شعب البوير؟) يشيح بوجهه عن لورد روبرتس وجواده المتبختر، يواجهنا نحن القراء والغضب يتفجر في عينيه، وقبضته مضمومة ومرفوعة إلى صدره.

(٨)

امرأة مثلها
يجب أن تحمل
وتلد أطفالًا كثارًا
حتى تتحمل الخسارة
عندما يموت واحد أو اثنان

آما عطا عيدو (١٩٧٠)

القاهرة، مايو ١٩٩٧

جرس الإنتركوم يرن في الممر. كنت في حجرة نومي أعمل كعادتي هذه الأيام في مشروع آنا الذي اتخذته لنفسي: أقرأ عن تلك الفترة وأفحص الصور، أحاول أن أُعمِل الخيال، كنت دائما أحب العمل في حجرة النوم، أتحرك من المكتب إلى الفراش إلى التسريحة ثم أعود إلى المكتب، أتجاهل الحجرات الخالية وأقضي أيامي ولياليّ في هذا الركن من الشقة. أسَمّي المنضدة التي تحت الشباك «منضدة آنا»، وعليها أوراقها. رتبت الأوراق حسب التسلسل الزمني بقدر المستطاع، قارنت الأوراق الغفل من التاريخ بالأوراق المؤرخة وضاهيتها حسب لون الورق ونوعه، ورتبتها في ١٢ مجموعة، مجموعة لكل سنة، تختلف السنوات من حيث غزارة المجموعة، اليوميات موضوعة على حدة، أحاول ألا أقرأها حتى النهاية. أقرؤها سنة بسنة. على أني أعرف كيف انتهت الحكاية، ولا أظن أن هذا مهم، فنحن دائما نعرف نهاية القصة، أما ما نجهله فهو ما يحدث في الطريق إلى النهاية.

متعلقات آنا ملفوفة كما وجدتها في الصندوق الذي يرقد الآن بجوار الحائط إلى جانب التسريحة في حجرتي.

كنت أتوقع حضور إيزابل فتوقفت عن العمل ووقفت في النافذة، أرقب بلا تركيز امرأة تنشر الغسيل. لا بد أن غسيلها اليوم اقتصر على الغيارات البيضاء، فهي تنشر فانلات، فانلات بيضاء واحدة ثم واحدة، فانلات كبيرة ثم متوسطة ثم فانلات صغيرة، تنحني لحظة فتختفي خلف سور شرفتها ثم تقوم واقفة وفي يدها فانلة ومشبك الغسيل بين أسنانها، تنفض الفانلة وتفردها ثم تشبكها في الحبل عند الكتف. عندما تنتهي تلتقط الإناء البلاستيكيّ الأخضر وتدخل إلى شقتها، تتدلي الفانلات في الهواء الساكن كتفا إلى كتف وأعجب لأيام كنت أتذمر فيها من عبء غسيل ملابسهم، لكن في أوقات أخرى كنت أتوقف ساكنة وفي يدي فردة شراب مبتلة وقد فاجأني خاطر عن يوم آت سيخلو من غسيل الجوارب ونشر ملابس الألعاب الرياضية أيام الثلاثاء والخميس لتجف، يوم يصبح وقتي كله ملكي أفعل به ما أتمني. اليوم ماذا أتمني؟ لو كنت أعيش مع زوجي؟ لو كان أبنائي يعيشون في الجوار؟ لا أحد اليوم يعيش في جوار أهله، وهذه السيدة في البيت المقابل من يدري أين يذهب أبناؤها عندما يكبرون؟ كندا؟ دبي؟ القمر؟ قد يبتسم لها الحظ ويستقر واحد منهم هنا في القاهرة، قريبا منها فتري أحفادها وتحملهم بين ذراعيها وتتبادل الحديث معهم في شيخوختها.

نظرت إلى الأشجار تحتي في الحديقة وتساءلت : لو أنها غُسلَت، لو أن أحدا غسلها من فوق لتحت بخرطوم ماء، إلى متى تظل نظيفة؟ وكم من الوقت يستغرق الغبار ليستقر عليها ثانية؟ وتساءلت كم عمر هذه الأشجار؟ وهل هي من مخلفات زمن كانت فيه هذه المنطقة حقولا خضراء؟ أم أنها بدأت عمرها أشجارا

في المدينة؟ لا أظن. الأشجار هنا لا تزرع بل تقتلع، ذلك الطريق الواسع تحفه أشجار الكافور العملاقة في الجيزة على أول الطريق إلى الصعيد دمروه، أشجار تناطح السماء تعلو إلى أكثر من ستين مترا، زُرِعَت أيام محمد على، اقتُلِعَت من الجذور لتوسيع الطريق أمام السيارات والشاحنات المتجهة إلى الصعيد. عندما رن الجرس خيِّل إليَّ أن إيزابل حضرت مبكرة عن موعدها. سرت إلى الباب ورفعت السماعة فرن صوت تحية في أذني :

ـ دكتورة! يا دكتورة!

زعقت: «أيوه ؛ نعم» وأنا أبعد السماعة عن أذني.

ـ أطلع لك دقيقة؟

ـ اتفضلي.

ـ دلوقتي؟

ـ أيوه! تعالى.

تحية زوجة البواب، وصديقتي، تسأل عني وترسل أطفالها ليسألوا إذا كنت أحتاج من يغسل الأطباق أو يأخذ الملابس للكواء. تدخل الآن مبتسمة وأصغر أطفالها على جنبها وساقه في الجبس.

ـ إن شا الله ما كنتيش نايمة؟

ـ لا، لا، وأعبر الحجرة لأغلق باب الشرفة وهي تنزل الطفل إلى الأرض «الجرس صوته عالي قوي. كل مرة يرن أتْخَضْ».

تقترح وهي تنظر إلى الجهاز «نجيب له المهندس؟».

ـ ممكن، وأنظر إليه أنا أيضا.

ـ أو يمكن يبوظه.

ـ بلاش أحسن.

فالجهاز إضافة جديدة، لمسة تحديث للعمارة، وتحية وعم مدني البواب يفخران به.

ـ ما قصدناش نصحيكي.

ـ ما كنتش نايمة. تشربي شاي؟

ندخل إلى المطبخ فتقول: «استريحي إنت». أجلس إلى مائدة المطبخ وهي تملأ الغلاية. يتبعنا عبدالرحمن وقد عاد يحبو بسبب ساقه في الجبس، يجلس على الأرض أمام خزانة أبي العالية ويفتح الدرج الأسفل حيث مشابك الغسيل من البلاستيك الملون.

تقول ونحن ننتظر أن يخرط الشاي: «شوفي لي ده كده؟» وتضع أمامي مظروفا كبيرا بنيّ اللون، أفتحه وأخرج صورة أشعة، كلا سونار، أقرأ المكتوب بالإنجليزية في حروف دقيقة، أرفع عيني إلى وجهها المليح المجهد، العيون العسلية مكحولة والحواجب رفيعة منتوفة والمنديل الأزرق يقمط الجبهة.

ـ تاني؟ تاني يا تحية؟

ـ والله ما كنت عايزة. قلنا أربعة وحمدنا ربنا وقفلنا على كده، لكن أمر الله؛ نعمل إيه؟!

ـ ألم تركبي اللولب؟ افتكرت إنك....

ـ أيوه، ركبت لكن نزل عليّ دم، الدكتور خلعه وقالي خدي راحة فترة، وإنت عارفة الرجالة.

تختبر الشاي، أصبح في لون النبيذ، تصبه في كوبينا وتضيف السكر بالملعقة.

ـ عندك بسكوت هناك على الرف.

تحضر الطبق إلى الطاولة وتعطي ابنها بسكوتة.

ـ ورسول الله أنا ما ملاحقة عليهم كلهم، امبارح البنت الصغيرة كان عندها حرارة وبتزنّ طول النهار، وبالليل الولد ده خلاني صاحية طول الليل وأنا رايحة جاية. الجبس ولا مؤاخذة يخلّي رجله تاكله، طول الليل وأنا شايلاه، رايحة جاية بيه أطبطب عليه وأهدِّيه حتى مدني كان شوية شوية حيقول لي ربنا يكون في عونك.

ـ كتر خيره.

ـ يعمل إيه يا دكتورة؟ طول النهار يشتغل، وعنده سكر. صحته ما عادتش زي الأول.

أسمع صوت إيزابل في خيالي تقول عنده سكر لم يمنعه من أن يتسبب في حملها، وعندما كان بصحته هل كان يستيقظ في الليل ويهدئ الأطفال؟ لكن هل هي إيزابل حقًّا؟ أم أنها أفكاري أنا تتردد في صوت إيزابل. وطبعا فكرة الإجهاض مستحيلة، تحية ستقول: حرام يا دكتورة، دي روح مهما كان. أسألها منذ متى؟

ـ مش متأكدة.

أنظر في التقرير وأقول لها : «١١ أسبوع».

ـ بصي لي فيه كده وإقريه لي كله والنبي..

ـ حامل في ١١ أسبوع والجنين طبيعي.

ـ الحمد لله! تتنهد.

ـ عم مدني بيقول إيه؟.

ـ هيقول إيه؟ يقول نوكلهم منين؟ يحمد ربنا.

أقول: «العيل ييجي ورزقه معاه».

ـ معلوم. توافقني ثم تقوم لتغسل الأكواب:

ـ يا ختي اضحكي، حد واخد منها حاجة؟

ـ ولا حاجة. الإنسان مصيره لربه. وأهم خمسة في عين العدو!

يدق الجرس ثانية وأقوم لأرد. تدخل إيزابل وتحية تجمع مشابك الغسيل وتمسح فتات البسكوت من على الأرض. تبتسم كل منهما للأخري.

تهتف تحية: «هالو» بصوت عال وهي تقوم واقفة تبتسم وترفع يدها إلى رأسها بالتحية خشية ألا تفهمها إيزابل.

ترد إيزابل: «هالو! إزّي الصحة؟»

تتسع عينا تحية وهي تستدير إليّ «تتكلم عربي!»

ـ شايفة بقي الشطارة!

ـ ياختي براوه عليها، شكلها نبيهة والله، تبتسم تحية بإعجاب. ثم تسأل: «هي متجوزة؟»

ـ لا.

ـ زي القمر ومش متجوزة؟ ليه؟ ما عندهمش رجاله في أمريكا؟

أضحك: «يمكن مش عايزة أمريكاني».

ـ خلاص نجوزها هنا، شوفي لها عريس كويس من معارفك يا ست أمل ونعمل لها فرح يهز البلد.

تنحني لترفع عبدالرحمن: «في حاجة أعملها لك قبل ما أمشي؟»

ـ كتر خيرك يا تحية.

ـ طيب أستأذن أنا.

تصلح وضع ابنها على جنبها وتحاذر في إخراج ساقه بجبسها من الباب: «سلامُ عليكم».

تعلق إيزابل: «دائما منشرحة، وتعمل بجد طول الوقت».

ـ فعلا.

ـ آخر مرة كنت هنا رأيتها تمسح السلم، سلم العمارة كلها.

ـ لا بد أنه كان يوم خميس. هل تريدين... هل آتيك بشراب؟ الساعة بعد السابعة بقليل.

ـ فكرت أن نخرج للعشاء، اسمحي لي أدعوك للعشاء في الخارج.

ـ عندي طعام هنا.

ـ فلنخرج أحسن، ألا تخرجين أبدا؟

ـ هززت كتفي.

ـ لا بد أن هناك مكانا يعجبك؟

* * *

تقول إيزابل : تعالى إلى نيويورك، تعالى وانزلي عندي.

ـ لا شكرًا.

ـ يمكنك أن تفعلي ما تريدين. شقتي واسعة، وسنلتقي فقط عندما تحبين.

أهز رأسي بالرفض.

ـ وترين أخاك.

ـ سأراه عندما يحضر إلى القاهرة.

ـ لكنه لا يحضر كثيرا.

ـ أعرف.

ـ هل أخذت على نفسك عهدا أم ماذا؟

ـ قررت العودة إلى بلدي، تعبت من السفر.

وهل أذهب إلى نيويورك بدون التوقف في لندن؟ وهل أتوقف في لندن ولا ألتقي بزوجي؟

ـ ستحضرين يوما. أنا متأكدة.

ـ حقا؟

ـ ستحضرين عندما يعرضون فيلمي.

ـ أكيد.

ـ أنا أتحدث بجد.

ـ إيزابل! أنت بعد لا تعرفين بقية الحكاية، لا تعرفين كيف تتطور الأمور.

ـ لا يهم. أستطيع رؤيتها، من طريقة وصفك لها أستطيع أن أراها.

أهز رأسي، يبدو أنني دائما أهز رأسي في يأس، لكنها شجاعة منى، حتى الحضور هنا، عبر النهر، إلى هذا المطعم حيث تعشينا، حيث قبّل يديّ وتظاهرت بأنني لا ألاحظ كيف ينظر الجرسونات إلينا.

تسألني «تراهني؟»

ـ لا.

ـ أرأيت؟ لا تريدين أن تراهني.

ـ كيف تتقدمين في مشروعك؟ ألفيَّتك؟ ترفع بصرها إليّ، نسكت والجرسون يرص الأطباق على المائدة: محشي ورق العنب، حمص برشة زيت، بابا غنوج، سلطة جبن وطماطم، خبز طري وخبز محمص. تسألني: «ماذا تقصدين بألفيَّتي؟»

أبتسم لها، قالت عنها تحية : تبدو نبيهة.

ـ بالتأكيد هي ألفية لك أكثر منها لي.

تأخذ إيزابل قطعتين من محشي ورق العنب وتضيف إليهما الحمص:

ـ هناك أشياء كثيرة لا أعرفها، لكن هذه بداية، أليس كذلك؟

ـ معك حق. أنا آسفة.

وأنا آسفة فعلا لأنني مع كل ما أعلنه من الحياد والبعد عن الأحكام المسبقة كنت طول الوقت أنظر إليها بصفتها «الأمريكية».

ـ على أي حال كيف يسير مشروع بحثك؟

ـ لا أعرف بالضبط، من حدثتهم كانوا حريصين جدا في إجاباتهم، يتحدثون أساسا عن التكنولوجيا، ولدي شعور أنهم لا يتحدثون عما يشغل بالهم فعلا.

ـ المسألة صعبة.

ـ ولم؟ ما الصعوبة؟

ـ لأنك أمريكية.

ـ وما ذنبي؟!

ـ ليس لك ذنب، لكن يصبح من الصعب أن نتحدث معك في بعض الأمور.

ـ إن لي عقلا متفتحا. ما هي الأشياء التي تتحرجين منها؟

أعدها: «سيتحسن الحال، سنجد طريقة».

تسكت برهة ثم تقول:

ـ على أي حال، لقد جدت أشياء كثيرة تثير اهتمامي الآن، لن أعدل عن المشروع، لكن هناك أشياء أخرى أريد تحقيقها.

ـ لكن اسمحي لي يا إيزابل أن أسألك، كيف تدبرين أمورك مع نفقات كل هذه السفريات؟

ـ آه! ورثت عن أبي بعض المال، وسأبيع شقة والديّ. لست ثرية لكن... تبتسم وأسنانها المنتظمة تبرق في ضوء الشمعة الموضوعة على المائدة تحت غطاء من الزجاج.

* * *

قنديل من الزجاج المصنفر، فرشاة آنا خطت عليه الحروف. غُمِسَت في حبر الأكوامارين وانسابت مع جذع الألف لتزهر فجأة، خطت ذيل الياء فانفجرت في رشاش من المفرقعات تبعثر في النص علامات الترقيم. كانت تعرف من العربية ما يكفي لتتبين الحروف، لكنها لم تميز بعد أين تبدأ الكلمة وأين تنتهي. أرفع رأسي وأنظر إلى إيزابل، جميلة في الجاكت الوردي الباهت، تجلس قبالتي إلى المائدة، أبوها متوفي وأمها في عداد الأموات، نشترك في اليتم أنا وهي. أخوها متوفي وأخي غائب. بسرعة ألمس خشب المائدة بخلسة، أخي غائب لكنه حي. زواجها فشل، وأنا كذلك. أحاول أن أتحدث ببساطة:

ـ أتعرفين؟ كنا نحضر إلى هذا المطعم أنا وزوجي كلما نزلنا القاهرة. كان مطعمنا المفضل. هذه أول مره أحضر هنا بدونه.

ـ هل أنت مطلقة؟

ـ لا، لكننا انفصلنا منذ زمن بعيد.

لكن أنا لي أولاد أما هي فلا، على أن أبنائي ليسوا معي، وأحاول ألا أقضي أيامي في انتظارهم، في انتظار رنين التليفون وصوت أحدهم يقول: ماما، أفكر في الحضور لأراك.

ينساب شعر إيزابل ناعما متألقا إلى أسفل الأذنين، وفي جيدها الطويل سلسلة رقيقة من الفضة، إنها في ريعان شبابها، في البداية، وأنا أقارب النهاية ـ أبتسم لها. تقول:

ـ أتعرفين؟ أنا سعيدة حقا أني تعرفت عليك.

أمد يدي لحظة وأربت على يدها الساكنة على المائدة بيننا وأقول:

ـ أدهشتِ تحية بالكلام العربي.

ـ تعلمت حروف الهجاء ويعطونني قوائم من الكلمات لكن...

ـ لكن؟

ـ لم أجد مفتاحا لفهم اللغة.

ـ اسمعي، تعرفين الحروف وعندك قاموس. كل كلمة تقوم على جذر، والجذر مكون من ٣ حروف أو حرفين، بعد ذلك تتخذ الكلمة أشكالا مختلفة، انظري، تستيقظ فيّ عادة التدريس القديمة وأنا أبحث في حقيبتي عن ورقة وقلم.

ـ خذي هذا المثال: ق ل ب. يمكنك قراءة هذا؟

ـ نعم.

ـ قلب: القلب الذي يدق، القلب في قلب الأشياء، أترين؟

ـ تهز رأسها وهي تتفحص الحروف على الورقة.

ـ ثم هناك عدد محدد من الأشكال يمكن أن يتخذها الجذر ـ أي جذر، مثلا عندك ق ل ب: يقلب، يطيح به، يقلب رأسا على عقب، يقلب إلى العكس؛ ومنها مقلب: حيلة قذرة، تغيير المسار (قلب الموائد)، مقلب زبالة (نفايات). مقلوب: رأس على عقب، مُتَقَلّب: كثير التغير، وانقلاب: ضربة سياسية.

إذن في قلب الأشياء جميعها بذرة سقوطها، كلما اقتربنا من

القلب شارفنا انقلاب الحال، لا مناص من الهبوط وبعد القمة ليس هناك سوى الانحدار، نصل للب الموضوع فيطيح بنا الانفجار.

تسأل إيزابل:

ـ هل هناك كتاب يشرح هذه الأمور؟

ـ لا أدري، لا بد أن هناك كتبا في الموضوع، أنا شخصيا وصلت إليها بالاستنتاج.

ـ مفيدة فعلا.

ـ أعتقد ذلك؛ تريك طريقا تسلكينه.

ـ وفي كل مرة تستخدمين كلمة، تأتي معها بجميع الأشكال التي تخرج من نفس الجذر؟

نعم تأتيك سابحة في حشد مثل البويضات: الملكة في الوسط تصحبها غيرها من البويضات كبيرة وصغيرة، التي لن تنال الإخصاب هذه المرة. قلت:

نعم ـ تقريبًا ـ ابحثي دائما عن الجذر: الحروف الثلاثة أو الحرفين.

ـ سأدرس هذه الفكرة وأطبقها.

ـ أعلميني بالنتيجة.

تطوي إيزابل الورقة وتضعها في حقيبة يدها. الليل يخيم خارج زجاج النوافذ المتسعة، قل مرور السيارات في شارع ماسبيرو، وغطي الظلام على الغبار العالق بالأشجار. تلمع أضواء المركب عمر الخيام ومطاعم الباشا على ماء النيل. من حين لآخر يسري

قارب صغير بهدوء، وبجانب السور الحديدي يتلكأ المتنزهون اثنين اثنين، الشباب في قمصان قصيرة الأكمام والبنات متلفحات بطرح وإيشاربات كبيرة، إذا مر بهم شاب يسير منفردا يدير رأسه ويطيل التحديق.

نغادر المطعم، ونسير واحدة وراء الأخري على الرصيف الضيق إلى حيث تركنا السيارة بجانب فندق هيلتون رمسيس، أعتذر عن قبول دعوة إيزابل أن نتناول شرابا، كفاني أشباحًا من الماضي في هذه الليلة، بودي أن أعود إلى شقتي، وإلي حجرتي.

ندور تحت الشجرة العملاقة أمام مبنى التليفزيون الذي ما زال محصنا بأكياس الرمل منذ حرب ٦٧، ونعود أدراجنا إلى كوبري قصر النيل.

تسألني إيزابل: «ما أخبار آنا؟».

أقول: «فاتكِ الكثير، فقدتِ الصلة».

ـ أبدا، قلتِ إنها ذهبت إلى مصر ـ حضرت إلى مصر. لقد قرأت ذلك الجزء عن الإسكندرية.

ـ طيب ! هي الآن في القاهرة ؛ تقضي معظم الوقت مع الجالية الإنجليزية، السفارة ومتعلقاتها، تريد أن تتعلم اللغة العربية.

ـ من الذي سيعلمها؟

ـ لا أعرف بعد، چيمس بارنجتون يعرف العربية.

ـ هل وجدت ما كانت تبحث عنه؟ ما رأته في لوحات فردريك لويس؟

ـ على خفيف جدا، في السوق، لكن بشكل عام لا.

ـ هل ستجده حقا؟

ـ لا أدري، أملي أن تفعل، على أنها تبقي مدة طويلة فلعلها وجدت شيئا ما.

ـ يعني عندنا مشهد في البازار؟

ـ نعم، مشهد كامل بكل الملحقات: حمير الركوب، والحرفيون المسنون بأجسامهم الضئيلة، ونداءات الباعة، والوصيفة المذعورة التي لا يعجبها المكان، وأطفال الشارع يزعقون في طلب البقشيش...

ـ أنت تسخرين مني؟!

ـ على خفيف، وبلطف.

ـ أتعرفين أنك تشبهين أخاك بشكل ملفت؟

آه. كنت أتساءل متى تعود للحديث عنه! أخي!

(٩)

.. في هذه القصة، قصة الحكم التركي والألباني والبريطاني في مصر، مصر هي باستمرار العنصر الحقيقي الفعّال. إنها مثل قصة رجل ذي منصب عام وله زوجة ذكية، طالما ظلت وراءه تسانده زاد في الازدهار والنجاح فإذا انسحبت هي سقط هو ـ ومن الصعب إيضاح كيف يحدث هذا.

چورچ يونج (١٩٢٧)

القاهرة، ٢٥ يناير ١٩٠١

الوالد العزيز سير تشارلز

أتعجب نوعًا لعدم وجودي في إنجلترا هذه الأيام، أعي جسامة الأحداث ـ لكنها أحداث لا تتجسد فيما يدور حولي، فلا شيء هنا يعكس رحيل الملكة إلا الأعلام المنكسة والاكتئاب العام في دار المعتمد، على أني لم أر فيها على العموم أي مظهر من مظاهر الفرح في الماضي، وفي بقية البلاد تسير الحياة كالمعتاد ـ حسب ما أرى ـ فالناس يحتفلون بعيدهم في نهاية شهر رمضان. أعرف أن الناس في إنجلترا مشغولون بالاستعداد للجنازة وتتويج الملك الجديد، وأن هذا هو الحدث الأساسي حتى في حياة غالبية الشعب التي لا دور لها في كل هذا. ولا بد أن أملًا (أو حتى توجسًا) في تغير قريب، يحرك قلوبا كثيرة الآن. يصعب عليَّ اعتياد فكرة رحيل الملكة، فقد كانت دوما كالنجم الثابت في سمائنا، لا أقول إنني حزينة لرحيلها، كانت أبعد من أن تثير في النفس عاطفة حتى بعد اللقاء بها، بل الأمر هو أن الدهشة تصيبني من جديد كلما تذكرت أنها لم تعد على قيد الحياة.

هل يخالجك أمل في تغيير إلى الأحسن؟ كثيرا ما سمعتك تقول إن ولي العهد على علم بما يدور في العالم أكثر من والدته، وأكثر حتى من لورد سالزبوري، هل تستطيعون الآن وضع حد لتلك الحرب في جنوب إفريقيا؟

أمضيت ساعات بعد ظهر أمس في نادي الجزيرة، وكان بين الحاضرين رجل من وزارة المالية اسمه «مَني» (لا أظن تشارلز ديكنز نفسه كان بمقدوره أن يختار له اسما أنسب) قال رجل المال إن حملة جنوب إفريقيا كلفتنا حتى الآن مائة وخمسين مليون جنيه، حدثته عن تقديرك في أول الحرب أنها ستكلفنا مائتي مليون فقال إنها قد تصل الي المائتي مليون في المستقبل القريب. رجائي أن تكتب لي عن رأيك في كل هذه الأمور، فأنا أفتقد حديثك معي أكثر من أي شيء في إنجلترا.

هنا في القاهرة الأمور تسير كالمعتاد. اليوم سمحت لي مسز بوتشر (وأعتقد أنني سبق أن حدثتك عنها) بمرافقتها في زيارة لكنيسة عتيقة رائعة تقوم على أنقاض أبراج حصن بابليون الروماني في الحي المسيحي القديم في جنوب القاهرة. للكنيسة سقف عجيب من الخشب كأنه زورق مقلوب، ويخلو من القباب من أي نوع، وأشار رجل عجوز يبين لنا صورة العذراء مطبوعة على عامود من الرخام وأخذ يتحدث بحماس وهو يشير إلى الصورة، وشرحت لي مسز بوتشر فيما بعد أن أهل البلد يعتقدون أن العذراء تركت لهم صورتها كبشارة أو علامة عندما ظهرت في

القرن العاشر للبطريرك أبراهام. كان الخليفة المعز، مستندا إلى نص من إنجيل متى (إصحاح ١٧ ، آية ٢٠): «فالحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم» يتحدي البطريرك، فطلب منه أن يحرّك جبل المقطم. اعتزل البطريرك في الكنيسة صائما متعبدا، وفي اليوم الثالث ظهرت له العذراء وضرب زلزال عنيف جبل المقطم، ورضي الخليفة المعز وأمر بإصلاح الكنيسة وترميمها، وأعاد بناء كنيسة أبي سيفين كذلك. وهي حكاية طريفة لكني أرى أن صورة العذراء تشبه أيقونات ذلك العصر، والواقع أن الوجه يكاد يطابق وجهها في صورة أخرى معلقة قرب مدخل الكنيسة تمثل السيدة مريم وعلي رأسها تاج، والطفل يسوع في حجرها متوج هو الآخر، والقديس يوحنا ينحني ليقبل قدم الطفل. ويقولون إن عيني العذراء في هذه الصورة تتحرك وتتبعك أينما ذهبت. اختبرت هذه «المعجزة» بقدر ما يسمح احترام المكان ولكني لم أقتنع أن عينيها تتبعاني. وجدتها كنيسة بديعة بالرغم من صغرها وعتمتها، ولاحظت أن الخشب المطعم بالصدف وبلاطات الخزف على الجدران ومصابيح الزيت في أركانها والبلاط الحجري والمنبر وزخرفه تشبه الكثير مما رأيت في المساجد القديمة! ألا يدفعنا هذا إلى الحدس أنه تعبير عن وحدة في الحافز الديني والمبدأ الجمالي في الدينين المسيحي والإسلامي؟

الكنيسة المعلقة. منذ زمن طويل، في رحلة مع المدرسة، جربت الحركة أمام عيني العذراء، كنت أريد أن أتأكد أنهما تتبعاني، لكني لم أتأكد. أذكر أن الدليل يومها قال لنا إن أخشاب السقف ترمز إلى سفينة نوح، وإن الأعمدة الثمانية ترمز إلى أفراد أسرته، قال إن ثلاثة عشر عامودا يقوم عليها المنبر تمثل السيد المسيح وحوارييه الاثني عشر وإن العامود الأسود وسطها هو يهوذا الخائن. وشعرت وقتها أنني بدأت في فهم البناء، وإن كنت اليوم لا أعرف مدى الدقة في كلام ذلك الدليل. كانت نقطة بداية على أي حال. ورغم تحذير المدرسين هبطنا الدرج الحديدي الذي اهتز تحت وطء أقدامنا ونزلنا إلى القبو الرطب ورأينا الماء الآسن يغطي القاع تعلوه طبقة سميكة من العفن الأخضر واندفع في الهواء مخلوق داكن اللون ورفرف بجانب وجوهنا وصرخ صوت: إن الخفافيش تسكن هذا المكان فتراجعنا وصعدنا السلالم جريا، وكم شعرنا بالراحة ونحن نمر خلال الستائر المخملية الحمراء وندلف إلى طمأنينة الكنيسة لنخرج منها عائدين إلى نور النهار.

جلسنا تحت شجرة يقولون إنها أظلت العذراء في هروبها إلى مصر، وأعترف أنني تأثرت بإيمان الدليل وهو يتحدث عن السيدة مريم وابنها يسوع المسيح، ونقلت لي مسز بوتشر إيمانه بأن هذه الشجرة بالذات هي التي نشرت عليهما ظلها. ولعلها كانت حقا نفس الشجرة. وحتى بافتراض أنها لم تكن، فطالما أن هناك أشجارا كثيرة يقال إن سيدتنا وابنها ارتاحا تحتها، فما الضرر أن يعتقد إنسان أن شجرته هو بالتحديد هي التي أكرمت وفادتهما تحت ظلها

الوارف؟ شرط ألا يتعارك مع جيرانه لإثبات أحقية شجرته، ماذا يمنع أن تكون السيدة مريم ارتاحت في ظل أشجار عديدة أثناء إقامتها في هذه البلاد؟

مسز بوتشر تعاملني بعطف، وهي سيدة طيبة القلب تعيش مع زوجها في مصر منذ عشرين سنة، علاقتها طيبة مع أهل البلد وتتحدث لغتهم، تفكيرها لا يشوبه تعنت بل يمتاز بالآراء الكريمة الرحبة. حدثتني باهتمام وتعاطف عن ديانة قدماء المصريين وعناصر الشبه بينها (في مراحلها المتطورة) وبين عقيدتنا المسيحية. قالت إن المصري القديم مثله مثل المسيحي اليوم أدرك أنه يعيش تحت نظر الإله وفي ظل جناحه الأبدي.

أخناتون. الملك الشاب الذي ثار على سلطة كهنة آمون. اصطحب زوجته، نفرتيتي، أجمل ملكات المصريين القدماء، وأسرته وحاشيته، وبني عاصمة جديدة في تل العمارنة، ومنها أعلن عبادة الإله الواحد: آتون. ماذا حدث بعد ذلك؟ لدينا شذرات من قصته، وصور: على العرش نفسه نري الملكة تميل، يدها ممدودة تلمس في حنان العقد الملكي لفرعون الجالس على العرش، زوجها. نري صورًا لم يسبق للعالم أن رأي مثلها، الملك وأسرته يلهون، الملك يمسك بإحدي بناته جالسة على ركبتيه، والملكة تقبل ابنة أخرى. ما الذي حدث؟ ما الذي دعاه لأن يطرح عنه نفرتيتي ويبعدها؟ ما القوي التي جمعتها هي ضده في ذلك الوقت؟ كل ما نعرفه أن بوفاته عاد كهنة آمون إلى السلطة وحرَّموا دفن جثمانه، فتسللت أخته ليلا وضمخت جسده بالزيت المقدس

ودفنته، وعوقبت على ذلك بالحبس في زنزانة مظلمة حتى الموت من العطش والجوع.

أرى آنا في خيالي تضع القلم من يدها وتقرأ الخطاب حتى آخره ثم تطويه بعناية. الساعة الحادية عشرة وقد ذهبت خادمتها إيملي إلى فراشها، أما آنا فلا يستقر لها قرار، تسير في حجرتها ثم تفتح شيش النافذة وتنظر خارجها: ليلة مظلمة في يناير، لا تري شيئا في الخارج إلا حصانا وسايسه ينتظران خروج سيدهما من فندق شبرد ليحملاه إلى بيته بعد قضاء السهرة.

١٠ فبراير

ذكرت رغبتي في تعلم اللغة العربية فقال دين بوتشر: تريدين قراءة المعلقات؟ لم أكن أنوي قراءتها ولا حتى أعرف ما هي! فشرح لي أنه اسم يطلق على أشهر قصائد الشعر العربي من عصر ما قبل الإسلام وعددها سبعة، ولفت نظري تشابه الاسم مع اسم الكنيسة التي أصبحت أثيرة لديَّ في مصر. شرح لي دين بوتشر الفعل «علّق»، وأن الكنيسة تسمى «المعلقة» لأنها تقوم على البوابة القديمة للحصن الروماني، أما المعلقات فكانت القصائد الفائزة في مهرجان كبير للشعر كان يقام في مكة كل عام، فتنال شرف التعليق على باب بيت الله، أي الكعبة.

ألحت على فكرة أن تشابه الأسماء لا بد يحمل دلالة أعمق فسألت إن كان الاسم قد أطلق على أشياء أخرى،

ففكر قليلا ثم قال إنه لا يذكر إلا حالة واحدة وهي حدائق بابل المعلقة على نهر الفرات.

ع ل ق بالشيء أي نشب فيه، والعلاقة الهوى والحب اللازم للقلب، وعلَّق على الشيء أي أبدى ملحوظاته عليه.

عاودت زيارة «المعلقة» مرات ومرات. ازدادت معرفتي بالمكان وتعرفت على الشخصيات المصورة في الرسومات، صرت أتعرف على تعبيرات وجوههم وأوضاع أجسامهم، واعتادت أذني الأنغام الشرقية في التراتيل القبطية ثم سكون الكنيسة الخالية لا يقطعه إلا صوت في الطريق ينادي باللغة العربية، واعتاد أنفي لسعة رائحة البخور الشرقي كأن بها لمسة من صفيح، وكلما ازدادت معرفتي بالمكان ازداد شعوري بالألفة في هذه الكنيسة، وازداد وعيي بتأثيرها على مشاعري وعلي روحي، شعور برحابة متزايدة في نفسي كما لو كان عُمْر البناء وسنوات القداسة الطويلة التي قام فيها بين برجين توءمين من العصر الروماني ينفذ إلى أعماق روحي فأصبحِ جزءا من تلك الفسحة العريضة من الزمن، لا أجد كلمات خيرًا من هذه أفصح بها عن شعوري، لكنه شعور عميق بالسلام، أدعو الرب أن يدوم.

أجد نفسي أريد أن أعود إلى «المعلقة» وأقرأ الكلمات المنقوشة على المدخل: «اسألوا تعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم». أجلس في حجرتي على الأرض، أسند ظهري إلى جانب سريري ومفكرة آنا مفتوحة بجواري على الأرض، وحولها انتشرت رسائلها.

أقاوم أن تصيبني عدوي قلقها. أتململ في مجلسي مربعة الساقين مستقيمة الظهر. كنت أحب التجوال في تلك المنطقة: أزور جامع عمرو ثم الكنائس، أسير خلال الشوارع الضيقة المبلطة في الحي القبطي، وأجلس بعض الوقت في المقابر المسيحية التي تختلف كثيرا عن مقابرنا؛ هناك مدافن العائلات القبطية الكبيرة تحيطها أشجار دائمة الخضرة وتماثيل مرمرية. سأخبر إيزابل. سأقول لها لا بد أن تزور «المعلقة».

أما عن آنا فكما يحدث لنا أحيانا إذ نبدأ التفكير في شيء تطرأ ظروف تدفعنا إلى مزيد من التفكير فيه: أمامي خطاب إلى كارولين بورك، الصفحة الأولى ناقصة لكن تاريخه فيما أعتقد ١٠ مارس أو ما حوله:

.... كانت صامتة معظم الوقت إلا حين سألها مستر بارنجتون النصيحة حول فرس يفكر في شرائها، وفي مناسبة أخرى سأرويها لك: كان بين الحاضرين شاب يدعي تمبل جيردنر، طويل القامة متعثر الخطوات غزير الشعر، رُسِّم مبشرا بالأمس في الإسكندرية، يفور بالحماس ليبدأ العمل في تنصير أمة محمد من أهل القاهرة، فوجئ وارتبك ـ فيما أظن ـ عندما سألته مسز بوتشر عن الحكمة في مهمته هذه فلم يكن يتوقع مثل هذا السؤال من زوجة رجل من رجال الكنيسة. كانت تحدثه برفق لكن مقصدها كان واضحا لا يحتمل الشك وهي تلفته إلى ما يحل بالشخص الذي ينجح هو في تنصيره: المشاكل القانونية في الميراث والاغتراب عن الأسرة والأصدقاء. قالت قد يكون المسلم من أهل البلد

صديقا بمعني ما لجاره القبطي، أما أن يرتد ابنه أو شقيقه عن دينه فموضوع آخر. أخذ مستر جيردنر يدافع عن مهمته قائلا إن هذه الأمور الدنيوية لا يمكن أن تعادل عذاب السيد المسيح، متعهدا أنه هو وجمعية المبشرين سيعوضون من يدخل في ظلهم ولن يحتاج لهم بديلا. عند ذلك خرجت ليدي آن (بلانت) عن صمتها لتسأله لماذا يجد ضرورة في جعل المسلم يعتنق الدين المسيحي ـ حيث المسلم مؤمن على أي حال ـ وهل الأمر يساوي ما يتعرض له من مشاكل هو وكل من يعرفه أن تدفعه ليعبد الرب نفسه لكن بطريقة مختلفة؟ وهكذا وجد مستر جيردنر نفسه محصورا بين سيدتين من الكرائم لكن لا قبل له بصرامتهما وأعترف أنني عطفت عليه لما أصابه من ارتباك فقد بدا لي حسن النية لا يقصد إلا الخير.

وانتهي النقاش بطريقة ودية لأنه رفض أن يدخل في مناقشة في اللاهوت، واكتفي بالقول إنه حتى لو نظرنا إلى الموضوع من وجهة نظر تاريخية بحتة، فهذا البناء من العقيدة الإسلامية قام أصلا في وجه المسيحية وأن مراده أن يستعيد إلى رحاب المسيح تلك النفوس التي كانت له أصلا، وأغضت السيدتان عن كلامه ولم تلحا في الموضوع، وحكي مستر بويل حكاية عن صبي حَمَّار كان يسقط فجأة راكعا على ركبتيه أمام السائحات صائحا: «ليدي، ليدي، أنا مؤمن، جب إت بلنتي ببيل» وهي تنويعة على «بقشيش كثير». إلا أن مسز بوتشر أسرت إلَيّ أن ذلك النشاط الذي يقوم به

أمثال مستر جيردنر يؤدي إلى المشاكل في رأيها، وأنها تشك أنه سينجح في تنصير فرد واحد عن إيمان صادق.

والآن يا صديقتي حتى لا تظني أنني أصبحت مملة وجادة أكثر من اللازم، دعيني أحدثك عن الحفلة التي حضرتها وتعد ذروة حفلات موسم الشتاء: الحفل الراقص الذي يقيمه الخديو في قصر عابدين، كان مؤجلاً احتراما لفترة حدادنا على وفاة الملكة، وبعد تتويج ملكنا الجديد رؤي من المناسب أن يتم الاحتفال، وخصوصا أنها المناسبة الوحيدة هنا التي يلتقي فيها أفراد من جميع الجاليات، مما يضفي عليها أهمية خاصة من وجهة النظر السياسية والدبلوماسية.

كانت حفلة فاخرة عقدت في سراي عابدين، المقر الرسمي للخديو (أما مقره الشخصي ففي سراي القبة). في تلك الليلة كانت العربات تسير في صف بطيء من الفندق إلى السراي وأنف كل حصان في ظهر العربة التي تسبقه.

وزاد من بطء العربات موكب غريب اضطرنا للتوقف عندما وصلنا إلى الطرف الجنوبي لميدان الأوبرا: حوالي مائتين من الرجال في زي عمال الترام وعدد من الشباب المصريين يرتدون ملابس أوروبية، ورأينا الجميع يسيرون في خطوة منتظمة تسبقهم جوقة من الموسيقى النحاسية، جاءوا من ناحية القلعة وساروا أمامنا حتى اضطررنا أن نسير خلفهم ونتبع خطوتهم طول الطريق حتى القصر، ولم يكن أحد بيننا يعرف عنهم شيئا ثم قيل لا بد أنهم يحتفلون

بشيء ما. ذهبت برفقة ليدي ولفرتون وسير هدورث لامبتون، واعتبر مقامنا من الأهمية بحيث قدمنا لجلالة الخديو وأوقفونا قرب المقدمة في الطابور للدخول إلى قاعة الرقص. يبدو الخديو في الواقع شابا بالغ الظرف، يشع في عينيه الذكاء وترتسم على شفتيه ابتسامة لطيفة وسلوكه مصقول مجامل وخسارة أنه هو ولورد كرومر لا يتفقان، وقد ظهر اللورد في الحفل لكنه انصرف مبكرا حتى قبل العشاء؛ وقد وجدوا له عذرًا، حزنه على وفاة زوجته وأنه في العادة ينفر من الاحتفالات.

أدهشتني فخامة قاعة الرقص، مذَهّبات وكريستال ومخمل في كل مكان، وعلي العموم كل ما يتوقعه المرء في قصر ملكي وأكثر! في أحد أطراف القاعة أبواب ضخمة فتحت بعد فترة لتكشف عن قاعة ولائم فاخرة، وفي الطرف الآخر شرفة ضيقة تدور حول الجزء المرتفع من جدران القاعة، خلفها شبابيك غريبة مذهبة عرفت أن سيدات البلاط يجلسن خلفها ويرقبن ما يدور في الحفل إذا رغبن. أثار وجودهن المتخفي اهتمامي بطبيعة الحال وكنت طوال الحفل أرفع بصري إلى ما وراء الشرفة فلو كنت رجلا لكان سلوكي خارجا عن اللياقة، على أنني بالرغم من تطلعي إلى ما يدور خلف الساتر كان ما أتمناه حقًّا هو أن أعرف كيف نبدو نحن في قاعة الرقص أمام تلك العيون التي ترقبنا في خفاء. أما الرقص فلم يخرج بأي حال عما يقع في حفل رسمي في بيوت الكبراء في إنجلترا، إلا أنني لم أر في حياتي ذلك

الخليط من الجنسيات المتباينة، فمن قناصل جميع الدول العظمي إلى ممثلي جميع البلاد بنسائهم، وبطبيعة الحال كان هناك حضور بريطاني مكثف.

وكان الأعيان من أهل البلاد بين الحضور، وهم الذين أثاروا فضولي، فلم يسبق لي اللقاء بأي منهم بالرغم من مرور خمسة أشهر على إقامتي في البلاد، لكن لم يكن بينهم سيدة مسلمة واحدة، لا شك أنهن كن جميعا هناك وراء الخصاص.

كان الرجال يرتدون الزي العسكري للجيش المصري أو قفطان رجال الدين، أو على شاكلة الخديو يرتدون بذلة البلاط الرسمية والطربوش الأحمر يغطي الرأس، وأعترف أني أعجبت بمظهر كثيرين منهم لكنهم لم يختلطوا بأحد ولم أر أيا منهم يشارك في الرقص.

تودين طبعا أن تعرفي تفاصيل زينتي. اخترت فستاني الحرير البنفسجي، ولم تعتبره إميلي فاخرا بما يناسب الحفل، ولعلها كانت على حق، لكني أخذت في حسابي وجود ضيوف مسلمين من أهل البلد، ويستحسن أن يغطي ردائي كتفي وذراعي بما لا يثير امتعاضا بينهم، فلسنا إلا ضيوفًا في بلدهم، لكني ارتديت تاج ليدي ونتربورن الماسي وعقد والدتي من الأحجار الكريمة، وأعتقد أني لم أخذل الإمبراطورية!

عندما فتحت الأبواب إلى قاعة العشاء، اندفع الجميع

مزدحمين حتى يخيل لك أن هذا الجمع الغفير لم يتناول طعاما منذ أسابيع، تراجعت أنا وليدي ولفرتون بعيدا عن الزحام لفترة، ولاحظت أن بعض السادة من أهل البلد فعلوا مثلنا، وأن بعضهم انتهز الفرصة ليغادر الحفل بعد قليل، وخامرني شعور غريب أنني سبق أن رأيت واحدا منهم، لمحته للحظة خاطفة وهو يستدير ليغادر المكان، وأعادني شيء ما إلى ذكري مسرح الكونستانزي في روما وخيل إلَيَّ أني أسمع أغنية توسكا تعلو في دار الأوبرا وما نتج عنها من إحراج لك يا صديقتي العزيزة.

لكنها كانت بداية شفائي، وأملي أن يطمئنك خطابي هذا أنني أحرزت تقدما كبيرا منذ تلك الأيام الأسيفة التي ستظل ذكراها عندي عنوانا لإخلاصك ومحبتك لصديقتك.. إلخ إلخ.

وكان أحد العلماء الموجودين في ذلك الحفل، مرتدين قفطان رجال الدين، فضيلة الشيخ حسونة النواوي، وفي خطاب وجهه إلى الشيخ محمد عبده قال فضيلته: إنه يعلم أن عادات الفرنج «تختلف عن عاداتنا» ولكنه وجد «من الغريب حقًّا أن ترقص سيدات عاريات الأذرع، وشبه عاريات النحور، مع رجال غرباء بينما يتفرج أزواجهن بدون ضيق بل وبرضا ظاهر!»

القاهرة في ١٠ مارس ١٩٠١

العزيز جدا السير تشارلز

سعدت جدا بخطابك الأخير. كرمك في سرد حكايات الأحداث الأخيرة وأحاديث أصدقائنا جعلني أتوق إلى الحياة في لندن مرة أخرى. أشعر بالحزن حين أتخيل بيتنا مغلقًا، موحشًا، باردًا. لكن أؤكد لك أننا - في الشتاء القادم - سنعود إلى عهدنا القديم أو - على الأقل - إلى ما تيسَّر لنا منه، وحين تأتي لزيارتي في المساء، سيكون شرابك المفضل في انتظارك، والنار متقدة مرحبة في كل المدافئ.

تناولت العشاء اليوم في صحبة لطيفة، كان ضمنها صديقك سير هدوورث لامبتون وأيضًا ليدي تشلسي، وقد وعدني كل منهما أنه سوف يمر عليك في لندن في الشهر القادم ويعطيك تقريرا جيدا عني!

ليدي آن بلانت أيضًا كانت موجودة (ولم تدعُني لزيارة بيتهم في هليوبوليس وبالتالي لن تسنح لي فرصة التعرف على مستر بلانت إلى أن أعود إلى لندن وتدعوه أنت إلى العشاء) ومعها ابنتها جوديث، وهي جميلة ومليئة بالحيوية، وتحادثنا عن إنجلترا وعن أصدقائنا ومعارفنا المشتركين.

أما بالأمس، فقد حضرت محادثة (وأقول «حضرت» حيث إن دوري لم يتعد أبدًا دور المستمع) أتصور أنها تهمك كثيرا، ولو كنت مكاني لوجدت الكثير جدا تشارك به فيها. كان مسرح الأحداث هو هضبة الهرم الأكبر (الذي

وصفت انبهاري به في خطابات سابقة) حيث ذهبنا لتناول الغداء بعد رحلة بالمراكب وعلي ظهور الحمير (فلم أجرؤ بعد على ركوب الجمال!)

لك أن تتصور المشهد: السجاد مفروش على الأرض، سلال الطعام مفتوحة، والأكل منمق على أطباق جميلة، والخدم مشغولون بمحاولات إبعاد التراجمة والأطفال الذين تزاحموا يعرضون الخدمات، والحمير، والجمال، والمساعدة على الصعود إلى قمة الهرم، أو يطلبون ـ ببساطة ـ بعض المال، وإميلي تجلس على ركن بعيد من السجادة. وقد نجحت في أن أجعلها تأتي معي بأن قلت لها إنها لا يمكن أن تعود إلى إنجلترا دون أن تري الأهرامات. أعتقد أنها اشتمت في هذا أن سفرنا يقترب، وحتي لا يحول شيء دون الرحيل أتت معي ـ ثم جلست تنظر بإصرار في الاتجاه المضاد لاتجاه الهرم ـ أي في اتجاه الخضرة الوارفة التي تسبق القاهرة ـ أقرب شيء إلى المدنية المتحضرة في متناول إميلي لحظتها.

وأعترف أني لا أستطيع بعد أن أصدق عيني لسرعة تحول المشهد من رمال الصحراء إلى خضرة الحقول المزروعة وغابات النخيل. أتصور مشاعر المسافر، بعد أيام وليال يقضيها في فضاء الصحراء، ثم يصل فجأة إلى هذه الوفرة الخضراء المثمرة. أي معجزة هذي؟ لكني خرجت عن الموضوع.

كانت مجموعتنا تتكون من هاري بويل، السكرتير الشرقي للورد كرومر؛ جيمس بارنجتون، السكرتير الثالث؛ صديقك مستر رود، السكرتير الأول الذي سيغادر مصر قريبا؛ مسز بوتشر (ولم أكن لأستطيع الذهاب لولا وجودها)؛ مستر دوجلاس سليدن ومستر جورج يانج، وكل منهما يكتب كتابا عن مصر؛ مستر وليام وِلكوكس - وهو المهندس المسئول عن بناء الخزان الكبير عَند أسوان - وأنا.

وفي ظل أربعين قرنا كان من الطبيعي أن يكون الحديث عن مصر، عن حياة الفلاح المصري التي لم تتغير على مر القرون، وعن كل من حكموا هذا الفلاح، وعن وجودنا نحن هنا الآن. وقد أخذ مستر بويل الخط المتوقع: أن البلاد لم تَحْظَ أبدا بمثل الحكم البريطاني وأن المصريين لم يحْظَوا أبدا بمثل سعادتهم ورخائهم اليوم تحت اللورد كرومر.

وجاءت المعارضة من مصدر غير متوقع: مستر وِلكوكس (الذي علمت فيما بعد أنه دفع خمسة جنيهات اشتراكا في المؤيد وهي جريدة وطنية، ويعيش بالتالي في ظل غضب اللورد كرومر). سأل مستر ولكوكس لماذا إذن تكتب الجرائد ضدنا؟ قال مستر بويل إنه لا يعلم أن الجرائد تكتب ضدنا، وأن كُتّاب المقطم والجازيت يمدحوننا، ورأيت وقتها ابتسامة تدور على الوجوه وقال مستر وِلكوكس آه.. لم أقصد بالطبع هاتين الجريدتين. قصدت أي جريدة أخرى من مائتي جريدة تصدر هنا: الجرائد الأهلية. مستر بويل (بنوع من الازدراء) يا سيدي، تلك هي (الطبقات الثرثارة). إنهم

يحترفون السخط. كم كنت أود أن أمسك بدفتر مذكراتي وأسجل حديثهم. وبالطبع لم يكن هذا من اللائق، فلجأت إلى الحيلة وأخرجت أقلامي وكراسة الرسم ـ فالمشهد كان بديعًا وكل شخصية فيه لها نكهتها الخاصة ـ وأخذت أرسم وتمكنت أيضًا من أن أدون بعض الملاحظات ـ وها أنا أنقل كل هذا لك كمشهد مسرحي صغير ومعه بعض الرسومات وأملي أن تجد فيه بعض المتعة.

ها هو المشهد في سفح الهرم الأكبر، الرجال مسترخون على سجيتهم، مسز بوتشر تجلس معتدلة وقورة على وسادتها، ترتدي ثوبًا مرتّبًا رمادي اللون بكُلفة كحلية وقبعة متحفظة؛ إميلي في أحد الأركان توجه نظرها بعيدا عن المجموعة؛ وأنا في ركن آخر وكراسة الرسم مسنودة على ركبتي؛ والأهالي ينتظرون على بعد عدة أمتار على استعداد لإحداث شغب في أي لحظة. هؤلاء المصريون يجلسون (أو يقرفصون) في هدوء لمدة طويلة حتى ليعتقد المرء أن ليس بإمكان أي شيء أن يهز هدوءهم، وفجأة تجد همهمة تعلو وتحركات ورجال يقومون وأذرع تُلَوِّح، ثم يسود الهدوء ثانية، وأنا لا أفهم سببًا للصخب، ولا للهدوء.

يتحدث مستر سليدن في موضوع «الأفندية» ويطيل الحديث (وأعترف أني لا أستلطفه فهو يتعامل باستعلاء مع كل شيء عدا بعض المباني القديمة) ـ يطيل الحديث حول الأفندية الذين يصمهم بالنفاق والثرثرة، ويبدو أنه يعترض أساسا على محاولاتهم التشبه بنا. يهزأ بياقات قمصانهم،

وبأحذيتهم ذات اللونين، وبتبنيهم «عن غير فهم» لأفكار أوروبية حول الحرية والديمقراطية، ويجد ثقافتهم الفرنسية مثارا للشك.

مستر سليدن ضئيل الحجم، شاحب اللون، ومستر بويل ضخم متورد، وهما يتفقان على كل شيء: يبدأ أحدهما في الحديث فيكمله الثاني. يرى مستر بويل أن القطاع الأهم في مصر هو قطاع الفلاحين وأن بريطانيا لم تأت للفلاحين إلا بالخير. تراه في الرسم بشاربه الكث، وسترته غير مهندمة، وكلبه «توتي» الذي يأخذه معه في كل مكان والذي بلغ سنا كبيرة فلا يمشي ويضطر الخدم إلى حمله. هل تري البونيه الأبيض ذا الخطوط الزرقاء الذي يلبسه توتي ليحميه من الشمس؟ ألبسه إياه مستر بويل بكل حنان وأخذ يطعمه من طبقه وهو يصف كيف ألغي لورد كرومر السخرة والكرباج والفلكة وكيف أن الفلاح يستطيع أن يقف اليوم في وجه الباشا ويقول: «لا تستطيع أن تضربني فسوف أشكوك إلى الإنجليز». هنا يبدو الشك على وجه مستر بارنجتون لكنه إنسان رقيق ولا يميل إلى معارضة الآخرين ـ وبالذات إذا كانوا أصحاب أراء صلبة ـ آمل أني نجحت في إبراز الرقة (ليس بالضبط الضعف) في وجهه وهيئته في هذا الرسم. يرتدي بدلة من القطن الفاخر ورباط عنق بنفسجيًا فاتحًا. وهو يستقطع بعض الأكل من السلال ويعطيه لخادمه، صابر، ليقتسمه مع الأهالي. وهو يؤكد لي أن صابر أمين ومحل ثقة وأري بينهما علاقة ود متبادل لم أرها في غيرهما من سادة

وخدم دار المعتمد. ويخلص مستر بويل إلى أن الأفندية ليسوا بمصريين حقيقيين وعلي هذا يمكن تجاهل آرائهم. أما مستر سليدن فيجزم أنه ليس هناك من يمكن أن يسمي مصريًّا؛ فالأقباط فقط من سلالة القدماء وهم قليلون وبلا نفوذ أو أهمية. أما أتباع محمد فهم من العرب ولم يروا في مصر إلا حديثًا. وتعترض مسز بوتشر فهي تري أن شخصية قدماء المصريين كانت على درجة من الوضوح والحيوية لا تسمح لها أن تضيع تمامًا من أحفادها اليوم. تخدع رقة مسز بوتشر الظاهرة من لا يعرفونها جيدًا فيقاطعها مستر سليدن: «لم تضع يا سيدتي، تعفنت، تعفنت تمامًا» وهو اصطلاح كثيرًا ما سمعته يصف الشخصية المصرية - وكثيرًا ما يستند إلى أطروحة (يبدأ مستر سليدن الآن في عرضها) حول شغفهم بالبقشيش، ميلهم إلى الكذب، مقدرتهم على الطأطأة أمام الرياح. وتبدو هذه المظاهر حتى على الخديو - ولهذا يرفض لورد كرومر التعامل معه. يبادر مستر رود للدفاع عن صاحب السمو الذي يشفع له أنه تلقي تعليمه في النمسا واعتلي العرش في سن الثامنة عشرة، فأخذ وصفه الملكي مأخذ الجد وصعب عليه تحمل يد اللورد الثقيلة. ولكن، هل يستطيع الحاكم المنتصر أن يحكم بحق على شخصية الشعب الذي يحكمه. ووجدتني أتساءل هل أعرف إميلي حقا؟! إنجليزيتان أنا وهي، نعيش معا منذ عشرين عاما ولها الحق أن تستقيل فتمهلني شهرا ثم تذهب إلى عمل آخر. أنظر إليها تحفظ مسافة بينها وبين الجمع وتلملم نفسها في أضيق

حيز على السجادة، وأتصورها وقد انتقلت إلى منزل صغير، منزل صغير تملكه هي، ومصدر رزق لا تعتمد فيه على أحد، وأري حولها أطفالا ، أطفالها، وأراها تزدهر وتتفتح إلى حياة أكثر زهاء ـ لكني خرجت (مرة أخرى) عن الموضوع.

مستر يونج، وهو مؤرخ، رأيه أن المصريين لهم شخصية مصرية فعلا لكنهم لم يعوها بعد. وذكر حركة عرابي باشا (التي طالما سمعتك تتحدث عنها) كدليل على وجود هذه الشخصية ـ وكان هذا الحديث على درجة من الميتافيزيقية لا يرتاح لها مستر بويل فأخذ يتحدث بحماس عن الإصلاحات الاقتصادية التي قامت بها إدارة لورد كرومر: الزيادة في محصول القطن، الصرف الصحي، القطارات تجري في ميعادها، وأجدني مشغولة بأن ملابسه تأخذ في الكرمشة وحدها ـ بالرغم من أنه لم يفعل شيئا سوى الحديث وتناول الغداء. تقترح مسز بوتشر ـ وهي غاية في النظام والأناقة ـ أن هذا التقدم المادي، بالرغم من روعته، لا يغنى عن النمو الروحي، وأنه يمكن لوم إداراتنا في هذه البلاد لاهتمامها بمظاهر الحياة المادية وتجاهل الحياة الروحية للمصريين. هنا يبدأ مستر ولكوكس في الحديث فينعي قلة ما تقوم به الإدارة لتطوير التعليم ويقول إنه لا يعتقد أننا ننوي أن نخرج من مصر بعد أن نتم إصلاحها وإلا كنا اهتممنا بالتعليم حتى يتمكن المصريون من استلام مقاليد حكم أنفسهم. وكان يتكلم بضمير صاف كمهندس يقوم بعمل فيه فائدة للبلاد وينوي المغادرة عند إتمامه. أما مستر بول ومستر سليدن

فقالا إن الأهالي لن يستطيعوا حكم أنفسهم إلا بعد أجيال حيث لا تتوفر لديهم الأمانة ولا القوة الأخلاقية، وهم معتادون على حكم الغرباء وما دام الأمر كذلك فالحكم البريطاني أفضل من الألماني أو الفرنسي، ولو لم نكن نحن هنا لكانت هنا فرنسا أو ألمانيا. هل تتفق معهم في هذا؟ قال مستر يونج ـ وهو يمسك بقطعة من اللحم بالقرب من أنف توتي الذي لم يهتم بها إطلاقا ـ قال بهدوء إننا سوف نضطر إلى الرحيل في يوم ما. وإن لم نرحل عن طوع خاطر فسوف يطردنا المصريون. أما مستر بارنجتون، فرقد على السجاد، ووضع قبعته على وجهه وقال: «جورج يريدنا أن نعتقد أننا حلم فقط، حلم تخلقه مخيلة مصر».

مصر، أم الحضارة، تخلق نفسها في الحلم عبر القرون. تحملنا كلنا، أبناءها: الذين يبقون ويعملون من أجلها ويشكون منها، والذين يرحلون ويشتاقون لها ويلومونها بمرارة على مغادرتهم. وأنا، في غرفتي، وقد عدت في منتصف العمر، أقرأ ما كتبته آنا منذ مائة عام وأري مجموعة الإنجليز، يتناولون غداءهم إلى جانب الهرم الأكبر، بينما يحول خدمهم المصريون بينهم وبين سائليهم المصريين. أسجل ما كتبته، وأعد شروحاتي لإيزابل وأجدني في حيرة. يعجبني مستر يونج، أتصوره ذا شعر أسود وعلي وجهه ابتسامة ساخرة وأود أن أقول له: « لكننا نعلم جيدًا أننا مصريون. عرابي باشا ـ في نهاية الوثيقة التي قدمها بطلب حكومة نيابية، ذلك الطلب الذي أزعج (بدون أي داع) مواطنيكم من حملة السندات للدرجة التي زينت لحكومتكم الليبرالية أن ترسل السير بيتشام سيمور بسفنه والسير

جارنت وولزي بجيوشه «ليقضوا على ثورة عسكرية» ـ عرابي باشا وقع اسمه: أحمد عرابي المصري». « نعم» يقول مستر يونج « لكنه كان يعني فقط أنه ليس تركيا حيث إن الأتراك كانوا يحصلون على أعلى الرتب في الجيش» أقول: « أبدًا، أبدًا. كان يطالب بالدستور. كان يتحدث باسمنا جميعًا». وسيعلن هاري بويل، الضخم الصريح الواضح، أن كلامي هراء. سيقول: «أتتحدثين باسم الفلاح؟ أنت يا ابنة المدينة بلغاتك الأجنبية؟ الفلاح لا يهمه الدستور. الفلاح يريد أن يزرع أرضه ويعيش في سلام. رجل الشارع يريد مأوى نظيفًا ومأكلًا لأبنائه. هل يحصل الفلاح ورجل الشارع على حاجتهم اليوم؟

يأتينا كل أسبوع بأخبار جديدة عن مصادرة الأراضي، عن صناعات وطنية كبيرة ومؤسسات تباع لمستثمرين من الأجانب، عن أطفال في العراق يموتون وبيوت في فلسطين تدمر، أخبار حول معارك بالرصاص في صعيد مصر، وأسماء مثقفين جدد تضاف إلى قوائم الموت، بصور شبان في أقفاص، غاضبون يمسكون بالمصاحف، بحملات تفتيش وترويع، بتعذيب وإعدامات. وإلي جوارنا تقذف الجزائر بعبرها الرهيبة. وحين يسأل الناس ـ أمثال إيزابل ـ حين يسألوننا، نقول لا، لا يمكن أن يحدث هذا هنا، وحين يسألون لماذا؟ لا نجد ما نقوله سوى: لأن هذه مصر.

١٠ مارس

والآن، عندي اعتراف غريب: اعتدت أن أجلس وأستمع إلى سير تشارلز يقص قصة القصف والاحتلال. اعتدت أن

ألمس الأشياء التي أحضرها معه: فنجان القهوة الصيني يكاد يشف وحامله من الفضة المشغولة، قطعة المشربية فقد خشبها لمعته بمر السنين، الشال المخملي الأبيض تنتهي أطرافه بفرانشة من الحرير، ما زلت أرى هذه الأشياء وأحس ملمسها. اعتدت أن أقرأ قصص الرحالة، وظلت خطابات ليدي داف جوردون إلى جانب سريري شهورًا طويلة. وبدون أن أشعر، نما عندي اقتناع أنه ـ لو كان لشخص غير مهم مثلي أن يكون له قدر ـ فإن قدري، بشكل ما، مرتبط بمصر. ولا أدعي أن الفكرة تبلورت في ذهني بوضوح، ولكني أعلم أنه حين كان الحديث يتجه حول مائدة الطعام أو في الصالون إلى هذه البلاد، كان اهتمامي يستيقظ و أنصت بانتباه أكثر من المعتاد. وأثناء مرض إدوارد العزيز، وحين أمرني مستر ونثروب أن أخرج إلى الهواء ساعة كل يوم، وقادتني خطاي إلى متحف ساوث كنزنجتون فوجدت تلك اللوحات الرائعة لفردريك لويس، شعرت أن يدا إلهية تقودني. وبدا لي أن هذه اللوحات وضعت في طريقي لتساندني وتدخل بعض البهجة إلى قلبي، وكأنها تذكرني بكرم الرب، وتسر لي بأن الدنيا ما زال بإمكانها أن تمتلئ بالنور والحياة واللون. وحين جاء اليوم الذي بدا فيه من المناسب أن أقوم برحلة ـ على أمل أن البعد والزمن والمناظر الجديدة يمكن أن تعيد إلى تلك الشهية التي بدونها لا يمكننا أن نقدر جمال هبة الحياة ـ حين جاء ذلك اليوم، بدا من الطبيعي أن تتجه أفكاري إلى مصر.

لكني أجلس هنا في غرفتي في فندق شبرد ويتملكني شعور غريب بأنني لست في مصر بعد. لقد جلست على هضبة الأهرامات وتنقلت عيناي بين زرقة السماء الصافية، وصفرة الصحراء الشاحبة، وخضرة الحقول الواعدة. وتعجبت للحدود الواضحة بين الأزرق والأصفر. ثم بين الأصفر والأخضر، حدود مرسومة بإرادة واثقة. تسلقت الأهرام ورقصت في قصر الخديو. زرت الأسواق والكنائس والمساجد وشهدت مواكب الطرق الصوفية ولعبت الكروكيه في النادي الرياضي في الجزيرة. أعرف بعض كلمات العربية وأعلم عددا من الشوارع ببيوت معارفي، لكن هناك شيئا في لب كل هذا يهرب مني. شيء شعرت به في اللوحات، في الأحاديث في إنجلترا ـ والآن، وقد جئت هنا، يبدو بعيدا، بعيدا عن متناولي.

(١٠)

قالوا الخطيفة مخباية
في جوه قلعة مغلقة
وقالوا الليالي وحوش.. وحوش
وحوش وخطرة المنطقة

صابرين، مايو (١٩٩٧)

القاهرة، مايو ١٩٩٧

بهذه الكلمات ينقطع الصوت في المفكرة الخضراء، أو بالأحري يختفي حتى نأتي إلى التسجيل التالي وهو محرر في ٢٣ مايو ١٩٠١. يشتد قلقي وأنا أفتش في الأوراق، أبحث في الرسائل، لا يمكن أن تختبئ هكذا، تختفي من أمام بصري لمدة ٧٤ يوما، أعود إلى الصندوق: هل فاتني شيء مما فيه؟ لكن لماذا أتوقع أن أجد القصة كاملة؟ لقد وجدني هذا الصندوق عبر قرن من الزمان وعبر قارتين من اليابسة، ولم أكن أعلم بوجوده ولم أفكر يوما أن لي قريبة هناك في الطرف الآخر من العالم. ماذا كنت أعرف؟ لا شيء. بضع وقائع عارية لا أكثر: كان لليدي آنا ابنة تزوجت رجلا فرنسيا يسمي شيرول لم تكن صلتها بمصر مما يهمه أو يسعده، وهكذا تفرق الفرعان من العائلة بوفاة ليدي آنا وبعد وفاة جدتي ليلي، حتى إنني لم أعرف بوجود قريبة لي هي إيزابل، والآن ها هي في القاهرة وغارقة لأذنيها في حب أخي - وإن لم تقلها لي صراحة. عندما تجلس عندي في الشرفة نتحدث أطلق لخيالي العنان وأتصور أننا نداوي جروح أسلافنا ببلسم الصداقة بيننا. لكني مازلت أتشوق إلى بقية الحكاية. أفرغ الصندوق بحرص وأتفحص

محتوياته قطعة قطعة. ها هي! وجدتها بين الورق السيلوفان وقطع القماش ومشغولات الزجاج: مفكرة صغيرة زرقاء ظننتها في البدء كتاب صلوات ووضعتها جانبا، والآن أحاول فتحها بإخراجها من غلافها الجلدي الأزرق لكنها تستعصي عليّ. عليَّ بالصبر. أفحصها في ضوء مصباح المكتب فأكتشف ثقب المفتاح صغيرا مستترا وسط الزخارف المذهبة البارزة فأسرع إلى الحلية المعدنية المدلاة الساكنة على تسريحتي، أفتحها فتطالعني نظرات أم آنا، أخرج المفتاح الصغير من تجويف الغطاء.

١٢ مايو الساعة ١٥ ,٥ بعد الظهر

بالي مشغول طول الوقت بالتفكير في أصدقائي في دار المعتمد، أعرف أن من الضروري ألا يصل إلى سمعهم أي خبر عن هذه المغامرة أبدًا.

حقا لم يخامرني أي شعور بالخطر، لا في البداية ولا الآن، وإذا شعرت بالخوف فمن صورة وجه لورد كرومر التي يستحضرها خيالي، لا من ملابسات موقفي الراهن.

أعرف أنه سيؤاخذ مستر بارنجتون بشدة لأنه «شجعني على هذه الحماقة» وفي الغالب سيصر على رفت صابر المسكين وسيتعسه ذلك حقا، فصابر سيفقد مخدومه الذي يرعاه ويفقد راتبه، وفي عزمي ألا أترك الأمور تأخذ هذا المجري، أما عن نفسي فما يرعبني حقا فكرة أن تشيع عني صفة «الليدي آنا التي خطفها العرب». أتخيل أما من الجيرة تنحني على أذن ابنتها الطفلة وأنا أمر في طريقي إلى حديقة

كنزنجتون أو إلى المتحف والطفلة تتوقف عن اللعب لتتبعني بنظرات متعجبة.

كنت أنوي أن أبدأ التسجيل في هذه المفكرة في ظروف تختلف بدرجات عن مسيرة أيامي العادية، ولم أكن أعرف ولم يخطر ببالي أن تختلف إلى هذه الدرجة. بدأت سياحتي اليوم كما بدأت في مناسبات سابقة، حقا كانت خطتي أكثر طموحا، لكن الطموح لم يكن العامل الذي أفسدها. لم نكن حتى وصلنا إلى الصحراء، بل خرجنا بالكاد من منطقة الأزهر القديمة بمساجدها الكثيرة، واتجهنا شمالا وشرقا في اتجاه مقابر المماليك عندما هوجمنا، جرّونا وأنزلونا عن الجياد وحشرونا في عربة مغلقة انطلقت بنا إلى هنا بسرعة. أكتب «هنا» لكني لا أعرف أين هذا المكان. أخمن بالتقريب أننا على بعد مسيرة ٢٠ دقيقة بالعربة من الحي القديم، لكني عاجزة عن تحديد الاتجاه لأن الستائر في العربة كانت مسدلة بإحكام وفي مواجهتي يجلس اثنان من الشباب المصريين.

لم أتبين إن كان هذان الشابان مسئولين عن المعاملة الخشنة في إنزالنا عن ظهر الجواد، فقد صاحب العملية هرج كثير وألقوا بقطعة قماش على رأسي ولم أتمكن من إزاحتها إلا بعد أن جلسنا في العربة. وهما في العشرين تقريبا، وربما أصغر، ويتشابهان في المظهر بشكل ملفت: كلاهما نحيف الجسم شاحب الوجه أسود العينين مقصوص الشارب، تساءلت في نفسي إن كانا شقيقين، كان أحدهما

أكثر اضطرابا من زميله، وكثيرا ما يزيح الستارة قليلا لينظر بحرص من خلف الزجاج.

كان صابر منذ البداية في صحبتي يخدمني بإخلاص وإن لم يرض عن المشروع أصلا وقد رفض أن يتخلي عني وتمسك بالبقاء بجانبي، مع أنهم عرضوا عليه في ظني، أن يطلقوا سراحه، كان يستنكر ما فعلوه طول الوقت، وتبينت من سيل اعتراضه باللغة العربية تكرار كلمة «اللورد»، فيرد عليه الشابان بابتسامات ساخرة، كان أول ما فعلوه عند جلوسنا في العربة، إخراج مناديل بيضاء نظيفة من جيب ستراتهم ومسح العرق من وجوههم والجبهة، كان أحدهما يكبر الثاني بهامش سن طفيف كما كان أكثر تمالكا وبعد قليل وجه إلى خطابا بلغة فرنسية بليغة أكد لي أن جماعتهم ليسوا لصوصا أو قطاع طريق وأن دوافعهم سياسية خالصة، وأن شخصي آمن وممتلكاتي والجوادين في حرز أمين، وسيعيدونها لي جميعا بمجرد استجابة الحكومة المصرية لمطالبهم.

فكنت حريصة ألا أكشف عن هويتي ـ على الأقل هوية الأنثي ـ وأن أحافظ على كرامة الجنتلمان البريطاني الذي أتقمص شخصيته، فكنت أجلس مستقيمة الظهر لا أحرك نظري يمينا أو يسارا ولا أنبس بكلمة.

يخيل لي أنه ظن أنني لم أفهم كلامه، وللأسف لم نتبادل حديثا لأنني كنت أود أن أعرف عنهم المزيد، كانت أول

مرة يحدثني أحد «الأفندية»، وأفهم الآن ما يؤكده مستر بويل فهؤلاء الشباب مختلفون تماما عن الخدم والمكاريين الذين اعتدنا التعامل معهم، كانوا أقرب إلى الرجال الذين لاحظتهم في حفلة الخديو لكنهم أصغر سنا وأقل فخامة ولا أرى سببا لاعتبارهم أقل مصرية، حديثهما مع صابر كان باللغة العربية ولم يجدوا صعوبة في فهم بعضهم البعض، وللأسف لم يكن في مقدوري أن أبادلهم الحديث لأكتشف طبيعة المظلمة التي يحتجون بسببها، وكيف يتصورون أن هذا الفعل الجامح سيؤدي إلى إنصافهم.

هل اجتذبتني المقادير إلى مصر من أجل هذا الحادث؟ ما أعجب أن يحصل المصريون - من خلال حدث يتعلق بي - على الدستور الذي تمنوه طويلا! لكنني لست بهذه الأهمية، ولن تصل العملية إلى تلك الأبعاد، وأعتقد أنهم بمجرد أن يكتشفوا أنني أمرأة ومجرد زائرة سيطلقون سراحي مع اعتذار مهذب. أنظر إلى الجملة الأخيرة بعد أن دونتها لأستشف الأساس الذي بنيت عليه هذا الظن. إنهم في دار المعتمد يعتقدون أن خروج سيدة إنجليزية وحدها أمر محفوف بالمخاطر، لكني لم أسمع يوما أن ضررا حل بسيدة ترتحل وحدها، ويخامرني شعور أن رسائل ليدي دف جوردون أصدق في تصوير عقلية أهل البلد ونفوسهم من كل أحاديث السادة موظفي المعتمد. على أنني فكرت من باب الأمان أن يكون خروجي وتجوالي في زي الرجال حتى لا ألفت إليَّ الأنظار، وكنت قد سمعت عن شابة

تنكرت في ملابس سايس وكانت تجري حافية القدمين أمام موكب الفرسان المتجه إلى حفلة تنكرية في نادي الجزيرة، وكيف حاولت أن تعبر الصحراء إلى السويس على ظهر جواد، وعندما سمع لورد كرومر بذلك أرسل جماعة من حرس السواحل على الجمال في أثرها، وجاءه التقرير أنهم لم يجدوا إلا فارسا وجواده. لم تجتذبني فكرة الجري في شوارع القاهرة حافية القدمين لكن فكرة ارتداء ملابس الرجال للخروج في رحلة لم تبد لي مستهجنة، ويقال إن ليدي آن بلانت ترتدي العباءة والعقال في رحلاتها وكذلك غيرها من السيدات، وأقنعت جيمس بارنجتون أن يعيرني خادمه الأمين صابر لبضعة أيام.

والآن أجدني جالسة على دكة من الخشب وحقيبتي الي جواري في ضوء مصباح سبرتو صغير، ولو أمكننا أن نعيش على القمح والحبوب فقط أعتقد أن في هذه الحجرة المقببة ما قد يكفيني سنوات وسنوات.

نزلنا من العربة في فناء واسع مُسوّر، سمعت صلصلة وخشخشة وانفتح باب ضخم كأنه جدار، ودفعتني يدٌ بسرعة إلى الداخل. لمحت فناء داخليا ذا رونق ينفتح عن يساري لكن اليد على ذراعي أدارتني إلى اليمين إلى حوش صغير مبلط ومنه إلى هذه الغرفة التي بدت لي واحدة من صف من الغرف يقوم حول الحوش. حجرة متوسطة الحجم، مبنية من الحجر، لها نوافذ مستطيلة ضيقة، عالية السقف المقبب، والأرضية بلاط حجري، تشغل الجزء الأكبر من مساحتها

أجولة القمح والحبوب، أجولة من الخيش مربوطة العنق ترتفع في أكوام بمقدار قامة الرجل.

لا بد أننا هنا في مخزن كبير بجوار النهر.

الساعة ٣٠, ٧ مساء

قلت لصابر الذي ظل جالسا بجوار الحائط في يأس إنه يستحسن أن يطلع آسرينا على حقيقة شخصيتي لأني متأكدة أن هذا في نظرهم يضمن لي بعض الامتياز: على الأقل حجرة حمام وبعض الماء الساخن، وعلي أكثر تقدير الإسراع بإطلاق سراحي. وأعتقد أنه يحدثهم في هذا الآن.

٣٠, ٩ مساء

عاد صابر وهو يهز رأسه في أسف ويكثر من التمتمة، وحسب ما فهمت زاد كشفه عن حقيقة شخصيتي الأمور سوءا وقضي على إمكانية إطلاق سراحنا الليلة، على أنهم أذنوا له أن يقودني إلى حمام صغير وجدت فيه إبريقا من الماء البارد فاغتسلت وروحت عن نفسي بقدر المستطاع، ثم أحضرني إلى هذه الحجرة الجديدة ووضع أمامي خبزا ولبنا. خير. لو أنهم ينوون إيذائي لما أطعموني.

آه .. ليتني أعرف أين أنا.. وليت الصبح يطلع سريعا فهذه حجرة فاخرة ومتسعة، درت حولها بالمصباح الصغير في يدي واكتشفت نوافذ عالية وأرائك منحسرة في تجاويف في الجدران وستائر من قماش فاخر وأرضية مبلطة تنحدر في

درجات رقيقة إلى بركة ماء قليلة العمق، فأنا أحس بوجود اللون والتنسيق وإن كنت لا أرى شيئا بعد، فالظلام دامس حولنا وصابر في أشد تعاسة، وأنا أشعر الآن بالإرهاق فلا أملك إلا أن أختار واحدة من الأرائك وأستلقي عليها على أمل أن يأتيني النوم فيريحني ويجدد قواي.

من حسن الحظ أني أخبرت إميلي ومستر بارنجتون أني سأقوم برحلة تستغرق بضعة أيام، ولذا سيمر بعض الوقت قبل أن ينتشر خبر غيابي، فمن الممكن إذا أطلق سراحنا في وقت معقول أن أعمل على أن يظل هذا الأمر طي الكتمان فأحول دون نزول غضب لورد كرومر على رأس مستر بارنجتون وعلي صابر المسكين الذي اصطحبني إلى الباب لأشهد كيف ينوي أن يقضي الليل في الممر ممددا أمام باب الحجرة لحمايتي.

ما أشد هدوئها.. لم أكن إلى الآن لأصفها بالجسارة؛ لكني أرى حديثها هنا يخلو تماما من نبرات الجزع، لا بد أنها في أعماق سريرتها تمنت أن يحدث لها شيء خارج عن المعتاد عندما اختارت أن تتخطي المسارات المألوفة في حياة الوافدين من الأجانب، وها قد وقع. لكن صابر لم يرغب في شيء من هذا؛ ولذا فهو غارق في تعاسته في تصوري، فقد فشلت الرحلة التي أجبر عليها في المقام الأول والأفندية في الخارج يرفضون أن يضعوا عقلهم في رأسهم ويتقوا الله! وهذه المرأة التي وضعت تحت مسئوليته، مخطوفة ومحبوسة في مخزن الغلال، ماذا تفعل؟

تجلس وتفتح كتابا! في البداية ظن أنها تحاول أن تهدئ نفسها بقراءة الإنجيل، لكنها بدأت في الكتابة! الكتابة! بنت المجنونة! صحيح أنهم من طينة مختلفة!

تستغرق آنا فعلا في النوم. بعكس الشباب الذين اختطفوها فقد نزل بهم الهلع والارتباك عند اكتشاف أن السيد البريطاني الذي اصطادوه ـ امرأة. لا بد أنهم تداولوا وتناقشوا بل وساقوا الحجج. لا يمكن أن يخلوا سبيلها: ستذهب مباشرة إلى قصر الدوبارة، وسيكون رد الفعل عنيفا. لكنهم لا يجرءون على أن يبقوها محبوسة عندهم طول الليل لكن هل أمامهم تصرف آخر؟ وفي الصباح ـ هذا إذا طلع الصباح ـ ماذا يفعلون؟ لا يستطيعون الإعلان عن عملية الاختطاف ـ كما خططوا ـ وإرسال مطالبهم إلى وزارة الحقانية.

الرهينة عندهم لكن لا فائدة فيها، فلن يقولوا إننا نحتفظ بامرأة رهينة. في النهاية يبعثون (اركب واجر بسرعة لكن بلا إثارة للشبهات) يبعثون مرسال إلى بيت في الحلمية الجديدة، وإذا لم يجد الباشا في بيته فليذهب إلى بيت أخته فقد يكون هناك، وإياه أن يحدث أي أحد؛ لا أحد إلا الباشا أو الهانم شقيقته وليخبرهما بما حدث. يهرع الرسول على حصانه في الليل ويذرع الشبان أرض الفناء جيئة وذهابا، ويختم صابر صلاته ويتمدد على الأرض، أما آنا فنائمة.

الآن حان الوقت لنلتفت إلى رواية أخرى: ٦٤ صفحة مكتوبة بخط رقعة دقيق بالحبر الأسود، كنت اطلعت من قبل على بعض

من كتابات جدتي بالعربية: شذرات من الشعر وأجزاء من مقالات. قرأت كلماتها وسعدت بأناقة خطها وذهنها. أفتح الكراس الرمادي برفق، وأضع ثقلا للورق على ركن الصفحة لأحفظها في مكانها؛ قطة فرعونية صغيرة من البرونز كان ابني يحبها، اشتريناها معا ذات عصرية مشمسة في المتحف المصري. أترجم كلمات جدتي على مسامع إيزابل:

أول ما رأيتها كانت ترتدي ملابس الرجال: رأيت رجلا راقدا على الأريكة، منطويا على نفسه وقبعته تغطي وجهه وشعره، وبالرغم من أنهم قصوا عليَّ الحكاية كلها وكيف اختطفوا رجلا إنجليزيا ثم اكتشفوا أنه امرأة، وبالرغم من إدراكي أن هذا هو لب المشكلة، شعرت بغرابة الموقف؛ أن أجد رجلا إنجليزيا نائما في حرملك والدتي. شعرت بالقلق فعدت من حيث أتيت وكدت أصطدم عند الباب بالخادم، ولا بد أنه كان يقف ملتصقا به فقفز بعيدا ومنظره يكشف عن التعاسة. رددت الباب ونظرت إليه، سألته:

ـ هل أنت متأكد؟

ـ متأكد من إيه ياست هانم؟

وعيناه مثبتة على الأرض أمام قدمي.

ـ متأكد أن من في الداخل امرأة؟

ـ طبعا متأكد ياست هانم. امرأة وإنجليزية وسيدة مهمة كذلك، وعزيزة جدا على الإنجليزي الذي أعمل عنده، يقول إن والدها أغرقه بمعروفه وجمائله، وإنها من بيت كبير في إنجلترا، والآن وقعنا في هذه المصيبة فكيف نخرج منها؟!

قلت: «ربنا يستر» ولم أزد. أخذته إلى الشرفة وجلست ثم أشرت إلى نقطة أمامي على الأرض وقلت: «اجلس واحك لي كل ما تعرف».

ـ أقسم بالله إني لا أعرف شيئا. برأس سيدنا الحسين لا أعرف شيئا.

ـ قل لي ما تعرفه عنها.

ـ سيدة إنجليزية اسمها ليدي آنا ـ يعني ست آنا ـ حضرت هنا منذ شهرين أو ثلاثة، والإنجليزي الذي أخدمه يعرفها ويعرف أهلها. قال لي حافظ عليها مثل عينيك. هذا الإنجليزي يعرف عربي وقال لي خلي بالك منها زي عينيك. لكن سيدة مثلها، أبوها رجل طيب وأهلها ناس طيبين ما لزوم أن تلبس ملابس تنكر وتسبب مشاكل؟ قال تريد أن تعرف بلدكم والحركة دائما صعبة للمرأة.

ـ يعني فعلتم هذا من قبل؟

ـ مرتين. مرتين فقط، والله: مرة ذهبنا إلى الدرب الأحمر ودخلت الجوامع القديمة، الآثار. ومرة ركبنا الترام إلى الأهرام.

ـ ولم يشك أحد فيها؟

ـ أبدا، فهي تركب مثل الرجال: حمير، بغال، خيل، وأنا أقول للناس إنه إنجليزي فقد النطق.

ـ فقد النطق؟

ـ صوتها ـ لا مؤاخذة ـ صوت سيدة. كيف نداريه؟ أقول لهم إنه وقع على رأسه وفقد القدرة على الكلام، فيقولون ربنا يشفيه، هكذا إذا لاحظ أحد الأربطة تحت البرنيطة ـ

ـ هي تربط شعرها؟

ـ عليك نور...

ـ وعلي فين هذه المرة؟

ـ كانت تريد الذهاب إلى دير سانت كاترين...

ـ في سينا؟! ولم أستطع إخفاء دهشتي.

ـ لكن في الأول كانت تريد أن تجلس في المقاهي وتستمع إلى الشاعر. قلت له ـ للإنجليزي مخدومي ـ ماذا تأخذ من هذا؟ حكايات وأغان بالعربي وهي لا تعرف ـ لا مؤاخذة ـ إلا كلمتين. قال إنها تحكم رأيها على الذهاب. قلت له نحضر لها الشعراء والقصاصين هنا، وتجلس هكذا في الجنينة مثل ملكتهم ـ الله يرحمها ـ ونحضر الشعراء وتختار هي ما تريد أن تسمع: تستمع إلى «أبو زيد»، تستمع إلى «عنترة»، تستمع إلى مواويل وتفهم منها ما تحب، لكنه قال لا، تريد أن تسمع في مقهي. وها قد ذهبنا وجري ما جرى! ماذا نفعل الآن يا ست هانم؟

خلعت عني الحبرة والحذاء وجلست على الديوان المواجه لها في الجانب الآخر من الحجرة، وعقلي يلف ويدور ولا ينتهي إلا إلى الدعاء: «ربنا يستر». كان أملي معقودا على عودة أخي في الغد. وإن كنت لا أعرف ما يمكن أن يفعل. كان قد صحب الوالدة إلى طواسي في المنيا لتزور شقيقها وأرضها، وسيعود ليجد أمامه كارثتين بدلا من واحدة: حسني زوجي في الحبس، وهذه السيدة الإنجليزية في بيت والدنا.

تأملت المرأة النائمة، لم أتبين في الظلام إلا أنها نحيفة القوام وأنها مستغرقة في نوم هادئ ولم تحرك يدا ولا قدما،

ذهبت إلى حجرة والدتي وأحضرت شالا من الصوف فردته عليها. قلت أهم شيء أن نشعرها بالطمأنينة والأمان عندما تستيقظ حتى يصل أخي ويشير علينا بما نفعل، وأرسلت تعليماتي للشبان أن يبقوا في الزاوية مع أبي. لا يمكنهم البقاء في البيت لكني لا أضمن ألا يرتكبوا مزيدا من الحماقة إذا سمحت لهم بالخروج.

رتبت الوسائد لأرقد عليها، تدثرت بحبرتي وأسدلت شعري ورقدت أدعو لزوجي ولأخي ولنا جميعا.

(١١)

تمضي الأعوام كالثيران الهائلة السوداء تدوس العالم
الرب راعيها ينخسها من الخلف
وأنا تحطمني الحوافر الماضية

و.ب. ييتس

القاهرة، ٢٩ يونيو ١٩٩٧

جافاني النوم في الليلة الماضية، عدت من السهرة مع إيزابل، رفعت حذائي وخلعت ملابسي، رطبني الدش البارد ولم أجد لدي رغبة في الدخول إلى الفراش. في حجرة المعيشة فتحت التلفزيون فامتلأت الحجرة بصوت أم كلثوم. بدت أمامي في تسجيل أبيض وأسود: رأسها ملقى إلى الخلف في اعتزاز، وشعرها مرفوع في الشينيون الذي أصبح علامتها المميزة. أعددت لنفسي كوبا من شربات المانجة بكثير من الثلج وجلست في الشرفة المظلمة أنصت:

نظرة وكنت أحسبها سلام.. وتمر قوام...

النوافذ مفتوحة وحجرة جلوس الجيران عبر الشارع مضاءة، أفراد الأسرة يجلسون في نصف دائرة أمام التليفزيون: الأب والأم والأبناء الكبار، والتلفزيون محجوب عن مجال بصري، تلتقط عيني معالمهم في رعشة ضوئه الأزرق.

نظرة... تتمهل الست وتطيل في تنغيم النون يعلو صوتها ويخفت يرتعش ويتأرجح في حرف واحد: نــ... وعندما تكتمل كلمة «نظرة» يزأر الجمهور ويهلل بالإعجاب. في الشارع يجلس

الشباب على السيارات. تحلق طائرة في بطء. شعور ما يعاودني. إحساس بشيء ممكن. أخفض بصري إلى يدي: يد تملس برفق على الأخرى. أيا كان هذا الشعور الذي لم يتضح لي بعد، يحسن تركه في ظلام الأعماق فترة، ربما ينمو. نظرة، وكنت أحسبها سلام وتمر قوام، أثاري فيها وعود وعهود...

أطفئ التلفريون وأنا أمتص البرودة من آخر قطعة من الثلج في كوبي وأعود إلى حجرة النوم. أقرأ الصفحات الأخيرة التي سطرتها فتغريني بالجلوس إلى الكتابة، لكن السهر يحرق عيني وأعرف أنه ليس من الحكمة. أدخل إلى فراشي وأرقد تحت الملاءة القطنية. أفكر في جدتي أو بالأحري تدور في ذهني سلسلة من الأفكار تبدأ بفكرة جدتي: تلك الليلة في مارس ١٩٠١ عندما جذبت الحبرة على كتفيها وجرت إلى عربتها ثم دخلت الحرملك في البيت القديم فرأت آنا للمرة الأولى. لا بد أنها كانت في السابعة والعشرين من عمرها، ومتزوجة من جدي حسني الغمراوي، ابن خالها، محام شاب درس في فرنسا، ثوري وعضو نشيط فيمن سماهم لورد كرومر: الطبقات الثرثارة. ولا بد أن أبي أتم السنة الأولى من عمره، يعدونه لدخول مدرسة الوالدة ثم الخديوية ثم الكلية الحربية، وبعدها سيلتحق بسلاح الفرسان، فيلتقي بأمي، مريم الخالدي، أثناء زيارة أقربائه في عين المنسي في فلسطين، ويتزوجها. كان زفافا مشهودا في القدس سنة ١٩٣٥، وولد أخي سنة ١٩٤٢ في البيت الكبير: بيت آل الخالدي في القدس الغربية، بيت لم أشهده إلا في صور فوتوغرافية وإن كنت أعلم أنه مازال قائما هناك. عندما انتهت الحرب العالمية وأصبح الخطر يتهدد وطن أمي بوضوح سافر، ترك أبي الخدمة في

الجيش وقاد كتيبة من المتطوعين إلى فلسطين واشترك في معارك في بير سبع وفي الخليل وفي بيت لحم. وبعد نكبة ١٩٤٨ عندما تشتتت العائلات والجماعات الفلسطينية في جميع أقطار الدنيا كانت أمي واحدة من ٣٠ ألف عربي وعربية من أهالي القدس قامت إسرائيل على أراضيهم وديارهم. أحضر أبي زوجته وابنهما الطفل إلى مصر، واستعفي من الخدمة العسكرية وأقام في أرضه في طواسي حيث ولدت أنا في البيت الكبير في المزرعة في نفس عام ثورة يوليو. وكان المفروض أن نكون أربعة لكن أمي أجهضت في حملين، واحد في سنة ٤٥ والآخر في سنة ٤٧، وأنا أفكر فيهما أحيانا، وكنت أذكرهما كثيرا في حياة أمي، ومن أجلها في الواقع. وبعد وفاة أبي وسفر أخي إلى أمريكا بقيت أنا وهي وحدنا، فكنت أتساءل هل كان يخفف عنها أن تجد حولها عددا أكبر من الأبناء؟

أرسلوا أخي إلى أمريكا أيزنهاور في عام ٥٦، وكان من الممكن أن يرسلوه إلى روسيا، فدراسة الموسيقى هناك مساوية لها في أمريكا وربما أحسن، لكنه كان يتحدث الإنجليزية وكانت أمريكا ـ الولايات المتحدة ـ قد تدخلت لإيقاف العدوان الثلاثي على مصر، فأرسلوه إلى أمريكا وبقي فيها. لم يتخذ قرارا بذلك لكن الأمر تم خطوة بخطوة؛ الجامعة ثم أوركسترا الفيلهارمونيك والنجاح السريع المذهل.

كان يحضر لزيارتنا من وقت لآخر، كما قدم حفلات في القاهرة. في زيارته الأخيرة قبل وفاة أبي، وكنت في الثالثة عشرة من عمري، عزف لنا في بيتنا في الحلمية، عزف على البيانو القديم الذي ظل قائما في مكانه وأوتاره تضبط بانتظام بالرغم من أن أحدا لم يعزف

عليه في فترات غياب أخي، أذكر أبي جالسا ينصت وقد بدا الفخر في عينيه، لكن عندما نظرت إليه فيما بعد لمحت طيفا من الأسي يعبر وجهه، فأدركت كم يفتقد ابنه وتساءلت بيني وبين نفسي هل يستغرب أن تكون حياة ابنه مستقرة في نيويورك؟!

كانت أمي تحن إلى وطنها ولم أدرك هذا إلا قرب وفاتها. كانت تحدثني عن بلدها بطبيعة الحال، عن فلسطين، عن مدرستها وصديقاتها، عن حجرة أمها وستائرها ومفروشاتها المطرزة، عن مكتبة أبيها، عن المسرح وعن الحديقة الكبيرة على طريق يافا حيث تعزف موسيقي البلدية في العصاري، والنزهات الخلوية وفرش السفرة وتناول الطعام والمشروبات بين أشجار الزيتون أيام الحصاد. البيت تغمره رائحة الزيت الطازج المعصور لتوه، والبلاليص مملوءة بالسائل الثقيل يشع منه الضوء. كنت أنصت لها وأنا طفلة ومثل الأطفال أختزن الصور في خيالي. وفيما بعد كنت أنصت بصلف المراهقين يتشككون في تلك الحكايات عن جنة على الأرض كل شيء فيها كأحسن ما يكون! لكن حدث ـ بعد سنة ٦٧ ونهاية الحرب عندما ملأ صوت فيروز أسماعنا تغني للقدس بهية المساكن، زهرة المدائن ـ أن أخجلتني أمي وأربكتني عندما انفجرت باكية تنهنه في دكان البقال وقد أمسكت بقطعة صابون نابلسي تشمها. عندئذ أدركت كم يضنيها الحنين إلى مسقط رأسها.

كنت أحب أمي وعشت معها ٢٢ سنة، لكن يبدو لي اليوم أني لم أدرك منها إلا طرفا، ولم أفهمها جيدا. ليتني أنصت جيدا إلى فحوي حديثها، ليتها خلفت لي شيئا منها، رسالة مثلا كتبتها

في أمسية هادئة وهي وحدها، رسالة أقرؤها فيما بعد وقد كبرت وأصبحت أقدر على الفهم. لم أفهم حقا إلا فيما بعد، بعد سنوات وسنوات عندما تملكتني الحاجة إلى العودة، وتملكني الشوق إلى القاعة الكبيرة الرطبة في بيتنا في طواسي، إلى عطر الحقول وظلام الليالي المنثورة بالنجوم في الريف قبل أن تضاء القرى بكهرباء السد العالي، ملأني الشوق إلى القاهرة، إلى كوبري أبو العلا، إلى إحساسي بالتراب خشنا تحت أصابعي وأنا أمر بيدي على سوره الحديدي، إلى رائحة الفسيخ المملح تلقاك إذ تقترب من فسخاني أبو العلا، إلى منظر الفاكهة مرصوصة منتظمة في أهرامات أمام دكان الفكهاني، وإلي كيس الورق البني تحمل فيه الفاكهة إلى البيوت، كنت أتوق حتى إلى رياح الخماسين تجبرنا على تغطية الوجه حماية من التراب فنجري إلى البيت برءوس مطأطئة.

عندئذ فقط أدركت كيف يغمرك الشوق إلى مكان فلا تملك إلا أن تعود ـ كما فعلت أنا ـ وتلتقط من المدينة أجزاء هنا وهناك لتشكل منها المكان الذي عرفته يوما. ولكن ما العمل إذا استحالت العودة؟

والدتي توفيت. ماتت بمجرد أن أنهيت دراستي الجامعية، فرحلت أنا إلى الخارج. ثم عدت لألملم ما أستطيع تجميعه من القاهرة التي نشأت فيها: طريق علوي سريع يركب فوق كوبري أبو العلا الذي أصبح باليا بلا فائدة، ويفكرون في بيعه خردة. مازال بائعو الفاكهة يرصونها في أكوام عالية لكنهم يبيعونها لك في أكياس زرقاء من النايلون الخفيف ولا يزيدون واحدة على الميزان فوق البيعة، لكن دكانة الفسخاني مازالت في مكانها وكذلك شجرة البانيان الكبيرة

قرب شارع المرصفي في الزمالك وإن كان الأسمنت يحيط بها حتى يكاد يخنقها ولا أرى أين يمكن لفروعها الجديدة أن تتجذر وتنمو. بعت البيت القديم في الحلمية منذ سنوات وقام مكانه جراج كبير للسيارات.

قلت لإيزابل: تعالى نبحث عن (قطع) من قاهرتي لأريها لك.

ذهبنا الي المُعَلَّقة بعد الظهر واستمعنا إلى المرشد يحدث جماعة من التلاميذ عن سفينة نوح وعائلته وقال إن أعمدة المنبر تمثل الحواريين وهي أزواج (اثنين اثنين) لأن السيد المسيح أرسلهم في الأرض أزواجًا ليبشروا بالكلمة، والعمود في الوسط أسود لأن الكلمة بعثت لخلاص السود والبيض على حد سواء. يبدو أن الحديث عن يهوذا الأسقاريوط أصبح لا يناسب خطاب العصر. جلسنا على المقاعد في هدوء وتجولنا في قاعات الصلاة، وجربنا إن كانت السيدة العذراء في الصورة ستتبعنا بنظراتها وعند إناء التعميد توقفت إيزابل. صاحت انظري. نظرت حيث تشير: مجموعة من الخطوط المتموجة.

قلت: «ماء!»

قالت : «اسم الماء بالهيروغليفية».

تبادلنا النظرات في سرور: طبقة أخرى من الماضي!

بعد المغرب تمشينا في شارع المعز وأكلنا ساندوتشات قشدة بالعسل من عربة صغيرة إلى جوار مسجد السلطان قلاوون. جلسنا في ورشة الصائغ الصغيرة نرقبه يصلح حلقا من حلقاني ظل في علبته الصغيرة على تسريحتي مكسورا سنتين. عبرنا شارع الأزهر

ودلفنا إلى الغورية ومنها إلى الخيامية واشترينا قطعة مشغولة بالأخضر والأزرق وقدم لنا البائع الشاي ونزلنا إلى شارع محمد على نتفرج في الدكاكين على آلات العود والطبل والدفوف المطعمة بالصدف، وقادتنا أصوات الطبول والزغاريد إلى فرح فشاركنا في التصفيق والغناء ودعينا لتناول الطعام وأخذت لنا صور مع أهل الفرح وقدمت الحلق هدية للعروسة، التي ترقد الآن في فراش الزوجية مع عريسها.

يقولون إن هذا الشهر أشد شهور السنة حرارة لكن الجو الحار لا يزعجني. أرقد في فراشي ومروحة السقف تدور في كسل فوق رأسي، وعندما تسخن الملاءة تحتي أمد ساقي وأستمتع ببرودة موقع آخر من النسيج تحت جلدي. عندما يأتي الأولاد ـ أعني إذا جاء أبنائي أو واحد منهم، يمكن أن نذهب إلى البحر الأحمر، سيكون الجو حارا في النهار لكن الليالي رائعة، بل يمكن أن نذهب إلى طواسي ونقضي هناك بضعة أيام ثم نعبر بالسيارة إلى البحر الأحمر. قمنا بهذه الرحلة مرة أنا وأبوهم من زمن بعيد، بعيد جدا، زمن عرفت فيه سعادة أصبحت في الأيام العجاف التي تلت أكاد أمج ذكراها لحلاوتها الزائدة.

نمت نوما مضطربا وقمت في الحادية عشرة صباحا وسرت بدون هدف إلى حجرة المعيشة، وكان يوما ثقيلا بالكسل. أغلقت الشيش وجلست على مسند الكنبة أرقب ذرات التراب الرقيقة العالقة في كل شعاع شمس ينفذ من الشقوق الخشبية.

كان الوقت عصرا عندما عدت إلى طاولتي وفتحت دفاتر

مذكرات جدتي ومذكرات آنا مرة ثانية، وعندما ثبتّ قطة ابني البرونزية على ركن الصفحة دق جرس الإنتركوم وسمعت صوت تحية تنبئني أن عم أبو المعاطي هنا وهل تصعد به عندي؟

وها هو يقف بالباب كما عرفته دائما في جلبابه الخاص بالمناسبات من الصوف الأزرق والتلفيعة الرمادية بالرغم من حرارة شهر يوليو، عمامته البيضاء ملفوفة بإحكام على الطاقية من الجوخ البني، عيناه تلمعان: تصدمك زرقتهما كل مرة ـ إرث من سيد تركي في زمن غابر. يقف متكئا على نبوته الغليظ، انحنى ظهره قليلا لكنه مازال طويلا مهيبا، تتوقع أن يفتح شفتيه فينطق بالنبوءات، أسلم عليه وكأن يدي تقبض على لحاء شجرة، وخلف ظهره ألمح تحية تخرج السلال المغطاة من المصعد سلة بعد سلة.

نجلس في حجرة المعيشة وتذهب تحية لتعد الشاي وهي تنقل خطواتها بحذر بين السلال المتراصة على أرضية المطبخ.

أقول: «مصر نوّرت».

يضع يده على قلبه: «منورة بأهلها ياست هانم».

نجلس برهة في صمت، وأعيننا مثبتة على الأرض.

ـ خطوة عزيزة يا عم أبو المعاطي.

ـ يعز مقدارك يا ست هانم.

العمر يتقدم بعم أبو المعاطي، كل سنة تمر تضيف تفصيلا لشبكة التجاعيد المرسومة على الوجه الأسمر :خارطة سنوات عمره الطويل. أنا بالطبع لا أعرف سنه لكنه موجود منذ الأبد. كان

أبوه خولي الزراعة الكبير عند أبي، وعندما انتقلنا أنا وأمي إلى القاهرة كان عم أبو المعاطي يحضر لزيارتنا أربع مرات كل عام، كان يأتي معه بالأخبار والحسابات ونصيبنا من المحصول: سلال من الدجاج والبيض والزبد والعنب والمانجو والبلح حسب فاكهة الموسم ودائما أرغفة من الخبز الفلاحي الطازج خبزت لنا. وإذا ذهبنا إلى المنيا من وقت لآخر كنا نجد عم أبو المعاطي في انتظارنا في محطة القطار وفي يده الشمسية يقودنا في ظلها إلى العربة الصغيرة في الخارج نركبها إلى القرية.

بعد شهر واحد من عودتي إلى مصر لأستقر فيها كان يقف على باب شقتي وحوله السلال كما كانت بالضبط منذ عشرين عاما، كل سلة مملوءة بالطعام تغطيها فوطة كبيرة بيضاء حروفها زرقاء مقلمة دُسَّتْ بإحكام في الجوانب، وعندما سألته كيف علم بعودتي ابتسم وقال: «الدنيا صغيرة ياست هانم».

تحضر تحية الشاي فأدعوها للجلوس معنا. بلدنا ليست بلدها لكنها بلد على أي حال ويسعدها أن تسمع أخبارها.

أسأل : «ما الأخبار يا عم أبو المعاطي؟»

ـ كله خير. الحمد لله.

ـ والأهل كيفهم؟ كلهم بخير بإذن الله؟

لعم أبو المعاطي بنتان وثلاثة أبناء. كانوا أربعة لكنه فقد أحدهم في حرب ٦٧ وكان الثاني يعمل بالزراعة في العراق لكنه عاد بعد حرب الخليج، خالي الوفاض لم يكسب إلا النجاة بحياته. الثالث يعمل في البحرين وأكبرهم يشتغل في البحر على مركب تجارية.

وتعيش الأرملة والزوجات والأبناء الصغار جميعا في قريتنا. تزوجت البنتان في مدينة المنيا نفسها لكن واحدة مات زوجها وعادت إلى طواسي وهي تعمل في الوحدة الصحية.

وتدريجيا يقص على الأخبار: المواليد والوفيات، من عاد ومن غادر، المشاحنات والضديات، والزيجات. بعد شرب الشاي يضع الكوب ويقول:

ـ مش حتيجي تقعدي شوية يا ست هانم؟

أبدأ : ياريت، ثم أسأله هل حدث شيء؟

ـ هناك أشياء صغيرة ـ لو حضرت يكون أصلح....

ـ أشياء زي إيه؟

ـ يعني... يخرج منديله ويسعل فيه برفق ثم يطويه ويعيده إلى جيبه «عندنا بعض المشاكل».

ـ أي نوع من المشاكل؟

ـ المدرسة ـ قفلوها.

كان مصطفى بك الغمراوي جدي الأكبر متحمسا للتعليم، وفي ١٩٠٧ كان أول من تبرع لإنشاء الجامعة الأهلية الوطنية، وبالتعاون مع ابن أخته شريف باشا البارودي أنشأ مدرسة صغيرة في قرية في أرض العائلة، وأوقف عليها ريع عشرة فدادين. وجاء ابنه حسني الغمراوي، جدي، وأضاف إليها فصلا لتعليم الكبار، ثم ألحق بها أبي، أحمد الغمراوي، عيادة بسيطة تقوم بخدمتها ممرضة وحكيمة مولدة، وتعمل فيها اليوم بنت عم أبو المعاطي. عندما أنشئت

مدرسة ابتدائية في القرية في عهد جمال عبد الناصر اكتفت مدرستنا بعقد فصول لمحو أمية الكبار، وفي عام ٧٩ أضيفت فصول لتقوية التلاميذ تعويضا عن المستوى المتدهور للتعليم الأساسي.

أسأله: «قفلوها؟ من الذي أقفلها؟»

هذه المدرسة عمرها تسعون عاما وإن مرت في تاريخها بعض العثرات. في عام ٦٣ مع قوانين التأميم والإصلاح الزراعي الثاني حزن أبي لفقده معظم أرضه ولكنه أدرك الحتمية التاريخية في الموقف؛ أما أمي فثارت وهاجت «أَكُتِبَ علينا أن نفقد كل شيء؟ هل نطرد من هذه البلاد كما طردنا من فلسطين؟»

وكان أبي يطمئنها قائلا: «الأمر مختلف ستعطي هذه الأرض للفلاحين الذين عاشوا فيها طول عمرهم وليس لغرباء لا نعرف عنهم شيئا». ثم يضيف: «ثم إن ما يتبقي لنا سيكفي أبناءنا وأحفادنا من بعدهم. ماذا نحتاج أكثر من ذلك؟!»

كنت في ذلك الوقت طفلة لم أفهم حقا ما يحدث لكني فهمت أمرين: أننا سنظل نتحمل مسئولية المدرسة والعيادة واستمرار العمل بهما، وأن الأرض التي بقيت في حيازتنا تزرع بالمشاركة مع الفلاحين الذين يزرعونها. لم يرد أي كلام عن الإيجار أو ما أشبه، كنا نأخذ نصيبنا من المحصول وندفع نصيبنا من نفقات الزراعة: السماد وتجديد وخدمة وابورات الماء.

يرد عليّ أبو المعاطي «الحكومة قفلتها».

ـ لكن لم؟ لماذا تنشأ بيننا وبين الحكومة مشاكل؟

ليست مدرستنا مدرسة رسمية، فهي لا تزيد على فصلين من

فصول التقوية وفصل محو الأمية للنساء، وكل الفصول تعقد مساء بعد انتهاء يوم العمل، والمدرسون في الواقع متطوعون لأن أجرهم ضئيل جدا.

ـ المشاكل في كل مكان هذه الأيام يا ست هانم، مشاكل بين الناس وبعضهم، ومشاكل بين الناس والحكومة. الجرائد نشرت عنها: معارك بالسلاح وحرق زراعات القصب....

ـ حرقوا القصب لأن الإرهابيين اختبئوا فيه....

ـ يسمونهم إرهابيين.

ـ أمال همّ إيه؟

ـ أولادنا يا ست هانم، شباب مطحون من السهل الضحك عليه.

ـ يا عم أبو المعاطي بنتك ترملت على أيديهم.

ـ الأعمار بيد الله. كانت معركة يا ست هانم. من يعرف مين قتل مين.

ـ على أي حال ما علاقة هذا بالمدرسة؟

ـ قالوا إن المدرسين المتطوعين من الإرهابيين، ويفسدون عقول الأطفال...

ـ وفصل محو الأمية للنساء؟

ـ نفس الشيء.

ـ والعيادة؟

ـ كل شيء قفلوه.

ـ لا حول الله

أهب واقفة. لا أعرف ماذا أفعل فأقوم واقفة أمشي إلى الشرفة وأتشاغل بفتح أطراف الشيش لأدخل نسيم العصر. منذ زمن طويل لم يواجهني أحد بمشكلة من مشاكل الحياة الحقيقية. أعود إلى مقعدي وأجلس.

ـ ما رأيك يا عم أبو المعاطي، هل كانوا يعلمون الأطفال أشياء سيئة؟

يفرد كفيه أمامه:

ـ لا يعلمونهم شيئا إلا ما يدرس في مدارس الحكومة. تعرفين يا ست هانم هذه مجرد فصول تقوية، يذهب التلاميذ إليها بعد المغرب يؤدون الواجبات ويذاكرون.

تدلي تحية بدلوها:

ـ التلاميذ لا يستطيعون المذاكرة في بيوتهم. دوشة وعطلة من الأطفال الصغار.

ـ هم يضيقون على الناس. يد الحكومة ثقيلة والآن طبعا ستكثر المشاكل.

ـ أي مشاكل؟

ـ بسبب القوانين الجديدة.

ـ قانون الأراضي؟

ـ طبعا.

مجموعة من القوانين يبدأ تنفيذها في سبتمبر تلغي تجميد الإيجارات الذي فرض في الستينيات وتتيح للملاك رفع الإيجار بما يناسب القيمة الحالية للأرض.

ـ لكن مالنا نحن بهذا؟ الأهالي جميعا يعرفون أني لن أخرج فردًا واحدًا من الأرض؛ ولن تحدث زيادة في الإيجار لأننا لا نأخذ إيجارا.. كل شيء سيبقي كما كان.

تقول تحية: «ربنا يقدم لك الخير يارب».

ـ يقولون إن المدرسين يحرضون الأطفال، يقولون لهم إن القانون ظالم وإن الأرض ملك لمن يفلحها، والكلام يسري وينتشر، إنه لا يتوقف في بلدنا، وتعرفين أن الريف يغلي....

ـ هل المدرسون إسلاميون أم شيوعيون؟

ـ كلامهم عن العدل..

ـ لكن الأهالي يعرفون عن هذه القوانين من مدة. الحكومة أعلنتها منذ سنتين، ينتظرون حتى آخر لحظة..

ـ يا ست هانم الفلاح يحرث أرضه والحكومة تتكلم في القاهرة، لو يلتفت لكل كلمة تقولها الحكومة لأصابه الجنون، وأغلبه كلام في الهوا ينتهي إلى لا شيء وحتي لو صدق إن مثل هذا القانون سيُنَفَّذ يعمل إيه؟ في إيده يعمل إيه؟

وتتساءل تحية:

ـ يشيل عياله على كتفه ويترك الأرض؟ الأرض اليوم لا تكفي

الفلاحين. شوفي عدد المتغربين في أراضي بعيدة: واحد في مصر وواحد في الكويت وواحد في ليبيا ـ

ـ لهذا السبب تطلب الحكومة من الناس تحديد النسل. أقولها وأنظر إليها. تهز رأسها في احتجاج: «يا ختي يا دكتورة، الحال من بعضه اللي بيحدد زي اللي ما بيحددش. الدنيا لا تترك أحدًا في حاله.»

أقول: «فيه مشاكل في البلد غير المدرسة يا عم أبو المعاطي، بسبب قوانين الأرض؟»

ـ لا يا ست هانم الكل يعرفون أنك سيدة كريمة بنت أصل تحافظين على ذكري أجدادك لكن أحسن تحضرين إلينا بعض الوقت.

ـ لكن ماذا أفعل بشأن المدرسة؟

ـ تعالى وشوفي: كلمي الناس، كلمي المدرسين واحكمي بنفسك، وعندما تعودين يمكنك أن تكلمي الحكومة.

ـ أنا يا عم أبو المعاطي؟ أنا أكلم الحكومة؟

ـ ليه لأ؟ ليه ما تكلميش الحكومة؟ أنت هنا في مصر والدنيا كلها تعرف مين أبوك ـ ألف رحمة ونور عليه ـ أبوك كان باشا. صحيح لغوا الألقاب لكن الدنيا كلها تعرف إنه باشا وصاحب مفهومية.

ـ يا عم أبو المعاطي أنا لا أعرف أحدا في الحكومة. وأتخيل نفسي أذهب للبحث عن الحكومة ـ لا أعرف من أين أبدأ ـ هناك

مجمع وزارات في شارع الشيخ ريحان، أتخيل نفسي أذهب إلى هناك فأتوقف فجأة لذكري منصور. كان منصور منادي السيارات في شارع الشيخ ريحان بين الجامعة الأمريكية والوزارات وطوال سنوات كنت أذهب الي الجامعة الأمريكية لحضور حفل موسيقي أو مشاهدة فيلم أو الاطلاع في المكتبة أو لمقابلة أصدقاء وكنت إذا عبرت التقاطع مع شارع القصر العيني أبحث عن مكان لركن السيارة فيظهر منصور أمامي قصيرا ممتلئا يزداد امتلاء بمرور السنوات، يظهر فجأة رافعا ذراعه والطاقية الملونة على رأسه. يصيح: اتركيها يا ست، اتركيها ولا تقلقي.

ـ كيف حالك يا منصور؟

ـ بخير، كيف حالك يا ست هانم؟

أعطيه المفاتيح، وعند خروجي أجده أمامي والمفاتيح في يده يشير إلى مكان السيارة ونتبادل بضع كلمات. اتخذ له فيما بعد اثنين مساعدين لكنه كان هو الذي يحتفظ بالمفاتيح وكان حاضرا في كل الأوقات حتى كان يوم ألقت فيه إحدى الجماعات قنبلة على موكب وزير الداخلية وجدت طريقها إلى منصور بدلا منه، واليوم لم يتبق منه إلا بقعة بنية على جدار الجامعة ـ بقعة تعذر إزالتها.

أكرر: أنا لا أعرف أحدا في الحكومة.

يقول أبو المعاطي:

ـ إذا كنت حضرتك لا تستطعين الكلام مع الحكومة من الذي يستطيع؟! أنا؟!

ـ يمكنك أن تتكلم أحسن منى.

ـ اتفقنا. إيدي في يدك، نذهب لهم معا.

ويشرق وجهه بابتسامة عريضة وألاحظ الثغرات بين أسنانه الكبيرة. وتصيح تحية: «الله ينور عليك. والنبي لأخلي مدني يروح معاكم كمان...»

لم يبق إلا أن ترفع يدها إلى فمها وتزغرد ونصبح في فيلم «الأرض».

عندما انصرف أبو المعاطي، جلسنا أنا وتحية على الأرض بين السلال نوزع الطعام بعضه لي وبعضه لأسرتها، وبعضه للرجال في دكان المكوجي، ونصيب لرجال البوليس الذين يقفون طول الليل مستندين إلى بنادقهم أمام البنك على رأس الشارع. تصيح تحية: «كفاية كفاية. حتوزعيه كله؟»

ـ لا يمكن أخلصه حتى في سنة يا تحية.

مضى زمان كنت أعد الطعام لأربعة أشخاص وأحيانا أكثر، مضى زمان كنت أتململ وأشكو قائلة: لا أحتمل التفكير في العشاء كل ليلة.. كنت أحلم بأشياء كثيرة، بكل أشكال الحياة التي يمكن أن أعيشها لو لم أكن مثقلة، مربوطة.

وكان أيضا زمان ـ والحمد لله ـ عندما كان التفاف ذراعين صغيرتين حول رقبتي والإحساس بخد صغير ناعم على خدي يهدئ قلقي ويشعرني بالرضا إلى حين.

تقول تحية وكأنها تقرأ أفكاري:

ـ قريبا يحضر البهوات الصغار لزيارتك ويمتلئ البيت عليك مرة أخرى.

ـ إن شاء الله.

ـ إنت عارفة؟ جوزيهم هنا تفرحي بهم ويعيشوا قريبا منك.

أقول: «لا أحد يزوّج أحدًا هذه الأيام».

ـ صحيح كل واحد ماشي بدماغه.

أقول لها بعد أن انتهينا من توزيع الأنصبة:

ـ لم لا تحضرين معي إلى المنيا وتشمين هواء الريف؟

ـ والأولاد أتركهم لمين؟

ـ فليأتوا معنا.

ـ ونترك مدني وحده؟!

ـ ألا يستطيع المجيء أيضا؟

ـ والعمارة؟ نتركها بدون بواب؟! يرفدوه.

ـ على أي حال شوفي، أهلا بكم جميعا.

ـ ربنا يطول عمرك يا دكتورة.

فكرت في إيزابل. ستعود إلى بلادها في أغسطس، لكن إذا ذهبت سريعا ربما تحب أن تأتي معي، تشاهد الريف وأفرجها على ما تبقي من البيت القديم. أتخيل فتح الحجرات المعتمة، وغسل التراب عن شجرة الكمثري في ركن الحديقة القريب والنوم على

سرير أمي القديم. أتصور خطواتي في الممر المعتاد خلال أشجار الفاكهة إلى الحقل المفتوح في الطريق إلى القرية.

هل يسبب اصطحاب أمريكية إلى القرية مشاكل؟ لا أظن، فهي حصيفة وعاقلة، عندما أسأل عنها ماذا أقول؟ إذا قلت إنها مجرد صديقة يساور الناس الشك ويطبقون أفواههم لكن إذا كانت من الأقرباء... نقول إنها خطيبة أخي، سوف تروق لها الفكرة. أقفز إلى التليفون.

(١٢)

فلتدخل الدار مُفَضَّلًا.. وتغادرها محبوبا

دعاء من مصر القديمة

مصر في ٦ يوليو ١٩٩٧

و«هكذا» قلت لإيزابل ونحن على بداية طريق الصعيد: «هكذا رقدت سيدتان في الثاني عشر من مارس ١٩٠١، سيدتان قدر لهما أن تصبحا جدتك وجدتي، رقدتا على أريكتين متقابلتين في حجرة الاستقبال في حرملك البيت الكبير لآل البارودي واستغرقت كل منهما في النوم».

قالت إيزابل: «تحبين قص الحكايات؟»

قلت: «نعم، أحب أن أفهم الأمور وأضعها في نصابها».

ـ أخوك يفهمك جيدا، قالتها وهي تخفض حاجز الشمس وتنظر في المرآة الصغيرة لتعدل وضع الإيشارب على رأسها.

فعلا أخي يعرفني جيدا وهو مثلي يحب أن يستخلص النتائج من التفاصيل الصغيرة. قال وهو يحدثني بالتليفون من أمريكا.

ـ هل أعجبتك هديتي؟

ـ مدهشة. هل نظرت ما بداخلها؟

ـ سريعًا. رأيت ما يكفي وقلت لا بد أن تهمك هذه الأشياء.

ـ أنا مستغرقة تماما. هل اطلعت على الخطابات، والمذكرات؟

ـ ليس كثيرا.

ـ لكن بما يكفي؟

ـ يكفي ماذا؟

ـ يكفي لتعرف من تكون إيزابل.

ـ قريبتنا المفقودة من زمان ـ نعم استنتجت ذلك.

ـ لكن لم تخبرها؟

ـ هل كان المفروض أن أرفع رأسي من الصندوق، وأعلن: (وهذه الأوراق أوراق جدتي أنا الآخر)؟ هل هذا معقول؟!

قلت: اسمع، في الصندوق نسجية أظن أنها مُكَمِّلة للقطعة المعلقة في حجرة مكتبك؟

ـ ماذا في حجرة مكتبي؟

ـ نسجية عليها رسم فرعوني...

ـ آه! نعم! أعرف ما تعنين. لا؟ صحيح؟ تكملها؟

ـ أظن ذلك، لكني لست متأكدة، هل تحضرها معك عندما تأتي إلينا المرة القادمة؟

ـ لكنها ضخمة!

ـ معلهش، يمكن أن تلفها. أريد أن أفحص القطعتين جنبا إلى جنب...

ـ لكنها في برواز

ـ اخلعها منه، عندك ذلك العامل، لا أذكر اسمه...

ـ أفضل أن أدفع لك تذكرة الطائرة وتحضرين إلى نيويورك...

ـ لا أستطيع. أنا مستغرقة تماما في ذلك الصندوق، أكاد أعيش داخله. عندما أقرأ المذكرات أشعر كأنني أعيش هناك في ذلك الزمان منذ مائة عام. إنني أوفّق الأجزاء وأكمل الصورة وأستنتج ما حدث مما لم يكتب في المذكرات..

ـ عظيم. دعي خيالك يشطح بك، اتركي له العنان.

كانت جدتي قد تلقت رسالة الشباب وأدركت الخطر على زوجها من أحداث ذلك اليوم فارتدت حَبرَتَها بسرعة وركبت عربتها وأسرعت إلى بيت أخيها تاركة ابنها ـ في تصوري ـ مع مجموعة من المربيات والخادمات. لم تسجل تاريخ مذكراتها، وفي رأيي أنها كتبت الحكاية كلها فيما بعد من باب التسجيل والشهادة؛ أما آنا فكانت تعود إلى مفكرتها كل يوم في آخر النهار، وأحيانا في وسطه.

١٣ مارس

استيقظت من نوم لا بد أنه كان عميقا هادئا وكان أول ما خطر لي أنني تسللت إلى داخل صورة من تلك اللوحات التي كنت أتأملها في المتحف ومنحني تأملها لحظات نادرة من السكينة أثناء مرض إدوارد العزيز: فوق رأسي شباك مشربية من خشب داكن مشغول وخلفه تبدو السماء مشرقة زرقاء صافية. مددت ساقي واكتشفت أن شالا كبيرا من الصوف يغطيني، لونه رمادي هادئ مشغول ببراعم وردية منثورة في كل جزء منه. بعد قليل داهمتني الذكرى

وعاد إلى وعيي بموقفي وواقعة اختطافي فانتزعني من استرخائي وقمت جالسة أنوي ـ على ما أعتقد ـ أن أجرب فتح باب الحجرة لأتبين إن كان موصدا. لكن بتغير وضعي من الرقاد إلى الجلوس وقع بصري على ما أعادني الي عالم تلك اللوحات الحبيبة إلى قلبي، فهناك في الجانب الآخر من الحجرة رقدت سيدة نائمة على أريكة مثل التي قضيت عليها ليلتي. لم تكن هناك في الليلة السابقة. هذا مؤكد فقد درت حول الحجرة بالمصباح الصغير في يدي وتأكدت أني وحدي في المكان.لا بد أنها دخلت أثناء نومي، وتساءلت من تكون وهل هي صاحبة هذا البيت؟ كانت مصرية وسيدة راقية، أول سيدة مصرية أشاهدها بدون العباءة السوداء والحجاب. كانت تشد عليها غطاء من الحرير الأسود حتى خصرها، وقميصها أبيض ناصع، كما كان شعرها ينافس الغطاء الحريري في سواده ولمعانه. جلدها في لون الكستناء المحمص على نار هادئة، ترقد على وسائد زرقاء وخضراء في لون الزمرد، وخلف هذه اللوحة إطار من شباك المشربية. راودني يقين أن لها علاقة بالشبان الذين أحضروني هنا، لكن ما علاقتها بعملية اختطافي؟ كانوا يظنونني رجلا، وفي القصص والحكايات الشرقية التي قرأتها كان يحدث أن تأمر حورية أو أميرة باختطاف شاب أعجبها، فيحضروه إلى قصرها في بلاد أبعد من جبال القمر، وهناك تعرض عليه الزواج، فإذا خلع لباس التنكر واكتشفت

أنه امرأة تنفجر كل منهما بالضحك ويتعانقان وتنعقد بينهما رابطة الأخوة والصداقة إلى الأبد.

كانت القمطة قد اشتبكت في شعري ولا بد أن منظري أصبح سيئا للغاية، فخلصت شعري من الأربطة ومشطته بأصابعي.

أيقنت أن هذه الحورية - بصرف النظر عمن تكون - هي التي رعتني وألقت على الغطاء وأنا نائمة، وعاودني شعور الليلة الماضية أنني في أمان في هذا البيت. استقر هذا الإحساس في نفسي ولم يبدُ لي هذه المرة بعيدا عن المعقول.

فتحت عيني ووجدتها تنظر إليَّ. شابة أفرنجية جميلة، شعرها طليق ينساب إلى كتفيها في موجات من الذهب، وقد سقطت الأربطة التي كانت تقيده في الليلة الماضية في كومة شعثاء على الأرض. كان قميصها الأبيض مفتوحا عند الرقبة وقد جلست عاقدة ذراعيها في حجر سروال الركوب البني، وقدماها ترتكزان على أرض الحجرة في حذاء الركوب الثقيل. اعتدلت على جنبي وابتسمت في وجهها المقطب بالجدية وقلت لها: «صباح الخير!» ردت على كلماتي بدون فهم، وعندما سألتها إن كانت تتحدث العربية هزت رأسها بابتسامة اعتذار صغيرة. أشرت إلى نفسي وقلت: «إنجليش» وأنا أهز رأسي بالنفي. حدقت كل منا في الأخري ثم خطر لي خاطر فقلت «ڤوبارلي فرانسية؟» أشرق وجهها بابتسامة ارتياح واسعة.

أجابت بالفرنسية في حماس: نعم! نعم! وأنت كذلك يا سيدتي؟ وأمالت رأسها جانبا ميلا خفيفا لتسمع إجابتي.

ـ عشت زمنا في باريس بصحبة زوجي.

صاحت وهي تصفق بخفة: «آه! يا للحظ السعيد!» وهكذا بدأنا نتجاذب أطراف الحديث في هذا الوضع الغريب الذي ضمنا، فبدأت صداقتنا.

شرحت لها ملابسات اختطافها واعتذرت لها بصدق وحرارة، وأوضحت لها أن بودي أن أطلق سراحها في التو واللحظة لكنني أخشي تهوُّر أولئك الشباب الواقفين بالخارج، لأنهم يعارضون الفكرة ودافعهم في نظري هو الخوف. أخبرتها أنني أرسلت رسولا إلى بيت أخي أطلب إليه أن يأتي إلينا بأسرع ما يمكنه، مؤكدة لها أن هذا الموقف العصيب سينتهي بمجرد حضوره وأن أحدا لن يمسها هي أو خادمها بسوء وهي معي. ومن المهم أن أسجل هنا أني لم ألحظ عليها أي علامة من علامات الخوف، وأدهشني في الواقع أنها لم تهتم بإطلاق حريتها بقدر اهتمامها بعملية اختطافها والأحداث التي أدت إلى ذلك وبالبيت الذي وجدت نفسها حبيسة فيه، وكانت على طبيعتها تماما في نظراتها وسلوكها حتى كدت أنسي أنها غريبة، وأي غريبة!

جيش الاحتلال البريطاني منتشر في الشوارع ويعسكر في ثكنات قصر النيل واللورد (كرومر) يتناول طعام الإفطار في قصر الدوبارة، وبسببهم حكم على عمي بالنفي وحبس أبي نفسه في مسجد بيتنا ١٨ عامًا، واليوم زوجي حسني في السجن، وهاأنا أجالس واحدة من نسائهم ترتدي ملابس

الرجال، اختطفها أصدقاء زوجي وحبسوها في بيت أبي. جلسنا في حجرة الاستقبال الخاصة بوالدتي نتلمس الطريق إلى التعرف على بعض، كما لو كان جهل كل منا بالأخري هو العقبة الوحيدة أمام عقد صداقة بيننا. في ذلك اللقاء الأول كانت هي التي تكثر من الأسئلة وتتطلع إلى معرفة المزيد عنا، وكان الحديث معها سهلا؛ فعقلها ذكي لمَّاح، ومشاعرها متجاوبة، حكيت لها عن عائلتنا وما حل بنا من أحداث فكانت تسألني عن التفاصيل وكنت إذ أجيبها أدرك أنها تضمن ما تسمع في نسيج صورة حاضرة في ذهنها.

وعندما انقضى النهار وسمعت بعد المغرب مباشرة صوت عجلات العربة والجلبة التي تنبئ بوصول أخي كانت قد حكت لي عن وفاة أمها عنها في سن مبكرة وعن الحزن الذي خيم على حياة أبيها، وعن زواجها وظروف ترملها، وعن تقديرها العميق لسير تشارلز والد زوجها رحمة الله عليه، وحكت لي عن أشياء كثيرة جذبتها إلى مصر، وعن الحياة التي عاشتها هنا منذ حضورها. كانت تتحدث بصدق وبساطة وعندما استدارت في لحظة إلى نور الشباك خطف جمال عينيها قلبي.

تعثرت ببيت ـ لا ـ حملت إلى بيت لا أعرفه في حادث لم أفهمه، لكن بعد قليل استيقظت الجميلة النائمة على الأريكة المقابلة. ابتسمت لي وحيتني بلغة بلادها وسرعان ما كشفت لي بعد الإيماءات والإشارات أنها تتقن الفرنسية بما لا يقل عني ثم بذلت ما في وسعها لتطمئنني وتزيح عني القلق، وبدا عليها الارتياح أنني لم أسقط مغشيا عليّ أو أشرع في الصراخ، والحق أنني لم أشعر بالحاجة إلى حيل ومناورات

أنفر منها بطبيعتي على أي حال، انتابني شعور غريب أني في لوحة من اللوحات المحببة إلى نفسي أو حكاية من حكايات ألف ليلة التي يرويها إدوارد لين، ووجدت متعة في التعامل مع سجانتي الرقيقة تعادل استمتاعي بتلك الحكايات.

كانت جميلة حقا، حركاتها وإشاراتها مثال للذوق والتأدب، وصوتها حلو منغم، وانتابني إحساس غريب أن سبق لي رؤيتها. كانت غافلة تماما عن حسنها وجاذبيتها. لملمت ملابسها الحريرية ببساطة ودست قدمها الصغيرة في الخف الدقيق المطرز بالقصب. أمرت لي بإفطار من القشدة والعسل، وقدمت لي الطعام بحركات مضيافة، لكن الحديث الذي قصته على لم يكن من أساطير الشرق في العصور الوسطي، بل من حكايات زماننا هذا. اسمها ليلي البارودي، متزوجة منذ خمس سنوات من ابن خالها. محام شاب اسمه حسني الغمراوي (يبدو أن المرأة هنا لا تحمل اسم زوجها عند الزواج، وليس هذا ضروريا في رأي ليلي. قالت: «ولماذا أتخلي عن اسمي؟ أنا حرم حسني الغمراوي، لكنني دوما ليلي البارودي»). لديهما ولد واحد أتم السنة الأولى من عمره واسمه أحمد. درس زوجها القانون في باريس لمدة عام وصحبته أثناء دراسته وركزت همها في تعلم اللغة الفرنسية، أما عن الملابسات التي أدت بنا إلى موقفنا الحالي فقد حاولت أن تشرح لي أسبابها إلا أن كثرة الأسئلة التي طرحتها ويقظة ضميرها كمدرسة دفعتنا أن نجوب تاريخ القرن التاسع عشر كله فدخلنا إلى الحديث

عن تركيا وأوروبا وعن السويس واليابان، وتبينت أنه بالرغم من كثرة ما أعرفه عن هذه البلاد فهناك الكثير مما أجهله وقد لا أعرفه أبدا.

علمت أن المسئولين عن اختطافي ينتمون إلى جمعية من الشباب الثوريين أرادوا الثأر للقبض على زوج مضيفتي في مظاهرة سلمية بالقبض على رجل إنجليزي كرهينة للإفراج عن زميلهم، قالت إنها لا تحبِّذ أساليبهم وإنها متأكدة أن شقيقها وزوجها سيؤيدان رأيها. وأعتقد أن الموكب الذي اعترض طريق عربتنا ونحن في طريقنا إلى قصر عابدين، وخيل إلينا أنه نوع من الاحتفال ـ كان في الواقع المظاهرة التي تتحدث عنها.

ـ أخذوا واحدًا من رجالنا فأخذنا واحدا من رجالهم.

سمعت صوت إبراهيم، أصغر الشباب سنا وأنا أسرع في الممر، كان يتظاهر بالتهوين من الأمر متحدثا باستخفاف، ثم سمعت صوت أخي محددا مقتضبا:

ـ قبضوا على واحد من رجالنا واختطفنا واحدا منهم.. هناك فرق.

وقفت خلف المشربية أنظر إلى قاعة المدخل: كان أخي لا يزال يرتدي بذلة المجلس التشريعي ولم يخلع طربوشه بعد. أعرف أخي جيدا. كان غاضبا لكنه يحاول أن يخاطبهم بالعقل.

عاد إبراهيم إلى الحديث:

ـ ما الفرق؟ على أي حال كنا نحاول أن نضمن ..

ـ الفرق كبير، لقد تصرفوا في حدود القانون، وتصرفتم أنتم خارج القانون، تريدون أن تضمنوا محاكمة عادلة لحسني بك؟ أن تسير الأمور بالقانون؟ بالخروج على القانون وكسره؟

ـ يا باشا القانون يخدم الإنجليز.

ـ القانون لا يخدم أحدًا، يمكن أن يُلْوَي القانون، ويمكن التحايل عليه، لكن إذا كنا نريد أن يحترم الإنجليز ما لدينا من قانون لا يصح لنا أن نقوم فجأة وننحي القانون ونقول: تصرفنا هذه المرة بدون الرجوع إليه.

ـ احتلوا بلادنا بالعنف والقوة ولن يرحلوا إلا بالقوة والعنف.

عندئذ توقف أخي عن التحكم في غضبه. استدار حتى واجه الشابين وتحدث بصوت منخفض تبينت فيه نبرة وعيد مخيفة:

ـ هل ستسمعني خطبة وطنية هنا في بيتي يا إبراهيم؟! هل نسيت مع من تتحدث؟! وعمن تدافع؟! ولم تكن كفئا حتى لعملية الاختطاف. إذا كنت تريد أن تخطف أحدا من الإنجليز اخطف ضابطًا أو على الأقل عسكريًا، ليس امرأة جاءت تتفرج على الأهرام ثم تعود من حيث أتت.

خفض إبراهيم ورفيقه بصرهما وركزا النظر على الأرض وتمتم واحد منهما:

ـ لم نكن نعرف.

ـ وكيف جرؤتم أن تحضروها هنا؟ تنفذون عملية اختطاف ثم تحضرون المرأة هنا؟ إلى بيت أبي؟ بدون علمي؟

تمتم الشابان: «كانت غلطة».

ـ غلطة لا بد من تصحيحها، الآن.

ـ سنصححها يا باشا.

ـ عظيم. وماذا ستفعلون؟

أخذ الشابان يتبادلان نظرات جزع قصيرة:

ـ انتظرنا طلبا لرأيك. ما تأمر به يا باشا.

ـ رأيي أن تسلموا أنفسكم وتأخذوها معكم. أعيدوها إلى قصر الدوبارة وسلموا أنفسكم للشرطة.

قال إبراهيم بتردد: «يا باشا إنه شرف لنا أن نموت أو ننفي في سبيل الوطن».

حثه أخي على إكمال كلامه: «ثم؟»

ـ لكن السجن سنوات لعمل بلا نتيجة، عمل لن يغير من الأمر شيئا.. أين البطولة في ذلك؟

استدار أخي عنهم وأخذ يذرع القاعة في بطء، يداه معقودتان وراء ظهره ومسبحته تتدلي من قبضته.. قطع عرض الحجرة مرتين، ثلاث، أربع مرات وعندما توقف وجه لهم الحديث بصوت أقل حدة:

ـ يجب أن تفهموا أن اختطاف الناس العاديين أو إيذاءهم بأي شكل ليس من البطولة في شيء. مثل هذا العمل خطأ وله نتائج وبيلة فليس هذا طريقنا، وليس في صالحنا، هذه الأفعال تفسد ما نحاول تحقيقه منذ ١٨ سنة. الإنجليز يريدون اتهامنا بالتطرف، إذا أعطيناهم مبررا لهذا نخسر كثيرا.

تمتم الشباب في أدب: «تاريخكم معروف للجميع يا باشا».

- إياكم إذن أن تلوثوه!

جلست أنتظر وبعد قليل عادت ليلي - ما أغرب أن أذكر اسمها الآن براحة وكأنها صديقتي منذ زمن طويل - دخلت الحجرة بهدوء وأغلقت الباب خلفها، ثم عادت إلى الجلوس على الأريكة المقابلة لي.

قالت: «أظن أن أخي قادم».

وبعد لحظات سمعت حركة أقدام تبتعد بسرعة عن الباب، وسمعت صوت خطوات ثابتة عالية تقترب ثم تتوقف، تلتها سعلة عالية ثم قرع على الباب.

فتحت ليلي الباب وقالت كلاما انتهي بلفظ الترحيب الذي أستطيع تبينه الآن: تفضل. بعد وقفة ثانية دخل. انحني على رأس شقيقته يقبلها وتعلقت هي بذراعه وقالت بالفرنسية: «آنا، هذا أخي، شريف باشا البارودي. آبيه، أقدم لك ليدي آنا ونتربورن». التفت إلى بانحناءة صغيرة وقال بلهجة فرنسية بديعة: «سيدتي، أرجو أن تتقبلي خالص اعتذاري».

في تلك اللحظة فهمت لماذا خيل لي أني قابلت شقيقته من قبل فقد رأيت أمامي ذلك الوجه الذي شد انتباهي في حفل الخديو وأعتقد أني سبق لي أن لمحته أيضا في دار الأوبرا بروما في اللحظات التي سبقت انهياري تحت تأثير الموسيقى. قلت في نفسي ما أشد كبرياءه!

أجبت: «سيدي، لست بحاجة للاعتذار، على الأقل بالنسبة لنفسك، ففي بيتك لم ألق إلا الكرم والعطف».

كنت لحسن الحظ أتحدث بحضور ذهن بادٍ، لكن الحقيقة أن نظره إلي لمجرد لحظة ذكرني بغرابة منظري في قميص رجالي وسروال ركوب؛ وهي ملابس غير لائقة على أي حال إلى جانب أني لم أغيرها منذ يومين ونمت فيها أمس، وشعر محلول من الأربطة ساقط على كتفي لم يمشط أو يرجل، وخطر لي أن إميلي وصيفتي لو رأتني بهذه الصورة لامتعضت بشدة فنكست بصري واعتمدت على ما لاحظته من أن الرجال الشرقيين بعد النظرة الأولى لا ينظرون إلى المرأة مباشرة.

أضاف «لقد أخبرتني شقيقتي بما حدث وأوضحت أنه لم يفطن لغيابك أحد من أصدقائك؟»

كان صوته ينم عن شيء ليس بالضبط الاعتراض، فهذه الكلمة أقوى مما يحتمل كلامه، لكن كان من الواضح أنه يعتبر مغامرتي حماقة خالصة وأنني وردت بنفسي مورد الخطر، وأن عدم التفات أحد لغيابي يضعني - بطريقة ما - في موقف أسوأ، وشعرت كأنه يفضل لو أن أحدا افتقدني فلم أقل شيئا.

استمر: «لا أعرف ماذا تريدين أن يحدث بخصوص إبلاغ السلطات بما حدث؟ إذا رغبت في ذلك فنحن بطبيعة الحال تحت أمرك وسنؤيد بلاغك ونساعدك بكل ما في وسعنا.

لكن أهم شيء الآن إعادتك الي الفندق. ولضمان سلامتك سأصحبك بنفسي، وغدا يمكن أن تفكري فيما تفضلين من اتخاذ إجراء.»

قلت: «لا داعي لذلك يا سيدي».

رفعت بصري إليه ولمحت الدهشة في عينيه وعيني ليلي كذلك، ويخيل إليَّ أنه لم يعتد أن يقاطعه أحد أو يعارضه في رأي.

أعدت القول: «لا داعي! ولن أبلغ عن الحادث وقد فهمت ظروفه ودواعيه، وهاأنا لم يصبني ضرر، وبالعكس أتاحت لي الظروف فرصة التعرف بشقيقتك الرقيقة. والآن إن تكرمت بالأمر بإعداد خيلي كي نمضي أنا وصابر في طريقنا ولا نثقل على كرمكم بأكثر من هذا».

شجاعة زائفة! وأنا أنطق هذه الكلمات شعرت بيدٍ باردة تمس قلبي وبالرحلة المقبلة تبدو شاقة لا طاقة لي بها.

ـ لا يمكن أن تفكري في الاستمرار في مشروع الذهاب إلى الصحراء!

كانت ليلي إلى جانبي تحدق في عيني بإخلاص.

قلت: «نعم هذا ما أنوي».

قال وهو يشير إلى أريكة ليلي:

ـ أتسمحين لي بالجلوس؟

قلت: «تفضل» بالعربية، فطافت ابتسامة صغيرة بركن شفتيه وكتمت ليلي ضحكتها. جلسنا أنا وهي قبالته وقالت محتجة «انظري بعين الجد يا آنا! بعد كل ما حدث لك؟»

قلت: لو أني عدت الآن.. فإميلي وصيفتي وكذلك مستر بارنجتون الموظف في السفارة على علم بمقصدي الأول، كيف أبرر عودتي، وماذا أقول عن اليومين الماضيين؟ أين كنت؟

قال: الخادم يمكن إسكاته، ويمكن أن تخبري وصيفتك أنك تعبت وجبنت عن الاستمرار في الرحلة.

- هي تظن أنني مع مجموعة.

قال بنفاذ صبر: «ما تظنه الوصيفة ليس بأهمية. المهم سلامتك أنت».

- سلامتي لم تكن في خطر لو لم يتعرض لي الشباب من جماعتكم!

دهشت من نفسي فلم يسبق لي أن تحدثت بمثل هذه الحدة.

اضطجع إلى الخلف ونظر إليَّ نظرة طويلة مباشرة فخفضت بصري أنظر إلى يديّ.

- ثم إن صابر لا يمكن إسكاته، سيُسأل بدقة وتفصيل. لن تفلح هذه الخطة.

أجاب بهدوء: أنا كفيل بسكوته.

ـ لا .. ثم لن يصدق أحد أني جبنت. ليس هذا من طبيعتي!

ساد صمت فرفعت بصري. كان متكئا إلى الخلف على الأريكة وعيناه مثبتة على حبات المسبحة الساكنة بين أصابعه، ثم رفع رأسه ونظر إليَّ.

قال: حسنا. فهمتك. ستذهبين إلى سانت كاترين، لكن ليس الليلة ولن تذهبي وحدك.

نظرت إلى ليلي، كانت تنظر باهتمام إلى أخيها هل سيقترح أن تصحبني في الرحلة؟

قال موجها كلامه لها: «ليدي آنا عندها حق. ثم مادمنا تسببنا في إفساد رحلتها بهذه الطريقة فعلينا مسئولية..» وقطع كلامه في نفاد صبر: «على أي حال ستسمحين لي..» ويوجه كلامه إليّ «ستسمحين لي أن أصحبك إلى سيناء ذهابا وعودة، وستجدين الرحلة في جماعتي أكثر راحة وأمنا من السفر بمفردك».

قلت: «سيدي! لا يمكن! أنا قادرة تماما».

ـ لن أسمح لك بالسفر وحدك.

ـ عفوا، ليس لك أن تسمح أو لا تسمح لي بما أفعل

ـ آنا، سمعت ليلي تهمس لي وشعرت بها تلمس ذراعي

لكني جلست ساكنة متصلبة في مكاني. كيف يجرؤ أن يفرض على أوامره؟!

قال: «لا تنسي يا سيدتي أنك في بيتي».

- وهذا يعني..؟

- أنك لن تغادري البيت وحدك. ستصحبين مكرّمة إلى فندقك. ولك الاختيار أن تذهبي من هنا مباشرة أو عن طريق سيناء.

- وإذا رفضت؟

- يمكنك أن تبقي هنا، وعلى أي حال لن يفتقدوك.

وبرقت في عينيه ابتسامة.

- سيدي هذا قهر وإجبار.

أجاب: «في سبيل هدف نبيل».

التفت إلى ليلي وقد بدا أنها تحاول السيطرة على دهشتها. قالت «هذه خطة عظيمة، وستشاهدين كل شيء خيرا من الذهاب بمفردك. أعرف أنك لا تخشين الذهاب وحدك لكن صدقيني عندما تتجولين في الصحراء تدركين أن الأسهل والأربح أن تكوني في جماعة.» سَكَتُّ.

- عظيم، اتفقنا إذن. قالها وهو يستعد للقيام: «سأحتاج إلى يوم لعمل الترتيبات اللازمة ولإخراج البيه من الحبس» - ابتسم لشقيقته: «ونبدأ الرحلة في اليوم التالي في الصباح ونحاول أن نعوضك عما ضاع من وقتك».

قام واقفا ووقفت ليلي كذلك، لبست حذاءها وعباءتها وبدأت تثبت غطاء رأسها. استدار وحدثها بالعربية وبعد حوار قصير جاءت إليَّ وأخذت يدي في يدها.

«لا أريد أن أترك الصغير وحده ليلة ثانية. لن تنزعجي أو تقلقي وحدك هنا الليلة؟ كنت أود أن أدعوك لتذهبي معي لكن من الخير ألا يكثر عدد من يعرفون عن موضوعك. سأعود في الصباح وأحضر أحمد معي لتريه،» ابتسمت وقبلتني على خدي ثم قبلت الخد الآخر وعادت فقبلتني على الخد الأول قالت: «أنا سعيدة جدا بمعرفتك»، وعندما ذهبت ذهب هو معها.

جلست على الأريكة أفكر: كيف يجرؤ؟ كيف جرؤ أن يمسك القياد بهذه البساطة؟ لكن في أغوار هذا الخاطر غمرني شعور غريب بالحياة تتسع وتتفتح. وجدتني أفكر في سير تشارلز وماذا يكون رأيه في هذا الباشا المصري الذي نزلت بيته بهذه الطريقة الغريبة، ثم خطر لي أنه في ظروف مماثلة كان سير تشارلز سيتصرف بنفس الطريقة. لا بد أن الرحلة ستسبب له إزعاجا وعطلة، فلم يكن يخطط للقيام برحلة في سيناء. وإذا سمع لورد كرومر بالموضوع؟ سيبدو أسوأ في نظره من ذهابي بمفردي. فجأة أدركت أن شريف باشا يعرض نفسه لكثير من السخافات إلى جانب الإزعاج ليحقق لي الرحلة التي أتمناها.

سمعت قرعا على الباب فقلت بدون تفكير بالإنجليزية

أدخل فلم يدخل أحد، فقمت بعد قليل وفتحت الباب. كان في الممر على بعد خطوات وصابر خلفه يقدم رجلا ويؤخر الثانية.

قال: «يخيل إليّ أنك لن ترتاحي في هذه الملابس. هذا كل ما بيدي الآن».

قدم لي شيئا أخذته منه: قطعة ملابس مطوية بعناية ملمسها حرير ولم أتبين اللون في العتمة.

ـ المقاس كبير عليك طبعا، لكن مع ذلك ـ

شكرته بجفاء وقلت: «إني متأكدة أني سأرتاح فيها».

«المشكلة أن ليس في البيت امرأة لترعاك وتخدمك هذه الليلة، لكني رتبت ـ إذا كنت تريدين الذهاب إلى الحمام ـ بعد ١٥ دقيقة ستجدين أشياء...» قطع كلامه مع حركة مبهمة.

ووجدتني أسرع بشكره على كرمه.

قال: «تصبحين على خير» وحياني بتلك الانحناءة الجادة مثل أول مرة.

قلت: «لحظة من فضلك يا سيدي» فتوقف.

ـ لقد خطر لي أني سأعرضك لكثير من الإزعاج

بدا عليه الإرهاق، أم هو الملل؟ «ألم نتفق على كل شيء؟»

ـ فكرت لو أن شيئا من هذا بلغ مسامع لورد كرومر.

شعرت به يتصلب.

ـ قد يسبب مشاكل. أليس كذلك؟

ـ كان يجب أن تفكري في هذا من قبل، هل أنت خائفة؟

ـ ليس على نفسي يا سيدي.

ـ ماذا إذن؟

ـ قد أسبب لك حرجا أو مضايقة.

ـ أنا كفيل بالتصرف. هل يشغلك شيء آخر؟

قلت: «لا، ليس في الوقت الحاضر».

ـ إذن. تصبحين على خير مرة ثانية.

وسار مبتعدا في الممر وصابر خلفه.

الأشياء التي وجدتها في الحمام كانت إناء من النحاس مليئًا بماء ساخن يتصاعد منه البخار، وقطعة كبيرة من الصابون برائحة الورد وزيت الزيتون، وتل صغير من المناشف الدافئة. جلست على حافة الحوض الرخامي وضوء مصباح الزيت المدلي من السقف يلمع على الجدران المزينة ببلاطات من الخزف الملون، وصببت الماء فوق رأسي بقدح مزجج بالمينا أزرق في أبيض، وتلاشت من رأسي فكرة لورد كرومر. كنت أشعر بالرضا. لبست روب الباشا المنزلي من الحرير الأزرق ولففته حول خصري وثنيت أكمامه عدة مرات على ذراعي ومشيت حافية إلى

الحجرة وشعري ملفوف في منشفة كبيرة. وجدت في انتظاري صينية كبيرة مستديرة من النحاس موضوعة على حامل في وسط الحجرة، عليها شمعة موقدة ولبن زبادي وجبن ومشمش ويوسفي وزيتون وخبز ساخن ملفوف في فوطة من الكتان وكوب زجاجي كبير من الماء البارد. جلست على الأرض أمام الصينية وأكلت بشهية وعقلي يدور بخليط من الرضا والتعب. لم يخطر لي التفكير في لقائنا السابق إلا بعد أن رقدت على الأريكة والشال الرمادي ذو البراعم الوردية يغطيني حتى الذقن، وتساءلت: هل يا تري تعرف علي؟ فأنا متأكدة أننا ـ في تلك الليلة في حفل الخديوي ـ التقت أعيننا.

(١٣)

لكن مازال القلب يهفو إلى لغة

ص.ت كولردج

١٤ مارس ١٩٠١

كاد النهار أن ينتصف. تجلس ليلي البارودي على شِلَت ووسائد في طرف الفناء الرئيسي للدار في ظل شرفة الحرملك. في يديها تمسك قطعة ثياب صغيرة بيضاء. تنظر إلى الإبرة تمر في القماش، تدفعها بإصبع محمي بالكستبان، وإذ تشدها وتشعر بالخيط يجري على إصبعها، تسمع صرخة أحمد الضاحكة. ترفع ليلي عينيها: مياه النافورة في وسط الفناء تتساقط على القيشاني الملون، تبل آنا يدها وتنثر قطرات لامعة على قدمي الطفل المدملجة. تبتسم ليلي وتثني عينيها إلى الغرزة التالية.

تم الإفراج عن حسني في الصباح المبكر، تمامًا كما وعدها أخوها، وقد دخل علينا ببشاشته المعهودة وكأنه خرج من ساعة ليستنشق هواء الصباح. حياها، وقبّل أحمد، واغتسل وحلق، وارتدي بذلة وقميصًا نظيفًا ثم طلب إفطارا من البيض المقلي، وجلس يحدثها عن أحداث اليومين الماضيين، وعرفت أنه رفض أن يترك السجن بدون زملائه فأطلق سراحهم أيضًا على ضمانته، وكان كعادته، مليئًا بالأمل، ينظر إلى الأمور نظرة متفائلة ويقول إنه سعيد بتجربة السجن، فهي تجربة يمر بها أكثر عملائه من الوطنيين

والمظلومين. وحين صبت له الشاي، أمسك بيدها ضاحكا وهمس: الحمد لله أنها لم تكن إلا ثلاث ليالٍ.. أوحشتني.

لم يكن يخشى المحاكمة، بل كان يتوقعها بسرور ويقول إنها سوف تعطيه الفرصة ليقدم المطالب العادلة للعمال. ذهب إلى مكتبه ليباشر العمل، ويكتب مقالًا لجريدة اللواء، وكان يحمل فضل أخيها، ويعترف بجميله ووعدها أن يوبخ إبراهيم والآخرين على مغامرتهم الطائشة. لم تصدقه، ففي حياتها لم تسمعه يوبخ أحدًا، كان دائمًا هو الذي يقول: «حصل خير، لا داعي للانزعاج، كل مشكلة ولها حل».

قالت: لأ، بجد. يجب أن تحدثهم، سينتهون بك إلى كارثة. إن لم تخف على نفسك، فخف على الزملاء، خف عليهم هم، إبراهيم وزملائه، والله أخي كان يشاور عقله أن يأخذهم إلى الحكمدارية بيده.

قال ياستي، حصل خير. السيدة لم يصبها أذى والحمد الله.

وفي الواقع أن الخير قد حصل فعلًا، فلم يصب أحد بسوء، والآن تجد أمامها هذه الشابة اللطيفة، وهي ضيفة على درجة عالية من الذوق والأدب، ومنبهرة بكل جديد تراه. التقت عيونهما فابتسمت آنا لها، ثم اعتدلت وشدت ـ للمرة العاشرة ـ حزام الروب حول خصرها. وقع أحمد الصغير في الغرام. راقبته.. هو يجلس على الأرض ويناغي القدمين الشاحبتين، الساقين الطويلتين المرمريتين، الحرير الأزرق ثم الرأس البعيد اللامع، ذلك الرأس الذي انحني،

ثم انحني ثم انحني، حتى أُسِرَ الولد ورفع يديه متعجبا ليلامس هذه الشبكة الحريرية المذهبة.

رفعت ليلي ثوبه الصغير في يديها، ونثرته، ثم بسطته على حجرها مرة أخرى. بدا على آنا الجدية حين أخبرتها ليلي باسم الغرزة «عش النمل». قالت: «نعم، نعم بالطبع» وهي تنظر في طيات القماش الدقيقة، وأصبحت ليلي كمن يسمع الاسم لأول مرة «عش النمل».

للأسف ستغادر آنا في اليوم التالي، تتخيل ليلي الكثير مما يمكن أن تفعله بصحبتها، مما يمكن أن تريه لها، هذه المرأة التي عبرت أوروبا والمتوسط بحثا عن مصر، وأسرَّت لها بالأمس أنها لم تتوصل إلى شيء محسوس وأن الرؤية أفلتت منها. فهمت ليلي مشاعر آنا، فماذا كان يمكنها أن تعرف عن فرنسا لو لم تصادقها جولييت كليمنصو، على أي حال ستتعرف آنا على سيناء وستزور دير سانت كاترين وستسافر في أمان وراحة مع أخيها. تعترف ليلي لنفسها أنها فوجئت بالأمس عندما عرض آبيه شريف اصطحاب آنا في الرحلة، وكأنه يصدر (فرمان ملكي): ستذهبين إلى سانت كاترين وستذهبين معي. واستفزت آنا وردت عليه بطريقة لم تر ليلي في حياتها أحدا يرد بها على أخيها. هذه طريقته دائما، يصدر الأوامر القاطعة، لكن ليس من عادته أن يتعهد فجأة برحلة عبر الصحراء مع أغراب، مع نساء غريبات، أجنبيات: مع سيدة إنجليزية! وتساءلت ومازالت تتساءل: هل أعجبته آنا؟ لقد اعتادت ليلي واعتاد الجميع على فكرة أنه أعزب، أنه رجل يفضل العيش بمفرده حتى إنهم توقفوا عن حثه على التفكير في الزواج، وتوقفوا عن عرض أسماء

بنات الأسر ليختار عروسا تناسبه، كذلك توقفت عن التساؤل كيف يدبر أموره الخاصة؟! قالت لها أمها: أخوك يأخذ كل شيء بجدية أكثر من اللازم. قرأ كتبا كثيرة وأخذها مأخذ الجد، وقرأ شعر عمك واستقر في قلبه. يخضع كل شيء للفلسفة ولا فائدة من مناقشته.

كانت ليلي في السابعة من عمرها عندما تزوج أخوها، وكانت فضيحة عندما أعاد العروس إلى أهلها بعد ستة أشهر. لم تفهم ما حدث وقتها لكن الزيجة كانت محكومة بالفشل، خيمت عليها أحداث الثورة ثم الاحتلال البريطاني، ونفي عمها وعرابي باشا وزملائهما. أم أن هذا ما بدا لها فيما بعد؟ بعد سنوات عندما تزوجت وأدركت احتياجات الرجال ألحت على أمها بالسؤال، ونفست زينب هانم عن نفسها بالحديث مع ابنتها وقد أصبحت امرأة. قالت لها في هذا الفناء في ليلة مقمرة في رمضان، أخوك تصرف كرجل كريم، وألقي باللوم على نفسه. قال لأهلها: ابنتكم أميرة لا يعيبها شيء. العيب أننا لا يناسب أحدنا الآخر، ولا يمكنني إسعادها. ستتزوج من هو خير مني، وسيمنحها الله السعادة التي تستحقها. ودفع كل ما طلبوه وزيادة، وتزوجت الفتاة قبل أن يمر عام ورزقت بثلاثة أطفال والحق أن أهلها ارتاح بالهم عندما طلقها. طبيعة البني آدم يا بنتي. عندما أخذوه كان أبوه في السلطة وعمه على رأس الحكومة، ثم ما بين يوم وليلة حلت الهزيمة بالبلاد وصار جنود الاحتلال يملئون الشوارع وانهارت كل آمالنا، ثم يأتي هو ويسمعهم خطبة كبيرة ويعيد لهم ابنتهم مع مؤخر صداق محترم؟ خير وبركة! ولم تحمل الفتاة منه فيمكنهم أن يتواروا عن الأنظار قليلا على أمل أن ينسي الناس أنهم كانوا في يوم من الأيام أصهار

عائلة البارودي. على أي حال أنا أخذته إلى جانبي وقلت له: طمِّنِّي يا ابني وريّح قلبي. الرجال في حاجة إلى ما شرع الله لهم. أريد أن أعرف كيف حالك، فأحني رأسه وتفكر ثم فتح قلبه لي وقال يا أمي أنا لا أستطيع العيش مع امرأة لا تملك مفتاحا لعقلي ولا تشاركني اهتماماتي، إنها لا تقرأ شيئا ولا تريد أن تقرأ، لا تهتم بمشاكل اليوم وتسألني رأيي في مفرش جديد طرّزته، نحن نعيش في أيام عصيبة ولا يصح اليوم أن يقصر الإنسان اهتمامه على بيته ووظيفته، ولا يفكر إلا في حياته الخاصة. أحتاج إلى شريكة أسكن إليها واثقا من تعاطفها معي، أصدقها عندما تري أني أخطأت، تزيدني قوة عندما تقول إني على حق، شريكة أحبها وتحبني بدورها، لكني لا أرى فيما حولي سكنا ولا حبا، إنه نوع من تبادل المصالح بترخيص من الدين والمجتمع، وهذا ما لا أرضاه لنفسي. أترين الفلسفة؟ عرضت عليه أن أجد له امرأة أو فتاة أو اثنتين، ليس من العبيد فقد أعلنوا تحريم العبيد بالقانون ـ بل امرأة بنت حلال ـ تعيش في حريمه وترعاه وتقوم على طلباته، فرد على بمحاضرة طويلة عريضة عن كرامة الإنسان. كان في الواحدة والعشرين، طويلا وعريضًا ومثل القمر. قلت له: طيب، لكن قل لي بصراحة ماذا تنوي؟ فضحك وقبَّل يدي وقال اتركي هذا لي، ألا يقولون في الأمثال ابن الوز عوام؟ وكان يعني والدك، وأنا أعرف مغامراته هنا وهناك فسكت.

تتأمل ليلي: لقد اعتادت التفكير فيه على أنه أخوها فقط. رأس العائلة منذ عام ٨٢ عندما اعتكف أبوها في خلوته وذهب عمها إلى المنفي. خالها مصطفى بك والد حسني يعيش في المنيا، في الأرض. كان آبيه شريف دائما كبير العائلة الذي يدير الضِّيَاع

ويدير المال ويرعي العاملين ويمارس المحاماة في مكتبه ويحضر جلسات الجمعية التشريعية ويطالب بالإصلاح، وقد حافظ على علاقة مهذبة لكن متباعدة مع القصر.

ـ ماما! ماما، رأت أحمد يتعثر في اتجاهها رافعا ذراعيه إلى أعلى، يجري قبل أن يستطيع المشي. تطرح ليلي الثوب الذي تخيطه وتقوم على ركبتيها وتنحني إلى الأمام لتلقف الطفل المندفع وتضمه إلى صدرها: «اسم الله، اسم الله يا حبيبي» تمسح بيدها فوق شعره الأسود الناعم وتقبل جبهته المنداة بعرق لامع. بعد أن استقر في حضنها وشبع منه يعود أحمد ليحاول الانطلاق، تديره ليلي وتوقفه على قدميه في ثبات فيتحرك خطوتين فتهبط آنا إلى الأرض تستعد لاستقباله. ثم يأخذ في الجري بلا إرادة، فتهب آنا على ركبتيها وأحمد يلقي بنفسه بين ذراعيها، عندما ترفع وجهها عن رقبة الطفل برائحته المميزة تري شريف باشا واقفا في مدخل الفناء ينظر إليها مقطبا. يوجه الكلام لشقيقته «سعلت وصفقْتُ الباب. هل أصيب الجميع بالصمم؟»

ـ أهلا يا آبيه، تقف ليلي وتتجه إليه مبتسمة: «صباح الخير».

ـ صباح النور، ينحني عليها مبتسما ويلمس خدها بيده: «خلاص يا ستي. زوجك عاد بالسلامة؟»

ـ كتر خيرك، وتبتسم له وترفع يده من على خدها لتمسها بقبلة خفيفة: اتفضل هل أفطرت؟

ـ الحمد لله، يرد عليها وهو يجلس في المقعد الخيزران بجانب الوسائد التي تجلس هي عليها.

وماذا عن آنا؟

* * *

آنا تسأله «متى حدث ذلك؟ متى أدركت أنك وقعت في غرامي؟»

إنها الأيام السعيدة حين يأخذ العشاق في التأريخ للغرام، حين تبرق كل نظرة وكل نبرة بالدلالة مهما كانت عابرة، حين تُسترجع كل لحظة، كل رؤية، وتُفَضّ من حولها أغلفة الذاكرة كما تفضّ أرق الأغطية من حول جوهرة ثمينة لتوضع أمام المحبوب، تقلب على كل ناحية، تفحص، تختبر.

هكذا يجلسان، يتحادثان، يتلامسان، يتنفسان، ينظمان لحظاتهما في سلسلة رائعة يزين بها كل منهما عنق الحبيب فتصير إكليلا لا تراه عيون الآخرين لكنه يشع لهما بالنور، قبس يومئ عبر حجرة مزدحمة، عبر المحيط الواسع، عبر الزمن.

ـ متى عرفت؟

ـ أول لحظة رأيتك فيها حقا وكنت تجلسين عبر الحجرة في بذلة الركوب المضحكة وشعرك متهدل على ظهرك. مخطوفة، محبوسة لم تغتسلي، تقولين بكل برود: لن يكون هذا ضروريا، والآن من فضلك أسرج لي حصاني.

ـ لم أطلب منك أن تسرج لي حصاني! حتى وقتها كنت أعقل من ذلك.

ـ تقريبا أصدرت الأمر أن أسرج حصانك، ولم يخطر ببالك أن تخافي أو ترتعدي؟

ـ وممّ أخاف؟

ـ مني. ألم أخفك؟ الباشا الشرير الذي يحبسك عنده في الحريم ويفعل بك أشياء فظيعة؟

ـ أي أشياء فظيعة؟!

ـ أنت أدري فهي في حكاياتكم الإنجليزية، أستدعي الأغوات السود ليكتفوك بالحبال.

ـ هل عندك عبيد؟

ـ يا للفتاة الشريرة! لكن ماذا نتوقع من كافرة؟ تلبسين ملابس الرجال، وترعبين صابر المسكين حتى يكاد يموت خوفا، ثم تلقين بنفسك في أحضان أول عربي تقابلينه.

ـ على أي حال لست عربيًّا. ليس بالمعني المقصود.

ـ في أحضان أول فلاح إذن.

ـ ألا تذكرني من حفلة الخديو؟

ـ لا ! في الواقع لا.

ـ لكن أعيننا التقت. أنا متأكدة من ذلك. كنت واقفا بجوار شباك.

ـ كنت مجرد واحدة منهم. واحدة من أولئك النساء الكاشفات، نصف العاريات.

ـ اسكت! لا تتصرف وكأنك لم تخرج يوما من القاهرة.

ـ آه! لكن هذا كان في القاهرة، كنت هناك تضحكين وترقصين.

ـ لم أرقص.

ـ أعرف.

تضحك آنا في انتصار: «يعني لاحظتني فعلا».

ـ لا، لم ألاحظك .

ـ نعم، فعلت.

ـ ربما قليلا.

ـ ثم؟

ـ ثم ماذا؟

ـ ماذا خطر لك؟

ـ خطر لي أنك تصرفت خيرا من غيرك.

ـ شكرا. ثم؟

ـ ثم ماذا؟

ـ أني جميلة وأن فستاني رائع.

ـ لا. يهز رأسه نفيا: تعرفين حقا أول مرة رأيت فيها جمالك؟

ـ متى؟

ـ عندما دخلت الفناء وكنت راكعة على ركبتيك على الأرض، ملفوفة في روبي المنزلي القديم، وأحمد في حضنك. عندما رفعت رأسك ونظرت إليّ والشمس على وجهك رأيت عينيك ـ ما أجمل عينيك في لونهما البنفسجي ـ وتضرج وجهك وعنقك، فخفضت بصرك وأخفيت وجهك في الطفل فلم أر إلا شعرك. قلت ما أجملها! إنها جميلة حقا.

* * *

تمسكت آنا بأحمد وخبأت وجهها في عنقه ثانية لكنها تطلقه الآن. ينادي خاله ويهيم في اتجاهه فتتبع خطواته المتأرجحة في قلق وتنحني عليه مادة يدها لتلتقطه إذا وقع، وباليد الأخري تمسك أطراف الروب المنزلي وتحبكها حول رقبتها.

تقول: «بونچور» وهي تقترب خلف الطفل.

ينحني إلى الأمام مادا ذراعيه للطفل الذي يصيح «لالو ـ لالو». يأخذ ابن اخته بين ذراعيه ويجلسه على ركبته.

ـ بونچور. لعلك نمت جيدا.

لا ينظر إليها فهو مشغول بأحمد الذي يحاول الوقوف على حجر خاله.

ـ نمت جيدا. شكرا لك .

تجلس آنا في الكرسي الخيزران الثاني، إلى جانب كرسيه لكن إلى الوراء قليلا، وعيناها ترقبان قدم أحمد البضة وهو يدوس على بذلة خاله الرمادية. تكشف السترة المفتوحة عن سلسلة الساعة الذهبية السميكة ترتفع في قوس إلى جيب الصديري. تعود ليلي إلى التطريز وهي ترفع بصرها إلى أحمد لتقول: «بس يا أحمد» وهو يمد يده إلى طربوش خاله، يخلع شريف باشا الطربوش، ويعطيه للطفل وهو يحيطه بذراعه حتى لا يقع، ويعيد ترتيب شعره باليد الأخري، يحدث ليلي بالفرنسية كي تفهم آنا ما يدور من حديث:

ـ كنت أفكر في طريقة سفر ضيفتنا.

تنظر ليلي إلى آنا التي لا تعلق بشيء. تقول ليلي:

ـ آنا تحسن الركوب هذا ما يقوله صابر، إلى جانب أن جميع سيدات الإنجليز يتقنَّ الفروسية. أليس كذلك؟

ـ أين صابر هذا؟ لماذا لم يكن بالباب؟

ـ أذنت له أن يذهب إلى عائلته وسيعود سريعًا. قال إنه لم يجد الفرصة ليخبرهم أنه سيغيب عدة أيام وربما يقلقون ويذهبون للسؤال عنه عند مخدومه.

وتستفهم آنا: «عائلته؟»

ـ نعم. زوجته وأولاده. كان ينوي أن يرسل لهم خبرا لكنه لم يجد الفرصة وكان يبدو قلقا.

تقول آنا في دهشة: «لم أعرف أن له زوجة».

يرد شريف باشا في برود: «ولا أعتقد أن مستر بارنجتون يعرف كذلك».

ـ لكن لماذا... تبادر آنا ثم تتوقف. ويسود الصمت.

تقول ليلي: «أعمل لك قهوة يا آبيه» لكن شريف باشا يهز رأسه بالرفض. يرفع الطفل ويقوم واقفا. يقول له بالعربية: «تعال فرجني على النافورة»، يسير إلى منتصف الفناء. يتوقف مديرا ظهره لهما وينزل أحمد بحرص إلى الأرض ثم يقعي بجانبه ومازال يحيط الطفل بذراعه وليلي وآنا تنتظران عودته في صمت.

يقول شريف باشا لأخته وهو يعود للجلوس:

ـ لماذا لا تأتين معنا؟

ترفع ليلي عينيها في دهشة: «لا أستطيع».

تومئ بحركة صغيرة إلى جدار الفناء: «الوالد ليس في صحة جيدة وماما مسافرة».

ـ آه طبعا! طبعا!

يفرك أحمد على حجره فيعيده للجلوس على ركبتيه، يلتفت قليلا إلى آنا وينظر إليها ثم يدير عينيه بعيدا:

ـ هل تقبلين القيام بالرحلة في هودج؟

ـ أفضل الركوب.

ـ ظننت ذلك، يرفع الطربوش قليلا عن وجه أحمد.

ـ إذن لا بد أن تقومي بالرحلة في هيئة رجل، شاب، شاب صغير جدا، ويزم شفتيه وهو ينظر في اتجاهها، «لكن ليس إنجليزيا». يسكت قليلا: «فرنسي ـ ابن صديق فرنسي من أصدقائي القدامي. سنحضر لك الملابس المناسبة، ويمكن أن تخترعي لنفسك اسما..».

تهتف آنا: «أرمان» فيبتسم.

ـ عظيم! أرمان! أرمان دومانج. سندبر لك الأوراق والملابس وسأحدثك عن والدك في الطريق.

* * *

ـ كنت أعرف أنك الرجل الذي رأيته في دار الأوبرا وأنك رأيتني.

ـ متى؟

ـ عندما ابتسمت وأنا أختار اسم أرمان.

ـ لكن أرمان لم يكن شخصية في تلك الأوبرا.

ـ لا ! لكنه ذكرك بالأوبرا .

ثلاث شمعات يتذبذب ضوؤها خلف زجاج المصباح، لا تؤثر في ضوء النجوم التي تتلألأ فوق الوسائد والسجاجيد المفروشة على السطح الواسع للبيت القديم، ومن وقت لآخر تستنشق آنا عطر زهر البرتقال يحمله إليها النسيم من أشجار الحديقة.

يقول: «آنا... هل تفتقدين تلك الحياة؟»

وترد مسرعة: «أبدًا! أنا هنا معك ولا أريد أن أكون في أي مكان آخر في العالم». أناملها تجوس في شعره الناعم الغزير ورأسه على ركبتها، وبيدها الأخري ترسم حدود ثغره، وحافة شفته العليا مختفية تحت حرف الشارب.

تسأل: «هل يقلقك أن تضطر للحديث معي بالفرنسية؟»

ـ لا! أنا أحب اللغة الفرنسية.

ـ لكن هل يزعجك أنك لا تستطيع أن تحدثني بلغتك، بالعربية؟

ـ أنا وأنت أغراب معا في الفرنسية. خير أن أبذل جهدا، أقطع مسافة لأقابلك. يمسك بيدها التي تتجول على وجهه ويقبل أطراف أناملها.

تقول آنا: «كم حزنت لها! توسكا. عندما تنهار إلى الأرض

والبارون سكاربيا جالس إلى المائدة خلفها وتتساءل ماذا فعلت لتستحق كل ذلك العذاب؟

ـ نعم! كنتِ في فستان أسود.

ـ كنتُ في الحداد، لم يمر إلا عشرة أشهر.

ـ آنا؟

ـ نعم يا حبيبي.

ـ أين دبلة زواجك؟ دبلة زواجك الأول؟

ـ في كيس صغير في درج في خزانتي مع دبلته هو ومفكرتي من تلك الفترة.

ـ .....

يمكنك قراءتها.. لست في حاجة إلى تخبئة شيء عنك.

ـ لا.

ـ أعني ما أقول.

ـ لا يا عزيزتي، ليس الآن ربما في المستقبل، في شيخوختنا.

* * *

القاهرة ١٤ مارس ١٩٠١

عزيزي سير تشارلز

لدي اليوم أخبار عن نفسي أكثر أهمية وتشويقا من مجرد حضور حفلة موسيقية أو جولة للفرجة على الآثار (وأملي أن تجدها كذلك)، فقد أتيحت لي الفرصة في ظروف غريبة

للتعرف بسيدة شابة من المصريين المسلمين، وهي سيدة بمعني الكلمة، فلو رأيتها أنت لقدرت مكانتها وسلوكها ونبالة أسرتها.. إنها ابنة أخو محمود سامي البارودي باشا رئيس مجلس النظار في حكومة عرابي قصيرة العمر وزميله في الثورة المنكوبة التي سمعتك تتحدث عنها في تعاطف، وقد سمح له (لمحمود باشا) بالعودة إلى الوطن منذ عام ونصف لشيخوخته، وقد أوشك أن يفقد بصره، وهو اليوم لا يشغل نفسه بالسياسة بل يقولون إنه يعد مجموعة شعره للطبع. والدتها زينب هانم الغمراوي من عائلة عريقة من أعيان المنيا في الصعيد. لكني لم ألتق بها بعد.

اسم صديقتي الجديدة: ليلي، وعندما تعرفت بها كان زوجها، وهو محام، محبوسا لفترة قصيرة لدوره في تنظيم مطالبة بعض العمال بتحسين ظروف العمل، فهم يعملون في خطوط الترام ويطالبون بشروط للعمل مماثلة للشروط التي يحصل عليها العمال الأجانب. رفضت مطالبهم ورفضت الحكومة تأييدهم فأعلنوا الإضراب، وأتت شركات الترام بما نسميه في إنجلترا عمالة سوداء لكسر الإضراب، وفي حمي المواجهة بين الأطراف نام زوجها وزميل له على شريط الترام ليمنعا المركبات من الحركة، فتم القبض عليهما بالإضافة إلى بعض البارزين من العمال وأودعوا السجن، ثم أفرج عنهم فيما بعد بمسعي من شقيق صديقتي شريف باشا البارودي وهو محام كذلك ـ وفيما فهمت ـ رجل ذو نفوذ

بسبب مركزه واستقامته ومواقفه الوطنية ـ وبطبيعة الحال ـ تاريخ أسرته.

ويمكن أن تتخيل ـ بالتأكيد ـ طوفان الأسئلة التي طرحتها على صديقتي الجديدة، وقد فهمت الآن أن ما تطالب به «طبقات الثرثرة» لا يقتصر على إنهاء الاحتلال البريطاني، بل يطلبون أن تحكم بلادهم ـ مثل بلادنا ـ بواسطة برلمان منتخب ودستور.

عندما سألت عن رأي الخديو أجابت صديقتي بابتسامة رقيقة أن الخديو يعبر للوطنيين عن تعاطفه مع مطالبهم ويقول إنه كان أحري بوالده أن يستجيب لهذه المطالب عندما أعلنها عرابي باشا أول مرة بدلا من الجري إلى الإنجليز، على أن هناك من يعتقدون أن الخديو يستخدم الوطنيين سلاحا في صراعه مع كرومر، وليس هناك ما يضمن أنه ـ إن صار الأمر بيده ـ سيتحول إلى حاكم دستوري استجابة لمطالب الشعب، ولا بد من إرجاء هذا الجدل لحين انتهاء الاحتلال.

أعلم أن هناك أسئلة كثيرة تستحق الطرح: عن الدين العام الذي سمعت عنه الكثير في أحاديث دار المعتمد، وماذا تكون العلاقة مع السلطان في إستامبول إذا أصبحت مصر ملكية دستورية؟ وفي نيتي أن أطرحها جميعا عندما تحين الفرصة، والآن أنا سعيدة جدا بصديقتي الجديدة وأرجو أن أوطد علاقتي بها فربما تيسر لي المزيد من فهم هذه البلاد التي تجذبني إليها منذ زمن بعيد.

من الغريب أنني لم يسبق أن التقيت بمثل هذه السيدة طوال إقامتي هنا وهي مدة ليست بالقصيرة. إننا نكتفي بأبناء جنسنا وأعضاء القنصليات الأخري ولا نعرف من أهل البلد إلا من يقومون على خدمتنا. ويخيل لي أن مثلنا مثل الغريب يأتي إلى إنجلترا ولا يتعامل إلا مع الخدم وأصحاب الدكاكين ويبني رأيه في المجتمع الإنجليزي على مثل هذه التجربة المحدودة. بل الأمر أسوأ من ذلك، فالمجتمع الإنجليزي يعرض نفسه على أنظار الجميع ويعرف الغريب أنه موجود حتى وإن لم تتح له فرصة للنفاذ إليه. أما هنا فقد أدركت أن المجتمع يتواجد خلف أبواب مغلقة؛ وهو مجتمع حي بالرغم من ذلك ـ ثم هناك مشكلة اللغة، فحديثي مع صديقتي الجديدة يدور بالفرنسية، لكنني الآن سوف أَجِدُّ في تعلم العربية، وسأدهشك عندما أوقع لك خطاباتي بتلك اللغة كابنتك المطيعة المحبة ... إلخ.

نهاية بداية

هناك نوع من الحكايات خالصة المصرية، وهي تتميز بثلاث خصائص، فهي حكايات عمودها الفقري الرحلة، وبطلاتها من النساء، وتوجهها الديني يشمل الطبيعة كلها.

يعقوب أرتين(١٩٠٥)

وهكذا تخرج بطلاتنا الثلاث في رحلة، كما يليق في حكاية تولدت عن السفر والترحال، وتكشفت في صندوق سفر، منها خرجت ونفض عنها غبار الزمن. آنا ونتربورن تتجه شرقا خارج القاهرة في طريقها إلى شبه جزيرة سيناء في صحبة شريف باشا البارودي، وأمل الغمراوي وإيزابل باركمان تتجهان جنوبا إلى طريق الصعيد ليحملهما إلى طواسي في محافظة المنيا.

ـ ألم أقل لك إنني سأدرس ذلك المفتاح وأطبقه؟ تقولها إيزابل ضاحكة.

ـ وقد فعلت حقا.

وتلقي أمل نظرة سريعة على الورقة التي أعطتها لها إيزابل، وإذ تبطئ السيارة خلف عربة يجرها بغل تفرد الورقة على عجلة القيادة وتقرأ:

أم: الوالدة (وكذلك أعلى الرأس) وأم الشيء أصله.

أمة: الشعب ومنها أمّم، يؤمم.

أَمَّ: يقود في الصلاة، ومنها إمام: من يقود المصلين، قائد ديني.

مساحة خالية ثم،

أب: الوالد.

ـ ثم؟ تسألها أمل وهي تعيد لها الورقة، وتري الطريق مفتوحا فتنقل إلى الثاني وتتجاوز المركبات أمامها.

ـ هذا كل ما عندي إلا إذا كان لديك اقتراح آخر؟

تقطب أمل وهي تفكر وتتمتم:

أبوة، أبوي، لا، لا أذكر استخداما آخر.

ـ هذا يعني أن مفهومين مهمين للغاية: الوطن والقيادة الدينية، تشتقان من لفظ الأم، فالكلمة تدخل في السياسة والدين والاقتصاد وحتي التشريح، فكيف يقولون إن اللغة العربية لغة ذكورية؟!

تلتفت لها أمل التفاتة سريعة وتبتسم:

ـ مدهش، لكن من ناحية أخرى يمكن القول إن لفظ «أب» يقف وحده لأنه فريد، لا يرقي إلى مستواه أي تصور آخر.

ـ لا، لا يمكن أن تفكري أنت بهذه الطريقة.

تتأمل إيزابل أمل: إنها وأخاها صنوان، لا يقتصر الشبه على الشعر الأسود والعيون السوداء؛ فالجميع هنا لهم مثلها، إنه السلوك وطريقة الكلام، الابتسامة الودود المتفكهة في نفس الوقت، وطريقته في الإطراء فلا تعرف إن كان جادا أم لا، والأسئلة المباغتة التي تصل مباشرة إلى القلب. إلا أن أمل ليست بالضبط على درجة أخيها من التألق والحيوية، أو بالأحري هي تُلجم حيويتها وما قد يشع منها من ألق.

قالت أمل:

ـ نتوقف هنا قليلا.

مضى عليهما ساعة ونصف وهما على الطريق.

وضربهما الهواء عند خروجهما من السيارة ساخنًا كما لو كان يهب من فرن. لاحظت أمل جونلة إيزابل الطويلة والقميص الواسع ذا الأكمام والإيشارب يغطي الشعر، سألت:

ـ ما كل هذا؟ تتحجبين؟

هزت إيزابل كتفها. كانت قد وصلت لقرار، فقد لاحظت مجموعات السائحين في المدينة القديمة وفي البازار، ولحمهم العاري محتقن من الحرارة كأنه جمبري، وأهل المنطقة يحملقون فيهم أو يشيحون بعيونهم. وهذه الملابس مريحة جدا في هذا الطقس...

ابتسمت أمل وقالت:

ـ تبدين جميلة على أي حال.

ترقبان امرأة تسير نحوهما، يسبقها حمار رأسه مدلي في صبر، على ظهره حمل كبير من قصب السكر، ومع كل خطوة من خطوات الحمار يهتز القصب كما لو كان في الميزان، يمكن أن يطب في أي اتجاه.

ـ السلام عليكم!

ـ عليكم السلام!

توقفت المرأة وأخذت تتحدث هي وأمل: أين تتجهان؟ ومن القمر التي بصحبتها؟ وانتهز الحمار الفرصة ليتشمم في التراب لعله يجد عودا أخضر.

تعودت إيزابل تجاذب أمل الحديث مع أناس عابرين أثناء جولاتهما في القاهرة: أصحاب الدكاكين، منادي السيارات، وحتي رجال المرور، إلا أن شعورا بالقلق أخذ ينتابها تدريجيا وهما تخلفان المدينة وراءهما، وفقدت بعضا من شعورها بالاطمئنان، فعلي هذا الطريق لن تتمكن من الهروب، لم تر محطات خدمة ولا تليفونات، لا شيء غير الطريق يمتد بين الحقول، يصل إلى مدينة صغيرة ثم مزيد من الحقول، ومن حين لآخر لافتة عليها اسم مكان لم تسمع به من قبل. وأحيانا تتقدم سيارتهما ببطء، أسيرة خلف شاحنة أو عربة تجرها دابة، فهذه هي حركة المرور الرئيسية على طريق الصعيد، شاحنات وعربات وسيارات بيچو ستيشن واجون يركبونها بالنفر، متربة قديمة تقوم مقام التاكسي، والطريق يؤدي إلى قلب منطقة الإرهابيين، على الأقل هذا ما يقال في الصحف، لقد وضعت ثقتها في صديقتها، لكن ماذا لو أن شيئا حدث لأمل؟ لو أغمي عليها من الحرارة أو أصابها التهاب الزائدة الدودية مثلا؟ أمل نفسها لا تبدو خائفة من شيء، تتحدث على راحتها مع الفلاحة وتختار عودا من القصب قبل أن تمضي المرأة في طريقها.

نزعت أمل قشرة العود الجافة اللامعة وقطعت سلخة من القصب، مضغتها إيزابل وتذوقت العصير السكري، ثم بصقت المصاصة الجافة البيضاء بحرص في يدها. سألت:

ـ هل أعطتك هذا العود؟

ـ سألتني إن كنت أحب القصب...

ـ ألم تدفعي لها شيئا؟

قالت أمل وهي تعود إلى السيارة:

ـ لم تكن تريد ثمنا، إنه مجرد عود قصب.

لم يكن حاجز الأمن الأول مشكلة كبيرة، لمحتاه عن بعد: البراميل الحمراء والبيضاء والكشك على جانب الطريق والضباط يشيرون لهما حتى توقفت السيارة. أنزلت أمل زجاج النافذة المجاورة لها ومد الضابط الشاب رأسه للداخل: أمل الغمراوي وإيزابل باركمان، أمريكية، خطيبة أخي، طواسي في المنيا، بلدنا، أرضنا، بضعة أيام.... جنود يقفون على الجانب يحملون بنادق، تراجع الضابط عن السيارة. قال احرصي عليها لا نريد دم أجانب يسفح هنا.

بعد الحاجز الثاني على بعد ٣ ساعات من القاهرة تعطلت السيارة. عندما تصاعد منها الدخان قررت أمل أن تستمر في السير، لكنها اضطرت للتوقف عندما ازداد الدخان سوءا، كان مؤشر الحرارة في الأحمر. ركنت أمل السيارة إلى جانب الطريق وفتحت غطاء المحرك فتدفق الدخان في كل مكان، كانت الشمس في الظهيرة والحر شديدًا.

سألت إيزابل: «ماذا نفعل الآن؟»

قالت أمل: «لا أعرف» ولم يبد عليها القلق: «ننتظر».

ـ هل عندكم خدمة نجدة للسيارات؟

ـ لا، بالطبع لا، فلنجلس في الظل وننتظر.

أخرجت كليما صغيرًا مقلمًا من السيارة، وفرشته على جانب

الطريق. جلست أمل وجلست إيزابل، أكلا يوسفي وراقبت إيزابل صديقتها وهي تدعك قشر اليوسفي في يديها وتستنشق رائحته. توقفت أمامهما سيارة من سيارات البيچو ستيشن القديمة التي تملأ الطريق، خالية إلا من السائق الذي أطل برأسه من النافذة قائلا:

ـ خير؟ فيه حاجة؟

ـ العربية تعطلت، سخنت ودخنت، خفت أكمل بيها.

قال الرجل: «أبص لك عليها».

نزل من سيارته. رجل داكن السمرة، هزيل، في بنطال بني وقميص مُشجر وحذاء بالٍ بدون جوارب. أحضر خرقة من سيارته وفتح الردياتير الذي فح فيِ وجهه وقذف بمزيد من الدخان.

قال «مفيهاش ميَّه!»

عاد إلى سيارته وأحضر چركن ماء، وصب بعضا منه في الردياتير، وراقبوا الماء يسيل إلى الأرض بين العجلات.

قال: «الردياتير مثقوب».

فسألته أمل: «وبعدين؟»

قال الرجل شيئا وأشار بعيدا، ثم أحضر حبلا وأخذ يربط السيارة إلى سيارته. سألت إيزابل بصوت منخفض: «هل أنت مطمئنة إلى هذا؟»

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أليس هناك خطر؟

ـ يقول إن هناك محلا قريبا يمكن أن يصلحوا فيه الردياتير.

ـ لكن هل أمان أن نذهب معه؟

ـ طبعا! لا تخافي.

التفتت إلى الرجل، وقالت:

ـ زوجة أخي، خواجاية، احنا رايحين بلدنا، طواسي في المنيا.

ـ يا ألف مرحب.

قالها وهو يشد ربط العقدة ليختبرها. جرتهما السيارة البيچو لمدة عشرين دقيقة، وأفلت الحبل مرتين، وفي كل مرة ينزل الرجل ويعيد ربطه، ثم تحولوا إلى طريق جانبي مليء بالحفر حتى وصلوا إلى عدد من البيوت المتداعية ومسجد صغير وسوق. توقف السائق أمام كابينة من الأسمنت أمامها قطع سيارات مفككة. نزل من سيارته وزعق عدة مرات فخرج له رجل من خلف البناء، كان الشحم عالقا بكل جزء من جسمه، ويمسح يديه بخرقة.

قالت أمل: «ابقي أنت في السيارة» ونزلت واتجهت إلى الرجلين. وقف الثلاثة يتحدثون في الشمس الحارقة. السيارة بدون التكييف مثل حمام البخار، شعرت إيزابل بالعرق يجري على فروة رأسها، أصابها الصداع وبدأت الأشكال تتموج أمامها في الحرارة الصاعدة من الأرض. جاء الميكانيكي إلى السيارة واختفي تحتها، ثم قام وعاد إلى الآخرين واستمروا في الحديث ثم اتفقوا على شيء لأن الرجل الذي جرهما رفع يده إلى جبهته وعاد إلى سيارته، تبعته أمل ومدت له يدا، وراقبت إيزابل الإيماءات التي أضحت تعرفها جيدا: الرجل يتراجع مبتسما، يهز رأسه وعيناه على الأرض ويده على قلبه. تراجع حتى ركب سيارته، ورفع يده بالتحية وانطلق.

عادت أمل إلى إيزابل.

ـ تعالى نجلس في الداخل، لعل الحرارة أقل.

رأس إيزابل يدق وهي تخرج من السيارة، ورداؤها يلتصق بفخذيها، وتشعر بالعرق يجري في شعرها وتحت الإبط وبين الثديين وخلف الركبة. الكابينة في الداخل مظلمة وحارة تملؤها رائحة الجاز، وتناثرت فيها قطع من سيارات وإطارات وأدوات ومطاط مبعثرة في كل مكان. رأس إيزابل يدور لكن نفسها لم تطاوعها على الاستناد إلى الحائط المتسخ. ظهر صبي صغير مغطي هو الآخر بالشحم، أحضر مقعدين وضعهما قرب الباب، وأحضر من عمق الدكان مروحة عتيقة وضعها متأرجحة على قطعة ماكينة سوداء وأوصلها ببعض الأسلاك المعلقة على الحائط فبدأت في الدوران، مسح الكراسي بطرف فانلته وابتسم ابتسامه عريضة:

ـ اتفضلوا.

تداعت إيزابل على الكرسي، لكنها قفزت واقفة إذ انثنت رجل الكرسي تحتها.

ـ لا تخافي! ضحك الصبي وأقام رجل الكرسي وزنقها بقطعة من الكرتون. جلست والمروحة تدور بسرعة في وجهها بريشاتها العارية.

قالت: «هذا المكان كمين. الموت فيه أكيد».

ردت أمل بابتسامة غريبة: «ليس كذلك إذا كنت معتادة عليه»، ثم استدركت: «هل أنت بخير؟ وجهك ممتقع».

ـ أنا بخير.

ساد الصمت حتى عاد الصبي إلى الظهور يحمل زجاجتين سفن أب، كل زجاجة مفتوحة وقد أعيد الغطاء مضغوطا على رقبتها. قالت له أمل كتّر خيرك وأخذت واحدة وأعطت الأخري لإيزابل. رفعت كل منهما الغطاء ومسحت فتحة الزجاجة بيدها ثم شربت. راقبت إيزابل الميكانيكي وهو يستخدم مصباح اللحام: عاري اليدين عاري القدمين بلا قناع! يعمل بدون أي وقاية، وعندما رقد تحت السيارة رقد الصبي إلى جواره ممسكا مصباحا كهربائيا من رقبته ليضيء له، ويبدو أن التيار الكهربي يأتي من أسلاك ملفوفة على الأسلاك التي تتدلي على الحائط خلفها!

ـ إيزابل! نادت أمل عليها وبدا كأن صوتها يأتي من بعيد: «أخشي أن تكوني أصبت بضربة حرارة. سأعود حالا».

وعادت وفي يدها دلو بلاستيك لونه برتقالي زاعق نظرت إليه إيزابل فأحست بالدُّوار يشتد بها.

ـ أميلي رأسك قليلا إلى الخلف، ونزعت أمل المنديل عن رأس إيزابل التي شعرت بسائل بارد ينزل بطيئا في أذنها، ثم في الأذن الأخري.

سألت: «ما هذا؟».

ـ جليسرين، سيمتص الحرارة، والآن أمسكي هذا.

أخذت فوطة مبتلة من الدلو وعصرتها ثم وضعتها باردة ومبتلة في يدي إيزابل، ووضعت فوطة ثانية خلف عنقها وثالثة على جبهتها، وظلت واقفة ويداها تحفظهما في موضعهما.

ـ ستشعرين بتحسن الآن.

قالت أمل بعد عودتهما إلى السيارة:

ـ أنا آسفة، كان غباء منى أن أحضرك معي، ربما يحسن بنا أن نعود.

ـ لا، لا، وكانت إيزابل تعني ما تقول، كانت تريد أن تستمر:

ـ لا يُعقل أن تتعطل السيارة ثانية، أليس كذلك؟

ـ لا، لا أعرف، نعود أحسن.

ـ لكن لا بد أننا اقتربنا من بلدتكم؟

ـ حوالي ساعة.

ـ أنا بخير الآن، حقا، وستبرد السيارة بعد أن نتحرك. أرجوك لا تقلقي. الجليسرين فعلا نفع.

ـ تذكرت فجأة، كانت أمي تفعل ذلك معي... مش معقول: حاجز آخر!

شعرت إيزابل أنها أبعد ما تكون عن أي شيء تعرفه، أنها سلمت نفسها إلى أمل الغمراوي وكأنها عادت طفلة. وهي لا تذكر متى اعتمدت على شخص آخر لهذه الدرجة. واللغة كذلك مسئولة، فهي تدرس العربية، وتستطيع التصرف في القاهرة وتفهم اتجاه الحوار، أما هنا فسيدور الحديث باللهجة المحلية فما مقدار ما يمكنها تخمينه؟ الأمر كله متروك في يد أمل التي كانت منذ شهر تحجم عن الخروج للعشاء، أمل اليوم لا تجد مشكلة في أن تقود السيارة خمس ساعات في قلب الريف، وليته كان الريف كما تعرفه

إيزابل: لا موتيلات ولا محطات بنزين، بل حقول ثم مدن تبدو كأنها لم تستكمل بعد وهي في نفس الوقت متداعية. وناس، دائما ناس وحيوانات: حمير وجياد وكلاب وجواميس وماعز وجمال، كلها تتجول عبر الطريق والشاحنات تزعق لها بالأبواق، ثم حواجز البوليس، وكلما توغلت بهما السيارة في الصعيد فقدت الحواجز مظهرها الرسمي، وبدلا من البذلة الرسمية ظهر الجنود في اللباس المدني أو لباس التمويه، وقد أطلق الضباط اللحي وأطالوا الشعر، وكان أحد الضباط يربط منديلا ملونا على جبهته مثل ثوار أمريكا اللاتينية، لم يعودوا قوة من رجال البوليس، تحولوا إلى جيش في غابات الأعداء.

عندما سألها ضابط للمرة الثالثة «لماذا تأخذينها معك؟» ردت أمل مازحة «هل يبدو عليها أنها مخطوفة؟»

أجاب باقتضاب: «نحن لا نلعب هنا. تعرفين ما سيحدث لو أن أمريكية أصابها ضرر».

أسرع إليهم ضابط آخر: «أسرع. دعهما تتحركان».

وذهبتا، ولكن ليس قبل أن تلمحا ثلاثة شباب من الفلاحين بجلاليب ملطخة بالدماء والحبال تكبل أيديهم وتلف أعناقهم يدفعون بسرعة داخل الكشك المقام على جانب الطريق.

كانت الساعة الثالثة والنصف حين عبرت السيارة مدقًا ترابيًّا ضيقًا ودخلت من بوابة خضراء مفتوحة في سور من الحجر الأبيض وتوقفت. بدا المنظر لأول وهلة في عيني إيزابل وكأنه ديكور فيلم عن المكسيك: بيت أبيض من طابق واحد، بقباب محدبة وفتحات

ضيقة هي النوافذ. ظهرت امرأة تتبعها فتاتان صغيرتان، ودار الترحيب وتبودلت الأحضان والقبلات والتحيات وقُدِّمت إيزابل: «إيزابل خطيبة أخويا».

قالت المرأة: «يا مرحب يا ست إيزا» وصار هذا اسمها، أعيد لأصله بدون اللفظ اللاتيني «بيلاَّ»، مجرد اسم إلهة هذه الأرض. لو سمعها چوناثان لوجد الأمر مسليا، وشعرت إيزابل مرة أخرى أنها تفتقد أباها.

أعجبها البيت جدا، كانت تظنه مكيف الهواء عندما دخلت الصالة الكبيرة في وسط الدار، لكنها الجدران السميكة لا تسمح بنفاذ الحرارة الشديدة، والسقف المعقود والنوافذ المفتوحة على الشرفة تلتقط كل نسمة هواء. أمل تتحرك بسرعة وحماس تفرِّجها على الحجرات وتشرح لها تنظيم البيت: ٣ أجنحة تفتح على الفراندة وتحيط بالحديقة الظليلة غزيرة النباتات، المندرة بمدخلها المنفصل حيث يستقبل الرجال ضيوفهم بدون كشف نساء البيت، الحمامات الواسعة بأحواض الاستحمام الفكتورية ترتكز على دعائم على شكل مخالب، كانت أمل سعيدة وقد نسيت في لحظتها الراهنة الشباب الثلاثة الذين رأتهم على الطريق.

قالت لها إيزابل: أشعر وكأنك عدت إلى بيتك.

حقا؟ قالتها أمل مستغربة. جائز. الواقع أن شقتي.. شقتي لم أسكنها إلا بعد عودتي من إنجلترا، فأظن أن هنا حقا بيتي، أقصد ما تبقي من كل ما عرفت في طفولتي، كل الأثاث. كل شيء.

والصور. في كل مكان بالبيت صور فوتوغرافية أبيض وأسود

ولوحات بألوان مائية زاهية تشرق بالضوء. تجولت إيزابل في المكان تتفحصها. البيت مزدحم بالصور، كل الصور من البيوت الثلاثة في القاهرة خُزنت هنا، وخمنت إيزابل في الحال من رسم اللوحات المائية: آنا؟ «هذه رسومات آنا؟»

ـ نعم. انظري هنا، وهناك في ركن اللوحة كان الإمضاء بخط صغير ثابت: آنا.

رأت في لوحة فناء يدور حوله أيوان مسقوف ذو أعمدة، وفي وسطه نافورة يسقط منها الماء على بلاطات ملونة، وطفل على ركبتيه ينظر إلى الماء، وفي لوحة أخرى كان المنظور من خلال فتحة في شجيرات مزهرة إلى مرج واسع، وإلي رجل يقف في الطرف البعيد وظهره إلى المشاهد، يشير إلى بقعة، ربما لزرع شيء أو دفنه. وفي لوحة داكنة تختلف عن غيرها من اللوحات يرقد رجل على أريكة، ولا نور ينفذ من المشربية خلفه، وامرأة تقبع على الأرض إلى جانبه.

قالت إيزابل: «كانت رسامة بارعة».

وابتسمت أمل: «تربية إنجليزية مضبوطة».

التفتت إيزابل إلى الصور الشمسية:

ـ دعيني أخمن من يكونون، آه هذا شخص عظيم جدا.

ـ هذا الغازي مختار باشا، ممثل السلطان العثماني في مصر. كان صديق البارودي الكبير: محمود سامي.

ـ انظري إلى لحيته، وكل هذه الأوسمة والنياشين، كل هذا النحاس.

كانت هناك صورة عائلية: حسني الغمراوي وزوجته وابنه، وصورة لرجل كبير السن يرتدي العمامة البيضاء وجُبَّةً داكنة اللون، يغطي الشيب شاربه ولحيته، يظهر الفكر والقلق في عينيه. قالت أمل: «الشيخ محمد عبده الإمام الأكبر، لكن انظري إلى هذه».

كانت صورة أخرى للشيخ، اللحية والشارب لم يخط سوادهما شيب، الجبهة مغضنة بالفكر والعينان تتحديان في غضب. وفي الحجرة التي خصصتها لها أمل، حجرة ليلي البارودي رأت إيزابل الصورة التي كانت تتوق لمشاهدتها: صورة جدها الأكبر شريف باشا البارودي.

قالت لها أمل: «اسمعي. يستحسن أن ترقدي وتستريحي»، واقتربت منها وتحسست جبهتها: «أظن أنك بخير. هل تشعرين بشيء؟»

ـ أنا بخير فعلا، سأفك حقيبتي. هل يمكنني أن أستخدم الأدراج؟

ـ استخدمي أي شيء يعجبك.

وفتحت أمل أدراج خزانة جدتها العالية.

ـ ما هذا؟! أخرجت من آخر درج لَفَّة لينة ملفوفة في قماش أبيض. وضعتها على الفراش وحلت رباطها؛ قماش أخضر، فتحت طياته فاتضح أنه علم أخضر كبير، في وسطه باللون الأبيض هلال وصليب متشابكان. سألتها إيزابل وهي تقف إلى جانبها: «ما هذا؟»

ربتت أمل على الغضون والكسرات وفردتها:

ـ هذا علم الوحدة الوطنية. كنت نسيت أني وضعته هنا. يعود تاريخه إلى سنة ١٩١٩.

رفعت بصرها إلى إيزابل: «ثورة سعد زغلول، لأول مرة في تاريخ مصر الحديثة خرجت النساء في مظاهرة في الشوارع، وكان الناس يحملون هذا العلم، ليقولوا للإنجليز إن المصريين جميعهم أقباطا ومسلمين يطالبونهم بالجلاء.»

ـ هذا العلم فقط؟

ـ لا يا إيزابل، مئات منه، لا بد أن هذا كان العلم الذي رفعته جدتي.

أعادت طيه ودسته تحت إبطها.

ـ لا بد أن تستريحي، أنا ذاهبة لأستريح.

ولم تشر أي منهما إلى ما رأتاه في الطريق.

غربت الشمس في بساطة بدون تباه، قرص أحمر يهبط من سماء صافية آخذة في الإظلام لينغمس في أفق فضي. ومع الغروب بدأت النسوة يتوافدن: خيام صغيرة سوداء تقترب في صمت على ممر الحديقة. وفي الردهة خلعن العباءات السوداء وامتلأت الحجرة بألوان زاهية لفساتين من الساتان، وردية وخضراء وبنفسجي، تتألق أمام الأثاث الداكن والمفروشات البيضاء. وقد أحضرت كل واحدة منهن شيئا، طبق طعام من صنعها، مجموعة من الفطائر ساخنة لتوها، بيضًا، بطيخة ذكرت إيزابل بالكريسماس عندما شقوها: أحمر في أخضر، وكان مع بعضهن أطفال صغار تجولوا في الحجرة ثم خرجوا من الباب المفتوح للعالم الأكبر في الخارج.

قُبِّلت أمل واحتُضنت مرات ومرات، وقالت مرات ومرات «هذه خطيبة أخي» ويتكرر الترحيب والمباركة وكلمات الإطراء: اسم الله عليها يحفظها ويحميها، عرف ينقي، نوّرت بلدنا وكمان بتتكلم عربي؟

قالت إيزابل: «شوية!»

ـ خلاص اقعدي معانا واحنا نعلمك.

ـ نعلِّمها؟ تعلميها كلامنا؟ كلام الفلاحين؟

ـ أمال نعلمها إيه؟ كلام التليفزيون؟

ـ وما له كلام الفلاحين؟

ـ لما ترجع مصر يضحكوا عليها.

ـ تعلمنا هي إنجليزي. إيه رأيك؟ تعلمينا إنجليزي يا ست إيزا؟

ـ تعملي إيه بالإنجليزي يا حبيبتي؟

ـ نتعلم، نحط كلمة على كلمة يمكن ينفعوا.

ـ يا ختي اتعلمي عربي الأول، فكي الخط.

ـ ولا إنجليزي ولا عربي، قفلوها خلاص.

كانت إيزابل تجمع المعني من الكلمات التي تفهمها وإشارات النساء وترجمة أمل من حين لآخر في صوت خافت، ودارت صينية الشاي وقطع الحلوي من الكنافة وبلح الشام أحضرتها أمل من القاهرة وأكواب الماء البارد.

ـ قفلوها يا ست، كنا نعتمد عليها. أين يذاكر الأطفال الآن؟

ـ والوحدة كانت نافعانا.

ـ الواحدة مننا ماصدقت جوزها رضي بحكاية تحديد النسل. واهم قفلوا الوحدة لا لوالب ولا كبابيت.

ـ يا ختي اختشي إنت وهي. لسانك فالت والا إيه؟

ـ احنا قلنا حاجة؟ احنا ستات مع بعض والا هي الست غريبة؟

ـ ما غريب إلا الشيطان. كلنا أهل.

ـ حتعملي إيه يا ست أمل؟

ـ مش عارفة.

ـ أمال مين اللي يعرف. مش المدرسة تخصك من أيام أبوك وجدك من قبله؟

ـ أيوه، بس...

ـ كلمي الحكومة.

ـ وهو الكلام مع الحكومة سهل؟

ـ الحكومة لازم يبقى عندها مفهومية، بلدنا ما عملتش حاجة.

ـ وقفوا العسكر على الباب ولا حد يقدر يقرب.

ـ بيقولوا المدرسين كانوا إرهابيين.

ـ بلدنا ما فيهاش إرهابيين، والحكيمة؟ إرهابية هي كمان؟ أهي قدامك اسأليها.

بنت أبو المعاطي الأرملة! ابتسمت امرأة ممتلئة بوجه ناعم ووشم أزرق على ذقنها:

ـ نعمل إيه؟ الحكومة إيدها قوية!

ـ قوية على الغلابة.

ـ لا يريدون مشاكل.

ـ واحنا عملنا مشاكل؟ كل حي فينا ماشي في حاله...

قالت أمل مترددة: «واحنا على الطريق، شفنا ثلاثة شباب مقبوض عليهم.»

ـ ما فيش حد كبير على الحكومة، بيعملوا ما بدا لهم، يحبسوا الناس، يولعوا في القصب، يقولوا الإرهابيين مستخبيين فيه ويحرقوه. الناس تعبت يا ست أمل، تعبنا.

قالت أمل: «أروح أشوف المدرسة الصبح..».

ـ الله ينوّر عليكي. لكن العساكر مفيش في إيدهم شيء، حتى المأمور لا يقدر على شيء. الرك على الحكومة في مصر.

ـ ربنا يسهل..

ـ وما دام ست إيزا معانا هنا، قولي لها يا ست أمل، قولي لها تقول لحكومتها تخف إيدها عننا شويه.

ـ كل حاجة تحصل يقولو أمريكا عايزة كده...

ـ الواحد يروح البنك علشان سلفية للزرعة الجديدة يقولوا له لازم تدفع فايده كذا...

سألت إيزابل أمل عم يتحدثن، وترجمت لها أمل. كان النساء يُرِدْن أن تسمع إيزابل الترجمة.

ـ يلغوا الدعم على السكر والزيت: أمريكا عايزة كده...

ـ ثمن الأدوية أصبح نار...

ـ الموضوع ليس أمريكا، شعرت أمل بالحرج ووجدت الأمر ـ في نفس الوقت ـ مضحكا: «الموضوع هيئات زي البنك الدولي و...»

ـ ما هو نفس الشيء، مش أمريكا أكبر بلد دلوقت واللي تقول عليه يمشي؟

ـ نعم، بس الموضوع...

ـ إيه؟

ـ معقد أكثر من كده.

ـ معقد والا مش معقد، إحنا هنا عايشين على الأرض والواحد يشتغل طول النهار لحد ما ضهره ينكسر وبرضه مش عارفين نعيش، والشباب، يروحوا يتعلموا وبعدين؟ عايزين يتجوزوا، وعايزين سكن يلمهم، عايزين يشتغلوا ويعيشوا زي البني آدمين، والعيشة أصبحت صعبة قوي...

جلست إيزابل واستمعت وحاولت أن تفهم ما يقال.

في الحديقة كان الأطفال يلعبون عروسة وعريس: جلس ولد صغير على السلم وبجانبه فتاة صغيرة، نسقت حولهما أغصان خضراء وسعف النخيل وكأنهما في الكوشة، وضعوا على رأس

الطفلة قطعة من القماش الأبيض، وهي تخفض بصرها إلى الأرض في خجل، والصبي يمد يده ليمسك بيدها. ترقص أمامهما فتاتان وقد شدت كل منهما حزاما حول ردفها الصغير الذي سيمتلئ يوما ويهتز فعلا عندما ترقص. كان بقية الأطفال يجلسون في حلقة عند أقدام العروسين، أحدهم يقرع على لوح من الخشب والباقون يصفقون ويغنون:

أبويا قاللي يا سمارة

الله! الله!

ما تركبيش الحمارة

الله! الله!

حاصحي واجيبلك طيارة

وأنا عايزة ببسي كولا

ما اشربش الشاي

قوم هات لي ببسي كولا

ما اشربش الشاي.

ـ قومي يا بت إنت وهي، فزي قومي يا للي تنضربي، شوفي العيال يا ختي مستعجلين على روحهم، عيال تخاف ما تختشيش...

أبويا قاللي ما تخرجيش

الله! الله !

لحسن تسودي ما تبيضيش

الله! الله!

خللي بياضك للعريس

وأنا عايزه ببسي كولا

ما اشربش الشاي

روح هات لي ببسي كولا

ما شربش الشاي.

* * *

لم تعرف إيزابل في حياتها مثل هذا السكون: صمت ليس مجرد غياب الأصوات بل هو صمت محسوس، سكون تكاد تتلمسه، تضغط عليه فيلين لك كأنه سحاب، على أنه لا سحاب هنا. تطرح عنها ملاءة الغطاء القطنية، وتقوم جالسة في سرير ليلي البارودي النحاسي بأعمدته الأربعة. تري من خلال الناموسية صورة شريف باشا البارودي على الجدار المقابل لها، في الضوء الخافت لا تتبين ملامح الصورة بوضوح لكنها درستها جيدا أثناء النهار، يطل عليها من الإطار السميك المذهب: طربوش ثابت مستقيم فوق جبهته العالية، الحاجب عريض أسود، يكاد الحاجبان يلتقيان أعلى أنفه المستقيم، شاربه الكثيف يغطي شفته العليا، والسفلي صلبة واضحة في ذقن عريضة قوية، يتركز استعلاء الوجه في العينين تنمان عن الكبرياء والتحفظ، لكن إذا أمعنت النظر تكشفان عن حزن دفين: صورة رجل شامخ، قابض على مشاعره لا يندفع. وفي هذا الوجه رأت إيزابل وجه عمر الغمراوي أكثر منه في وجه أبيه في صورته في الردهة، تري وجه عمر الغمراوي وتشتاق إليه. كم مرة التقيا؟

أخذت تعد المرات ثانية: دعوة العشاء في بيت ديبورا، المطعم في الشارع السادس؛ في ذلك اللقاء وقعت في غرامه وهي ترقبه يعبر القاعة في الطريق إليها، يده مرفوعة بتحية سريعة والابتسامة تشرق في عينيه. ثم اللقاء عنده في الكلية، يتوقف كل ثلاث خطوات ليتحدث مع شخص عابر، كما تفعل أمل في شوارع القاهرة. وهناك سألته بعد أن توقف ليحادث طالبًا عربيا ملتحيا:

ـ هل لك علاقة بالأصوليين؟

ـ أي أصوليين؟

ـ لا أعرف. حماس، أو حزب الله. أو في مصر؟

ـ كلهم سواء لديك؟

ـ لكن هل صحيح أن لك علاقة بهم؟

ـ هل شكلي شكل الأصوليين؟ هل أتصرف كما يتصرفون؟

ـ لا. لكن هذا ما يقال عنك.

ـ منذ فترة ليست بعيدة كان يمكن أن توصف هيلاري كلينتون بالشيوعية بسبب آرائها عن الصحة العامة.

ـ إذن لست منهم؟

ـ لا، يا عزيزتي، طبعا لست منهم. انظري ها هي كلوديا! ما أعجب هذه القبعة..

في المرة الرابعة التقيا لمشاهدة سكابان في المسرح الدائري، ثم العشاء بعد المسرح. هي التي دعته لكنه كان سعيدا بالذهاب. تعيد في ذاكرتها تلك اللحظة في بهو المدخل إلى المسرح عندما خلعت

معطفها والتفتت إليه فابتسم في عينيها قائلا: جمالك رائع. يده على مرفقها توجهها إلى مقعدها، وعندما أوصلته بسيارتها إلى باب بيته، توقف قليلا. هل كان يفكر أن يدعوها للدخول؟

سألها: «هل أراك قبل سفرك؟»

قالت: «نعم، سأحدثك بالتليفون». (خير من انتظار تليفون منه).

مال إليها وقبلها قبلة جافة سريعة انتهت قبل أن تبدأ.

ـ تصبحين على خير.

حادثته بالتليفون ودعته أن يزورها ويري الكنز الذي وجدته. أعدت مكرونة وسلطة. وفحص محتويات الصندوق. عندما أخبرته أن آنا المرأة التي كتبت المذكرات كانت أم جدتها، لا بد أنه خمن الموضوع كله لكنه لم يقل شيئا. وبعد العشاء، وهما يشربان القهوة قال لها: «أحسن شيء خذي هذه الحقيبة إلى القاهرة واعرضيها على شقيقتي فهي تعيش هناك وستساعدك في تفسير كل الألغاز».

ـ ماذا؟ آخذ الصندوق كله؟

ـ لم لا؟ ضعيه في الطائرة. دعي حمالا يحمله لك.

ووافقت لأنها أخته، لأنه بهذا يرسلها إلى أخته: حلقة اتصال بينها وبينه.

سألته: «هل تعيش معها؟»

ـ من؟ أعيش مع من؟

ـ سامنتا متكالف.

ـ لا، لا يا عزيزتي، أنا لا أعيش مع أحد.

سألته بعفوية وهي تصب المزيد من القهوة: «كم مضى من الزمن على طلاقك؟»

ـ زمن طويل. عشر سنين. لماذا؟

ـ كنت أتساءل.

ـ وأنت؟ كنت متزوجة؟

ـ نعم. سنتين.

ـ متزوجة سنتين أم مطلقة سنتين؟

ابتسمت: «الاثنين، سنتين متزوجة، وسنتين مطلقة».

ـ وماذا بعد؟ هل تفعلينها مرة ثانية؟ أقصد تتزوجين.

ـ لا أدري..

كانت تنظر إليه: «إذا وجدت الرجل المناسب».

ـ جميل أن يكون للإنسان أطفال، الأطفال شيء عظيم. أنا عندي اثنان. كبرا الآن ـ تقريبًا.

قالت: «أعرف».

عندما نهض ليغادر وارتدي معطفه وكوفيته ووصل إلى الباب، ألقت بنفسها بين ذراعيه. رفعت وجهها إليه وعندما قبلها لفت ذراعيها حوله وتمسكت به، كانت تود البقاء في دفئه إلى الأبد، ازدادت قبلتهما عمقا وشعرت بإحساس الذوبان المدهش يتدفق في معدتها وثدييها وذراعيها، ثم أبعدها عنه.

ـ آه يا إيزابل ، قالها وهو يهز رأسه، وخالطت صوته نغمة لعلها الأسف، لكن يده ظلت مشتبكة في شعرها، وشد رأسها إلى الخلف حتى اضطرت أن تنظر إليه وهو يقول:

ـ أنا في سن أبيك.

ـ أعرف، لكن لا يهمني.

ـ لا بد أن يهمك.

تحسس وجهها لحظة ومسح بإبهامه على شفتها وتمتم: «خلِّي بالك من نفسك»، وخرج من الباب وتركها في شوق إليه. ذلك الشوق الموجع الذي لا يغادرها، حتى وهي تحس في خيالها بشفتيه على شفتيها، وتجعله يفك أزار قميصها فتري وعيناها مغمضتان يده تتحرك على رافعة ثديها من الدانتيلا، تتحسسها، تجذبها، تشدها، ورغم أنها ترقد معه على أرض الحجرة في شقتها وتشعر بثقله فوقها وبخشب الأرضية صلبا تحت ظهرها، وتدفع بإحساسها إلى الذروة، تظل في النهاية تعاني وجع الشوق إليه.

عندما ترفع رأسها ثانية تري من خلال قماش الناموسية وضلفة السلك على النافـذة القمر أبيض يغمر الكون بضوء بارد، تزيح شاش الكلة الرقيق، وتفتح الشباك وتغلقه خلفها وتخطو إلى الشرفة على ساقين واهنتين.

الوسائد قد رفعت من الشرفة حتى لا تبتل بندي الصباح، فتجلس إيزابل على مقعد من الخيزران العاري وهي تشد ذراعيها حول جسمها، وتشعر بهواء الليل ناعما على رقبتها وعلي وجهها: دفء لطيف تتخلله من حين لآخر نسمة تحمل شذي الياسمين

الهندي وقد اختلط بنكهة حريفة من عطر الليمون. في الصمت يبرز صرير الجنادب ومن حين لآخر نقيق ضفدعة أجش يُسمع من أغوار الحديقة.

البيت يحيط بها من كل جانب، راسخ في موقعه، ساكن شامخ بسنواته المائة والعشرين، بيت كبر مع نمو الأسرة طوال أجيال أربعة، في قلبه القاعة الفسيحة ثم المندرة المضيافة، والجناح البحري من حجرتين للنوم، وحجرة للضيوف شيدها مصطفى بك الغمراوي ومعها حجرات الخزين والحمام وحجرة الفرن، ثم أضاف حسني الغمراوي الفراندة وحجرات النوم والحمام في الجناح القبلي، أما مولد الكهرباء وأعمال السباكة الحديثة والصرف الصحي والمطبخ الحديث فمن إسهام أحمد الغمراوي، والحديقة زرعوها وسقوها ورعوها جيلا بعد جيل، أشجارها تثمر الكمثري والليمون والبرتقال، وشجيراتها ثقيلة بالورد والياسمين ـ وهو، ماذا فعل لهذا البيت؟ لا شيء. ذهب إلى أمريكا.

رفعت إيزابل عينيها: جاءت أمل لتوها وخرجت إلى الفراندة، ترتدي قميص نوم طويل فاتح اللون وحول كتفيها شال خفيف:

ـ انتابني شعور أنك خرجت إلى هنا، هل تريدين البقاء وحدك؟

ـ لا، لا بالمرة.

تتكئ أمل على السور الخشبي، تنظر إلى الحديقة وتأخذ نفسا عميقا:

ـ ما أجمل الكون هنا! توافقها إيزابل فتلتفت إليها أمل:

ـ ألم ترشي نفسك بدواء البعوض؟

ـ لا.

ـ افعلي حالا..

ـ لكني لا أرى بعوضا؟

ـ ربما يظهر، واحدة كافية، هيا اذهبي وأحضري العلبة، أين هي؟ سأحضرها لك.

تقول إيزابل سأحضرها أنا وتقوم ثم تعود بالرشاش. ترش كل منهما السائل على ذراعيها وقدميها وعلي اليدين ثم تمسحان الرذاذ على الوجه. تنفر إيزابل من الرائحة. تقول أمل:

ـ أعرف! لكن بعد قليل لن تشمي الرائحة لكن البعوض سيشمها.

تقول إيزابل:

ـ لا أرى صورة لك على الجدران.

ـ فعلًا.

ـ المفروض أن تضعي صورة..

ـ لم؟

ـ للاستمرار. أنت وأولادك.

ـ أولادي لا علاقة لهم بكل هذا، لقد حددوا اختيارهم، وتحتفظ أمل بنبرة صوتها خفيفة.

ـ ما زالوا صغارا، لا تعرفين ماذا يفعلون في المستقبل.

تسكت أمل لكن إيزابل تستمر: «ليس مجرد صورة عابرة بل لوحة رسمية مثل الآخرين، فلنأخذ لك صورة في القاهرة».

تقول أمل: «نوصي بصورة لكل منا، ألسنا أقارب؟»

تسألها إيزابل: «هل تعمدت أن تخصيني بهذه الحجرة؟»

ـ تعمدت؟ لماذا؟

ـ لأن فيها صورته.

ـ شريف باشا؟

ـ إنه يشبه أخاك تماما.

ـ أحقا يشبهه؟ لم أفكر في ذلك بالمرة.

في الحجرة تقفان أمام الصورة.

تقول إيزابل: «أرأيت؟»

تتفحص أمل صورة الرجل على الجدار وتقول ببطء:

ـ نعم إنه يشبهه أكثر مما يشبه بابا، أليس كذلك؟

ـ الشبه في العينين والذقن. لا، هناك أكثر من ذلك، الانطباع كله؛ إنها الطاقة التي تلفه، إحساسك أنه لا يكشف عن مشاعره، أنه ينطوي على أكثر مما يظهر.

ـ إيزابل؟

ـ نعم؟ هل مشاعري مكشوفة تمامًا؟

ـ لا أقول تمامًا.

ـ لا أملك أن أخرجه من دماغي، أفكر فيه طول الوقت، هو تيار يجري دوما في عقلي مهما شغلت بأي عمل.

ارتاحت للحديث عنه، أن تنفس عما بها، أخيرا!

ـ وما موقفه؟ هل هو.. هل تصارحتما؟

ـ لا، لم يحدث شيء في الواقع، ولا أعرف حتى إذا كان يشاركني مشاعري، أظن أنه يحب صحبتي، لقد خرجنا معا، وكيمياء التفاعل بيننا حاضرة، ولا بد أنه يشعر بها. ربما يظن أن فرق السن مشكلة، فهو في الخامسة والخمسين، يصعب على تصديق ذلك، لأن خمسة وخمسين تبدو سنا متقدمة، لكن من لا يعرف سنه قد يظنه في الأربعين مثلا أو الخامسة والأربعين. أليس كذلك؟ أعني أنه في الواقع شاب لدرجة لا تصدق.

تجلس المرأتان جنبا إلى جنب على الأريكة في مواجهة الصورة. تسأل أمل:

ـ هل يتعسك التفكير فيه؟

ـ لا، لست تعيسة، إني فقط أتمني لو... إنني أريده، أريده بشدة!

ـ هو في الغالب معجب بكِ لكنه لا يريد أن يسبب لك ألما.

ـ لو كان يحبني كما أحبه، لما اهتم بذلك.

ـ يا إيزابل..

ـ لا، لو كان يحبني لما فكر أنه يؤذيني، لما خطرت في باله هذه الفكرة، إن حبه لن يؤذيني.

تسألها أمل بعد لحظة سكون: «لكنك عانيت مثل هذه التجربة من قبل؟».

ـ أتقولين؟

ـ مجرد خاطر في بالي.

ـ لم؟ تعرفين أني كنت متزوجة.

ـ عانيت هذه التجربة من قبل فتعرفين أن هذه المشاعر لا تعيش إلى الأبد. أعرف أن كلامي قد يبدو...

ـ لم أشعر بمثل هذا من قبل مع أي إنسان.

تسأل إيزابل بعد لحظات:

ـ هل قال لك شيئا؟

ـ لا، لا لم يفعل.

ـ لكن لا بد أنه عرف عندما فحص ما في ذلك الصندوق، لا بد أنه أدرك أننا أقرباء، ولذا نصحني أن أحضر الصندوق إليك.

ـ نعم لكنه لم يخبرني، تركني أكتشف الأمر بنفسي.

ـ ثم تخبرينني.

ـ لا بد أن الفكرة أعجبته: نحن هنا معا نحلل الموقف ونفك طلاسمه.

ـ لكن أرجو ألا تكون صلة القرابة عائقا لعلاقتنا؟ كوننا من سلالة واحدة؟ أقصد أن هذا لن يمنعه من أن يحبني؟ إذا حدث.

ـ لا، لا أرى سببا لذلك.

ـ أمل؟ أترين أنه مكتوب؟ أليس غريبا، أن ألتقي به مصادفة ثم أجد الصندوق ثم يتضح أننا أهل؟

ـ لكن كان من الممكن ألا تلتقيا إذا لم تذهبي إلى حفل العشاء، أو إذا ـ

ـ نعم، ولكننا التقينا فعلا.

ـ نعم.

ـ أمل، أنت تعرفين أخاك، دبريني ماذا أفعل.

ـ يا حبيبتي، إنه في سن والدك.

ـ أرجوك، لاتقولي هذه الجملة.

ـ لكنها حقيقة.

ـ لا تهم. تقول إيزابل: «سأفعل شيئا. سأتدبر أمره هذه المرة عندما أعود إلى نيويورك».

* * *

تسأل إيزابل: «ما النتيجة؟ هل نجحت؟»

تخلع أمل حذاءها عند الباب وتزفر وهي تخطو بقدميها العاريتين على البلاط البارد:

ـ لا، لا شيء يذكر، يا ربي، الحر شديد في الخارج!

ـ تعالى اجلسي، سأحضر لك شرابا باردا.

كم يبدو الأمر طبيعيا الآن! إنه يومها الثاني في البيت وها هي تقوم بدور المضيفة: تحضر المشروبات، وترعي أمل، وتتراجع في مكانها عندما يحضر الناس ليتحدثوا. تقول أمل وهي تمسك بالكوب البارد إلى خدها وإلي جبهتها:

ـ لم نتمكن من الدخول، كانوا في غاية الأدب، لكن لم ننفذ إلى الداخل.

ـ على أي حال، ماذا كنت تحققين لو دخلت؟

ـ لا أدري، إنما بدا لي طبيعيا أن نبدأ من هناك، تميل للخلف وتلقي برأسها للوراء لتعرض وجهها أمام مروحة السقف القديمة:

ـ المكان يبدو مهجورا مهملا، ولا يسمحون لهم حتى بكنس الفناء.

ـ ماذا تنوين؟

ـ لا أعرف، فكرت أن أذهب إلى مدير البوليس، لكن لا أظن أنه سيفيدنا شيئا.

على الجدار يقف حسني الغمراوي: وجهه صبوح مفتوح، شاربه قصير وطربوشه مستقيم على رأسه، يضع يده خفيفة على كتف زوجته، ليلي البارودي جالسة، شعرها الأسود ملفوف ومرفوع فوق رأسها، عباءتها مثبتة بدبوس ذهبي يلمع في الصورة، تنساب إلى الأرض حول مقعدها، تنظر إلى الكاميرا مباشرة بعينيها السوداوين، يقف ابنها أحمد الغمراوي خلفها، لم يظهر شاربه بعد، إلا أنه طويل في مثل طول أبيه، يرتدي طربوشه مائلا بزاوية خفيفة وعلي وجهه أمارات ثقة الشباب المتفائل.

ـ كيف كان أبوك سيتصرف لو كان مكانك؟

ـ لا أعرف، لعله يذهب لمقابلة المحافظ.

ـ هذا هو الحل إذن.

ـ هناك شخص.. ابن صديق قديم لأبي، يملكون أرضا قريبة من أرضنا، سأذهب إليه وأسأله النصيحة.

تجلسان صامتتين لبضع دقائق على الكراسي الأسيوطي القديمة ولا حركة في الغرفة إلا مروحة السقف تدور فوق رأسيهما.

ـ سآخذ دشًا ثم أرقد قليلا، تجمع أمل شعرها الأسود الطويل في عقدة سريعة وتلتفت إلى إيزابل:

ـ هل أنت بخير؟ أنت محبوسة هنا بلا خروج.

تبتسم إيزابل:

ـ أنا في أحسن حال ـ أشعر، ياللعجب ـ وكأني في بيتي!

ـ عظيم، يسعدني هذا جدا. لكن ابتسامة أمل تبدو متعبة.

بعد القيلولة تتحدث:

ـ يخبرونني بأشياء فظيعة، يقولون إنهم يقبضون على الناس، هم أناس عاديون ذاهبون إلى العمل، معهم بطاقات تحقيق شخصية وكل شيء، لكنهم يقبضون عليهم والسلام، ويمكن أن يقضي الواحد في الحجز خمسة أيام حتى يقرروا أنه ليس الرجل المطلوب، والحجز ليس فسحة فهم يُضربون. يقولون إن رجال البوليس إذا جاءوا يبحثون عن شخص ولم يجدوه، يأخذون نساءه: زوجته وأخته وأمه، أي واحدة، يوضعن في الحجز حتى يسلم الرجل نفسه، والرجال لا يقبلون هذا، فما بدأ بحالة واحدة يصير في النهاية ثأرا بين البوليس والقرية كلها.

لا تجد إيزابل شيئا تقوله: عندنا تصريح بالقبض عليك؛ من حقك أن تلزم الصمت ـ لا شيء مما تعرفه يسري هنا.

تقول أمل:

ـ الأمر كله فسد وخرج عن الصواب. حدث سطو على محل جواهرجي، الجواهرجي قبطي، ويقال إن جماعة الجهاد الإسلاميين يستبيحون السطو على أموال الأقباط لتمويل الجهاد، وهكذا ينقلب الحادث إلى قضية طائفية، لكن الناس، الناس العاديين لا يوافقون على سرقة أموال الأقباط، إلا أن الأمريكان ـ آسفة.

ـ لا يهمك، أخبريني.

ـ يريدون إصدار قانون من خلال الكونجرس بما يفيد أن واجبهم حماية الأقلية المسيحية في مصر، وطبعا هذه هي اللعبة التي لعبها البريطانيون منذ مائة سنة والناس تعرف ذلك. إنها تثير القلاقل ومشاعر العداء.

ـ هل يشعر الأقباط أنهم مضطهدون؟

ـ حتى ولو شعروا بالاضطهاد، إنهم لا يريدون تدخلا من هيئة أجنبية، فالجميع هنا يعرفون معنى ذلك ونتائجه، وقد كتب البابا شنودة إلى الكونجرس أن شكرا لكن لا تتدخلوا.

ـ من هذا؟

ـ البابا شنودة، إنه البطريرك، رأس الكنيسة القبطية، البابا شنودة الثالث، إنه حقا يثير الإعجاب، نفاه السادات خمس سنوات.

يسمع وقع أقدام في الخارج ثم طرق على الباب. تفتح إيزابل الباب وتتنحي جانبا. يقف أبو المعاطي وبعض الرجال في الخارج، أبو المعاطي يحمل بندقية على كتفه، تنادي عليه أمل وهي تقوم واقفة:

ـ خير يا عم أبو المعاطي، اتفضل.

يدخل ولكن بقية الرجال يظلون في الخارج، تقوده أمل إلى الكنبة.

ـ خير؟ حصل إيه؟

ـ حصل مصادمات بين الناس والبوليس، القانون الجديد سيقطع أوصال البلد، الأراضي التي على الناحية الثانية من البلد حاولوا يخرجوا النـاس منها، لكن الناس رفضت، الأهالي طلعت السلاح والدنيا ولعت.

تهمس أمـل: يا ساتر يا رب! تفتكر حيحصل إيه يا عم أبو المعاطي؟

ـ ربنا وحده يعلم يا ست هانم، لكن دي أيام خاينة والناس تلاقيها منين والا منين؟ بعض الملاك يعرفون ربنا، يوسف بك القمص ناظر مدرسة البنين قال إنه لن يرفع الإيجار، اثنان غيره وافقوا على مقابلات مع الفلاحين لَجْل يقرروا رفع الإيجار بالتدريج على عدة سنين، لكن غيرهم رءوسهم ناشفة.

ـ لكن الحكومة قالت إنها ستعوض الفلاحين: تعطيهم أراضي غيرها.

ـ أراضي صحراء يا ست هانم. بلا ميه، بلا أي شيء لَجْل يبتدوا. منين يجيبوا أراضي زراعية جديدة؟ هي الحكومة ـ أستغفر الله ـ راح تخلق مزارع؟

* * *

حقول ومزيد من الحقول على جانبي الطريق، من موقعهما يبدو أن الدنيا كلها خضراء، لكن لو نظرت من موضع أعلى، من فوق تل مثلا، لو أنك وجدت تلا في هذه الأرض المنبسطة، أو من على هرم من ذلك العدد الغفير الذي قام منذ ألفي عام على طول هذا الطريق من طيبة إلى منف ومن الدلتا إلى الشلال، أو من طائرة اليوم، لرأيت ضيق الشريط المزروع بالاخضرار، وكيف يلتصق بالنهر في منعطفاته. النهر حبل نجاة ملقي عبر الصحراء، والقري والمدن تتشبث به في حشد تنظر وراء ظهرها إلى الصحراء الماثلة دوما خلفها، يسترضونها في النهاية بإيداع موتاهم في بطنها.

تسير بهما السيارة في طريق العودة إلى القاهرة، يسود بينهما صمت صحبة لا تعرف الانعزال، وقد مضى على صداقتهما أشهر ثلاثة. وما دامت السيارة تبتعد خارجة من الصعيد يلوح لهما الجنود على الحواجز بالسير بعد نظرة عابرة. تستمران في السير بلا توقف ولا تخذلهما السيارة هذه المرة.

تفكر أمل في القرية وبما وعدت به من الكلام مع الحكومة! ولكنها تفكر كذلك في المنضدة التي تنتظر تحت نافذتها، وفي مذكرات آنا، فهي تتحرق شوقا للعودة إلى آنا، وأن تصحبها في رحلتها إلى سينا.

أما إيزابل فتضع الخطط في ذهنها لعودتها إلى نيويورك ولقائها بعمر، تحكي له ما في رأسها عن مشروعها لإخراج فيلم عن حكاية آنا، وتفكر في إمكانية إدخال طواسي في الفيلم. تحاول أن تتعرف على البلدة حيث أُصلِحت السيارة، بني مزار، وعلي البقعة التي تعطلت فيها.

تقول لأمل :

ـ ذلك الرجل الذي ساعدنا، هل رفض فعلا أن يأخذ منك نقودا؟ في كل مرة رأت هذه التمثيلية الإيمائية كان الأمر ينتهي بانتقال النقود من يد إلى يد.

ـ نعم رفض تماما.

ـ ولم ؟

تبتسم أمل:

ـ قال ماذا تظن السيدة الأجنبية إذا أخذ نقودا نظير مساعدة نسوة غريبات على الطريق؟

ـ السيدة الأجنبية كانت ستظن أنه فطن. كانت هيئته تدل على أنه في حاجة إلى نقود. ومن المعجزات أن سيارته لم تتعطل.

تقول أمل:

ـ على أي حال، لا مفر أحيانا من الاعتماد على المعجزات.

(١٤)

في يسر خلعنا كل ما نرتدي من تنكر يرهقنا

جون ميلتون

١٥ مارس ١٩٠١

أشعل الرجال النار ووضعوا على مقربة منها سرج جواد لتجلس عليه آنا. يتحركون على بعد أمتار قليلة من مجلسها، يجهزون مرابض الخيل ويدقون خيمة ويعدون الطعام، وآنا ترقبهم: ظلال تتحرك في ظلام الليل لكنها تتبينه بينهم مميزا.

ـ سعيدة؟ سيدتي سعيدة الآن؟

تضع آنا إصبعها على شفتيها محذرة وهي ترفع عينيها إلى وجه صابر المبتسم، وتهمس:

ـ سيدة لا، وتهز رأسها مذكرة.

يلوح بيده مستهينا:

ـ لا يعرفون الإنجليزية! ثم يعود للسؤال بإنجليزيته المكسرة:

ـ سعيدة أنت الآن؟

ـ نعم سعيدة جدًا.

ـ صحراء ـ خيمة ـ جمال ـ نار، ويلوح بذراعه ليشمل الكون كله من حولهما:

ـ الإنجليز يحبون الخيام، ڤيري جود خيمة.

تشير آنا إلى السماء: «نعم، والنجوم أيضا».

يضيف صابر:

كتير نجوم، نجـوم يامـا، مش واحد والا اتنين ـ كتير كتير نجوم.

أنا الآن في الصحراء، صحراء سيناء. كانت مفاجأة، فلم يكن فيما قرأت من كتابات ما يعدني لهذه التجربة، لا في الدليل ولا في كتابات الرّحالة ولا حتى في زيارتي لتلك البقعة من الصحراء التي شهدتها في الجيزة.

لن أحاول اليوم تدوين أفكاري ومشاعري بأي ترتيب لأنها مختلطة في ذهني. لم أر في حياتي مثل هذا الفضاء الشاسع، الأرض والبحر والسماء تمتد بلا حدود، معا في وحدة شاملة، وجماعتنا الصغيرة من الإنس والدواب تخب في طريقها، ضئيلة وسط هذا الكون الفسيح.

أكتب هذا في الخيمة التي جهزوها لراحتي وإن كنت أحسد الرجال؛ فهم ينامون في العراء تحت النجوم. سألت شريف باشا كيف يحتملون البرد فأراني العباءات التي يلتحفون بها في الليل وهي من الصوف وبطانتها من فراء الأغنام بني اللون وتُشعر حقا بالدفء. خيمتي مجهزة كأحسن ما يكون، بسجادة فارسية ووسائد مكسوة بحرير مقلم، وبطاطين من الصوف الفاخر، وقد أتوا بمتاعي إلى الخيمة وكذلك صندوق الكتابة وأوراقي وأقلامي، وقنديل بشمعة موقدة أكتب على ضوئها.

وضعوا في عمق الخيمة إبريقا من النحاس ملؤوه بالماء، وأفهمني صابر أن تلك البقعة من الصحراء خلف خيمتي تعتبر حرمي الخاص طوال الليل.

الليلة وأنا أحدث صابر في ضوء النار لاحظت كم هو وسيم: أسمر البشرة في لون البن المحروق، لون أهل النوبة ـ فيما فهمت ـ قسمات وجهه دقيقة وعيونه واسعة مستكينة كعين الغزال، ومظهره عموما يوحي بالرقة والطيبة. وضع فراشه خارج خيمتي يسد بابها ولما بانت عليّ الدهشة قال بابتسامة عريضة:

ـ إذا أتى الذئب يجدني أولًا .

ساورني إغـراء أن أرفع الستار وأعبر صابر النائم وأخرج إلى الصحراء لكنني قاومت لأني أدركت أن مغادرتي الخيمة في الليل لن يكون لائقا، اكتفيت بالنظر من خلال الفتحات فرأيت السماء تمتد بعيدا، وكأنها من القطيفة السوداء، والنجوم منثورة في أعداد غفيرة، فلو جاء منها المزيد لما وجدت مكانا لها. وتبينت عيناي أشباح رجال أربعة نائمين قرب النار الخابية لا يفصل بينهم وبين الكون الفسيح إلا عباءة من فرو الغنم.

هل تواتيني الشجاعة لأكتب عنه؟ لا أدري ماذا أكتب عنه. سأبدأ من البداية: في فناء ذلك البيت السحري وأحمد الصغير جالس على ركبة خاله، فهمت الخطة التي رتبها: نلتقي في سيناء في المكان الذي نبدأ منه الرحلة. أسافر أنا

من القاهرة في صحبة أحد رجاله ـ يسمي مُطْلَق ـ وهو محل ثقة تامة. وسبق أن اتفقنا أن أتخذ شخصية شاب فرنسي يرتدي الملابس العربية أثناء تجوالنا في سيناء، لكن بقي اختيار تنكري في المرحلة الأولى قبل الوصول؛ فشرحت لي ليلي ما استقروا عليه. قالت: «المشكلة في القطار، إذا اتخذت شخصية رجل إنجليزي تركبين في الدرجة الأولى وحدك، وقد يحاول أحد الركاب أن يبادلك الحديث وفي هذا خطورة لاحتمال أن يكشفك، وإذا تنكرت كرجل عربي تجلسين في الدرجة الثانية مع مطلق وسط المسافرين، وقد يدقق بعضهم النظر إليك عن قرب فيدركون أنك لست رجلا عربيا ويثور فضولهم. وبناء على هذا ستركبين القطار في زي امرأة مصرية. أخت مُطْلَق. بهذه الطريقة تتغطين تماما، وعندما تصلين إلى السويس تعبرين القنال وهناك يقابلك أخي، تخلعين عباءة النساء وتلبسين الكوفية فإذا بك رجل عربي! تعالى نجرب الملابس.

تقول ليلي: «هذا الملبس لائق جدا عليك، كل شيء ترتدينه يليق عليك»، تأخذ خطوة إلى الخلف وتنظر إلى آنا من رأسها إلى قدميها:

ـ ماذا نفعل بشعرك؟

ـ هل أضفره؟

ـ نعم، اجلسي سأضفره لك.

تمشط ليلي شعر آنا وتشده في ضفيرة محكمة خلف رأسها:

ـ والآن هذه كوفيتك، يمكن أن تلبسيها بالعقال أو بدونه، هذا الحبل هو العقال، وهو يساعد في تثبيت الكوفية على رأسك، تضعينها على رأسك وتنساب خلف ظهرك إلى كتفيك هكذا. انظري.

تحدق آنا في المرآة فتري شابا عربيا أبيض البشرة يبدو مندهشا وهو يحدق فيها.

تبتسم لها ليلي في المرآة:

ـ ستقع البنات جميعا في غرامك.

ترد آنا وهي تبتسم لها:

ـ أي بنات؟ ألن نذهب إلى الصحراء؟

ـ في الصحراء بنات كذلك. انظري: يمكنك أن تلقي بطرف الكوفية أو الطرفين حول رقبتك هكذا، ويمكنك أيضا أن تلفي الطرفين حول وجهك مع ربطهما حول رأسك حماية من الريح أو الرمال إذا هبت عاصفة، لكن إذا كنت جالسة مع الناس لا تحاولي تغطية وجهك حتى لا يظن أحد أنك تحاولين إخفاء شيء. عرفتِ كيف تلبس؟

ترد آنا وهي تجرب الكوفية:

ـ نعم

ـ بعض الرجال يزيحونها إلى الخلف هكذا، أو يثنون الجانبين على الرأس هكذا، لكن لا تفعلي ذلك لأنك ـ انظري.

تنظر آنا في المرآة:

ـ أبدو مثل امرأة.

ـ نعم، أظن الأحسن أن تلبسيها أكثر الوقت هكذا، يلتقي الطرفان، وتخفي رقبتك وجزءا من ذقنك.

ـ نعم.

ـ وأظن أن الأحسن أن تستمري في لبس حذاء الركوب مع جوارب ثقيلة وإلا كشفتك قدماك.

ـ ليتك تسافرين معنا.

تضحك ليلي:

ـ المرة القادمة. عندما يكبر أحمد. وفجأة تسأل متفكرة:

ـ هل أنت قلقة؟

ـ قلقة؟

ـ آبيه شريف لا يمكن أن يفرّط في حمايتك.

ـ أشعر أنني سببت له مشغولية وإزعاجًا.

ـ هو الذي عرض أن يصحبك.

ـ نعم، لكنه شعر بالمسئولية.

ـ اسمعي يا آنا. هل تريدين الذهاب في هذه الرحلة؟

ـ جدا.

ـ إذن اذهبي، واستمتعي بالرحلة. ستكون تجربة رائعة، وتذكري أن تضعي الكريم المرطب على وجهك ويديك باستمرار، إن هواء الصحراء جاف جدا.

وحتي بعد أن تركت قمصانها وسراويلها مطوية مرتبة على الديوان الذي أصبحت تعتبره ديوانها، وبعد أن دست لها ليلي في إحدى حقائب السرج لفة صغيرة من الحرير «هذا إذا سئمت ملابس الرجال» تقف آنا مترددة على باب الحرملك:

ـ سأراك ثانية؟

ـ طبعا.

تبتسم لها ليلي وتمد ذراعيها وتتعانق المرأتان:

ـ عند عودتك ستجدينني هنا لأرحب بك.

عربة مقفلة تقف بالباب، صعدت إليها في الثوب العربي الأبيض وفوقه العباءة السوداء الواسعة التي ترتديها نساء المدينة في مصر، يلف وجهي ورأسي حجاب سميك، والعقال والكوفية في حقيبة سوداء من القماش أحملها في يدي. وجلس صابر معي داخل العربة خوفا من أن يشاهده أحد يعرفه لو ركب بجوار الحوذي. ركب العربة خافض البصر يشيح بوجهه عني ويتمتم «لا حول ولا قوة إلا بالله». جلس في الركن البعيد يتمتم طول الطريق، لكن ليلي أخبرتني أنه رفض أن يسبقني ويسافر مع أخيها، كما رفض أن يبقى في بيتهم في انتظار عودتي، ولم يتزحزح عن موقفه لأنه أقسم لسيده ألا يدعني أغيب عن نظره، وسيوفي بقسمه أو يهلك دونه.

في محطة السكة الحديد كنت أسير على بعد مسافة قليلة

خلف الرجال حسب تنبيهات ليلي، إلا أن مطلق كانت له على ما يبدو عينان في ظهر رأسه مثل الأمهات، فإذا توقفت توقف، وإذا سرت سار وظلت المسافة بيننا ثابتة بدون أن يدير رأسه أو ينظر إليّ مباشرة.

ونحن ندخل فسحة المحطة صفر قطار استعدادا للقيام. نظرت إلى مطلق فقال بصوت خفيض «إسكندرية». كانت الأبواب تغلق في جلبة والناس يسرعون على طول الرصيف. عبرنا القاعة وفجأة شب ضجيج وزحام ودُفعنا جانبا نحن وكثيرون غيرنا والحمالون يوسعون الطريق في عجلة، وإذ مد مطلق لي يده ليسندني قبل أن أقع على الأرض كدت أموت فزعا، إذ مر على بعد بوصات من وجهي لورد وليدي تشلسي وليدي ولفرامتون وليدي سانت أوزوالد ومعهم سير هدورث لامبتون الذي حضرت معه حفل عشاء منذ أيام قليلة كما جلست قبالته في الماضي على مائدة سير تشارلز في مناسبات عدة. وخامرني إحساس غريب، لقد مروا بجواري وكانوا قريبين لدرجة أني تعرفت على العطر الذي تستخدمه ليدي سانت أوزوالد، ولو مددت يدي لأمكنني أن أشد كم معطف السفر البني الذي ترتديه. شعرت في وقت واحد بالخوف إن كشفوا أمري وبغرابة أن يسرعوا هكذا قريبا مني ولا يحيوني أو يظهروا معرفتهم بي، وأغرب ما في الأمر أنهم فجأة بدوا أمامي مخلوقات براقة غريبة تتحرك في فضاء مسحور، لا يشعرون بمن حولهم، على سجيتهم تمامًا، يثرثرون فيما بينهم وكأنهم خرجوا ليتمشوا قليلا في

إحدى حدائق لندن، والناس من حولهم، وقد دفعوا جانبا، يرقبونهم، وينتظرون حتى يمروا.

كان معهم رجل آخر وفيما بعد عندما أتيح لي الوقت للتفكير خمّنت أنه مستر ولفريد بلانت لأن شعره وعينيه وطريقة سيره تطابق الوصف الذي سمعته عنه، وكنت أتمني أن أقابله في الشهور الخمسة الماضية، وها هو قد مر بجانبي ولكني كنت خافية عن عيونهم جميعا.

العجيب أن هذا الحجاب وفر لي الحرية، فطالما يغطي وجهي أستطيع النظر أينما شئت ولا أحد يرد نظراتي، لا يمكن أن يكتشف أحد من أنا، كنت واحدة من حريم كثيرات في المحطة وفي القطار، وكلنا ملتفات بالعباءة السوداء، وفي إمكاني أن أتبادل المواقع مع أي واحدة منهن ولا أحد يدري.

وصلنا إلى السويس واتجهنا مباشرة إلى القنال وعبرنا في مركب مريح. تعهد مطلق بكل الترتيبات وأنا أسير خلفه في وداعة، وصابر يتبعنا متذمرًا، وعندما نزلنا إلى البر على الشاطئ الآخر وأدار النوتي مركبه عائدًا سمعت صوت حوافر جياد ورأيت شريف باشا قادما على فرس عربي أصيل في لون الكستناء. حياني قائلا بالفرنسية: «أسرعي إذن وحوِّلي نفسك». ترجل عن حصانه ووقف الرجال الثلاثة متلاصقين وظهورهم إلى يشكلون لي ستارا. فهمت المطلوب منى فنزعت عني رداء الأنثي الأسود وكذلك الحجاب، وفردت

الكوفية وثبتها على رأسي بالعقال، وبمجرد أن طرق السؤال المختصر سمعي أجبت: «نعم، على استعداد» وأنا أطوي الملابس السوداء، وعندما تنحي الرجال الثلاثة لم يكن الناظر ليري إلا رجلا رابعا في ملابس عربية يخرج من بينهم وينحني على السرج القائم على الأرض ويدس فيه لفافة صغيرة سوداء.

كتبت «نظرت ورأيت شريف باشا قادما..» لكن الواقع أنني لم أصدق أنه هو إلا عندما اقترب منا وتكلم وترجل عن الحصان. كان مثلي يرتدي ثوب عرب الصحراء وفوقه العباءة، وعلي ظهره زوج بنادق قربينه. كان الزي يناسبه لدرجة أني وجدت صعوبة في تخيل صورته في ملابسه الأوروبية، وقد قطب ولم يقل شيئا عندما لاحظ أنني أكثر من الالتفات نحوه لأتأكد أنه هو حقا.

بعد طلقة في الهواء ظهر رجلان يقودان جمالا وفرسًا، أناخوا من الجمال أربعة وسألني شريف باشا أن أرقب جيدا حركة الجمل أثناء ركوب مطلق، وسألني «هل يمكنك أن تفعلي مثله؟» وعندما أجبته أشار إلى جمل بالذات وطلب مني أن أضع قدمي في الركاب وأصعد وهو يمسك باللجام، وكان الجمل عاليا ورجني في حركة متأرجحة وهو يقوم على ساقيه الأماميتين أولا ثم الخلفيتين وكل حركة تتم على مرحلتين، ينجح في الركوع أولا ثم يقوم واقفا.

حين بدأنا الرحلة كنا ستة رجال على ستة جمال، بالإضافة

إلى جملين يحملان المؤن والحقائب، يصحبنا جوادان أصيلان: الفرس الكستنائي وفرسة بيضاء ـ ينطلقان بدون أحمال. سرنا بالسرعة التي تناسب الجمال. ركوب الجمل يختلف عن ركوب الخيل، فحركتها أكثر تموجا، لكن عندما نهتدي لإيقاعها تصبح ممتعة، فالسرج العريض والمقبض القوي في المقدمة يمسك بهما الراكب فتجعل الركوب مريحا، واكتشفت أنني وصابر وحدنا نستعمل الركاب.

كنا نسير في صمت أغلب الوقت لكنه (شريف باشا) أخبرني أن الرجال الذين جاءوا معه من قبيلة له بها صلات، وسيظلون معنا طوال الرحلة، وغدا مساء عندما نتوقف للمبيت سنكون ضيوفا على شيخهم.

سارت قافلتنا وكأن الصحراء قد لفت الجميع رجالا ودواب بتعويذة من الصمت، وكأننا في ذلك اليوم الأول من رحلتنا لا يحل لنا أن نخدش ذلك الصمت الجليل إلا لأمر خطر، صمت يؤكده صوت البحر يضرب برفق شاطئه الصخري.

تابعنا السير ولم نتوقف إلا مرتين: مرة للمبيت ومرة قبل ذلك عندما غربت الشمس خلف خليج السويس. وقد اتضح لي لماذا يسمي ذلك البحر بالأحمر؛ لأن الشمس الغاربة أبرزت الألوان الحمراء والسوداء للمعدن الخام في تكوين الصخور، وعكس البحر ألوان الأحمر والأصفر والبرتقالي والأرجواني، وعندما تلاشي الشفق تدريجيا وذابت الألوان

حولنا في رفق، شعرت أن لا بد من طقس للاحتفال بهذه المعجزة اليومية في روعتها، وما برقت الفكرة في ذهني حتى توقفنا كأنما بالاتفاق، ركعت الجمال وترجل الرجال وولوا وجوههم إلى الجنوب الشرقي، وارتفع صوت واحد منهم «الله أكبر» وصلوا معا في صمت. تمشيت على الشاطئ خلفهم أرقب البحر، ولون الماء وقد أخذ في العتمة بعد أن كان منذ قليل فضيا تتخلله بقع من النور، فرفعت أنا الأخري إلى السموات ابتهالي، وكانت الصلاة التي اندفعت إلى شفتي في صمت دعاء بالسلام والسكينة في الفكر والقلب، فقد بدا لي أنني أقرب إليهما من أي وقت مضى.

(١٥)

تغيّر وجه العالم في ظني

منذ سمعت خطو روحك أول مرة

إليزابيث باريت براوننج

١٢ يوليو ١٩٩٧

أجدني متلهّفة على العودة إلى سيناء، إلى عالم آنا وبعيدا عن دنياي. القاهرة تموج بالحديث عن (عبدة الشيطان)، وسينجلي الأمر في النهاية عن مجموعة من الشباب (فتيان وفتيات) يرتدون تيشرتات سوداء ويستمعون إلى موسيقي صاخبة في قاعات قصر البارون (المسكون) في مصر الجديدة. الفلاحون يثيرون الشغب والبوليس يقمعهم. بريد القراء في الأهرام يضج بالآراء المعارضة والمؤيّدة لقانون الأراضي الجديد. أجريت عدة مكالمات بالتليفون: تحدثت مع أصدقاء قدامي وعثرت على طارق عطية ابن صديق أبي، وذهبت للقائه في مكتبه في عمارة شاهقة من الرخام والزجاج الأسود في المهندسين. أدخلتني إلى المكتب سكرتيرة حسناء، وخيل إليّ للحظة أن الرجل الجالس إلى المكتب هو عطية بك صديق أبي، ثم قام واقفا ليحييني وأخذ يديّ في يده:

ـ أمل! لم تتغيري بالمرة.

نجلس في مقاعد جلدية وثيرة ونتبادل الأخبار: الأسرة والأبناء وما فعلناه في عشرين سنة، نتحدث ـ كما كنا نفعل دائما ـ بالعربية مع خليط من عبارات فرنسية وإنجليزية، يخبرني أن مكتبه يعمل في

الاستيراد، يستورد بطانة الأنابيب الأسمنتية الضخمة لنقل البترول عبر الصحراء، كما يملك فندقا في مرسي مطروح وآخر في شرم الشيخ، ويخطط أن يُدخل التليفون المحمول إلى مصر وسيكون الأول.

ـ يجب أن تزورينا في بيتنا، زوجتي والبنات في العجمي طول الصيف، لكن في سبتمبر سنقيم حفل عشاء على شرفك.

أسأل: وأنت؟ تقضي الصيف هنا في القاهرة؟

ـ ألحق بهم يوم الخميس وأعود صباح الأحد. الطريق لا يزيد على ساعتين ونصف.

ـ المشكلة في الخروج من القاهرة.

يقول:

ـ في العام القادم ينتهون من الطريق الذي يربط المهندسين بالطريق الصحراوي، وسيصبح الأمر أسهل كثيرا.

طارق تغيّر. لا أذكر أنه كان شابا وسيما، لكن هذا الجالس أمامي رجل وسيم بالتأكيد، طويل عريض الكتفين يرتدي جاكت بيج من التيل، شعره الأسود قصير وعيناه عسلية سريعة الانتباه، واثق بنفسه وليس به أي توتر.

أقول:

ـ أنا في حاجة إلى مشورتك.

وأحدثه عن المدرسة والوحدة الصحية. يسير إلى المكتب ويرفع سماعة التليفون:

ـ لا تقلقي. سأكلم محافظ المنيا.

ـ حقا؟

ـ طبعا. الآن إذا شئت.

يطلب إلى السكرتيرة أن تسأل إذا كان محيي بك في القاهرة. عندما ترد عليه تقول إنه في القاهرة لكن لا يمكن الاتصال به قبل الساعة الثالثة فينظر طارق في ساعته:

ـ الساعة الآن الواحدة، فلنخرج للغداء.

على مائدة في ركن من مطعم ريف جوش طلبنا جمبري وسلطات وبدأنا حديث الذكريات: أيام الإجازة منذ زمن بعيد عندما كنا نلعب معا في طواسي، وأيام الجامعة عندما كنا نلتقي في النادي.

يقول:

ـ ثم سافرتِ إلى أوروبا واختفيتِ تماما.

ـ نعم. وقعت في الحب وتزوجت.

ـ هل زوجك معك هنا؟ أرجو أن تقبلا دعوتي للعشاء.

ـ لا، لا إنه في إنجلترا، ولم أزد. سألته: هل ذهبت إلى المنيا مؤخرا؟

فحكي لي كيف دفع تعويضا منذ زمن طويل للفلاحين الذين لا يرغب في بقائهم في أرضه، وكيف طوّر المزرعة بالآلات الحديثة، واحتفظ فقط بالعاملين الذين يستطيعون مسايرة ما يحدثه.

يقول: إنها تدر ربحا معقولا، ليس مثل البيزنس بطبيعة الحال، لكن المسألة مسألة تاريخ وجذور، ويمكن للأرض أن تدر أكثر،

سأحضر فريقـا ممتـازا من إسرائيل ليعيد تخطيط البنية التحتية وسنري ما ينجزونه.

أهتف في دهشة «فريقًا من أين؟»

ـ فريق إسرائيلي ليجددوا الأرض كلها.

أتوقف عن الأكل.

ـ لكن كيف تفعل ذلك؟ كيف تُدخل إسرائيليين في أرضك؟

ـ عندهم التكنولوجيا والخبرة. منزعجة؟

ـ طبعًا منزعجة! بعد كل هذه السنوات وهذه الحروب؟ وماذا عن القضية الفلسطينية؟

ـ الفلسطينيون يتعاملون مع إسرائيل.

ـ هذا أمر مختلف. كيف تسمح لنفسك بهذا؟! ألا تعرف أن هذا ما يريدونه بالضبط؟ أن ينفذوا إلى مصر.. أن ينفذوا إلى المنطقة كلها؟

ـ أظن أنك غبت عن مصر أطول مما يجب. تتحدثين كما لو كنا في السبعينيات، الدنيا تغيرت، تحركت إلى الأمام.

ـ لا يمكن أن تتحرك، لا يجب أن تتحرك طالما يريدون السيطرة على المنطقة.

ـ مسئوليتنا ألا نمكنهم من السيطرة، إذا نقلت عددا قليلا من الإسرائيليين إلى أرضي فأخذت منهم التقنيات التي يوفرونها؛ كيف يعطيهم ذلك القوة أو السيطرة؟ إني أنقل إلى بلدي قوتهم، أتظنين أن من الأفضل أن نتمسك بالأساليب القديمة ونتظاهر بأن إسرائيل

ليست موجودة؟ هذا دفن لرءوسنا في الرمال. هذه الأفكار القديمة لم تعد تصلح اليوم. الاقتصاد محرك التاريخ وهو يحدد كل شيء.

- كل شيء؟

- كل شيء.

- كنت أظنك وطنيا، أقولها بمرارة، «كنا نخرج في مظاهرات».

- أنا فعلا وطني. أخدم بلدي بتقوية اقتصادنا وهذا أفضل من الجلوس في مكاني على أمل أن تسير الأمور كما أتمناها بطريقة ما.

يخيّم علينا الصمت ثم أقول:

- كلامك هذا يؤلمني، يجرحني حتى..

يبتسم لي بدفء معزتنا القديمة:

- أنت عاطفية، لكن هذه ليست قضية عواطف، إنها مسألة عملية.

عدنا إلى المكتب. قال وهو يضع سماعة التليفون.

- الموضوع انتهي. سيفتحون الوحدة الصحية في الأسبوع القادم، ويمكن فتح المدرسة إذا وافقوا على المدرسين. ستحتاجين قائمة بأسمائهم وعندما تتم مراجعتها يسمح بفتح المدرسة.

إيزابل بطبيعة الحال لا تفهم لماذا يتخوف الفلاحون من تقديم قائمة أسماء للسلطات تقول «إنهم لم يرتكبوا جرما، فهم متطوعون للعمل في المدرسة».

أحاول أن أشرح لها: لمئات من السنين قوائم الأسماء تظهر عند فرض الضرائب على الفلاحين، عند انتزاع أبنائهم ليحفروا القنوات أو يزرعوا أرض الخديو أو ليُقْتلوا في «الجهادية»، قرون طويلة من فقدان الثقة في الحكام، لم تكسر إلا لفترة قصيرة أيام ما يسميه الفلاحون «الأيام الطيبة» زمن عبد الناصر. لا يبدو عليها الاقتناع، فأغير الموضوع وأحاول توجيه الحديث وجهة لا تغرقنا في حديث الماضي، وهذا سهل.

تقول:

ـ أريد أن أشاهد بيت شريف باشا. البيت الذي يُـروَي في الحكاية.. أقصد في المذكرات. هل مازال قائما؟

ـ نعم! فهو متحف الآن ويمكن أن تذهبي في أي وقت.

تقول:

ـ أود أن أذهب معك.

وذهبنا. سرنا بحذاء النهر ثم انعطفنا شرقا في شوارع يكفي عرضها لمرور العربات ذات الخيل، ولكنها اليوم مخنوقة بالسيارات الواقفة على الجانبين، تفتح حارة على ساحة خالية ونجد البيت قائما في مواجهتنا: ثلاثة طوابق من الحجر، ناعم من القدم، تكسر لونه الضارب إلى الاصفرار مشربية هنا أو هناك، وعلي الجانب الغربي يقوم الملحق تعلوه قبة صغيرة خضراء، وتجلس أمامه مجموعة من النساء في ثياب سوداء يصحبن أطفالهن.

نفوت من البوابة الضخمة، بوابة البيت الكبير، فنخرج من صخب المدينة وضوضائها وحرارتها لندخل إلى ذلك الفضاء

المرتب الساكن الرطب، يلفني إحساسي القديم بالماضي ورائحته، بالرغم من أن البيت قد جرد من كثير من الأثاث، وبالرغم من حديث الدليل الذي يصحبنا مزهوا بأن البيت استخدم في تصوير فيلم عن رواية لأجاثا كريستي، إلا أننا، أنا وإيزابل، نشاهد حجرة الكرار التي قضت فيها آنا الساعات الأولى لها في البيت، وننظر في حجرة الاستقبال في الحرملك حيث قامت أريكتان نامت هي على واحدة وليلي على الأخري وأفاقتا في الصباح على نور صداقة جديدة، والفناء الذي لعبت فيه مع طفل في السنة الأولى من عمره كان مقدرا أن يصير أبي. نشاهد كذلك الحجرة السرية تحت ألواح أرضية حجرة النوم الرئيسية، المخبأ الذي لجأ إليه والد شريف باشا عند فشل الثورة، وعندما هدأت الأمور أدرك أنه لا يمكنه الحياة في ظل الاحتلال لكن لا سبيل لمحاربته فلزم بيته لا يغادره، انتقل إلى ضريح الشيخ هارون الملحق بالبيت وهناك قضي الثلاثين سنة الباقية من عمره. وجدنا الباب المؤدي إلى الضريح مغلقا بقفل وسلاسل، وعندما سألنا إذا كان من الممكن أن ندخل، ضحك الدليل:

ـ هذا اليوم مسجد عمومي لا يمكن دخوله من البيت، الباب هناك في الشارع. قال إنه عند تحويل البيت إلى متحف تم تطبيق وقفية أجريت للإنفاق على المسجد وتخصيص راتب لشيخ يتولي أمره.

سألته إيزابل ونحن نغادر البيت إذا كان مسموحا أن تعود ومعها كاميرا فرد: «أهلا وسهلا لكن تدفعي رسم خمسة جنيهات».

سحرنا البيت فتسكعنا في المنطقة لا نريد أن نغادرها. ذهبت

النساء وأغلق باب الضريح. خلفه يقوم الجامع الكبير القديم الذي شيد البيت في ظله في القرن السابع عشر. إلى اليسار حيث كانت الحدائق شبت منازل صغيرة ودكاكين وحواري كثرت في السنوات الثلاثين الماضية. لكن وجدنا فسحة خالية من المنازل، بها كشك صغير ومجموعة من الأشجار. الغبار يغطي الأشجار ولا يبدو أن هناك من يعني بها. نقف تحتها نلمسها ونسميها، واحدة شجرة جاكاراندا تتدلي منها مجموعات صغيرة من الزهور الزرقاء، وشجرة سرو عفية، ومجنوليا لم تزهر، وزنزلخت وصفصافة. نجلس على صندوق مقلوب نشرب بيبسي كولا على مهل وتخبرني إيزابل أنها عائدة إلى أمريكا في أغسطس:

ـ أريد أن أراه، وأري أمي كذلك. أتعرفين؟ عندي أسئلة كثيرة لها. ربما يكون الوقت قد فات، الأشياء المهمة في حياتنا لم نتحدث عنها.

أسألها: «هل تحَدَّثت يوما عن جدتها؟ عن آنا؟»

ـ نعم..، إيزابل ترسم مثلثات في التراب بعصا صغير في يدها: كانت تقول إن آنا وضعت المثال لنساء أسرتنا جميعا: يتزوجن من رجال أجانب ويعشن بعيدا عن بيت الأسرة.

ترفع بصرها إليّ: أمي تزوجت أمريكيا، ونور ـ أمها ـ تزوجت فرنسيا، وأنا تزوجت رجلًا من بلدي لكن تركته. أتعرفين؟ أمي حتى لم تصبها دهشة!

عندما قررت إيزابل أن تنفصل عن إرفنج، لا لسبب إلا أن أيامهما فقدت بهجتها والليالي بينهما أشد قتامة، رتبت أن تلتقي

بياسمين لتعلمها بالخبر. قابلتها في متحف المتروبوليتان لأن أمها تحب ذلك المتحف، وأرادت إيزابل أن يكون مكان اللقاء، على الأقل، في صفها. وهما تتناولان حساء صينيا ساخنا سألتها الأم بدون ارتياب:

ـ وكيف حال إرفنج؟

أجابت إيزابل:

ـ اتفقنا على الطلاق. ربتت ياسمين على شفتيها بالفوطة وقالت:

ـ لا أظن أن الموضوع سيحزنكما طويلا.

قالت إيزابل: إنك حتى لم تدهشي!

ردت الأم: لم يشعر أحدكما بالسعادة لفترة أليس كذلك؟

ـ كنت أظنك ستـ..

ـ أثير ضجة؟

ـ تتأثرين على الأقل.

ـ إذا لم تجدا السعادة، انتهي الأمر. ليس لديكما أطفال، فليس هناك ما يدعو حقا لاستمراركما معا.

ـ كنت أظنك تحبينه؟

ـ فعلا، وهو شاب حبوب، ولكن هذا لا يعني أن عليك أن تبقي على زواجكما.

انزاح عن كاهلها عبء، لكنها شعرت بخيبة أمل، ماذا كانت

تريد؟ أن تشرح أسبابها؟ أن تتغلب على معارضة أمها؟ أن تصيبها بالدهشة؟ لماذا كان الأمر سهلا هكذا؟ هل لأن أمها تفهمها أم لأن الأمر لا يهمها؟ ومازالت إيزابل تطرح هذه الأسئلة.

وهما تسيران إلى باب الخروج أبطأت ياسمين أمام لوحات الفسيفساء من آثار بومبي. قالت: «تصوري، كانوا يجلسون إلى الغداء، ويثور البركان فينتهي كل شيء، هكذا. بكل سهولة!» موضوع ينذر بخطر الذكريات. «هيا بنا»، قالتها إيزابل وهي تقود أمها للخروج من المتحف.

أقول لإيزابل: «ربما يحدث لها تحسن». ثم أفكر ما أسخفني! الناس لا يحدث لها تحسن في أمراض الشيخوخة، لكن إيزابل تقول: «ربما»، ونتلكأ تحت الأشجار العتيقة ونور النهار آخذ في المغيب.

والآن حلّ المساء، وقد فرغت من كل المطلوب منى. أشعر بالجو لطيفًا في الروب المنزلي الواسع وكوب كبير من شراب المانجو المثلج في يدي. أستطيع الجلوس إلى المنضدة في حجرتي، فرغت لألحق بآنا ونتربورن وشريف باشا وهما يقطعان صحراء سيناء في ملابس البدو البيضاء المناسبة.

١٦ مارس ١٩٠١

عدت لتوي إلى خيمتي. كانت أمسية احتفال، وفنطزية، وأنا متعبة جدا لكن نبضي متسارع،وأجدني أروح جيئة وذهابا داخل الخيمة عاجزة عن السكون أوالنوم أو الجلوس لتدوين يومياتي.

خسارة أنني لا أستطيع الكتابة لسير تشارلز ولا لكارولين عن رحلتي. كنت أحب أن أصفها لهما بكل أحداث هذا اليوم ففيها الكثير مما يمتعهما، لكن عليّ فيما أظن الانتظار حتى أعود إلى إنجلترا قبل تحقيق متعتي بالحكاية، ليكون في حضوري دليل على أن مغامرتي لم تكن طيشا ولا حماقة.

كنا قد قطعنا مسافة طويلة راكبين في صمت تقريبا، وبدأ القلق يساورني. كنا نقطع سهلا من الحصي لا يتغير. كان المنظر موحشا، وكنت أعرف من قراءتي للدليل أننا لم نصل بعد إلى مناظر سيناء الرائعة، لكن غمرني شعور بحماقتي كاد يغلبني على أمري، فالمسيرة إلى دير سانت كاترين ذهابا وإيابا تستغرق حوالي أربعة عشر يوما مما أقلق ضميري لأنني تسببت في ابتعاد شريف باشا ورجاله - بالإضافة إلى صابر - عن شئونهم اليومية وأعمالهم، أما مضيفي نفسه فلم أتمكن من سبر أفكاره؛ لأن الكوفية المرسلة على جانبي الوجه تحمي لابسها من النظرة العابرة أو المختلسة، وفي المرات القليلة التي استدار ليحدثني لم يكن وجهه يكشف عن أي تعبير، وسلوكه مهذب متحفظ، يتحدث الفرنسية وكأنه أحد أبنائها، ولا أعتقد أنه لا يعرف الإنجليزية، لكن يبدو لي أنه رجل يفضل ألا يفعل الشيء إلا إذا أتقنه، ولعله لا يتقن الإنجليزية. على أي حال، الفرنسية تكفي للقليل الذي نتبادله من حديث. أخبرني أن اسمي أرمان دومانج، ووالدي المحامي الشهير الأستاذ دومانج الذي قام بالدفاع

عن كابتن دريفوس في تلك الفضيحة الشهيرة منذ ثلاث سنوات، ويبدو أن الأستاذ الفرنسي صديق شريف باشا الذي زودني بمعلومات عن والدتي (المزعومة) وضياعنا والمدارس التي تعلمت فيها، ولا أتوقع أني سأحتاج لأي من هذه المعلومات، فليس من المحتمل أن نلتقي بعابري سبيل هنا في الصحراء. عندما اطمأن إلى أنني أجيد الركوب مثلهم وأنني لا أعاني من تعب أو إرهاق سارعنا بلا توقف إلا للصلاة وبعض الطعام وشرب الماء في الظهر والعصر وعند الغروب، وخامرني شعور أن للصحراء خاصية لا تشجع الثرثرة بلا هدف، هذا ولم يكن الرجال ـ فيما عدا صابر ومطلق ـ يعرفون حقيقتي، ولعله خشي أن أرفع صوتي فأكشف عن نفسي. سلوكه معي مهذب لكنه متحفظ متباعد، ويسعدني أن يكون هذا وضعنا فليس في الإمكان أن تنشأ بيننا صداقة حقا لطبيعة الأمور هنا، ولا وجود في الصحراء لشكليات تراعي بالحديث المهذب.

دهشت عندما لم نحط الرحال ونعسكر عند الغروب، وفي ضوء الشفق رأيت جماعة من الجمالة يركضون نحونا. نظرت نحوه في قلق فقال «أصدقاء» وتقدم إليهم بفرسه رافعا ذراعه بالتحية. كانوا من قبيلة أولاد علي فقد دخلنا في منطقتهم فخرجوا إلينا ليرحبوا بنا ويصحبونا إلى مضاربهم حيث نعسكر الليلة ضيوفا على شيخهم الشيخ سليم بن حسين بن علي.

خيامهم في بقعة سارة حقا في وادي الغرندل، يجري

فيها غدير من الماء العذب، زاد مذاقه عذوبة أنه أول ماء جار صادفناه في الصحراء. رأينا أشجار السنط نحيلة شوكية لتتحمل المناخ القاسي، مساكن القبيلة خيام سوداء نسجت من صوف الماعز ويعيشون على رعي الخراف والماعز والتجارة في الجياد الأصيلة، وقد رأيت عددا منها في الفنطزية التي أقاموها الليلة على شرفنا.

وقد أكرمونا بالخراف المشوية على السفود وصواني كبيرة من الأرز المتبل وقهوة خفيفة مُرَّة يصبونها من أباريق طويلة أي واحد منها يصلح للعرض في متحف ساوث كنزنجتون.

الشيخ العجوز ضئيل الجسم يده صلبة كأنها من حجر الصحراء (الواقع أن الجميع أجسامهم نحيلة وأظن أنهم يحتاجون أن يكونوا هكذا - مثل شجر السنط - ليستطيعوا الحياة في الصحراء) احتفي بي وأجلسني عن يمينه، وكان شريف باشا عن يساره. ظل الشيخ يعزم عليّ بقطع مختارة من الضأن ويعتذر أنه لا يحدثني بلغتي الفرنسية، وبدا سعيدا لإعجابي بعرض الفنطزية، وهو حقا عرض مدهش. قام الرجال بألعاب فروسية بارعة على ظهور الخيل بمصاحبة صيحات وهتافات صاخبة ودق الطبول في ضوء المشاعل. في تلك الصحبة طرح شريف باشا عنه تحفظه واضطجع إلى الخلف على مسنده يتحدث ويضحك مع الشيخ، وخيل لي في لحظة أنه أطلع الشيخ على هويتي، ولا أدري من أين أتاني هذا الظن، سوى أنهما أظهرا صراحة وحرية في

التعامل فيما بينهما، وأن الشيخ كان يبتسم ابتسامة عريضة ظاهرة الوضوح حين قام يحييني بتحية المساء.

الشيء الوحيد الذي يؤسفني الليلة أنني لم أستطع أن أقضي بعض الوقت في صحبة النساء بل كان لا بد أن أنظرهن عن بعد كما يراهن الرجال: لهن قوام نحيل في فساتين طويلة مطرزة، تمرق الواحدة سريعًا وهي تناول الطعام للرجال الذين يخدموننا، حركتها خفيفة وبرقعها يتلألأ بالترتر والمخملات في ضوء النار، والعيون السوداء فوق البراقع ترسل نظرات سريعة تشي بالفضول مما يزيد من صرامة موقفي، لم تسهم النساء في ألعاب الفروسية إلا أنهن شاركن في قرع الطبول والتصفيق وعلت أصواتهن بالزغاريد فهزتني صيحات الفرح والبهجة التي قرأت عنها لكن لم يسبق لي سماعها.

إذا صدق كتاب الدليل الذي في حوزتي سنعبر غدا المنطقة التي أضفت على سيناء شهرتها من حيث روعة المناظر، وقد كشفت لي خبرتي حتى الآن أن الكتاب ـ مثله مثل أصدقائي الإنجليز في المفوضية ـ أصدق في حكمه على الأرض منه على أهلها.

وقرأت في نسخة آنا من «دليل طوماس كوك السياحي»:

كان مكان الصحراء دوما موضوعا أثيرا للباحثين عن الرومانسية، إلا أن التجربة سرعان ما تبدد تلك الخيالات الصبيانية، فالبدو ـ على الأقل أولئك الذين تجدهم في

المنطقة بين مصر وفلسطين ـ نوع تافه وقح جاهل كسول طماع وليس فيهم أي صفات جذابة... والعربي العادي يفتقر إلى الكياسة وإلي القوة، يرتدي أسمالا ممزقة، يسير حافيا وقد يرتدي نعلا بدائيا في بعض الأحيان، يداه ووجهه دليل ناطق على ندرة الماء.... (العرب) جهلة ولا يحفلون بمزايا حياة التمدن، يحملون السلاح دوما إذا استطاعوا الحصول عليه، فالرجل قد لا يملك من اللباس إلا فراء خروف لم يدبغ، ويحمل على ظهره سيفا وعلي كتفه بندقية أو الاثنين... على أنهم ـ فيما يبدو ـ قوم يتمتعون بالرضا والقناعة، يشبهون زنوج أمريكا كثيرا في بساطتهم وطيشهم ومرحهم، وهم جميعا يفهمون كلمة« بقشيش» فهي أول كلمة يتعلمها الصغار وآخر كلمة يتلفظ بها المسنون...

١٩ مارس ١٩٠١

آه ليت بالإمكان الاستغناء تماما عن النوم، أو ليت ساعات اليوم يتضاعف عددها حتى أجد الوقت الكافي لأشاهد وأعايش كل ما يستوجب الملاحظة والإحساس ثم التأمل على مهل، فأتيح لانطباعاتي أن تتخلل ذهني وتستقر هنا وهناك في بقع تبرق بالنور، أو تمتزج بغيرها من الأفكار في تيار ينتهي إلى رؤيا مهمة! وعندئذ أجد الوقت لأدوّن هذا كله، أسجله، لأني أدركت أن أفكاري تتضح في فعل الكتابة، وأن ما يبدأ كانطباعات مختلطة من وحي الساعة ينتهي إلى رؤيا، إلى صورة واضحة وحاضرة وكأنها لوحة.

لم تكن اللوحات التي تصور مناظر سيناء مما رأيته في الماضي تعجبني كثيرا، وكنت أفضل اللوحات التي تصور مناظر في الداخل وتعرض تفاصيل الحياة في البيوت، أما اللوحات التي تطمح إلى الأعلي والأجل فلم أجد فيها حياة، واليوم أدرك السبب. إن لوحات تيرنر المدهشة المعلقة في بتورث تلح على خاطري، فالمناظر البديعة هنا لا يقدر على تصويرها بالألوان المائية إلا فنان في مثل عبقريته، أما رسامو الزيت فمن كل من أذكرهم ربما أجد كورو أقرب إلى تصوير هذه الجبال. على أن اللوحة تحسن في تصوير البقعة التي تمثلها لكن المشاهد يخطئ إذا ظن أنها تعطيه فكرة عن سيناء كلها، فنحن نري كل يوم وجها جديدا لهذه الأرض المدهشة، هذا الملتقي لقارتين عظيمتين تشكلان العالم القديم، ففي يوم لا تري إلا سهلا قاحلا من الحصي يمتد على مدى البصر، ثم تفاجأ بجدول ماء صغير وأشجار السنط بأشواكها تغور جذورها عميقا في الرمال طلبا للماء القليل الذي يحفظ لها حياة شحيحة كما قسم لها. وفي اليوم التالي إذا بك وسط سلاسل شاهقة من الصخر الصلد، بعضها أسود وبعضها بنفسجي وبعضها أحمر، تقطع الأرض التي شهدت العمال من قدماء المصريين يستخرجون النحاس والفيروز، ومازالت آثار ما حفروه واضحة للمشاهد. ثم تخرج إلى سهل ممتد بحذاء البحر الأحمر وهناك ترافقك أسراب من الطيور توقفت لتستريح في الليل على شاطئ البحر حيث عسكرنا، وعندما تشرق الشمس ويرتفع قرصها في السماء

ويقوم الرجال في صلاة الصبح ترتفع أسراب الطيور أيضا في السماء، تحلق وتدور وتنادي، ثم تقلع في سحابة كثيفة عبر البحر متجهة إلى موطنها الطبيعي في الشمال، ثم ينفتح أمامك واد عميق يشق صخورا يزيد ارتفاعها على ألف قدم، وإذا الحياة غنية بالخصب والماء، حدائق الفاكهة وحقول القمح والشعير، وهل يمكن للوحة واحدة أن توحي بكل هذا؟

معسكر مبيتنا الليلة على بعد يوم واحد من دير سانت كاترين وقد انكشفت أمامنا جبال سيناء. سرنا أنا وشريف باشا خلال ممر مذهل يسمي نقب حوا، وهو ممر ضيق جوانبه شديدة الانحدار فلا يمكن أن تمر منها الجمال، يتخذون لها طريقا أوسع وأكثر استواء هو درب الشيخ. سألني شريف باشا إذا كنت أفضل الطريق رائع المنظر أم الطريق السهل، وطبعا اخترت الأول، فقال إن الجياد فقط تستطيع السير فيه، وليس معنا إلا جوادان؛ ولذا سنكون وحدنا. قلت: «عليك أن تقنع صابر» فابتسم.

للمرة الأولى وافق صابر على ألا يصحبني، وانفصلنا أنا وشريف باشا عن الركب وانطلقنا بجوادينا إلى الممر الضيق: نقب هوا. صخور الجرانيت على الجانبين ترتفع ألفًا وخمسمائة قدم أو يزيد، وكان من الممكن أحيانا لو أنني ملت قليلا نحو الجوانب أن ألمس جداري الممر بيدي، وكان يخيل إلى أحيانا أن الفرس تتجه رأسا إلى جدار صخري صلب، لكن عندما نقترب تتضح لنا الفتحة وكأنها معجزة،

[illegible]

دهشت بدوري وسألت «ماذا تعني هكذا؟»

ـ مصرة على اتخاذ فكرك وقرارك بنفسك.

ـ كأنني عنيدة؟

ـ أولست كذلك؟

ـ لم أطلق العنان لإرادتي قبل.

ضاق الممر وكبح هو جواده وسار خلفي. لم يجاملني وينفي التعب أو يؤكد لي أن صحبتي لا تزعجه، لكنني لم أندم لحوارنا، وسعدت لأنني شكرته.

انتهي نقب هوا بلا مقدمة كما بدأ. خرجنا فجأة من برودة وعتمة الممر إلى سهل مفتوح يغمره النور، وجبال سيناء في مواجهتنا، وسرعان ما انضم إلينا الرجال على جمالهم وحياني صابر مبتسما ولم يبد عليه أي أثر للقلق، وأعتقد أنه الآن مطمئن أنني في يد أمينة، والواقع أنني بمرور الأيام وبتوغلنا في سيناء، يصيبني الفزع أحيانا ـ وإن كنت لا أعترف بهذا إلا لنفسي ـ كلما فكرت أنني حاولت أن أقوم بهذه الرحلة في صحبة صابر فقط. لم أكذب عندما قلت لشريف باشا إني توقعت أن ألتقي بمجموعة من رحلات شركة كوك للسياحة وربما التحقت بهم، لكن جزءا من عقلي كان عازفا بشدة عن الاستمرار مع أهل بلدي هنا في هذه المناطق، وكأنني أدرك بنوع من الغريزة أن حديثهم ومجرد حضورهم سيحول بيني وبين الدخول حقا إلى سيناء، وأعرف الآن

أنني كنت على حق، فهذا السكون الذي يشملنا، وتصرف أصحابي على سجيتهم (أو عدم اكتراثهم) أطلق روحي حرة تتأمل وتتشرب بسحر هذه الأرض. ما أنسب أن اختارها الله ليَحدِّث فيها موسى، فهنا، حيث يضطر الإنسان كي يعيش أن يحيي لصق الطبيعة وبفضل منها، أشعر أنني أقرب ما أكون من سر الخليقة كاملا، ولو أني أكْرمت برؤيا أو كشف لما دهشت، والحق أن وقوع مثل هذا الأَمر يبدو من طبائع الأمور هنا. أصبحت كلما توقف الرجال للصلاة أرفع صلواتي الخاصة في كلمات بسيطة: أحمده سبحانه الذي شكل كل هذا وجاء بي هنا كي أشهد معجزة خلقه، وأدعوه أن ينزل رحمته على روح إدوارد المسكين، فقد خطر لي من وقت لآخر لو أنه جاء إلى هذه البلاد حاجًّا بدلا من ذهابه إلى السودان محاربا ربما كان اليوم على قيد الحياة وفي سكينة.

٢١ مارس

الوقت عصر وقد انصرف الرهبان إلى الصلاة وأوينا نحن للقيلولة.

صعدنا إلى قمة جبل موسى وشهدنا بزوغ الفجر على صوت المؤذن الرخيم يدعو للصلاة.

الهواء جاف خفيف أشبه في تأثيره على الذهن بكأس من الشمبانيا قبل العشاء.

لم أكتب شيئا عن الدير الذي نزلنا به. الأب الرئيس راهب طيب، ولما كان أتباعنا يعسكرون خارج الأسوار فقد

كشف له شريف باشا عن شخصيتي نظرا لأن قبول الضيافة على أساس من الزيف إثم.

يشبه مبنى الكنيسة قلاع العصور الوسطي، وقد أقيم في القرن السادس الميلادي، وبعد فترة قصيرة جاء الغزو الإسلامي من شبه جزيرة العرب، وعندما تقدمت الجيوش غربا تفتق ذهن أحدهم عن بناء مسجد صغير في فناء الكنيسة لحمايتها من الحريق أو الهدم. وفي أيام الحروب الصليبية قامت الكنيسة بدورها بحماية المسجد، واستمر هذا الوضع على مر الزمن: كل بيت من بيوت الله يشمل بحمايته البيت الآخر، والجيوش المضادة تجيء وتذهب.

بالأمس أوي الجميع الي الحجرات مبكرا وفكرت أن أجرب هدية ليلي: ثوبًا بديعا من حرير أخضر داكن. لم تكن في حجرتي الصغيرة مرآة بطبيعة الحال، لكنني سعدت بارتدائه.

خرجت إلى الحديقة في الظلام، كنت أعـرف أننا سنستيقظ مبكرا؛ لكن الليل كان مازال في أوله ولم أر ضررا أن أخرج في هدوء لأستنشق الهواء المنعش.

رأيته يخرج من الكنيسة الصغيرة، هو أيضا قد خلع زي الصحراء. كان يرتدي بنطالًا عاديا مع قميص من الصوف، عاري الرأس في هواء الليل.

خيل إلى أنه أجفل عندما رآني. اتجه إلي، وظننته غاضبًا لخروجي وفي رداء أنثى وقد طرحت الكوفية منسابة على

كتفي، وفعلا بادرني بالسؤال بالفرنسية: «ماذا تفعلين هنا؟»

قلت إني شعرت بالحاجة إلى الهواء لأن حجرتي مكتومة فقال: «يجب أن تعودي»، لكن بعد قليل، عندما لم أبد حركة، أشار إلى المقعد حيث جلست ولما أذنت له جلس بجانبي. أدركت حتى بدون النظر إليه أنه مشغول البال. جلسنا في صمت، لكن شيئا ما في جلسته وفي مظهره كان يوحي بالقلق والاضطراب وفي النهاية سألته:

ـ ألم تستطع النوم؟

ـ لم أحاول.

قلت: كنتَ في الكنيسة الصغيرة؟

وسمع نبرة السؤال في صوتي.

قال: كنت أتأمل الرهبان القدامي، أتأمل عظامهم. وكان صوته خشنا ممرورا.

كان يجلس محنيا وقد أسند مرفقيه إلى ركبتيه يحدق في الظلام.

قدحت ذهني ولم أجد شيئا أقوله، وحقا لم أشعر إلا برغبة في أن أمد يدي وألمس ذلك الذراع القريب منى وأن أضع كفي على ذلك الرأس المهموم، واشتدت بي تلك الرغبة حتى طويت ذراعيّ على جسمي ممسكة بنفسي. استدار إلى:

ـ هل تشعرين ببرد؟

قلت: لا .

ـ لكنك ترتجفين.

ـ لا ! بالمرة.

تأملني لحظة ثم أدار وجهه عني. سأل وكأنه يوجه سؤاله إلى هواء الليل:

ـ ماذا أتى بك إلى مصر يا ليدي آنا؟

كانت أول مرة ينطق فيها اسمي.

قلت: «اللوحات» .

وعندما استدار إليَّ مستفهما حدثته عن اللوحات الشرقية في متحف ساوث كنزنجتون، وعن عالم الألوان والنور فيها، حدثته عن زياراتي المنتظمة للمتحف أثناء مرض إدوارد ـ مرضه الأخير.

قال: «عِشْتِ حزنًا كبيرًا» .

ـ نعم! لم يكن هناك داع أن يموت هكذا.

ـ أي هكذا؟

ـ مضطربا، فاقد السكينة والاطمئنان.

ـ لكن ألم يفعل ما آمن به؟ اعتَقَد أن عليه أن يحارب في سبيل إمبراطوريته.

ـ لم تكن حربا شريفة.

ـ لكنه لم يعرف ذلك.

ـ أظن، أعتقد أنه عرف. لكن الوقت كان قد فات، وهذا ما قتله.

خيم الصمت. كانت أول مرة أصرح بهذا الكلام لأحد، ولعلها كانت المرة الأولى التي أوضح فيها الأمر لنفسي على هذه الصورة. كنت أرتجف حقا هذه المرة، ولو أحاطني بذراعيه أعتقد أنني كنت سأسمح لنفسي ـ لكنه قام واقفا وقال:

ـ يجب أن تدخلي.

همست: «لا». وأنا أهز رأسي رافضة، زفر بفقدان صبر وسار مبتعدا عني فظننته سيذهب، لكنه كان يذرع الحديقة في خطوات واسعة. ثم عاد ووقف أمامي قائلا:

ـ إذن، أخبريني. ما رأيك؟ أيهما أفضل؟ أن نختار الفعل وقد نرتكب خطأ مميتا، أم نقعد عنه ونموت ـ على أي حال ـ موتا بطيئا؟

فكرت، حاولت أن أفاضل، لكن الأمر كان صعبا مع الرعشة التي تملكتني، وفي وقفته أمامي، طويل قوي يسد على النظر فلا أرى سواه. أخيرا نطقت: أظن أن عليك أن تعرف نفسك أولا قبل كل شيء.

ـ هي إذن حكيمة بالإضافة إلى جمالها وصلابة رأسها.

هززت رأسي خافضة بصري، كان صوته ينم عن سخرية، لكن: «بالإضافة إلى جمالها» . لقد وصفني بالجمال.

ـ ماذا تقولين فيمن يعرف نفسه خيرا مما يحب؟ ماذا لو لم يعجبك ما تعرفين؟

لم أرد.

سرعان ما استجمع شتات نفسه:

ـ اغفري لي. إنه تأثير تلك الجماجم والعظام. أولئك الرهبان الأمـوات. إذن ـ وعـاد الي الجلوس: «جئت تبحثين عن ذلك العالم الذي تجلي لك في متحفكم، وهل وجدته؟»

ـ في بيتك يا سيدي.

ـ آه! هناك بيوت كثيرة تشبه بيتي، قالها وكأنه ينهى الموضوع:

ـ يجب أن نرتب لك زيارتها.

انتابتني الحيرة: هل أسعد لكلامه أم أشعر بخيبة أمل. سيرسلني إلى مكان ما، لكنه يبعدني.

ـ ماذا حدث؟

ـ لا شيء.

ـ لم أقصد أن أفزعك بحديثي.

ـ لست خائفة.

ـ لماذا ترتعدين إذن؟

ـ لقد اشتد البرد نوعا.

ـ يجب أن تدخلي من البرد. الآن قام واقفا.

ـ هل تدخلين أم أضطر إلى حملك؟

ـ أنت تستقوي على الضعيف يا سيدي، لكنني قمت واقفة.

قال: نعم. سمعت هذا من قبل.

أمام بابي مددت له يدي فأخذها بين يديه:

ـ هل لديك ما يكفي من الغطاء؟

ـ نعم.

ـ نوما عميقا إذن، نوما عميقا يا ليدي آنا التي لا تشعر أبدا بالخوف.

ورفع يدي إلى شفتيه وشعرت بهما للحظة خاطفة وبالرغم من أن فراشي كان دافئا لم أنم نومًا عميقا.

(١٦)

نقاط ضعفنا أقوى من إرادتنا، فضائلنا جرداء، المعارك تضطرم ضدنا حتى تسقط الشمس في المغيب.

روبرت لويس ستيفنسو ن

القاهرة، ١٣ يوليو ١٩٩٧

حكاية قديمة ليس فيها جديد. أنا الأخري جافاني النوم بالأمس، كنت أعيش في حديقة سحرية خاصة بي، حديقة في ميدان في لندن في ليلة صيف خفيفة البرودة عندما أخذني رجل بين ذراعيه وغير مسيرة حياتي ولم يمض على لقائنا إلا سويعات. هل كان بمقدوري في تلك اللحظة التنبؤ بمساحات الوحشة التي سكنّاها فيما بعد؟ ثم أتاني السؤال الذي تحاشيته طويلا: هل تأتيني الحياة برجل آخر؟ هل بقي من العمر ـ هل بقي من القلب ما يتسع لآخر؟ منذ سنين وأقصي ما وصلت إليه في الاقتراب من رجل هو تلبية دعوة طارق عطية للغداء، لكنه متزوج ويفكر في مشاريع مشتركة مع إسرائيل. لا أظن أنني أعيش في زمن غير الواقع، لكني أعترف أن أحداث مائة عام مضت أسهل في المعالجة من ظروفنا اليوم.

لذلك، إذا أطلقت لعقلي العنان أجدني أعود إلى آنا فأراها في ثوبها الحريري اللامع، وشعرها الذهبي مسترسل على الكوفية المسدلة على كتفيهـا، تتوقف لحظة، تستند إلى الباب الذي أغلقته خلفها ويدها متوهجة بالقبلة المطبوعة عليها. ترقد على الفراش

وتعيد في خيالها ما حدث وتعود إلى رؤية ذلك البلد الآخر حيث جلس رجل منكفئا على تعاسته وعجزه، رجل فشلت كل الجهود في التخفيف عنه. أما الليلة فقد أشركها شريف باشا في أفكاره، مشي أمامها في الحديقة ثم عاد إليها. تقلب النظر في كلماته ونغمة صوته وتعبير وجهه وما أثار فيها من مشاعر.

أي امرأة في تلك اللحظة تفكر في العلامات والدلالات؟ تتساءل هل أنا وهو نعني نفس الشيء عندما نستخدم نفس الألفاظ؟ أذكر إيزابل وهي تؤكد: «إذا كان يشعر نحوي بمثل ما أشعر به نحوه، لا يمكن أن يجرحني». وإيزابل مصممة على مشاركة أخي في عالمه. هي تشاركه في العالم الأمريكي ومصممة على مشاركته عالمه المصري، وتنوي أن تفاجئه عند عودتها بما تعرفه وتفهمه عن مصر. رتبت لها زيارة الأتيليه عدت أقول إنها «خطيبة أخي»، وأضفت أنها تعد مشروعا للدراسات العليا عن مشاعر أهل مصر نحو الألفية الثالثة، وما ينتظرون منها، وكذبت قليلا وقلت إنها شاركت في مظاهرات لرفع العناء عن أطفال العراق.

القاهرة، ١٥ يوليو١٩٩٧

عم غزالي جرسون الأتيليه يُقَلِّب السكر في أكواب الشاي ثم يوزعها على الجالسين. في ركن من الحجرة المستطيلة ذات السقف المغبر بدخان آلاف السجائر جلس أستاذي العجوز، رمزي يوسف، يلاعب محجوب التلمساني دور شطرنج ويهزم جيشه الأبيض كالمعتاد. تجلس معهما دينا العلما تصحح بروفات مقال

لها حول قضية نصر أبو زيد. يقفون لتحيتنا. حين يعودون للجلوس يقول محجوب:

ـ خلاص يا دكتور؟

ويرد رمزي يوسف:

ـ مفيش خلاص ـ العب للآخر.

ـ لكن الضيوف..

ـ دقائق، يشير بيده: تفضلوا! سأغلبه في دقيقة! ثم موجها كلامه إلى إيزابل: «لا يسيئك الانتظار برهة؟»

نجلس وتحشر دينا أوراقها في حقيبة كبيرة ثم تنادي على غزالي ليأخذ طلباتنا. تسأل دينا إيزابل: «هذه زيارتك الأولى لمصر؟»

دينا تُدَرِّس الرياضيات في جامعة القاهرة وتعمل متطوعة في نادي أعضاء هيئة التدريس وإحدي منظمات حقوق الإنسان ومكتب المساعدة القانونية ولجنة مناصرة الشعب الفلسطيني، ترتدي حذاء مفتوحا وبنطلون جينز وقميصًا واسعًا لونه أزرق داكن ويبدو عليها الإرهاق. المكان صاخب بالأصوات والحركة، ناس يخرجون ويدخلون باستمرار أو يمرون خلال القاعة يبحثون عن شخص ما، وجرس التليفون يدق بلا انقطاع، كل هذا بالإضافة إلى معرضين للتصوير، واحد في قاعة العرض في الدور العلوي والثاني في القاعة الصغيرة المجاورة لنا. أحد الفنانين وضع في الحجز الإداري لأنه وقع على بيان مناهض لقوانين الأراضي والآخر ينضم أحيانا إلى المجموعة الجالسة في القاعة الرئيسية.

يغنى الدكتور رمزي بصوت منخفض: «سَلِّم سلاحك يا عرابي»

ويرد محجوب محتجا: «لسه يابيه لسه» وهو يحرك الوزير ليحمي الملك، يهتف الدكتور رمزي منتصرا: «مفيش لسه!» وهو يحرك الحصان: «كش ملك».

يجمع محجوب قطع الشطرنج بروح معنوية عالية: «لك يوم يا دكتور»، يضع القطع في الصندوق الخشبي ويخرج علبة سجائر، يقدم سيجارة إلى إيزابل فتبتسم معتذرة. يقول لها: «سجائر مصرية! انظري»، يريها العلبة مشيرًا إلى رسم كليوباترا، «لا تريدين؟» يضع العلبة على المائدة.

ينظر الدكتور رمزي إليّ ويبتسم: «لم نرك منذ مدة. أكنت في انتظار زائرة أمريكية لتحضري معها؟»

ـ إنت عارف يا دكتور، ظروف، لم يكن ردي مقنعا.

يقول لإيزابل: يو آر فروم نيويورك؟

رمزي يوسف في حوالي السبعين، مازال يحتفظ بشعره الغزير الناعم، وعينيه بسوادهما ورقتهما، وكل ما جعلنا نقبل على محاضراته في الفلسفة، إلا أن العينين أضيق وأشد غورا بالرغم مما بدا فيهما من ازدياد اللمعة. ابيض شعره تماما. كان دوما مغرما بالنساء، واليوم ينظر إلى إيزابل ولا يخفي إعجابه:

ـ آه لو كنت أصغر بعشرين سنة ـ عشرين سنة فقط ـ لكنت أريك مصر فعلًا!

ويهز رأسه في أسى.

تسأله إيزابل: وبعد عشرين سنة؟

ـ عشرين سنة؟ ينفجر في ضحك ينتهي بنوبة خفيفة من السعال: أفرجك على مسكني في الإمام. أو ربما في الجنة.

أقول له: يا دكتور، إيزابل تريد أن تعرف رأينا في الألفية القادمة، عندها مشروع.

ـ أعرف، أعرف، يطوح يده بنفاد صبر: لست أنا الذي يسأل هذا السؤال أنا عَجِّزْت، ويهز كتفه: وبالنسبة لي الأمر سيان.

يرد محجوب: الشباب شباب القلب يا دكتور. محجوب يعمل في شركة طيران لكنه أُوقف عن العمل لأنه بصق في شراب راكب في الدرجة الأولى تحرّش بزميلته المضيفة إلى أن بكت.

يقول الدكتور رمزي: حتى القلب يشيخ. ثم يصمت. ينظر أمامه محدقا في الفراغ لا أعرف فيم يفكر.

ـ لكنكم شباب ولن تصدقوني. أما عن الألفية فلا شيء يتغير. لن تغير من الأمر شيئا.

يحتج محجوب: كيف لا يتغير شيء يا دكتور؟

وتضيف دينا: حرام عليك يا دكتور! يعني كل ما نفعله اليوم سينتهي إلى لا شيء؟

يهز د. رمزي كتفيه: تفعلون ما تفعلون لأنكم شباب. الشباب لا بد أن يكافح وإلا ظن الحياة بلا معنى. يشعر بالضياع. وموجها كلامه إلى إيزابل: في البلاد التي لا تحتاج للكفاح، في السويد والنرويج مثلًا، يقتل الشباب أنفسهم. ينتحرون.

يرد محجوب: يعني نحن قتلي لا مفر. متشكرين جدا يا فندم.

تبادر إيزابيل: ليس الأمر بهذه البساطة، فالأمور تتغير. لديكم تغيرات كثيرة هنا.

يضحك محجوب: توشكي! توشكي ستحل جميع المشاكل.

ـ توشكي والا ما توشكي، كله كلام فاضي، يحرك د. رمزي يده في الهواء: كله كلام في الهوا.

في الباب امرأة مترددة، تقف برهة ثم تخطو بضع خطوات في القاعة. يرفع بعض الجالسين أعينهم وتقوم دينا مرحبة: أروي! وهي تتجه إليها.

تسألني إيزابل: من هي؟

أروي صالح من قادة الحركة الطلابية في أوائل السبعينيات أذكرها من ليلة (الكعكة الحجرية) عام ٧٢، حين قبض على زملائنا في الجامعة، ونفذنا اعتصاما في قلب ميدان التحرير، وجاء أهل القاهرة ليناصرونا. وانتهي ذلك أيضا إلى لا شيء. اعتزلت الحركة والسياسة، اختارت أن تعمل في وكالة أنباء تترجم أخبار الاقتصاد وسوق المال، وفي المساء تتطوع للمساعدة في معرض صغير للفنون في الزمالك. تزوجت ثلاث مرات ولم تنجب.

تهمس إيزابل: ما أجملها!

تبادر أروي: لا أريد أن أقطع حديثكم. ثم تراني ونلتقي بالأحضان. لم نلتق منذ أكثر من عشرين عاما. يحضر لها محجوب كرسيا ويبدأ: شوفي يا ستي، ويخبرها عن السؤال الذي تطرحه إيزابل مضيفا: والدكتور رمزي يقول إن كل شيء سيستمر على ما هو عليه.

ترد أروي: لا أعتقد، تجلس وتعلق حقيبتها على ظهر كرسيها: لا! الأمور ستسير إلى الأسوأ. نحن مقبلون على عصر هيمنة إسرائيلية.

ـ برافو، يهتف محجوب: أروي تجيب من الآخر!

تبدو الدهشة على إيزابل: أتظنين ذلك حقا؟

والواقع أني لم أكن قد تحدثت معها في هذه الأمور. بدا لي أن صداقتنا لا تحتمل هذا الثقل.

ـ نعم! هذا هدفهم، وأمريكا تساندهم: باكس أمريكانا، سلام أمريكي، وفي إطاره هيمنة إسرائيلية على المنطقة التي يحبون تسميتها (الشرق الأوسط).

أروي دائما تثير الدهشة: تتحدث مباشرة وبصراحة أكثر مما يُتَوقع من امرأة، وامرأة جميلة عليها مسحة من حياء وتردد.

تقول إيزابل: أليست هذه مبالغة؟

فتقول دينا: بدءوا يتحدثون عن عقول إسرائيلية وأيد عاملة عربية.

المتوقع من دينا، بزيها ونظارتها وسجائرها، أنها دائما مناضلة، وهي مناضلة حقا لكنها مرهقة، وهذا أول ما يلحظة الناظر إلى النسوة الثلاث: يبدو الإجهاد على أروي ودينا، تحملان حلقات باهتة السواد تحت عيونهما، كتفاهما مثقلتان ولونهما يميل إلى الشحوب. أما إيزابل فتبدو جديدة لنج، خرجت لتوها من بوكيه من السيلوفان، تشع منها الصحة ونوع من التفاؤل البريء.

يضيف محجـوب: ثم انظروا إلى المنطقة كلها: إلى الجزائر وإلي ما حدث في لبنان وإلي الفلسطينيين، السودان، ليبيا. انظروا إلى العراق! الألفية القادمة؟ المستقبل الذي يُخَطط لنا مستقبل فظيع.

تقاطعه دينا: الفظيع حقا أننا رضينا بدور الفريسة: نجلس مكاننا ونشكو (إنهم يتآمرون علينا، يفعلون بنا...) وننتظر لنري ما سيصدر منهم.

ـ وماذا في يدنا أن نفعل؟

يقول الدكتور رمزي: إنها حركة التاريخ: اجتماع ملابسات وظروف معينـة، بعـد مائة عام سيقول المؤرخون إن ما حدث كان محتوما، كما أننا اليوم إذا تأملنا مصر منذ مائة عام ندرك أن ما حدث وقتها كان محتوما.

تسأل إيزابل: ماذا حدث؟

ـ كنا جزءا من إمبراطورية عثمانية متهالكة وكان حاكمنا الخديو إسماعيل يحب أوروبا والحداثة والمنظرة، يعجبه مشروع قناة السويس، فيقتـرض الأمـوال ولا يهمه ممن يستدين: يستدين من أوروبا ـ من بريطانيا وآل روتشيلد ومن فرنسا. في نفس الوقت ـ وهنا نري اجتماع الظروف والملابسات ـ يضم سبابتيه: أوروبا قوية تتوسع إلى الخارج، يفتح ذراعيه في إشارة واسعة: الاستعمار هو روح العصر، والإمبراطورية العثمانية، عدو أوروبا القديم، تحتضر، فتستخدم أوروبا ديون الخديو لتتوسع في الجزء الخاص بنا من الإمبراطورية، في مصر. والباقي تاريخ معروف.

ـ وماذا عن الحركة الوطنية يا دكتور؟

ـ لم تكن لها أهمية حقيقية. ادعي البريطانيون أنهم يرون فيها خطرا على أموالهم، واتخذوها ذريعة للاحتلال، لكنهم كانوا سيأتون على أي حال، كانوا سيجدون حجة لتنفيذ الاحتلال.

تعدل دينا من وضع نظارتها في حركة تتميز بها: «كان ظلما بيِّنا، دخل الإنجليز مصر في لحظة حاسمة في تاريخنا، أوقفوا تطورنا وحركتنا نحو الديموقراطية والتعليم والتصنيع وتقدُمنا نحو الحداثة».

ـ طيب ياستي، والآن لنا خمسين سنة، ستة وخمسين سنة من حكم أنفسنا، فماذا فعلنا؟

ـ لنقارن أنفسنا، تقول أروي «بأولاد عمنا هناك عبر الحدود. لو أن بريطانيا لم تساعدهم ولم يكن هناك وعد بلفور هل ما كانت إسرائيل تقوم؟ من المؤكد كانت قامت، لم يكونوا ليجلسوا في أماكنهم ويقولوا: آه بريطانيا لا تريد مساعدتنا، والسلطان يرفض أن يبيعنا فلسطين، والعرب لا يريدون الخروج»

ـ كانوا جزءا من حركة الاستعمار. عموما كانت روح العصر في صفهم، كانوا متوافقين معها.

كان مصطفى الشرقاوي يقف بجوارنا صامتا ينصت. يستدير محجوب إليه: «مالك ساكت يا مصطفى على غير عادتك؟»

مصطفى الشرقاوي رجل نحيف، منفعل دائما، يرتدي نظارة من طراز قديم، لو ارتدي بيريه لبدا من رواد المقاهي اليسارية في باريس في الخمسينيات.

ـ ما رأيي؟ رأيي أننا أمة جبانة، يؤسفني أن أقولها خاصة أمام ضيفة، لكننا نعيش على الشعارات، نرتاح لها ونطمئن على أنفسنا: (الشعب المصري العظيم، شعب صابر مسالم، لكن إذا استثير يحطم العالم) قولوا لي متى ثار الشعب المصري في كل تاريخه؟ متى؟ عندما دافع عنهم عرابي تخلوا عنه. هربوا وفتحوا الأبواب للإنجليز. ستقول لي ثورة ١٩١٩، لكن ١٩١٩ لم تكن ثورة، كانت عدة مظاهرات لم تغير شيئا.

ـ على مهلك يا مصطفى، على مهلك.

ـ وستقول لي ٥٢، لم تكن ٥٢ ثورة شعب، كانت حركة جيش ركبت الشعب، وقالت للناس إنها تتحدث بصوتهم، ليس للشعب صوت.

ـ ماذا عنا إذن؟ من نكون؟

ـ نحن شلة من المثقفين نجلس في الأتيلييه أو في الجريون نتحدث مع بعض، وعندما نكتب يكتب بعضنا لبعض، ليس لنا أي علاقة بالشعب والشعب لا يعرف بوجودنا.

أقول: «الناس تعرف أكثر مما تظن، فهم يشاهدون التليفزيون، في القرى».

ـ عظيم، وماذا يشاهدون في التليفزيون؟ يشاهدون الأخبار بعد مرورها على الرقابة، يشاهدون مسلسلات مقطعة الأوصال لأن التليفزيون محتاج لتسويقها لسادتنا في الخليج. لا يشاهدونكم أنتم.

تسأل إيزابل: ماذا عن الأصوليين؟ أين دورهم في هذا كله، هل يمكن أن نقول إنهم يتحدثون بصوت الشعب؟

يرد الدكتور رمزي: لا أهمية لهؤلاء المتطرفين. ما يحتاجون إليه فعلًا هو لقمة العيش ومكان للسكن.

يقول محجوب: هم الوحيدون الموجودون فعلًا في الساحة، هل يمكن لأحدنا أن يفسر كيف تمكنوا من احتلال تلك المساحة الواسعة؟.

ترد دينا: الأحزاب الأخري ضربت جميعها، عشنا خمسين عاما من غياب الديموقراطية.

يقاطعها مصطفى الشرقاوي: لقد ضربوا مثل غيرهم من الأحزاب واضطروا إلى العمل في الخفاء لكنهم عادوا، قُتِل قادتهم فاتخذوا قادة جددا، بان الاحتيال في كثير من مشروعاتهم الاقتصادية لكن مصداقيتهم لم تتأثر، يُقْتل شبابهم كل يوم فيجندون شبابا جددًا، لن يختفوا من الساحة، وصلوا إلى حد الاستيلاء على منبر اليسار ومصطلحه، ويتحدثون عن العدالة الاجتماعية.

تدخلت أروي: تتملكهم فكرة وهذه الفكرة تعجب الناس لأنها تؤكد هويتهم، تقول لهم انظروا، لستم في حاجة لقبول تلك المعاملة من الغرب، إن لكم قيمة، تعجب آلاف الشباب بنين وبنات يتعلمون في المدارس ويتخرجون في الجامعة ثم يجدون الطريق مسدودا أمامهم.

محجوب: سمعتم نكتة مصباح علاء الدين؟ شاب خاطب ولا يجد شقة يتزوج فيها وخطيبته تهدد بتركه والزواج من ثري عربي،

ماشي مرة في الشارع محبط حيران، يرى مصباح علاء الدين ملقي أمامه، لا يكاد يصدق عينيه، يلتقطه ويفركه فيخرج له الجني: شبيك لبيك، خدامك بين إيديك، ماذا تطلب؟ شقة، يعني شقة صغيرة حجرة نوم وصالة وحمام صغير ومطبخ، ينظر إليه العفريت في قرف: لو أن هناك شقة بهذا الوصف هل كنت أعيش في هذا المصباح المدعوق؟

يضحك الجميع وأحاول أنا أن أترجم لإيزابل فتهز رأسها وتضحك. يدخل غزالي بفنجان قهوة للدكتور رمزي:

ـ حد يابهوات عايز ساندوتشات؟

الدكتور رمزي: نعم! عندك إيه؟

تضحك دينا: يعني يا دكتور يكون عنده إيه؟ جبنة وروزبيف، ثلاثين سنة عنده جبنة وروزبيف.

يبتسم عم غزالي ويضيف: والنهاردة عندنا فراخ.

ـ طيب أنا حاخد ساندوتش فراخ ـ بس إوعي تكون فاسدة!

نطلب طلباتنا وينبري مصطفى الشرقاوي:

ـ عم غزالي؟ حنكون فين سنة ألفين وعشرين؟

ـ حنكون في رعاية الله وستره بإذن الله.

بعد خروج عم غزالي يقول مصطفى: رأيتم؟ كليشيه. حتى لا يضطر إلى التفكير.

يرد الدكتور رمزي: حتى لا يضطر إلى الرد على سؤالك السخيف.

يعود مصطفى: هذه هي الأرضية التي تَبْني عليها الجماعات: الأقوال الصالحة الجاهزة.

يعترض محجوب: يا أخي لأ، لأ، الكلام الصالح كله ضد القتل، ضد الإرهاب، المسألة كلها مسألة اقتصادية.

تضيف دينا: وسياسة الدولة: سُمِح لهم بمساحة يتحركون فيها، شُجِّعوا حتى، عندما أراد السادات ضرب الحركات اليسارية شجع هؤلاء.

ـ ولم يقتصر الأمر على السادات، تضيف أروي بالرغم من كراهيتها له: من الذي دفعهم الدفعة التي كانوا في أمس الحاجة إليها في الثمانينيات؟ من الذي مول نشاطهم وسلحهم في أفغانستان؟.

تساءلت إيزابل في حذر: هل يمكن أن يصلوا إلى الحكم في انتخابات حرة؟

يسود الصمت، صمت طويل. رجل كان يزعق في التليفون يلتفت إليهم في دهشة ويخفض صوته. تقول دينا:

ـ محتمل. لديهم التنظيم والتمويل، ولديهم أداة دعاية جاهزة في كل مسجد.

ـ ثم ماذا؟

ـ ثم يعلقون لنا المشانق.

ـ سيكونون في ورطة. ليس لديهم برنامج سياسي أبعد من (الإسلام هو الحل). اسألهم عن أي تفاصيل لا تجد عندهم إجابة.

يبتسم الدكتور رمزي ابتسامة عريضة ويسأل: هل تعرف، بمناسبة الحديث عن برنامج سياسي، أن برنامجك اليوم هو نفسه الذي حاولت حكومة محمود سامي البارودي وضعه منذ أكثر من مائة عام؟

تسأل إيزابل: هل هذا صحيح؟

ـ نعم! نعم! بالتأكيد. اسمعوا: التخلص من النفوذ الأجنبي، تسديد ديون مصر الخارجية، يعد على أصابعه: إقامة برلمان منتخب، بناء صناعة وطنية، المساواة للجميع أمام القانون، إصلاح التعليم والسماح بصحافة حرة تعكس جميع الآراء. كانت تلك نقاط البرنامج السبعة، وهؤلاء الشباب. يشير بيده إلى المجموعة كلها ـ مازالوا يطالبون بها.

يوازن غزالي الصينية على يد واحدة ويوزع الساندوتشات باليد الأخري.

ـ هل يطالب بها الأصوليون كذلك؟

محجوب: ممكن، لكن لا أظنهم يسمحون بصحافة حرة، وسيضعون الشروط حول من يُسمَح له بالترشيح للبرلمان.

أجدني أبادر: ذهبنا إلى المنيا منذ بضعة أيام.

ـ من ذهب؟ هل أخذت الضيفة معك؟

ـ نعم. ذهبنا إلى بلدي، طواسي. عدد الحواجز في الطريق شيء لا يصدق، في واحد منها رأينا ثلاثة شباب، فلاحين عاديين، مقبوض عليهم، كانوا مربوطين بالحبال، أيديهم ورقابهم...

ـ أصبحت حربًا، خاصة في الصعيد.

ـ لكني لا أظن أن أولئك الشباب كانوا إرهابيين، أو حتى إسلاميين بالذات.

ـ عندما يُطلَق البوليس على الناس، يفعلون أي شيء.

تقول دينا: المسألة أن الموضوع اختلط بقوانين ملكية الأرض، أي واحد قريب من السلطة يريد أن يخرج الفلاحين من أرضه، يمكنه أن يستخدم قضية الإرهاب ويتخلص منهم. لدينا وثائق عن حالات كثيرة. من الصعب إقناع الفلاح أن يرفع دعوي أمام القضاء، لكن بعضهم اليوم يرفع دعاوي.

أقول: أغلقوا مدرستنا، فوسطت من يكلم المحافظ فقال إنه يمكن أن يأمر بفتحها إذا زوَّدناه بقائمة بمن سيقومون بالتدريس فيها. الحكاية كلها لا تزيد على فصلين يحضر إليهما الأطفال للمذاكرة في المساء.

تقول دينا: إياك أن تزودي المحافظ بقوائم أسماء، ولن يعطيك أحد قائمة على أي حال.

يعلق الدكتور يوسف: قرون من عدم الثقة، لا يمكن أن تخرج من تاريخك.

ـ أعرف ذلك.

تنبري دينا: يا دكتورالتاريخ يمكن أن يتغير، الناس هم الذين يصنعون التاريخ، المشكلة أننا نسمح للآخرين أن يصنعوا تاريخنا.

تقول أروي: من في يده القوة يصنع التاريخ، ونحن لا نملك

القوة. على الأقل عندما كان في العالم قوتان عظميان، كنا نجد طريقا للمرور في المساحة المتاحة بينهما، والآن لم يعد لنا مساحة.

تعترض دينا: لدينا القوة، يقولون لنا العكس لكننا نملك القوة. نحن نفتقر إلى إرادةاستخدام هذه القوة، ويجب ألا نسمح لأنفسنا بأن نقف متفرقين: الغني ضد الفقير والقبطي ضد المسلم....

يقول محجوب: في اعتقادي أن المتأسلمين يمكن إبطال سطوتهم لو حققنا ديموقراطية حقيقية، لو أتيحت للجميع ـ بما في ذلك المتأسلمين ـ حرية الكلام على الملأ ومناقشة جميع القضايا أمام الجمهور. قدمهم في التليفزيون في مناقشة حرة كما يجب مع مفكرين إسلاميين، شيخ الأزهر مثلا.

يقول مصطفى: سيطفئ المشاهدون التليفزيون. سيغيروا القناة. السلام عليكم. لن يؤدي مثل هذا الكلام إلى شيء. يجب أن أذهب.

يقول محجوب: لم العجلة؟ ابق معنا.

ـ لا يا سيدي، أنا ماشي. أترككم لتصلحوا الكون، يرفع ذراعه في تحية للجميع ويخرج.

تقول دينا: لن تفعل الحكومة ذلك أبدًا، لقد اختارت أن تواجههم بقوات الأمن، وتحاول في نفس الوقت أن تزايد عليهم في المراهنة على الدين، (نحن مسلمون أكثر منكم)، تلعب في ملعبهم فتعطيهم فرصة أكبر للكسب.

ـ السر في شعبيتهم أن الناس تحتاج إلى فكرة، إلى مثال. أيام عبد الناصر بالرغم من المآخذ والأخطاء كانت تتملكنا فكرة،

مشروع قومي، ماذا لدينا الآن، مثال المستهلك؟ والتعلق بأذيال أمريكا؟

يسأل الدكتور رمزي: وأين تجدين هذا المشروع القومي اليوم؟ تجلسون هنا وتظنون أن بإمكانكم التخطيط لمشروع قومي؟ وبالمناسبة كيف انتهي مشروع عبد الناصر؟ ما هي النتيجة؟

تقول أروي: يا دكتور المشروع القومي هو تجسيد لإرادة الشعب، مشروع عبد الناصر لم يتحقق لأن الإرادة لا تتولد إلا في مساحة من الحرية، الحرية في مناقشة كل شيء: الدين والسياسة والجنس وكل شيء.

- وهل عرايا الثورة الفرنسية كانوا يستمتعون بمساحة من الحرية؟

- لا، وثورتك هنا ستكون إسلامية راديكالية، لأن كل أيديولوجية غيرها أفلست، والرأسمالية ليست أيديولوجية، ليست فكرة يمكن أن يعيش عليها الناس، وفي حالتنا ببساطة تثير السخط. انظر إلى الإعلانات في التليفزيون، إعلانات عن أشياء لا يمكن أن يمتلكها العامة ولو ادخروا طوال حياتهم مضاعفة عشر مرات.

يضيف محجوب: إنها لأصحاب القصور في العجمي - وأقول أنا لنفسي (مثل طارق عطية).

تقول إيزابل: تعرفون، عندنا هذه المشكلة في الولايات المتحدة: اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء، ويري البعض أن الخطر يهددنا من الآن. قرأت مقالا شَبَّه كاتبه الحياة في أمريكا اليوم بالحياة في الفترة السابقة لسقوط الدولة الرومانية.

تبتسم أروي: ها هي الرأسمالية.

تقول إيزابل: يبدو لي أن الناس مشغولون بمحاولة تحليل الموقف ولا أحد يقول: هذا ما يجب علينا عمله؟

فأقول أنا: لا أظن أحدا يعرف ما الذي يجب علينا عمله.

فترد دينا: أنا أعرف بعض ما يجب علينا: يجب أن نصرح بمعارضتنا للعقوبات المفروضة على العراق، ويجب أن نضع حدا زمنيا لعملية السلام المزعومة. ما فائدة الجلوس هنا وهناك والحديث عن السلام والإسرائيليون يغيرون واقع الأرض طول الوقت؟ ويقيمون على الأرض منشآت سيكون من المستحيل فكها أو التخلص منها؟

تسأل إيزابل: وإذا حان الجد، تحاربون؟

ـ إذا اضطررنا، وفي رأيي يجب إيقاف مهزلة التطبيع، ما التطبيع الممكن مع جار يستمر في بناء المستوطنات وطرد الناس من الأرض؟ جار يملك ترسانة من الأسلحة النووية ويصيح مستنجدا إذا طرأ شك أن بلدًا آخر يملك عددا من الصواريخ؟ وحتي من الناحية العملية وبصرف النظر عن القيم والمثل فهذا الموضوع يخصنا لأن ما يجري على العراقيين أو الفلسطينيين اليوم سيجري علينا غدا.

يقول محجوب: وإذا قطعت أمريكا عنا المعونة؟ يقولها بنظرة خبيثة إلى إيزابل..

ـ أي معونة؟ أتعرف أن ٧٠٪ مما يعطوننا يعود مباشرة ليغذي اقتصادهم؟ مباشرة. أتظنهم يعطون المعونة ليساعدونا حقا؟

أنا شخصيا أفضل أن نغلق هذا الباب من أساسه، نعبئ المجهود الشعبي لإصلاح اقتصادنا.

ـ لا يستطيعون، عدد كبير ممن يملكون السلطة لهم علاقات وثيقة بالغرب. علاقات مالية. بيج بيزنس!

ـ قلتها على بلاطة! تضطجع دينا في مقعدها «مصالح الطبقة الحاكمة مختلفة، عمليا ـ متعارضة ـ مع مصلحة غالبية الشعب».

يهتف رجل واقف بجانب التليفون: «يا دينا يا عُلَما» ويشير إليها بالسماعة فتقفز واقفة:

ـ لا بد أنه ابني، قلت له يمكن أن يتصل بي هنا.

تقول أروي: خلاص يا محجوب، أمامك الاختيار: إما سيطرة إسرائيل بمساندة أمريكا، أو دعاة الإسلام الراديكالي. أمامك الاختيار.

محجوب: لا هذا ولا ذاك، لن نُمَكِّنهم، يلتفت إلى إيزابل تعرفين؟ كل الأمريكان الذين التقيت بهم ناس طيبون، لكن سياسة حكومتكم الخارجية على درجة عالية جدا من السوء. ليس في مصلحة أي دولة أن يكرهها العالم إلى هذا الحد.

تقول إيزابل «كما قلت: هناك من يرون أننا بدأنا فعلا في تدهور، تدهور أخلاقي.»

ـ إنه التاريخ، يرد الدكتور رمزي ملوحا بيده: كل هذا لا يهم. مصر موجودة منذ البداية، وشهدت الكثير، وفي الألفية الثالثة ستكون هي مصر، مصر لا تتغير.

(١٧)

أما نحن، فكالحراس محكومون بالوقوف في ليال بلا نجوم، ننتظر الساعة الموقوتة.

جون درايدن

هل ضاقت الدنيا حقا؟ هل وصل الأمر إلى هذا التحديد من الاختيارات؟ لا بد أن هناك مخرجا لنا لم نتبينه بعد، لكن الوقت يمر وما إن تنتهي من تخطيط موقفك حتى تتغير الدنيا من حولك فنجري لاهثين للحاق بما فاتنا، فيالجمال الماضي! ها هو الماضي ساكن على المنضدة: يوميات وصور ومصباح وعدد من كتب التاريخ. نتركه ثم نعود إليه فنجده في الانتظار لم يتغير. نقلب الصفحات لنعيد النظر في البداية. نسرع إلى الأمام فنعرف النهاية، ونحكي الحكاية التي لم يتح لأولئك الذين عايشوها وعاشوها أن يحكوا منها إلا أجزاء.

٣ إبريل ١٩٠١

لا رسالة ولا خطاب ولا كلمة

عدنا منذ ثلاثة أيام. جيمس بارنجتون يعرف شيئا من موضوع الرحلة، أخبرته بما يكفي. رأيت الأصلح أن ألتزم الصدق بأقرب ما أستطيع، وبالذات أني الآن بعد أن أتممنا الرحلة أرى استحالة أن يصدقني أحد لو أخبرتهم أنني تجولت في سيناء أنا وصابر وحدنا. على أي حال لم أحك شيئا عن الجزء الأول من مغامرتنا وقلت إننا التقينا بشريف

باشا ورجاله في الصحراء الشرقية، وعندما علموا بمقصدنا أخذونا في حمايتهم لأنهم كانوا متجهين مثلنا إلى سيناء.

أفهمت صابر الصيغة المعدلة لحكاية الرحلة وكان سريع الفهم، وركبنا إلى بيت جيمس ونحن أصدقاء ـ يخيل لي ـ أكثر من يوم خروجنا. تأثرت لشعور الارتياح الذي غمر جيمس عندما رآنا، وإن كنت لا أعرف إن كان ذلك يرجع أساسا لخوفه من مواجهة غضب اللورد كرومر لو أن مكروها وقع لنا، على أي حال نسي نفسه لحظة ووضع ذراعه حول كتف صابر ولكمه في صدره مداعبا عدة مرات.

بعد أن خلعت ملابس الرجال وعدت إلى زيي العادي (وكم بدت لي عجيبة كل تلك المشابك والأربطة) وأرسلت أعلم إميلي بعودتي، جلست وحدي مع جيمس وحكيت له عن مغامرتنا في سيناء، وربما كشف حديثي أكثر مما قصدت عن مشاعري، فقد أمسك بيدي وأنا أتأهب للخروج وقال: «آنا، إياك أن تدعي هذا الموضوع يدير رأسك!» ضحكت وسألت: «أي موضوع؟ وكيف يدير رأسي؟» قال: «كل هذا الكلام عن الصحراء والنجوم. تعلمين أن لا فائدة من كل هذا».

أما عودتنا إلى بيت آل البارودي قبل ذلك فكانت مثل العودة إلى بيت الأهل؛ لدرجة أن دموع الفرح ملأت عيني. صادف موعد عودتنا أول يوم من الاحتفال بانتهاء موسم الحج وكم اختلفت الظروف والعربة تجلجل من الطريق

إلى البوابة الكبيرة هذه المرة. دخلت بسرعة وخلعت عني الحجاب وأسرعت ليلي إلى لتحييني، تعانقنا كالأختين ثم أبعدتني بطول ذراعها وهي تتأمل مظهري: «ما أحسن صورتك! اسمرت بشرتك وستضطرين لوضع طبقات ثقيلة من البودرة عند ما تحضرين حفلًا في سفارتكم، وكانت تضحك وناداني أحمد الصغير باسمي وأمر أن أجلسه على ركبتي وأنا أحكي لأمه عن الرحلة، لكن عندما عدت لارتداء زي رجل إنجليزي وأحكمت القبعة على رأسي بدا على ليلي القلق، فصحت بها: مازلت آنا.

ـ أعرف، ومع ذلك...

فقلدت تحية الرجال وضربت الأرض بكعب حذائي وقبلت أطراف أناملها فضحكت ووعدت أن ترسل لي دعوة، وقد فعلت حقا. دعتني أن أذهب معها غدا لزيارة بعض سيدات من معارفها.

غدا ربما أسمع بعض أخباره.

القاهرة، ٥ إبريل ١٩٠١

عزيزي سير تشارلز

عدت إلى فندق شبرد منذ أسبوع تقريبا، من المريح توفر الحمام والفراش الوثير وخزانة حافلة بالملابس إلا أنني أفتقد بساطة وجلال الحياة في الصحراء.

أنا لم أكتب لك بعد القصة الكاملة لتلك الحياة التي خبرتها قرابة أسبوعين؛ كانت تختلف تماما عن أي تجربة مرت بي في حياتي، كانت آفاقها من الرحابة والجلال بحيث أخشي أن رسائلي لن توفيها حقها.

اليوم وقد عدت إلى القاهرة يصعب عليَّ جدا أن أجلس صامتة أنصت إلى حديث مواطنيَّ المعجبين بأنفسهم في دار المعتمد، لا تساورهم لحظة شك في صحة آرائهم، وأخشي أن ردودي صارت لاذعة بما لا يناسب طبيعة الأنثي (في نظرهم).

لننتقل إلى موضوع ألطف. يزداد إعجابي بأصدقائي الجدد كلما ازدادت معرفتي بهم. خرجت بالأمس في صحبة ليلي البارودي لزيارة سيدة تدعي نور الهدي هانم، وكنت أسمع من السيدات في دار المعتمد عن الزيارات المملة لحريم الأمراء والباشوات في المناسبات، وكيف بعد تبادل التحية تجلس جميع السيدات في دائرة في صمت يرتشفن القهوة حتى يحين الوقت للانصراف. الواقع أن هذا الوصف يختلف تماما عن اللقاء الذي شهدته بالأمس في قصر صغير ـ لكنه تحفة بديعة ـ على النيل. نور الهدي هانم أصغر مني ومن ليلي البارودي فهي في الثانية والعشرين لكنها جادة جدا ومثقفة بشكل هائل. لم أجد فيها شيئا من خفة الروح التي أحبها في ليلي بل لاحظت عليها مسحة من الحزن وقد علمت فيما بعد أنها وافقت قبل ذلك بقليل على العودة إلى زوجها بعد انفصالها عنه سبع سنوات، ولم تكن

راغبة في العودة لكنها اضطرت إلى ذلك لأن شقيقها (وهو أكبر منها وتحبه كثيرا) أقسم ألا يتزوج حتى يراها «في أمان في بيت زوجها».

التقينا عندها بسيدتين من فرنسا: واحدة تدعي مدام ريشار وهي أرملة مهندس كان يعمل في مشروعات الري، بعد وفاته اختارت البقاء في مصر ويبدو أنها تعمل رفيقة ومعلمة لهدي هانم. الثانية شخصية مشوّقة اسمها أوجيني لوبران متزوجة من باشا مصري (تركي في الواقع) يسمي حسين رشدي فهم يفرقون هنا بين الأعيان من سلالة الأتراك وغيرهم من أصل مصري. تعيش في القاهرة، اتخذتها موطنا، وحسب ما فهمت اعتنقت الإسلام. كان اللقاء بمناسبة زيارة سيدة تدعي زينب فواز تقطن الإسكندرية، وهي من أصل سوري وتلقي تقديرا من الكثيرين هنا وقد كتبت عدة مقالات في موضوع «مسألة المرأة». لا تقلق يا سيدي العزيز فأنا أؤكد لك أنك لو قابلت أولئك السيدات لما وجدت فيهن ما يثير الاعتراض، فكل منهن تؤمن أن واجب المرأة أولا نحو أسرتها، وتضيف أنها تحسن أداء مهمتها إذا أحسن تعليمها، ومنهن من يكتبن ضد حجب المرأة في البيت ويبرزن دور المرأة الفلاحة التي تعمل منذ القدم جنبا إلى جنب مع الرجال من أسرتها، ولم ينتج عن ذلك ضرر للمجتمع، وقد نشرت مدام فواز كتابا يضم مجموعة من سير نساء شهيرات ويبدو أنه يتضمن سيرة الملكة إليزابث والملكة فكتوريا والخلاصة أني أعترف

أنني استمتعت بالصحبة وبالأحاديث التي دارت في الزيارة وكل هذا على العكس تماما من الفكرة السائدة عن أجواء الحريم وأنها تتلخص في الفراغ والنعاس. سأنهي خطابي الآن فقد جرى بي القلم وأخشي أن يطرأ في ظنك أنني أصبحت «داعية نسوية»، وأنا في الحقيقة كما كنت دوما ابنتك المحبة...

أرى أمامي آنا وقد تغيرت واحتشدت حياة. كل صباح تتوقع جديدا وطيبا في يومها. يلوح لها أنها مقبلة على الوصول إلى «قلب الأشياء» والتحقق مما كان يراوغها سابقا. بصفتها صديقة ليلي هانم البارودي وحرم حسين رشدي تجد ترحيبا في بيوت سيدات العائلات في القاهرة وتحضر مناسبات «المقابلة» معهن، وتلاحظ إميلي التغير الذي طرأ على سيدتها، ويسعدها أنها تبدو سعيدة، لكن يشغلها ألا تري أي ترتيبات للعودة إلى الوطن؛ والحق أن ليس هناك أي تفكير في العودة بعد، فآنا مشغولة بكل ما يقع لها من مدركات جديدة يزدحم بها عقلها، وقلبها يترقب في انتظار شيء أكثر.

٤ إبريل

اليوم ونحن في العربة انتهزت الفرصة لأسأل ليلي إن كان شريف باشا بخير بعد عودته من سيناء، وأعبر عن أملي ألا تكون أعماله قد تأثرت نتيجة لغيابه. فأجابت أنه عاد فعلا وأنها متأكدة أنه قادر على التصرف في عمله، وعلي أي حال لا يبدو عليه أي انشغال من هذه الناحية.

« قال إنك فارسة قديرة ولم تظهر عليك علامات التعب

بالمرة»، ووقفت عند هذا الخبر. فهمت فيما بعد أنه سيسافر غدا إلى الصعيد ليصطحب والدته في عودتها إلى القاهرة، فعرفت الآن أن ليس هناك احتمال لأن أسمع صوته لمدة أربعة أو خمسة أيام.

القاهرة، ٨ إبريل ١٩٠١

عزيزي سير تشارلز

وصلني خطابك المؤرخ في ٢٣ مارس، ويسعدني أنك بخير وفي روح معنوية طيبة وأملك عريض فيما يخص مشكلة أيرلندا، وتقول إنها في أحسن أحوالها منذ وفاة بارنل، ولعل هذا يعوضك ـ قليلا ـ عن الأحداث في جنوب إفريقيا. أعترف أن همي الأول عندما أسمع الأخبار التي تأتينا من هناك هو تأثيرها عليك، وأعرف مقدار ألمك وغضبك.

فوجئنا أمس واليوم بعاصفة رملية، وفي رأيي أنها أسوأ من الضباب في لندن، فعلي الأقل في حالة الضباب نستطيع أن نأوي إلى بيوتنا وننسي وجوده. أما الرمل هنا فينفذ إلى كل مكان. ينفذ خلال النوافذ المغلقة بإحكام وإلي الأوراق والملابس في جميع الخزائن والأدراج. كانت إميلي تطقطق باستياء وهي تمشط شعري وتطرد الرمل بالفرشاة. أجدني أفكر في إنجلترا باشتياق، فنحن في إبريل وستزهر كل النباتات. أرى بخيالي العشب أخضر ناعمًا في الحدائق يلمع بآثار المطر في أشعة الشمس، وأستنشق رائحته النضرة

يجز لأول مرة، وأجدني أفكر بالذات في أزهار الماجنوليا لأنها سريعة الذبول وأظن أنها ستفوتني لعام كامل.

عندما خرجنا في العربة آخر مرة لاحظت شجرة جميلة عالية تكاد أفرعها تمتد أفقيا كالمظلة لم أر عليها أوراقا لكن كل فرع كان مغطي بأزهار حمراء كبيرة. سألت ليلي عن اسم الشجرة ولدهشتي اكتشفت أنها لا تعرف، لكن أخبرتني أن الأوراق سرعان ما تنبت محيطة بالأزهار الحمراء. عندما سألت مستر سليدن أخبرني في الحال باسم الشجرة باللاتينية، وقال إنها تعرف كذلك باسم شجرة الحرير القطني الحمراء، وأنها مستوردة من مناطق استوائية في آسيا، لكنه لم يعرف لها اسما بالعربية، والغريب أنه هو وغيره ـ فيما يبدو ـ يحبون هذه البلاد بقدر ما يبغضون أهلها، وفي عقولهم فصل تام بين الاثنين!

حدث بيني وبين مستر سليدن شبه مشاحنة منذ يومين. كنا نسير في شارع قصر النيل ومررنا مصادفة بمقهي حيث جلس عدد من الرجال من أهل البلد يتناقشون في موضوع في جريدة. رأيت أحدهم يناول الآخر الصحيفة مطوية فيما يبدو على مقال بالذات. توقفوا عن الحديث ونحن نقترب منهم ورفعوا إلينا أبصارهم، ثم عادوا إلى حديثهم بعد أن عبرنا. وجد مستر سليدن في هذا مناسبة ليندد بسلوك ذلك الصنف من «عجائز الحزب الوطني» يشاهدون جالسين في المقاهي منغمسين في «أحاديث العصيان» ويحرجون كل سيدة أوروبية تمر بهم بنظرات وقحة تنم عن الشهوة.

قلت له برفق إنني لم ألحظ أي خروج على الأدب في نظرات أولئك الرجال، فرد على بما يفيد أنني لست مؤهلة للحكم على شخصية أهل البلد، وأن من حسن حظي أنني لا أستطيع فهم ما يقولون عني في هذه اللحظة، وأنه يعرف من مصدر ثقة أنهم جميعا أوغاد وأنهم جميعا يشتهون أن ينالوا من شرف امرأة أوروبية من الطبقة الراقية، ولعلني أضيف: «خصوصا إذا كان إنجليزية!» لم أقل له إنني أعرف من اللغة العربية أكثر مما يعرف هو لكنني سألته إن كانت له معرفة شخصية بأي مصري؟ فرد بشكل قاطع: «ليس من هذا الصنف» . لكنه يعرف السيد فارس نمر رئيس تحرير جريدة المقطم وهو «جنتلمان حقيقي ومحب للإنجليز» ، وأنه اتخذ آراءه تلك بناء على أحاديثه مع السيد نمر، ولذا لا أعرف مقدار صحة هذا الكلام.

سأذهب يوم الخميس إلى الأوبرا مع مدام رشدي لنشاهد سارة برنار في غادة الكاميليا. سنجلس في إحدى مقصورات الحريم. أنا متشوقة جدا لهذه التجربة، وطبعا سأحكي لك عن تلك الحفلة بالتفصيل. وإلي اللقاء

ابنتك

١٠ إبريل

لا خبر حتى الآن. لكن رسالة من ليلي تخبرني أن والدتها عادت ويسعدها أن تستقبلني، سأذهب لزيارتهم غدا.

حضرت أمسية موسيقية أمس في بيت جيمس بارنجتون،

وكان تمبل جيردنر موفقا في عزفه، إنه يعشق الموسيقى ويعزف البيانو بإبداع المُلهَم. مسز بوتشر أسرت لي بتعليق أنه يكشف حقا عن أعماق من قوة الروح، لكن ليته يشغل نفسه بشيء يعم على الناس بالخير أكثر من محاولة تنصير المسلمين.

دار بيني وبين جيمس بارنجتون حوار طريف، ومن بين الموجودين هنا هو الذي أشعر نحوه بالألفة؛ فهو يعلم عن «مغامراتي» (وقد وعدته ألا أدخل في «مغامرة جديدة»، ولم يصعب على التعهد بذلك، فلم تعد بي حاجة بعد تعرفي بليلي، فأمامي الآن فرص لأتعرف على مصر أحسن بكثير من التجوال متنكرة في ملابس الرجال) والأهم أنه يتعاطف مع الناس ولا يسرع بإصدار الأحكام بلا مناقشة.

نصحني بالحذر عند الكلام لأنني أصبحت أدافع عن المصريين صراحة، وأن من حولي سيلاحظون ذلك. قال: «مثلا خرجت عن اللياقة في حديثك مع مستر سليدن ذلك اليوم ولم تتوقفي إلا عندما قرصت ذراعك».

قلت: «لقد استفزني حتى كدت أخبره أني قضيت ١٦ ليلة في جماعة رجال من أولئك «الأوغاد» الذين يتحدث عنهم وأني أتمنى لو أني حظيت بمثل تلك المعاملة الكريمة في ضيعة في الريف الإنجليزي». قال وهو يهز رأسه: «لا فائدة من هذا يا آنا. تعلمين ذلك. كنت أظنك عاقلة».

وأظن أني فعلا عاقلة، إنما أعقل كذلك مدى ظلمهم وخطئهم هنا وأمامهم عالم يرفضون رؤيته او حتى السماع عنه. أعرف أن هذا الإحساس وليد مودتي لأصدقائي الجدد وفي نظري أن هذا أدعي لمصداقيته.

القاهرة، ١٣ إبريل ١٩٠١

عزيزتي كارولاين

فكرت فيك كثيرًا الليلة، فقد قضيت الأمسية في دار أوبرا القاهرة أشاهد إبداع سارة برنار. كانت تجربة لا تنسي ولو كنت معنا لاستمتعت حقا. كنت ضيفة مدام حسين رشدي باشا وهي سيدة فرنسية متزوجة من باشا مصري، ومضيفتنا كانت أميرة تسمى إنجي، وإن كانت الأميرة لم تحضر العرض. جلسنا في إحدى المقصورات المخصصة للحريم من الأميرات، قطيفة حمراء وإضاءة خافتة على الجدران، وفي واجهة المقصورة ساتر رقيق من الحديد المشغول بأزهار مذّهبة تخفينا عن العيون ولا تعوق رؤيتنا للقاعة وخشبة المسرح. لا أكاد أجد الكلمات لوصف هذه التجربة أن نشاهد المسرحية والجمهور ونحن مكنونات في رقة ورفاهية. كانت متعة! كم تمنيت لو كنت معنا!

تعشينا معا أنا ومدام رشدي بعد المسرح، إنها امرأة بارعة تتحدث العربية والتركية، وأنوي أن أتعلم منها الكثير.

ونحن نشرب القهوة بعد العشاء ظهر خادم همس لها

بشيء، فأخبرتني أن زوجها عاد الي البيت وأنه يستأذن في الدخول إلينا. أليس هذا من الأدب؟! وعندما وافقت خرج الخادم وبعد قليل دخل الباشا. إنه متقدم في السن لكنه لطيف مهذب، وقد حبذ مشروعي لتعلم اللغة العربية ومعرفة كل ما أستطيع عن مصر.

قال إني اخترت خير من تعلمني في شخص ليلي هانم البارودي، وضحكت قائلة: «لا أدعي حكمة الاختيار لأن القدر هو الذي اختار لي» فأجاب: «وهل هناك دليل خير من القدر؟!»

زرت بيت ليلي مرتين حتى الآن، وهو مؤسس بذوق بديع على الطراز الفرنسي - لكن في رأيي أن البيت القديم على الطراز العربي أجمل، وبطبيعته أكثر ملاءمة للطقس هنا. ذهبت هناك منذ بضعة أيام وتعرفت بوالدة ليلي، زينب هانم الغمراوي. هي سيدة وسيمة وقورة ربما في الستين من عمرها. كانت لطيفة ومرحة لكن لم نتبادل الحديث طويلا لأنها لا تعرف الفرنسية، ولغتي العربية مازالت قاصرة على التحيات والسلامات، لكني استمتعت بمشاهدة علاقتها بحفيدها، فليلي تشكو من أن أمها تفسده بالدلع لكني لم ألحظ ما يسوء في سلوك الولد. وهو معتاد على مجلس الكبار ويذهب ويجيء كما يحلو له، ومربيته تجلس في ركن وتناديه إليها من وقت لآخر لتقبله، لاحظتها تنفخ في أذنه وعندما استفسرت من ليلي قالت إن المربية تعتقد أنها تطرد عنه الأرواح الشريرة.

ترين أنني أقضي وقتا ممتعا. ما زلت ألتقي بأصدقائي في دار اللورد كرومر، لكن هذه التجارب الجديدة بالدخول إلى حياة المصريين تجذبني أكثر - على الأقل في الوقت الحاضر - لعل السبب يكمن في جدتها، وكثيرا ما أتساءل: لو أن أحد أصدقائي الجدد زارنا في إنجلترا فهل يجد عندنا نفس القدر من اللطف الاهتمام؟

لم أتلق منك رسائل منذ مدة طويلة. رجائي أن تكتبي لي وتبعثي لي بأخبارك، حتى لا أشعر أنك نسيت صديقتك المحبة.

٢٠ إبريل

اليوم رأس السنة عند المسلمين عام ١٣١٩. لم تصلني أي كلمة حتى الآن. أعرف أنه في القاهرة وهذا أقصى ما تبينت من شقيقته. ماذا يمكنني - ماذا يجب على أن أفهم؟ أعيد حديثنا في الذاكرة وأعيد قراءة يومياتي. لقد نمت بيننا صداقة، لا مجال للشك في هذا، ومن المؤكد أيضا أن بعد حديثنا في حديقة الدير لم أشعر أن وجودي عبء عليه، حقا لم يعمد الاقتراب مني، لكنه كان يرعاني ويحرص على راحتي. لكنه كان سيحرص على راحة أي غريب تضعه الظروف تحت رعايته. لم نتبادل حديثا مثل حديثنا تلك الليلة، لكن الظروف لم تكن تسمح بذلك.

أعود أتذكر وداعنا على حافة الصحراء وقد عدت إلى ملابس الحجاب السوداء، أنتظر القارب الذي سيحملني

في رحلة العودة إلى السويس. أكتفي بالانتظار صامتا إلى جواري، تحدث مع صابر ومطلق بتنبيهات ـ فيما أتخيل ـ عن ضرورة الاستمرار في الحذر حتى نصل إلى بيته في القاهرة، ثم سمعته عند اقتراب الزورق يقول: «لقد أسعدني وشرفني السفر معك يا ليدي آنا» ولم ينتظر جوابي بل استدار وركب جواده وانطلق عائدا إلى الصحراء ولم أشك لحظة أنني سأراه ثانية. تصورت أنه سيحضر لزيارتي. انتظرت أن يكتب لي. ألقى ترحيبا ومودة من ليلي وزينب هانم لكنهما بطبيعة الحال لا تتحدثان عنه إلا بشكل عابر.

اصطحب أخي آنا في رحلة في سيناء. شاهدت الصحراء،عاشت فيها وزارت دير سانت كاترين وصعدت جبل موسى وروت ظمأها للمغامرة ثم عادت سالمة إلى بيت أبي هنا في القاهرة. كم سعدت لرؤيتها! وكم سعدت هي الأخري لرؤيتي! حدثتني عن الرحلة وأدركت عند ذكرها لاسمه ومن مدحها له أن أخي قد ترك انطباعا طيبا في نفسها، ولعله أكثر من مجرد انطباع.

عندما التقيت بأبيه شريف بعد عودته سألته عن الرحلة فلم يزد في رده على «انتهت على خير، الحمد لله»، حاولت أن أستدرجه قليلا فسألته: «وهل كانت ليدي آنا تتقن الركوب؟» فأجاب: «ممتاز»، «هل سببت لك أي متاعب؟» «لا، بالمرة.» أخبرته أنها حكت لي عن الرحلة وأنها مدحته شاكرة فضله في العناية بها فلم يقل شيئا، على أني لاحظت بمرور الأيام أنه يبدو مشغولا قلقا أكثر من المعتاد، وعندما عادت والدتي من المنيا لاحظت ذلك بدورها.

حدث أن كنت جالسة معه يوما فذكرت أنني اصطحبت آنا لزيارة نور الهدي هانم، وأن حرم حسين رشدي باشا كانت هناك، وكيف قضينا وقتا سعيدا معا، وكيف كلل زواج حسين باشا بالتوفيق فيما يبدو، فنظر إليّ بحدة وقال: «حرم حسين رشدي فرنسية. هناك فرق».

فسألته ببراءة «أي فرق؟»

قال: «الفرق بين سيدة فرنسية وفي حالتنا إنجليزية».

قلت: «آه، لكنك كثيرا ما تقول يجب أن نحكم على الناس بشخوصهم وليس كنماذج لحضارة أو عرق».

سألني: «يعني يذهب الإنسان بقدميه بحثا عن المتاعب؟!»

فضحكت: «أظن أن المتاعب هي التي جاءت تبحث عنك».

قال: «كتر خيرك يا أختي» ولم يزد.

القاهرة، ٢١ إبريل ١٩٠١

عزيزتي كارولاين،

فرحت بوصول خطابك المؤرخ في السابع من الشهر سمعت من سير تشارلز خبر إصابة برن هربرت المسكين في حرب البوير وقطع ساقه، واليوم يحمل خطابك خبر خروج مس هربرت أخته إلى كاليفورنيا لتعيش في جماعة من «دارسي الرب»، أليس غريبا أن تقع مثل هذه الأحداث لشخصين من أسرة واحدة في هذه المدة القصيرة؟! أيمكن الظن أن ربما واحدة أدت إلى الثانية؟! ليتك كنت هنا

لنجلس ونتحدث معا! إن ذهني زاخر بانطباعات جديدة لكنها مبهمة بحيث تستعصي على الكتابة ـ لكن يخيل لي أن موسم السياحة قارب الانتهاء ولن يكون الحضور إلى مصر عمليا ـ حتى لو رغبت في ذلك.

الصيف على الأبواب وقد بدأت الحرارة ترتفع لكنها لم تصل بعد إلى الدرجات التي سمعت عنها ـ بدأت أدرس الأشجار والنباتات في هذه الأرض ـ رأيت الهدهد يطير هنا وهناك في نادي الجزيرة منذ أيام وأرسل لك صورته، رسمتها خصيصا لك.

القاهرة

٢٤ إبريل ١٩٠١

عزيزتي كارولاين

لقد عدت لتوي من حفلة طريفة، وأردت أن أحكي لك عنها في الحال. إنها شبه صالون أدبي وسياسي تعقده في قصرها من وقت لآخر أميرة تدعي نازلي فاضل، وهي (فيما أظن) من أسرة محمد على نفسه، وهي في الواقع (فيما أظن أيضا) كبيرة السن لكن روحها شباب دائم.

وهي في العادة لا تستقبل نساء في صالونها، لكني عندما سمعت بها عبرت عن فضول شديد لرؤيتها، فأقنعت أوجيني (مدام رشدي) زوجها أن يطلب من الأميرة أن تأذن لي بحضور الصالون، فوافقت، وذهبت الليلة مع حسين باشا.

كان الضيوف حوالي عشرة وليس بينهم مصريون إلا حسين باشا، وآخر ينادونه السيد «أمين». كان مستر يونج هناك. وحكي قصة طريفة سمعها من ميبل كيتلاند: في آخر زيارة لها في لندن كانت تتسوق في هارودز، عندما تبادلت الحديث مع سائحة أمريكية، وبعد قليل عندما فهمت السائحة أن محدثتها لا تعيش في لندن طول الوقت سألتها: من أين جاءت فقالت مس كيتلاند: «من مصر» فردت الأمريكية: «ياللعجب! لكنك لست سوداء بالمرة!»

كان مستر بارنجتون هناك وكذلك رجلان من فرنسا واثنان من إيطاليا وواحد ألماني وواحد روسي، أتخيلك تقطبين في استياء.. لكن الأميرة كانت موجودة فلا حرج بالتأكيد في وجودي معهم. إنها سيدة غير عادية، كانت ترتدي جونلة وبلوزة على المودة الأوروبية، وشعرها مصبوغ أسود فاحم، تدخن بلا انقطاع، تتحدث في بحة بالفرنسية والإنجليزية والتركية والإيطالية (لا تستخدم العربية إلا مع الوصيفات) أظن أنها وجدتني مسلية، وأصرت على تسميتي بالأرملة الصغيرة (بالفرنسية) فنادتني بهذا اللقب طول الأمسية.

تنقل الحديث سريعا من النسوية إلى السينما توجراف (يبدو أن هناك عروضًا منتظمة في القاهرة والإسكندرية)، إلى سذاجة الأمريكان وإلي ثورة طائفة البوكسر في الصين، ومن تفسير الأحلام إلى كارل ماركس ثم إلى آخر مومياوات اكتشفها علماء الآثار... إلخ، وزجاجات الشمبانيا تفتح طول الوقت، وفجأة نادت الأميرة الوصيفات

(جميعهن في ملابس فاخرة من الحرير) وأصدرت لهن أمرا؛ وسرعان ما تجمع تخت من الموسيقيين بآلات متنوعة لم أكن أعرف منها إلا آلة العود، لكن أهمها طبلة تُمسك تحت الذراع ويُعزف عليها بالأصابع والكف بكلتا اليدين، أمر آخر وتحركت إحدى الوصيفات (فتاة بارعة الجمال) إلى وسط القاعة وأخذت تؤدي رقصة شرقية سأعفيك من سماع وصفها. بهرت بالموسيقي والرقص. بدا الملل على حسين رشدي باشا والسيد أمين، وبعض الحرج على الإنجليز، أما الآخرون فدب فيهم الحماس، ولم يكتف الروسي والألماني بالتصفيق بل أصرا على مصاحبة الراقصة. كان منظرا عجبا : رجلان كل منهما في ضخامة الدب يحاولان تقليد حركات الراقصة اللولبية في ثوبها المغطي بالترتر.

بعد انتهاء الرقصة أمرت المضيفة بمزيد من الشمبانيا وبالقهوة التركية والكونياك، وساد السكون برهة فصاحت الأميرة: «انظروا إلى الأرملة الصغيرة! كم تبدو سعيدة! أليس بينكم إنجليزي يجري في عروقه دم الرجال يتلقفها قبل أن تقع في غرام مصري وسيم من شباب الحركة الوطنية بالعيون السوداء والشوارب الكثيفة؟» ضحك الجميع لكني أحسست بمس من الحرج يسود الغرفة، وأنا متأكدة أنها تعرف ما تفعل، وكان واضحا أنها تتسلي في خبث بارتباكنا.

لا أظن أنني سأجد فرصة لإعادة الزيارة، فمدام رشدي

لا تستطيع أن تطلب ذلك من زوجها أكثر من مرة، وأشك أن أحدا غيره يمكن أن يصطحبني، ولا أعتقد أنني يمكن أن أصادق الأميرة أو بالأحري أن الأميرة يمكن أن تصادقني، فأنا مجرد امرأة عادية في نظرها، أما أنت يا عزيزتي كارولاين، فإن كنت هنا لاختلف الأمر تماما.

القاهرة

٢٥ إبريل ١٩٠١

الوالد العزيز سير تشارلز

سعدت كثيرا بوصول خطابك المكتوب في ١٨ الشهر وبعلمي أن أصدقاءنا حدثوك عني خيرا وإن كان سير هدورث في رأيي يطريني بأكثر مما أستحق. دهشت لقولك إنك تحدثت معه طويلا عن عرابي وأنه زاره منذ ٣ سنوات في سيلان. عندما التقينا في حفل عشاء هنا لم يذكر شيئا من ذلك بالمرة، وهذا ليس غريبا في حد ذاته، ولكن لم يبد عليه أنه يعرف عرابي أو أنه يشعر بأي تعاطف مع الحركة الوطنية.

لعله ليس غريبًا على الإطلاق؛ فأنا أجد من الصعب أن أحدث أصدقائي الإنجليز عن أصدقائي المصريين، وعندما ذكرت أني ذهبت إلى الأوبرا مع مدام حسين رشدي تصلب وجه لورد كرومر اعتراضا، وانتحي هاري بويل بي جانبا فيما بعد وقال: «تعرفين أنها أصبحت مسلمة؟» كما لو كان ذلك يخرجها من نطاق المجتمع المهذب. حاولت أن أحدثهم

عن تجربتي ما دام ما يعرفونه عن المصريين يقتصر فيما يبدو على السماع، فيظهرون الإنصات لكن يعودون إلى ما انقطع من حديثهم كأنني لم أتكلم. حاولت ـ عندما سمعت سيدتين تشكوان فيما بينهما من ملل زيارة الحريم المفروضة عليهما مرة أخرى ـ حاولت أن أتحدث عن السيدات اللاتي قابلتهن، فلم يبد عليهما إلا الضيق والضجر، وكأن أمر النساء هنا ممل متعب لأنهن في الحريم ويتضاعف ضيقنا لمحاولتهن الخروج منه.

والدي العزيز سير تشارلز: إني أفهم اليوم كثيرا مما سمعت من كلامك في الماضي، وبدأت أصدق أننا ننكر أن يكون للمصريين وعي بأنفسهم ـ والواقع أن ذلك ما قاله مستر يونج في ذلك المشهد بجوار الأهرام الذي وصفته لك منذ شهور ـ وهذا الإنكار يهدئ ما قد يصيب ضمائرنا من ارتياب في حقنا في البقاء هنا، فما دمنا نؤمن أنهم مثل الأطفال أو الحيوانات الأليفة يمكننا البقاء حتى «نرشدهم» ونساعدهم على «التطور». لكن إذا رأينا أنهم على وعي تام بأنفسهم وبمكانهم في العالم، مثلنا، يكون أشرف لنا أن نحمل سلاحنا ومتاعنا ونرحل، وربما نحتفظ بدور المشورة في شئون الاقتصاد، ويخيل لي أن المصريين أنفسهم يرحبون بذلك.

الموضوع كله مُربِك، وإن لم يكن مربكا فهو فظيع. ليتك كنت معي هنا أشركك في أفكاري وتجاربي مباشرة. أعلم

أنني كنت سأفيد كثيرا من مناقشة هذه الأشياء معك، وكنت ستجد فيها ما يثير اهتمامك. أما الآن فيكفيني مؤقتا أن أكون ابنتك....

٣٠ إبريل

لم أعد أجد متعة في صحبة أصدقائي البريطانيين. مستر ماني ومستر ولكوكس متعاطفان في الرأي مع المصريين، بالأمس فقط قال الأول إننا نخصي الطبقة العليا لنضمن أن تعجز في المستقبل عن الحكم، ثم اعتذر لي عن استخدام مثل تلك الألفاظ في وجودي. مسز بوتشر مازالت صديقتي لكنني لا أستطيع أن أبوح لها بمشاعري. أما لورد كرومر فقد حاولت أن أكسب اهتمامه في جانب أمنيات أصدقائي المصريين في تعليم البنات، فقال إنني لا أعرف مصر وإلا أدركت أن رجال الدين لن يسمحوا أبدا بخروج المرأة من مستواها المتدني، ورفض أن يسمع كلمة أخرى في الموضوع.

عند ذكر اسم كرومر أمام ليلي تحجر التعبير في وجهها، ولما ألححت عليها في السؤال قالت: «لورد كرومر رجل وطني يقوم على خدمة بلده. نحن نفهم هذا لكن يجب ألا يتظاهر بأنه يخدم مصر».

٢ مايو

الأيام تمر والسعادة التي شملتني في سيناء تقلصت وأخذت تضم أطرافها في قبضة ترقد الآن بين ضلوعي.

أستيقظ كل صباح وشعور بالقلق يثقلني؛ إذ أصحو إلى أنه لم يكتب ولم يأت لزيارتي. وأعتقد أنني الآن أعرف أنه لن يفعل.

٥ مايو

يقولون إن حر الصيف على الأبواب، وأنا أفكر في العودة إلى إنجلترا. لقد أصبحت ليلي عزيزة عليّ، وكذلك أحمد الصغير، كما أحببت من قابلتهن من معارفها، ولم يعد مجتمع الإنجليز هنا يروقني فيما عدا جيمس، فهو مازال صديقي حقا، وقد حثني منذ أيام قائلا: «شدي حيلك يا فتاة»، لكن لا يبدو أنني قادرة على الخروج من الشعور بالتعاسة والقلق. أقول لنفسي إنني تخيلت عنده مشاعر لا وجود لها، وإنني في نظره لست إلا إنجليزية غريبة الأطوار اضطر إلى مجاملتها طوال بقائها في حمايته، وأني لا أخطر في باله.

إلا أنني لا أستطيع أن أمنع عيني من البحث عنه كلما نزلت إلى الشارع، ولا أستطيع أن أمنع الأمل أن أراه حين أزور شقيقته أو أمنع نفسي من توقع أن أجد منه رسالة كلما عدت إلى الفندق. لعل الوسيلة الوحيدة لأنهي كل ذلك أن أذهب بعيدا ـ إلى إنجلترا ـ أعود إلى بلدي.

دقة على الباب. خطاب يسلم ليدها. آنا تفضّ الختم.

القاهرة في ٥ مايو

سيدتي:

فهمت من شقيقتي أنك تنوين الرحيل والعودة إلى إنجلترا.

قررت بعد تفكير طويل أن أكتب لك. لقد قمنا برحلة معا وآمل أننا أصبحنا أصدقاء بما يكفي ـ عزيزتي ليدي آنا.. دعيني أطرح جانبا أي محاولة لصياغة كلام لبق أو بليغ، فأنا ـ باختصار ـ وقعت في حبك. ها قد قلتها. لسنوات طويلة كنت أعتقد أنه ليس مقدرا لي أن ألفظ هذه الكلمات، فمنذ زمن طويل ـ كان أملي كما يأمل كل شاب ـ كلا لم يكن مجرد أمل ـ كنت أتوقع في ثقة أن تدركني تلك المشاعر التي قرأت عنها الكثير، لكن ذلك لم يحدث إلا اليوم.

حاولت أن أقنع نفسي أن الأمر مجرد وهم، فأنا حقا لا أعرفك؛ وربما لا يمكن أن أعرفك، بحق. قلت لنفسي إنها حماقة رجل يرى الشيخوخة تقترب، خائف، يخشى أن تفوته تلك التجربة التي يصفها الشعراء بأنها أثمن ما يحوّل حياة الإنسان؛ فهي جوهر الحياة نفسها. لكني، صدقًا، لا أعتقد أن هذا دافعي، لا أن الأمر يتعلق بخوف، أو أن خيالاتي تتخذك ذريعة وتلتصق بك ـ الأمر أمرك أنت. أنت نفسك يا آنا، بعيونك الزرقاء في لون البنفسج، ورسغيك الرقيقين، وجلستك ساكنة تماما تنصتين وترقبين ما يدور حولك برأسك عاليا، بنظرة الصراحة في عينيك، وأسئلتك التي لا تخشي شيئا، ونبرات صوتك ورشاقة حركاتك؛ لكني تجاوزت حدودي.

قد تلاحظين أني تجنبت رؤيتك منذ عودتنا من الرحلة، لن أخبرك عن المشقة والثمن. لم تمر لحظة لم يهمس فيها قلبي

بمكانك: إنها تزور شقيقتك، اذهب إليها. مر بعربتك بجوار فندق شبرد، ربما تكون جالسة في الشرفة. اليوم الأحد، اذهب إلى المعلقة. لقد حاربت وقاومت، وربما كنت أستمر في المقاومة لولا أن شقيقتي جاءت لزيارتي وهمست لي أن كلمة منى ـ رسالة مثل هذه ـ لن تجد منك رفضا.

حبيبتي آنا ـ فأنت فعلا حبيبتي سواء قبلت أو لم تقبلي ـ أعرف جيدا كل الظروف والاعتبارات التي تعمل ضدنا، وها أنا أقول: «ضدنا» فأجمعنا معًا قبل أن أتلقي منك ردًّا، ولعل هذا يثبت لك ما سمعت عن غروري، لكن صدقي يا آنا العزيزة الحبيبة، لن تجديني مغرورا أو متكبرا أو عجولا لو استطعت أن أقول بحق إنني ملكك.

شريف البارودي

ملحوظة: سأطلب من حامل الخطاب ألا ينتظر ردا، لأعطيك الوقت لتفكري قبل الإجابة. وأنا في الانتظار.

وكانت لحظة السكون. لم تفهم بالضبط ولم تصدق تماما. قراءة سريعة للورقة مرة ثانية. موجة قوية من الفرح تعصف بالقلب، عاتية كالحزن. جرت إلى النافذة ثم عادت: «إميلي إميلي، اجري وانظري إذا كان الرسول مازال في الخارج».

لكنه لم يكن هناك؛ انصرف حسب الأوامر، والآن ليس أمامها ما تفعله إلا أن تذرع الغرفة،تنتظر الصباح. تطوي الخطاب ثم تعود لفتحه، وتقرؤه مرة أخرى، ومرات ومرات.

تتساءل إميلي وهي تمشط شعرها: «ما هذا يا سيدتي؟ ماذا حدث؟ ستتسببين في شد شعرك بهذه الطريقة».

ـ كفي يا إميلي، لقد مشطته بما فيه الكفاية، وتهز رأسها في نفاد صبر: «سأضفره أنا. اذهبي أنت إلى فراشك. آه اسمعي يا إميلي لا تحزمي بقية الحقائب، لننتظر فترة. واسمعي، هل وضعت فستاني الحرير الأزرق فيما حزمت من حقائب؟»

ـ ليس بعد يا سيدتي

ـ سأحتاجه في الصباح. شكرا يا إميلي وتصبحين على خير.

إنه يحبها! الظروف والاعتبارات! ما هي؟ يتراجع العالم بأسره ولا مكان إلا لفكرة واحدة: إنه يحبها. لم تخطئ في فهمه. وهي ليست غريبة الأطوار، ولم تكن عبئا عليه، كان يفكر فيها كما كانت تفكر فيه.

فوق فراشها تدور المروحة في حركة رفيقة. سينقضي الليل وسيشرق الصباح، وهو يحبها.

(١٨)

يجولون حائرين بين عالمين: عالم قضي
وعالم عاجز عن الخروج إلى الحياة

ماثيو آرنولد

أجلس هنا ورسالة خال أبي الكبير في يدي؛ أراه جالسا يكتب، في البدء كان يقف بجوار النافذة في حجرة المكتب في بيته بالحلمية، كان بيته هذا بجوار بيتنا. ما شكل ملابسه؟ لا أستطيع أن أتخيله إلا في بذلة أوروبية، هكذا تصفه كل من آنا وشقيقته، وهذا ما يلبس في الصورة المعلقة في البيت في طواسي، كما أني لم أر أبي أو أخي يوما في زي مختلف. أضع الرسالة على المائدة، وأتأمل تلك الأشياء التي تبقي بعدنا، كان في مثل سني عندما كتب هذه الرسالة: رجل طويل مفعم بالقوة والحياة، يملأ حضوره المكان إذا دخله، رجل يفكر ويتحدث ويتألم ويحب، كل هذا ذهب، أما هذه الورقة الصغيرة فتبقي، الورقة التي فردها وكتب عليها بسرعة وتصميم بقلم عريض السن. لقد حال لون الحبر، لكن قوة اليد وإحكام الخط واضحان للعين: الحروف رأسية معتدلة، والوصلات واضحة، والمسافات بين الكلمات منتظمة، وأنا يبدو أني وقعت في حب جدي الكبير. صرت مفتونة به.

سمعت عنه أولا من أبي الذي كان في طفولته يكاد يعبده، ومن أمي التي لم تقابله بل سمعت عنه من أقربائنا في عين المنسي، وذكره وارد في الرافعي ومذكرات أحمد شفيق باشا وغيرها من

الكتب التي أرخت لتلك الفترة، وكتاباته منشورة في الأهرام وفي اللواء ثم في الجريدة. أرى صورة أخي فيما كتبته ليلي عنه وصورة البطل الرومانسي الغامض عميق الأغوار فيما كتبته آنا، والآن عليّ أنا أن أنسج تلك الخيوط معا وأصور شريف باشا البارودي كما أتخيله.

تحرك شريف باشا البارودي، خال أبي، كما يشهد هذا الخطاب الذي يرقد أمامي، لكن ذهنه لم يخل من التحفظات. لمدة خمسة أسابيع ـ بل لسبعة أسابيع؛ إذ يجب أن نأخذ في الاعتبار زمن رحلة سيناء ـ أخذ يحاول الهروب من ذلك الإحساس الذي يدفعه إلى آنا. منذ زمن طويل فقد الثقة في المشاعر المفاجئة، نعم كان يرمي لتلك المشاعر ببعض الفتات أحيانا، بشراء تحفة لفتت نظره، بالقيام برحلة إلى الخارج، أما في طريق حياته الأساسي فقد أمسك بلجام نفسه جيدًا.

سلك صديقه الشيخ محمد عبده نفس السلوك؛ فأصبح رجلًا وقورًا مقنن الحركة، تتسم أقواله بحكمة لا تخلو من الدبلوماسية. ماذا تبقي من ذلك الشاب الأزهري المشتعل الذي كان مستعدًا للتفكير في اغتيال توفيق في سبيل تحرير مصر؟ في ذلك الزمن بدا وكأن كل ما يحتاجه المرء هو الشجاعة؛ القناعة بأن ما تطلبه هو من حقك، والشجاعة لتمد يدك وتأخذ هذا الحق. وقد علمتهم الظروف بطلان هذا. رأوا أعمارًا انتهت تلفها حبال المشانق، تحصدها مدافع الحرب، تدمرها المنافي والتنازلات. أصبح الحرص والحساب عادة.

وفي سيناء، في حديقة دير سانت كاترين، فاجأته آنا ـ ومشاعره.

في اليوم التالي تراجع إلى سلوك الأدب الرسمي، لكن آنا ـ بعد أن عاد من الصحراء، ولم تعد إلى جانبه ـ ضربت بجذورها في نفسه ورفضت أن تقتلع.

طواسي، ٧ إبريل ١٩٠١

يفتت شريف باشا التربة السوداء الخصبة في يده وهو مستغرق في التفكير، يجلس القرفصاء وينظر حوله إلى حقوله، تصل إليه من بعيد صيحات الأطفال يلعبون بجوار الترعة. كان هنا آخر مرة في طوبة، وقد فرغوا من حصاد قصب السكر، والأرض مشتعلة بحريق القش، جرداء متفحمة موحشة، واليوم في برمهات بعد أقل من ثلاثة أشهر الجذور القديمة المدفونة في الأرض تنمو عفية تدفع بالمحصول الجديد إلى النور. يقوم شريف باشا واقفا يدق الأرض بقدميه ويتمطي، هو هنا بعيد، بعيد عما يثير التفكير فيها، يمسح يديه في بنطلونه القطني. فيما وراء القصب سقطت أشعة الشمس الغاربة على محصول الكتان فلمعت الحقول كبحر من البنفسجي والأزرق والذهبي، منذ ألفي عام وثلاثة وأربعة آلاف وقف رجال كما يقف هو اليوم، يشاهدون نفس المنظر ونفس الألوان ويشعرون بنفس النسمة تهب خفيفة تمسح رءوس الأزهار وترسل موجة ترفرف بطيئا من أول الحقل المتوهج إلى آخره. كان سحر هذا المنظر يعادل في ذهنه سحر الصحراء أو ربما يفوقه. هل يحرك مشاعرها كما يحرك مشاعره؟ يعرف أنها تملك أرضا في بلادها، لكن هل هي مزارع أم غابات أم مراع؟ لا يعرف. على بعد قليل منه تفك فتاة صغيرة ثورا من الساقية، تزيل عن عينيه الغماية ويبدأ الاثنان (الثور

والطفلة) رحلة العودة إلى البيت. يتجه شريف باشا إلى الساقية ويخلع جوربه وحذاءه وينوي الوضوء ويتوضأ.

في مسجد القرية يوسع له الرجال مكانا في الصف الأول، وعندما تنتهي صلاة المغرب يسير مع العمدة عبر الحواري التي تأخذ في الإظلام، يجلسون في مندرة العمدة وبابها مفتوح على الطريق، يجيء رجال ويذهب رجال وصينية الشاي تدور مرة ومرتين وطول الوقت تسمع أصوات الأطفال من بعيد وهم يلعبون. صاحب الأراضي والعمدة يتحدثان عن المدرسة الجديدة التي يبنيها شريف باشا وخاله الغمراوي بك في القرية. لن يتوقف الأطفال عن الذهاب إلى الكتاب طبعا، لا مدعاة لقلق الشيخ، لكن في المدرسة الجديدة سيتعلمون الحساب ويجمعون ويطرحون، وسيتعلمون الجغرافيا وتاريخ بلادهم. عليهم إقناع الفلاحين بالاستغناء عن عمل أطفالهم في الحقول (صبيان وبنات يكررها شريف باشا) لمدة ساعتين كل يوم حتى يتعلموا، لا ليصبحوا أفندية، بل ليصبحوا مواطنين متعلمين قادرين على رعاية مصالحهم. «عندك حق ياباشا» يتنهد العمدة: «فلا أحد يعرف ما تأتي به الأيام».

ـ كل خير إن شاء الله يا عمدة، لكن علينا أن نعمل ما نستطيع.

ـ كل يوم يحدث شيء جديد، أول شيء كانت الخمارات، وضعنا أيدينا على قلوبنا وقلنا ربنا يحفظنا، لكن الناس كانوا عقلاء ولم يذهب إليها على أي حال إلا مجموعة من الفاسدين، والآن هبط علينا المرابون، لا يكفيهم فتحهم محلات في المدينة بل يحاولون النزول للقري واصطياد الزبائن.

ـ سبق أن تحدثنا في هذا الموضوع وقلت أنت إن أهل البلد هنا مرتاحون.

ـ مرتاحون نعم يا باشا، لكن الرجل منهم قد يكون مضطرا، يريد أن يجهز بنته أو عنده ظروف مفاجئة،هؤلاء الروم يفرضون فائدة كبيرة على نقودهم.

ـ قل للرجال يأتون إليّ، يقابلون حسيب أفندي وكيلي وسأعطيه تعليماتي. سنقدم السلف عند الضرورة بفائدة واحد في المائة وضمان المحصول.

ـ الله ينوّر عليك ياشا ـ البلد ستفرح.

ـ قل لهم.

ـ سأخبرهم عند صلاة الجمعة. هل ستصلي سعادتك معنا؟

ـ إذا كنت مازلت هنا.

عليهم أن يؤسسوا جمعية تعاونية؛ يدير شريف باشا الموضوع في رأسه. لو ادخر كل واحد مبلغا بعد بيع المحصول، يمكنهم أن يسحبوا منه عند الحاجة. هناك قري بدأت فيها جمعيات، يمكن أن يشرف عليها حسيب أفندي. يودعون عنده المبالغ؛ سيحدثه في الأمر ويعده بزيادة في راتبه لقاء زيادة العمل؛ يسير شريف باشا من القرية إلى بيته، يتبادل التحية مع من يقابل من الرجال في الطريق. الحياة في الأرض بسيطة. ترعة الإبراهيمية توفر لهم الماء على مدار السنة، وقد أقنع الفلاحين ألا يحولوا كل أرضهم إلى زراعة القطن مرة واحدة كما أراد لهم كرومر فيقعوا تحت رحمة سوق لا يملكون

التحكم فيها. يزرعون قطنا نعم، لكن يستمرون في زراعة ما اعتادوا زراعته من فول ولوبيا وقمح وشعير. والبطيخ. بطيخهم يُفرح؛ كل بطيخة راقدة كالملكة في فرشة من الأزهار الصفراء. أسوأ ما يمكن أن يصيبهم ظهور ضابط بريطاني أحمق يطارد ثعلبا، فالمشاكل هنا على أرضه مشاكل لا يستعصي عليه حلها.

يغتسل ويغير ملابسه ويركب حصانه إلى بيت خاله مصطفى بك الغمراوي ليتناول العشاء. هنا يمكن للإنسان أن ينسي القاهرة وينسي وجود الاحتلال، لكنه لا يستطيع أن يبقى هنا، فهو يحب الأرض لكنه يحب المدينة كذلك: أنوارها وضوضاءها والسرعة فيها والحركة والأحداث؛ فالحياة في الريف أشبه عنده بالتقاعد، بالتسليم. يلمح شريف باشا فارسا يعدو نحوه قادما من ناحية بيت خاله، وعندما يقترب ترن التحية في أذنه في صوت مألوف: يا مساء الخيرات.

شكري العسلي ابن أخي زوجة خاله وصديق طفولته. يقفز الرجلان إلى الأرض ويتعانقان. في الماضي في الستينيات والسبعينيات؛ كانت الأسرتان كثيرا ما تتبادلان الزيارة لأسابيع طويلة، وكان أطفال الأسرتين يقضون شهور الشتاء في العزبة هنا في طواسي وشهور الصيف هناك في عين المنسي بين الناصرة وجنين.

ومازال الصديقان يتراسلان، وعندما يلتقيان من وقت لآخر يتضح أن المحبة مازالت قوية في القلب.

يسأل شريف باشا: متى وصلت؟

ـ الآن، منذ ساعة وأخبروني أنك هنا وأنهم يتوقعونك على العشاء؟ يحسن أن نذهب فهم جميعا في انتظارك.

ـ كيف الأحوال عندكم؟

سؤال من شريف باشا وهما يعودان للركوب ويمضيان في خطو يسير.

ـ بخير، كل شيء بخير فيما عدا المشاكل المعتادة ـ يجب أن تحضر لزيارتنا، لك مدة طويلة لم تأت.

ـ إنها نفس المشاكل في كل مكان.

بشرة شكري بك العسلي أفتح لونا من بشرة قريبه المصري، وشعره البني أفتح درجة وأطول قليلا من شعر شريف باشا، لكنه مثل شريف باشا ومصطفي بك يتسم بالثقة والفتوة، ربما تكون ناتجة من اطمئنانهم منذ الطفولة للحب الذي تمنحه لهم النساء من أهلهم. بعد سنوات ـ في ١٩١٥ ـ سوف يحكم الأتراك على شكري العسلي بالإعدام شنقًا لدوره في الثورة العربية. أما اليوم، في إبريل ١٩٠١ فهو يجلس إلى الغداء في بيت عمته في طواسي ويقول: الأتراك ضعفاء ولا يقدرون على حمايتنا من أوروبا، لكنهم يحكموننا، وغير مسموح لنا أن نحمي أنفسنا إلا من خلالهم. عجزوا هنا عن حماية مصر من بريطانيا، وعندنا لا يقدرون على حمايتنا من الصهاينة.

يقول مصطفى بك وهو يتناول طبقه من جليلة هانم زوجته:

ـ لكن عبد الحميد مازال يقاومهم.

ـ إلى الآن، لكنهم يغرون رجال البلاط بالمال. مبالغ ضخمة. يريدون أن يقلدوا سيسيل رودس. فعندما حصل على مرسوم للاستيطان في الزامبيزي، طلبوا من القيصر الألماني أن يمنحهم مرسوما باستيطان فلسطين ـ يمد شكري بك يده ويرفع إبريق الماء. يصب منه في كوب عمته الجالسة إلى جواره ثم يملأ كوبه. تسأل جليلة هانم:

ـ وماذا عن الناس؟ السكان الذين يعيشون على الأرض؟ ماذا يحدث لهم؟

ـ بالضبط. ينظر شكري بك إلى عمته: أخبروهم عن السكان. إبراهام شلومو بك سافر إلى المؤتمر الذي عقدوه، وأخبرهم ـ إذا كان الأمر قد فاتهم ـ أن ٦٥٠ ألف عربي من المسلمين والمسيحيين واليهود يعيشون على الأرض التي يزمعون استيطانها، فأرسلوا لجنة شكلت خصيصا لتستطلع الأمر، وعادت اللجنة وأكدت كلام شلومو، فوضعوا التقرير في درج ونسوه.

يسأل شريف باشا: لكن لديكم إجراءات تنفذ عند حضورهم؟ أليس كذلك؟ يمكنهم النزول للحج فقط ولمدة ٣ أشهر ويسلمون جوازات سفرهم... إلخ.

ـ الإجراءات سارية منذ عشرين سنة لكنهم يحتالون عليها، والمحافظ الذي يطبقها ـ مثل توفيق بك ـ لا يبقى طويلا في مركزه. والدول العظمي والولايات المتحدة ترسل سفراءها بانتظام ليحتجوا على ما يسمونه بعمليات التمييز ضدهم.

ـ لكن المستوطنين ليسوا من جنسيات الدول العظمي ولا الولايات المتحدة.

ـ لا، إنهم يأتون من روسيا ومن رومانيا وبعضهم من ألمانيا.

ـ إذن ما مصلحة الولايات المتحدة؟

يهز شكري بك كتفيه: أنا مثلك لا أعرف. لعلها ضغوط من أشخاص ذوي نفوذ. ربما كراهية تركيا.

يرد شريف باشا: يجب أن نتخلص من حكم الأتراك لمصلحتنا جميعا؛ لقد انتهي دورهم.

تنظر زينب هانم إلى ابنها في قلق فيبتسم لها شقيقها: لا تقلقي يا أختي فليس لعبد الحميد جواسيس بيننا.

يقول شكري بك: سأحدث بعض الناس في القاهرة والإسكندرية وأقابل رفيق بك العظم وغيره ممن لهم أقرباء في فلسطين. أثير الرأي العام كلما أمكن وأخاطب الصحافة.

مصطفى بك: نشر الأهرام عددا من الرسائل تفيد أن المستوطنين يحرثون أراضي الرعي العامة ويستولون على الماشية التي يجدونها هناك.

يقول شكري بك: إنهم يحتالون بكل الطرق، وكلها تهدف إلى الاستيلاء على الأرض وتطفيش الفلاحين؛ ربما أحاول مقابلة كرومر؛ أعرف أنك تكرهه، لكن بريطانيا هي أقوى الدول العظمي ولو حصلنا على تأييدها لانتهي الأمر.

تصيح زينب هانم قبل أن يتمكن ابنها من الكلام: كفي! كفاكم

حديثًا في السياسة، حياتنا كلها سياسة. احك لي عن الأهل وعن أولادك ربنا يحفظهم لك ولأمهم، كيف حالهم جميعا؟

القاهرة، ١٢ إبريل ١٩٠١

يضع شريف باشا أوراقه جانبا ويسأل ميرغني: هل أذن لصلاة العشاء؟

وعندما يرد الرجل بنعم يطلب منه أن يعد الجياد والعربة فسيخرج بعد الصلاة.

تسير العربة في درب الجماميز ثم تخرج إلى ساحة ميدان عابدين. نظرة سريعة إلى القصر، لكن أفندينا لا بد قد عاد إلى قصره في القبة الآن. يقاوم دافعا يغريه أن يحيد إلى شارع عابدين الذي يؤدي بعد قليل إلى فندق شبرد، بدلا من ذلك يتجه مباشرة إلى شارع البستان.

نادي محمد على يتلألأ بالأضواء. يتقدم البواب ليحييه: طالت غيبتك عنا يا باشا.

ـ كنت على سفر. من هنا الليلة؟

ـ الجميع ياباشا. مصطفى فهمي باشا وبطرس باشا وحسين باشا رشدي وملتون بك والبرنس جميل طوسون في قاعة الطعام. الأمير أحمد فؤاد والأمير يوسف كمال في حجرة البلياردو. ثم وهو يخفض صوته: مستر بويل حضر منذ عشر دقائق.

يلقي شريف باشا نظرة سريعة في حجرة الجلوس الرئيسية

ويحيي مصطفى فهمي وبطرس غالي وحسين رشدي لكنه لا يجلس معهم. يلاحظ مستر بويل جالسا في مقعد قريب يقرأ صحيفة، وقد اعتاد بويل أن يحضر إلى النادي لمدة نصف ساعة كل بضعة أيام.

في حجرة البلياردو كان الأمير أحمد فؤاد يكسب لكن هذا لا يغير من عبوسه. منذ عامين كان في نفس هذه الحجرة عندما أطلق عليه الأمير أحمد سيف الدين الرصاص، ولولا وجود ملتون بك لكان في عداد الأموات. لم يتماثل للشفاء إلا بعد علاج طويل، ولم يحسن ذلك من عبوسه المعتاد. يوسف كمال عكسه على خط مستقيم: سريع البديهة عصبي المزاج قلق باستمرار لكنه رجل ذو رؤية وحماس.

يشعل شريف باشا سيجارة ويستقر في مجلسه ينتظر. يريد أن يتحدث مع الأمير يوسف كمال عن المشروع الجديد لمدرسة الفنون. العمل في المتحف يسير تقريبا حسب الخطة. مشروع الجامعة يسير ببطء ـ أساسا بسبب معارضة كرومر. ومشروع مدرسة الفنون مازال في البداية. على أي حال جميعها مشروعات قيمة تستحق المجهود لكنها تأخذ وقتا. فتوفير المال ليس سهلا، كله من جيوبهم الخاصة، ولن يحصلوا على قرش واحد من أموال الدولة مادام كرومر في السلطة. «الميزانية لا تسمح»، هذا ما يكرره المندوب البريطاني مرات ومرات، لكن الميزانية سمحت بأكثر من مليون ونصف مليون جنيه من أموال مصر للإنفاق على حملة السودان، بالإضافة إلى ربع مليون كل عام لتغطية العجز في السودان، وماذا أفادت مصر من هذه الأموال؟ الميزانية تسمح بتعيين موظفين بريطانيين في مصر بثلاثة أضعاف المرتب الذي يتقاضاه المصري المعادل في نفس الوظيفة،

لكنها لا تسمح بقرش زيادة ينفق في مشروع يتعلق بالثقافة أو التعليم. تعليم مهني يمكن أن يوافق عليه كرومر، مدارس لتخريج كتبة وموظفين. عقول من بريطانيا وأيد عاملة من مصر. هذه هي وصفة كرومر للبلاد. يهب شريف باشا واقفا، يطفئ سيجارته ويسير إلى النافذة. هناك يقوم قصر الدوبارة حيث يجلس اللورد في هذه اللحظة يخطط لمصر. تلوح ابتسامة على طرف شفتيه وهو يتخيل ما قد يقوله صديقه يعقوب أرتين لو أنه سمع ما يدور بذهنه: «يا راجل! الغالب أنه الآن يتناول العشاء، حتى كرومر لا بد أن يتوقف عن التخطيط والتآمر في بعض الأحيان، لو تقصيت لوجدت أن عنده الآن ضيوف؛ وهم لا يفكرون في مصر بالمرة بل يتحدثون عن آخر الأخبار من لندن». آنا! ربما هي هناك الآن، جالسة إلى المائدة؛ ترتدي ملابسها هي، وتتحدث لغتها هي، ترفع عينيها إلى وجه ضابط شاب ـ يدس شريف باشا يده في جيبه يبحث عن مسبحته. يقف بجوار النافذة ويداه مطبقتان خلف ظهره، وحبات المسبحة تدور وتدور بين أصابع يده اليمني. كيف سمح لنفسه أن يتخيل أن التفاهم بينهما ممكن؟ مستحيل. على أي حال لا بد أنها نسيته بعد هذه الأيام. أو إذا لم تكن قد نسيته فربما تراجع إلى الجزء الغرائبي البعيد من رحلتها في مصر. نوع محسَّن من الأهالي سافرت وتجولت معه في الصحراء وتحدثت معه ذات ليلة في حديقة في ضوء القمر، واليوم عادت إلى حيث تنتمي: إلى النادي في الجزيرة وإلي سباق الحمير وألعاب التسلية، وحفلات الرقص التنكرية وموائد العشاء في دار المندوب مع قومها. هناك رجال في مصر أصغر منه سنًا مستعدون لإطلاق النار على كرومر ويقبلون حكم الإعدام واثقين أنهم دفعوا حياتهم

في سبيل هدف غال، ولكن ما الفائدة؟ ثكنات قصر النيل رابضة هناك على مبعدة خمس دقائق مشيا. لن يخرج الإنجليز. لن يذهبوا بمحض إرادتهم، لن تخرجهم إلا قوة السلاح أو المصلحة وهم يعرفون ذلك. من هنا تسريح القوة الممتازة في الجيش وتشتيته، وكل كتيبة على رأسها ضابط بريطاني، وفي نفس الوقت يتكلف جيش الاحتلال البريطاني مليونا من الجنيهات في السنة، مليونا من الجنيهات كان يمكن أن تنفق في تسديد ديون مصر وتخليصها من تحكم الأجانب. والناس لن يقاتلوا. لا يستطيعون. نعم، كبح جماح المتهورين وتحدث عن وجوب العمل بالقانون. نعم، في هذه النقطة اتفق مع كرومر. كرومر كذلك يريد إلغاء الامتيازات الأجنبية التي تخول لكل أجنبي أن يحاكم أمام قنصل بلاده وليس أمام المحاكم المصرية؛ لكن كرومر أظهر سوء نيته بإصدار القوانين الخاصة ليعامل بها أهل البلد الذين يتصدون لأي فرد من الإنجليز. أصدر هذه القوانين بعد قضية جلجل التي مثل فيها هو شريف باشا الدفاع. إنهاء الامتيازات سيعني إطلاق كرومر تماما في مصر. عليهم أن يتمسكوا بها بالرغم من أنها تضع كل أجنبي فوق القانون. لابد من تحصين الروح أمام ألف إهانه وإهانة يعانيها الإنسان لأن الأجانب يحكمونه، وأثناء كل هذا يضيع وقت ثمين: الأجيال التي كان المفروض أن تتعلم والصناعات التي لم تنشأ والقوانين التي لم تصلح والأدهي من ذلك صعود أولئك الذين يتملقون الإنجليز. كيف تخلعهم من أماكنهم عندما يخرج المحتل؟ بث الفتنة بين المسلمين والأقباط ـ يشعر بيد على كتفه فيلتفت:

الأمير يوسف كمال رجل نحيل ذو وجه حساس يشع ذكاء، وهو

مغرم بالفن وينوي أن يمول مدرسة الفنون من جيبه الخاص إذا لم يجدوا مصدرا آخر للتمويل. كثيرا ما يتساءل: أين ذهب إبداعنا؟ انظر إلى التماثيل والمعابد التي شيدها أجدادنا. انظر إلى مساجد الفاطميين وإلي تجليد الكتب والزجاج البديع من عصر المماليك، واليوم؟ العثمانيون مسئولون قطعا عن الكثير، لكن في هذه اللحظة يبدو أن معارضة جديدة تتجمع وتقوي:

ـ هل تتصور أنهم يتهمونني بتشجيع الكفر؟ يقولها الأمير في أسى.

ـ كفر ياسمو الأمير؟

ـ الرسم! النحت! تفضل ـ

يخرج مظروفا من جيبه ويأخذ منه خطابا يفرده: اقرأ هذا.

يقرأ شريف باشا:

«ولا يداخل قلوبنا شك في طبيعة ما تهدفون إليه من أعمال جليلة وفي نبل مقاصدكم، لكن من واجبنا أن نذكركم ـ مع كل التوقير الذي ندين به لكم ـ بما ينهى عنه الدين من أنشطة تزمعون بدأها، والنهي واضح صريح في حديث صحيح للرسول صلي الله عليه وسلم: «إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون».

وعليه فنحن نطلب إليكم أن تعيدوا النظر.. وما ينفق من أموال خير أن يصرف في تقوية إيماننا وعقيدتنا التي تقوّض كل يوم نتيجة لوجود المحتل الكافر في أرضنا الطاهرة»

يعيد شريف باشا الخطاب إلى الأمير:

ـ لا أظن سموك تنزعج.

ـ لا بد أن آخذ الأمر مأخذ الجد فمن الممكن أن يحرضوا الناس ياباشا. أقل ما يقولون إنني متواطئ مع الإنجليز لإدخال فنون المعصية من أوروبا إلى بلادنا، ولتدريب شبابنا عليها.

يدخل هاري بويل الحجرة في خطي بطيئة فيضع شريف باشا يده على ذراع صديقه ويقول: دعنا نذهب لنتناول العشاء.

في قاعة الطعام يتوقفان لتحية ملتون بك والأمير جميل طوسون، ثم يجلسان إلى مائدة في الركن ويطلبان حمامًا مشويًّا وسلاطة، وشفشق من الليمون يضعه النادل على قاعدة من الفضة بينهما..

يسأل شريف باشا: ماذا تنوي أن تفعل؟

ـ لا أعرف. قل لي رأيك.

ـ رتب مناظرة عامة. يمكنك أن تمسح بهم الأرض.

ـ ما الفائدة؟

ـ اتهمهم بالتآمر مع الإنجليز على تأخرنا! يضحك شريف باشا من الفكرة لكن الأمير منزعج:

ـ هؤلاء الناس لا يمكن إقناعهم بالمنطق، عليك أن تحدثهم بلغتهم.

يدخل الجرسونات بالطعام. يرش الأمير يوسف زيت الزيتون والخل على السلطة. يقول شريف باشا وهو يأخذ الشوكة:

ـ إذا تحدثت بلغتهم فهذا يعني أنك قبلت أن تحارب على

أرضهم. يجب أن يكون موقفنا أن العقيدة شيء والمؤسسات المدنية شيء آخر.

يرد الأمير محتجا: لن يقبلوا هذا أبدا.

- لكننا سنواجه هذه المشكلة بالنسبة للجامعة، وتعليم النساء، وتأسيس البنوك، في كل شيء، هذا الموضوع يجب أن يحسم مرة واحدة الآن وينتهي الأمر. إلى أي مدى يسمح لهؤلاء الناس بتعويق نمو البلاد في النواحي العملية؟ ولاحظ أن تدخلهم دائما في اتجاه سلبي. كل شيء عندهم حرام!

- يا شريف باشا هذه مناقشة لا يمكننا الدخول فيها هذه الأيام، في ظل الاحتلال الإنجليزي. لن يقول الناس عنا: هؤلاء الرجال وطنيون يختلفون عنا في الرأي. سيقولون: هؤلاء الرجال مأجورون من الإنجليز. وسيزيدون من تآمرهم مع الباب العالي ليلصقونا أكثر بتركيا. يجب في الوقت الحالي تركيز أبصارنا على هدفنا، هدفنا المحدود: مدرسة الفنون.

يرد شريف باشا بنفاد صبر: سأتحدث إذن مع الشيخ محمد عبده، يرفع الفوطة من على ركبته ويتركها على المائدة بجوار طبقه: إنه يؤيد مشروع المدرسة، ويمكن أن يزودنا بحجج تساندها، حجج تقنعهم: فتوي.

- لو أعلن تأييده - يرد يوسف كمال في أمل - يمكن أن ينهى الموضوع، فهو المفتي وأعلي سلطة في شئون الدين.

- سأحدثه في الأمر، ويضيف شريف باشا بعد لحظة: بمجرد عودته من إستامبول، فإذا وافق وكان مستعدا لإعلان رأيه، ترد أنت

على هذا الخطاب وتتطلب من الذين كتبوه أن يسألوا المفتي. وقل لهم إنك ستلتزم بقراره. يدفع كرسيه إلى الخلف: على أن هذه ليست إلا حلولا وقتية.

كل مشكلة تحتاج للحسم لا يمكن حسمها الآن، هناك دائما سبب لتجنب المواجهة. يأمر شريف باشا الحوذي أن يسير ببطء على كوبري إسماعيل ثم يعود أدراجه قبل العودة إلى البيت. يريد أن يرى النيل، كان يود لو يعود إلى بيته مشيا على الأقدام، في خطوة سريعة في الهواء اللاذع، لكن المشي في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل يعني البحث عن المتاعب، فمن المؤكد أنه سيصادف جنودا إنجليز؛ وإذا تعرضوا له بأي شكل من الأشكال لا يضمن أن يتحكم في غضب. يضطجع إلى الخلف في عربته مع حركة الجوادين يدوران للعودة عبر الجسر، يرى عن يمينه بناء قصر الدوبارة المنخفض وأنواره، حتى لو كانت تناولت العشاء هناك لا بد أنها عادت الآن إلى حجرتها في فندق شبرد. في حدسه أنها ليست سعيدة، يتخيلها تدخل حجرتها مرتدية ملابس أوروبية، تتوقف أمام مرآة وترفع ذراعيها لتخلع الدبابيس من قبعتها. يرى شريف باشا صورته في المرآة خلفها يكاد يلتصق بها حتى ليشعر بدفء جسمها ويشم العطر الذي يفوح من شعرها وقد تحرر من الدبابيس والقبعة...

لقد أهمل شريف باشا قلبه طويلا حتى لاذ بالصمت، واليوم نطق. يتربص به ثم يختار لحظة المفاجأة حين يدخل بيته والخدم جميعا نيام. يدخل المكتبة فيري آنا تسدل الستار ثم تلتفت إليه

وتبتسم، تحدثه بالفرنسية: «تأخرت وبدأت أقلق». يقطب: ذهب خياله بعيدا ورفع الكلفة بينهما! يتفقد مكتبه ليري إن كانت هناك رسائل وصلت أثناء غيابه. يجد نسخة من المؤيد ومعها رسالة من الشيخ على يوسف، وبطاقة دعوة لحضور افتتاح مدرسة مصطفى كامل الجديدة في بريم يوم ١٥، يطفئ المصباح ويغادر الغرفة ثم يصعد السلم.

مصطفى كامل وطني، أكيد، يؤلب الناس ضد الاحتلال ويؤسس مدارس. لماذا إذن لا يرتاح له شريف باشا؟ وهو يجفف وجهه يقطب أمام مرآة الحمام. هل يغار منه؟ لأن مصطفى كامل شاب ومليء بالحماس وخطيب بارع؟ لا! إنه يستشف شيئا عن هذا الرجل الذي يصغره سنًا، شيئا يكبر ويتضح، شيئا من الزهو وحب النفس، وهو قريب من السلطان أكثر مما ينبغي، ولا يرغب في وضع نهاية للحكم التركي في مصر، وهو يولي الفرنسيين ثقة أكبر كذلك مما ينبغي، يظن أنهم سيقفون إلى جانب مصر لأنهم أعداء بريطانيا التقليديون. لم يعش أيام البيان المشترك والإنذارات المتتالية. يذهب إلى باريس فيحتفلون به ويدللونه، ويسمونه «كاراميل باشا» وراء ظهره، وهو يصدق كل ما تقوله له مدام جوليت آدم، لكن العداوة التقليدية لا تكفي، بريطانيا وفرنسا دولتان من أوروبا على أي حال وعاجلا أو آجلا ستتفقان على صفقة. ستتوحد سياستهما كما حدث في الحروب الصليبية وفي أيام صندوق الدين. وفي الإنذار المشترك.

والتحالف بين بريطانيا وفرنسا طبيعي على أي حال، أكثر منه

بين مصر وفرنسا. لكن على الأقل مصطفى كامل يصدر جريدة وماذا فعل هو شريف البارودي؟ اليوم وقد بلغ الخامسة والأربعين ماذا أنجز في حياته؟

في حجرة نومه يشعل سيجارة ويزيح الستائر ليخرج إلى الشرفة. القمر في تربيعه الأخير، بعد ليال قليلة عندما تنظر في السماء لن تري إلا المحاق، ظلام كامل، أما الآن فيمكن لشريف باشا إذا أمعن النظر أن يتبين شكل القمر كاملا؛ فالقلامة المضيئة تنير الكتلة المظلمة. لو أن أمه كانت الآن هنا ربما أفضي لها بما في نفسه. يأخذ رأيها. يعرف أنها قابلتها وأن ليلي أخبرتها القصة كلها. فجأة يسمع حفيفا من شجرة الجميز القريبة من البيت فيتساءل: هل قلَّم البستاني الثمار؟ جرح رقيق يمكن الثمرة من التنفس والنمو، سيذكره غدا. لعل الأفضل أن يحدث أمه في الموضوع، فهي تعرفه جيدا وتستطيع أن تحكم.

في القطار وهما عائدان من المنيا، لاذ أغلب الوقت بالصمت، كان يشعر كعادته بالأسي لها، بالذات عندما يعيدها إلى البيت بعد قضائها فترة في الريف. النشاط والحركة في بيت أخيها، أحفاده يروحون ويجيئون، وفي هذه المرة زيارة شكري. لقد أنعم الله على شكري بقبول جذاب، ينير الحجرة التي يدخلها وينبسط مرتاحا مع أي شخص جديد يلقاه، وقد وعده شريف باشا أن يقدمه إلى الشيخ محمد عبده وإلي أصحاب الصحف الرئيسية وأي شخص يريد أن يقابله، ما عدا كرومر، فعليه أن يرتب لهذا اللقاء بنفسه ويحصل منه على ما يمكن من مساعدة. لم يعلق على رغبة شكري في لقاء كرومر. والدته توقعت أن يعلق بالسوء

فأسرعت بتغيير الموضوع. قال لها وهو يتمشي معها في الحديقة بعد ذلك: لا اعتراض لي على رغبة شكري في لقاء كرومر، لعله يحصل منه على مساعدة.

نظرت إليه بقلق: لا أحب لك أن تغضب من قريبك فليس لنا إلا بعض.

لماذا تقلقين هكذا؟ من الذي غضبت منه؟

ـ أبوك.

ـ أبي ليس موجودا حتى أغضب منه.

أن تجد نفسها حبيسة في بيت مع زوج تحول إلى مجذوب. يلقي شريف باشا بعقب السيجارة على الأرض ويدوسه بنعل خفه. عندما اختبأ أبوه في الضريح ظنوا أن الأمر سيطول لأسابيع قليلة، شهرا أو اثنين على الأكثر ثم يخرج، ومضت الشهور وحكم بالنفي على محمود سامي وعرابي وستة غيرهم، وأعدم سليمان باشا سامي شنقا، وتشبث أبوه بمقامه في الضريح، ولعله خجل من نفسه لهروبه أصلا وإن لم يصرح بذلك أبدا. قالوا له ليس في اختفائه عار أو مدعاة للخجل فعبد الله النديم عاش متخفيا سنوات ولم يكن جبانا، لكنه كان يرفض حتى الحديث في الموضوع، ورده دائما: عندما يأذن الله.

وبعد سنوات أصدر الخديو توفيق أمره له، لشريف، بالمثول في حضرته، وقال له في حضور رياض وماليت: «لدينا علم بأمر والدك. بلّغه أنه يستطيع الخروج من مخبئه، وطالما حفظ لسانه لن يصيبه ضرر. أما أنت فشبابك يشفع لك والمثال السيئ الذي قدمه

لك عمك، لكن عيوننا عليك فخذ حذرك». وكل ما فعله أنه شد قامته وقال: يشرفني أن محمود سامي باشا عمي، ويسعدني أن أتبعه إلى منفاه. هذا خير من العيش في بلادي تحت حكم أجنبي. ولم يزد الخديو على إنهاء المقابلة بإشارة من يده وهو يكرر: «ستظل عيوننا عليك».

واليوم، بعد وفاة توفيق، وبعد مرور قرابة عشرين عاما، مازال ذكر تلك المقابلة يؤلمه. قص على أمه هذا المشهد ودموع الغضب والخجل تلسع عينيه فقالت: «ما داموا يعرفون أين يختبئ لا ضرر إذن من عودتنا إلى البيت القديم». لكنه رفض الذهاب وكم تمنى وقتها لو لم يكن ابن ذلك الرجل. وذهبت هي في اليوم التالي وأخذت ليلي معها، وتركته مع تلك الشابة المسكينة زوجته التي كانت تزور أمها كل يوم ثم تعود لتجلس في البيت في صمت وآثار البكاء واضحة على وجهها، تهب في فزع كلما دخل حجرة، حتى أصبح لا يقترب منها بالمرة. أطلق سراحها وكانت سعيدة بالطلاق، فماذا دهاه اليوم حتى يفكر في بداية جديدة بعد أن ولت خير سنوات عمره؟ آه، لكن لو كانت آنا في تلك الظروف لما تصرفت بتلك الطريقة. لو كانت آنا زوجته في ذلك الوقت، يراهن أنها كانت ستبقي إلى جواره، وكانت تتمسك بذلك أكثر لأن بلدها هو الذي... لو افترضنا أنه كان متزوجا من امرأة سودانية مثلا، وحدث أن كتيبة من جنود مصريين هاجموا قريتها وأحرقوها. ألن يدفعه ذلك أن يدنيها أكثر من قلبه؟

يذرع شريف باشا الشرفة من أولها إلى آخرها ثم يعود. لماذا قدر له أن تكون المرأة التي تعود به إلى التفكير في الحب إنجليزية؟

تسترق خطوها نحوه في لحظة غفلة، ترفع بصرها ووجهها الصادق على وشك أن يفتر عن ابتسامة وهي تجلس قبالته على مائدة الإفطار. ماذا يكون شعوره عندما يتركها وهو يعلم أنه سيجدها في بيته، سعيدة عند عودته؟ ماذا يكون شعوره لو أنها تقف بجانبه الآن ينظران معا إلى الحديقة المظلمة في الخارج ويحدثها عن يوسف كمال ومدرسة الفنون؟ لا بد أنها تتبنى المشروع بكل حماس وهي التي حضرت إلى مصر بسبب لوحة مصورة. وكيف يشرح لها أحداث اليوم؟ يحدثها عن الخطاب؟ كيف يشرح لها أننا في حاجة إلى فتوى من علماء الدين لفتح مدرسة فنون جميلة وكأننا في العصور الوسطى؟ هل يثق أنها ستفهم؟

يتحسس شريف باشا جيبه ويعود إلى حجرة النوم ليحضر سجائره. يتوقف أمام السرير الضخم المزين بالحفر والنقوش والستائر المسدلة، فراشه الذي لم يشاركه فيه أحد طوال عشرين سنه. لقد رتب أموره في الخارج، لكن هنا في بيته، أن يحبها وقلبه خال تماما من أي شعور بالإثم، أن يرقب عينيها تغيمان بالرغبة، أن يأمل في مولود منها، أن يحنو عليها ويعاملها برقة وبطنها يكبر بالحمل. يبتعد عن الفراش. هل الأمر مجرد شهوة؟ لو أنه قابلها في فرنسا أو إيطاليا هل كانت تنشأ بينهما علاقة غرام تأخذ مجراها وينتهي الأمر؟ لا يظن. أرأيت كيف كانت تتحدث في جدية وعمق عن زوجها المتوفي؟ ذلك الزوج الأحمق، كان يملك في يديه كل ما يتمناه الإنسان: كانت ملك يمينه وكان يعيش حياة حرة كريمة في بلد حر منيع، يحكمه برلمان منتخب، يركب في شوارع تشرف عليها شرطة من أهل بلده، بإمكانه أن يفعل ما يريد فأراد أن يخرج

للحرب في أفريقيا ليحتل كتشنر السودان ويزرع هناك القطن ليجني أصحاب المصانع في مانشستر ما يزيد ثرواتهم أضعافا. هل سأل نفسه يوما لماذا تفتح بريطانيا السودان؟ هل سأل نفسه عما يحل بأبيه المسن؟ وزوجته الشابة؟ وحتي لا نظلمه، ربما لم يدخل في خطته أن تقتله التجربة ـ ظن أنه سيذهب ليشارك في أحداث خطيرة ويلقن أولئك البرابرة درسا ويعود بطلا يروي مغامراته لأعضاء ناديه في لندن، على أي حال هو شريف البارودي يجب أن يكون سعيدًا لوفاة كابتن ونتربورن. هل ستزعجه فكرة أنها كانت متزوجة من رجل آخر؟ سيمسحه من ذاكرتها مسحا. يزيل أثره من جسدها وعقلها. كلا، لن تزعجه الفكرة، لن يدعها تزعجه. ماذا بقي له من العمر؟ عشر سنوات وربما خمس عشرة؛ ما يكفي لأن يعيش حياة يرضى عنها إذا ركز على المهم فيها ببساطة وبلا تعقيد.

لكن كيف تتاح له البساطة؟ زوجة إنجليزية! يدير ظهره فجأة للحديقة. لن يزوره النوم في ليلته هذه.

٢٠ إبريل ١٩٠١

«وماذا لو كنت تخترعها لنفسك؟ ما المشكلة؟ إننا جميعا يخترع بعضنا بعضا إلى حد ما». ينحني يعقوب أرتين باشا ويقدم له سيجارا. جسمه البدين المكتنز ملفوف في روب منزلي من الحرير منقوش بالبني والأحمر والأخضر، وحول عنقه كرافات من حرير أخضر داكن وفي أسفل بنطاله الأسود تبرز بلغة مغربية من الشمواه الأخضر. يختار شريف باشا سيجارا ويضطجع في مقعده يدير السيجار بين أصابعه قبل أن يمد يده إلى السكين الصغير.

ـ شاعرنا هذا خير من يحدثك في هذه الأمور، يشير يعقوب أرتين بيده نحو إسماعيل صبري، فالأصدقاء الثلاثة جالسون في كراسي وثيرة في غرفة المكتبة في قصر يعقوب أرتين، وبينهم منضدة منخفضة سطحها من الرخام، وعليها أطباق من الطماطم،والخيار والزيتون والجبن والخبز واللحم البارد، وأبواب الشرفة مفتوحة على الحديقة: «عندي ويسكي معتق» يقوم يعقوب أرتين من مقعده ويتجه إلى بوفيه في الركن البعيد من الحجرة: «وحيث ان صديقنا لا يشرب الخمر سيزيد نصيبنا نحن الاثنين» يصب من الزجاجة في الكأسين «جريمة والله أن نخلطه بالماء، لكن تفضل».

يحمل كأسا إلى صديقه: «فلنشرب نخب سعادتك في شروقها». يشرب إسماعيل صبري نخب صديقه في كأس من الليمون ويقول: «الأطفال ضرورة. كلنا نحتاج إليهم».

ـ كان واضحا لي أنها تخترع لي شخصية: تضيف لها الملامح ونحن نتقدم في الرحلة ـ يشعل شريف باشا السيجار ويسحب نفسا عميقا عدة مرات.

ـ آه! بطل من أبطال الرومانس، قرصان بيرون، ولم لا ياصديقي؟ إن لك جاذبيته.

الصحراء والنجوم ودير عتيق يضم بين أسواره مسجدا يلوذ به، تلك كانت الخلفية التي يتحرك أمامها البطل، بالإضافة إلى البيت القديم وكأنه خارج من اللوحات التي أتت بها إلى مصر في المقام الأول.وماذا يكون رأيها فيما ينتابه من شكوك ويأس؟ في كرهه لنفسه أحيانا لأنه يُدبّر لنفسه حياة في ظل حكم لا يد له في

اختياره؟ حياة مسالمة يحكمها سيد غريب. هل بمقدوره يوما أن يعرفها حقا؟ أم يُقدّر لهما أن يتمسك كل منهما بما تخيّله عن الآخر فتضحي حياتهما معا أشد وحشة من العيش بانفراد؟

ـ إننا نتحدث معا بالفرنسية، فلا هي تتحدث لغتي ولا أنا أتحدث لغتها.

يرد إسماعيل صبري في تأمل: ربما هذا أحسن! تبذل مجهودا لتتأكد أنك تفهمها وأنها تفهمك. في بعض الأحيان أرى أننا نفترض أننا نعني نفس الشيء لمجرد أننا نستخدم نفس الألفاظ.

يصيح يعقوب أرتين: آه! هاك كلام الشاعر! رأيت؟ صحيح! صحيح فعلا! ويرفع كأسه.

شريف باشا: كنت أنوي أن أسألك، أما حان الوقت لأن تصدر طبعة مجمعة لشعرك فلا تضطرنا لأن نحفظ قصاصات القصائد في ملف؟

يعقوب أرتين: إنه يرفض! لا يريد التعب.

ـ لو طبعته أشتري منك خمسين نسخة للمدرسة في طواسي.

ـ أظنه يخشى أن يدرك الناس ما يفعله في الشعر فيها جمونه.

يضحك إسماعيل صبري: لست خائفا ولكني ببساطة ليس لدي نسخ من أشعاري كلها.

ـ إنه يخشى أن يقول النقاد إنه يخرب الشعر. يميل يعقوب أرتين إلى الأمام ليقدم أطباق الطعام إلى ضيفيه.

ـ قالوا ذلك وانتهي الأمر، رد شريف باشا وهو يأخذ قطعة خبز ويغمسها في الجبن الأبيض.

ـ كلام فارغ! أنا في الواقع أحفظ الشعر حيا. من لديه وقت اليوم ليقرأ تلك القصائد المطولة. لن يكون للشعر مكان في حياتنا الحديثة إلا بالقصائد القصيرة المركزة.

ـ مثل الحب، يقولها يعقوب أرتين بالفرنسية في تأمل وهو يخرج بذرة زيتون من فمه في كياسة.

يضحك شريف باشا: ياللدون جوان العجوز! لن يتوب أبدًا!

يهز يعقوب أرتين كتفيه: وما له! لماذا نعيش إذن؟ أما هو فمحظوظ، يشير إلى إسماعيل صبري: شاعر! سيعيش إلى الأبد! أما أنا وأنت يا صديقي فلدينا اليوم وغدا نمضي هكذا ـ ينفخ ذرة تراب خيالية من كفه، نفخة هواء ونختفي. عندك مكتبك والقضايا التي تدافع فيها. ماذا تجني منها؟ الفرح والسعادة؟ الحياة الأبدية؟ اذهب على بركة الله وتزوج حبيبتك الإنجليزية. استمتع بيومك وبحاضرك.

يعطي إسماعيل صبري شريف البارودي ورقة كتب عليها بضعة سطور يقرؤها شريف بصوت مرتفع:

تزود من الأقمار قبل أفولها
لظلمة أيـام الفراق وطولها
أأنت رزين أيها القلب في غد
كعهدك أم سارٍ وراء حمولها؟

يسأل صديقه في إعجاب: هل كتبت هذه الأبيات توا؟

يهز إسماعيل صبري كتفه ويهتف يعقوب أرتين:

ـ عدني أن تكتب له قصيدة طويلة بمناسبة زواجه.

فيقول شريف مازلت أحب أغنيتك القديمة:

خللي صـــدودك وهـجـرك
واطــفــي لهيبي ووجــدي
ســاعــة وصـــالــك وقـربـك
أغــلــي مــن الــعــمـر عندي

يرتفع صوت الرجال الثلاثة بالغناء حتى المقطع الأخير:

لـجْـلـك هـجـرنـي منامي
وفيك جافيت كل صاحب
ولـــجْـل قُـربـك ووصـلـك
صـاحـبـت غـيـر الحبايب

يسود صمت ثم يتثاءب شريف باشا وهو يلقي برأسه إلى الوراء «يجب أن أتحرك» يقوم واقفا: هل أعتمد على تأييدكما لمشروع مدرسة الفنون؟

ـ أنتم المسلمون، ستضطرون إلى حسم الأمر بينكم، يضحك يعقوب أرتين: ما أنا إلا نصراني مسكين. ما يدريني؟ لكن إذا أفلحتم ونفذتم المشروع، نعم! لكم تأييدي وبعض من مالي. ينظر شريف باشا إلى إسماعيل صبري الذي يومئ بالموافقة

ينظر يعقوب أرتين إلى شريف «ماذا قررت؟»

يأخذ شريف باشا طربوشه.

ـ هل تخاف إغضاب اللورد؟ يبتسم أرتين ابتسامة خبيثة وهو يسأل السؤال.

يحكم شريف باشا وضع الطربوش على رأسه ويقول:

ـ كما تري.. أرتعد خوفا.

٢٧ إبريل ١٩٠١

هنا رآها جيدا لأول مرة. ترك مخلوقة متحدية شعثاء في بذلة ركوب رجالي، وعند عودته وجد امرأة مشرقة ملفوفة في روبه المنزلي تلعب مع ابن أخته بجوار النافورة. أثناء رحلتهما في سيناء كان يضحك من نفسه؛ على آخر العمر يشتهي فتي، فتي أمرد أشقر يركب فرسه في خفة ومهارة، يسابقه فرسا لفرس، حتى كاد ينسي أحيانا أن صاحبه امرأة. كان حضورها يتوالف مع صمت رجاله وصمت الصحراء، ثم إذا نظر إليها قفزت صورتها إلى ذهنه وهي ملفوفة في الحرير الأزرق، ورقة قدميها حافية على بلاط الفناء.

يسير شريف باشا في خطي واسعة عبر الفناء. يدخل إلى الدهليز أسفل السلم الخلفي ويفتح الباب المؤدي إلى الضريح يعبر فناء صغيرا ويفتح بابا ويتوقف في الداخل المظلم. يرفع رجل عجوز رأسه في بطء. يعبر شريف باشا الحجرة:

ـ السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

يجلس شريف باشا على دكة خشبية بجوار مقعد والده. يطأطئ العجوز رأسه وعيناه على حبات مسبحته تتحرك بطيئا بين أصابعه.

ملابسه وشال عمته نظيفة شاهقة البياض وحبات المسبحة ترتعش خفيفا بارتعاش يديه.

ـ كيف صحتك يا والدي؟

ـ الحمد لله! الحمد لله. يومئ العجوز برأسه لكنه لا يرفع بصره.

فيم يمكنه الحديث مع أبيه؟ ماذا يدور في ذهنه الآن؟ هل يفكر في شيء؟ أبوه في السادسة والستين من عمره. ست وستون ليس إلا، كان محمد شريف باشا في السبعين عند وفاته، وكان في عزه ـ وها هو تولستوي! الحجرة طويلة مبلطة بالحجارة معتمة ورطبة، ينفذ إليها ضوء قليل من النوافذ الصغيرة المفتوحة في أعلى الجدران الحجرية والشموع القليلة التي تضيء المقام حيث ضريح سيدي هارون في أقصى الحجرة تحت غطاء من القماش الداكن. لم يغادر والده هذا المكان طوال ١٨ عاما. يبيت الليل في حجرة صغيرة ملحقة بالضريح ويقضي النهار في هذه الردهة، وقد يقنعونه في بعض أيام الشتاء بالجلوس في الشمس في الفناء خارج الباب مباشرة.

ـ أخوك محمود سامي باشا يرسل لكم السلام ويسأل عن الصحة.

ـ الحمد لله ! الحمد لله.

هل يذكر أخاه أو عرابي؟ هل يعرف من هو؟

لا فرق بينه حيا ـ يقوم شريف باشا واقفا ويذرع الحجرة بطولها. يظل والده ساكنا في مكانه. في دير سانت كاترين في قاعة الجماجم

والعظام غلبته مرارة الأفكار: إلام انتهت به الحياة؟ ماذا يخلف؟ اسما يبجله المصريون جميعا ويخلّده التاريخ؟ ورثة لثورة وشعر؟ ماذا أنجز هو شريف البارودي ليذكره الناس من بعده؟ عاش حياته شريفا بقدر ما يستطيع، فعل خيرا ما وجد إلى الخير سبيلا، لكن هل يكفي هذا؟ انجرف فكره ـ كما يحدث أغلب الوقت ـ إلى نوع الحياة لو لم يكن هناك احتلال أجنبي. لو أن الثورة أخذت مجراها بلا تدخل. لو أن توفيق أجبر على الانصياع لمطالبهم، لو كانوا أحرارا في بناء بلادهم وفقا لأحلامهم بتنمية المؤسسات وإصلاح التعليم والقانون وتأسيس الصناعات؛ لكن ـ بدلا من تحقيق الآمال العريضة ـ ها هي حياتهم تستهلك في صراع مرير خطوة خطوة ضد الإنجليز، معارك لتأسيس المجلس التشريعي، محاربة كل ضريبة جائرة يحاول الإنجليز فرضها، التصويت لزيادة الاعتمادات للتعليم، ولا فكاك من الوقوع في مصيدة المعركة بين السلطان والخديو والإنجليز، وماذا فعل هو ليحل تلك المتناقضات؟ واليوم مصيره محتوم أن يصبح كومة من العظام وجمجمة مثل أولئك الرهبان القدامي، ما الأثر الذي تركه في الدنيا؟ ما الفرق لو أنه عاش كأبيه ينزلق راضيا إلى عته الشيخوخة في ظل زاوية شيخ معتوه. كان يظن أن هناك فسحة وقت، لكن وقت لماذا؟

كانت تلك أفكاره وهو يخرج من قاعة الجماجم إلى الحديقة ليجدها أمامه جالسة على دكة من الخشب. ألهمه الله ـ أو لعله الشيطان ـ بالإجابة عن سؤاله. وقت لهذا. خذها، هذه المرأة الجميلة الشجاعة التي دفعتها المصادفة في طريقك، جالسة ترقب النجوم، عادت تكتسي بأنوثة خلابة في رداء حريري ينساب على

جسمها متألقا في ضوء القمر. كان أول نوازعه لحظتها أن يأخذها بين ذراعيه، لا حاجة له ساعتها باللغة وترهاتها فليحتضنها وينسي نفسه في ذلك الجسد البديع الذي ينبض بالدعوة من تحت الحرير. ثم كانت حكايتها والحديث عن زوجها، مست شغاف قلبه طريقة حكيها: أن تبذل جهدها تحاول أن تفهم وتعرض المساعدة فترفض وتُبْعَد مرارا. لو كان مكانه ما صرفها، بل لتقبل ما تمنحه شاكرا وعَدَّ نفسه من الفائزين. أبوه يجلس في صمت وحبات المسبحة ترتعش في يده. كم من المرات بكت أمه أمام الأب الذاهل عنها؟ كم من المرات حاولت أن تستعيده إلى الحاضر برفق ـ بلا فائدة؟ ألا يفكر فيه، في الابن الذي تركه يتحمل مسئولياته؟ الابن الذي فقد جموح شبابه وصار يحسب كل خطوة من خطواته في ظل مسئوليته عن أمه وشقيقته؟

ـ أبي.

لا يرفع أبوه بصره فيرفع شريف صوته:

ـ أبي، عندما يبدو عليه الانتباه يقول له: إني أفكر في الزواج.

تلوح ابتسامة لطيفة على وجه الرجل المسن لكنه لا يقول شيئا.

ـ ما رأيك يا أبي؟

ـ الزواج نصف الدين.

ـ من امرأة إنجليزية، يقولها شريف فتختفي الابتسامة من وجه أبيه ويعود إلى الإطراق.

ـ أفكر في الزواج من امرأة إنجليزية فما رأيك؟

يرتل العجوز في همس وهو يحدق في مسبحته:

﴿... وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم...﴾.

يتأمل شريف باشا والده في حزن ثم يقول:

ـ سأعتبرك موافقا إذن.

وجد أمه في المطبخ مع خادمتين، تنتقي حبات الفاكهة لتوضع في الأطباق البللورية الجاهزة إلى جوارها:

ـ أهلا يا حبيبي، ومدت له ذراعيها، احتضنته فأحني رأسه يقبل جبهتها.

ـ أفطرت؟

ـ الحمد لله.

ـ أقشر لك برتقالة إذن، شم، تمد يدها ببرتقالة تلمع ناعمة الجلد، «آخر الموسم من يافا. هدية من شكري». تضع يدها على ذراعه وتقوده خارج المطبخ:

ـ هل نجلس هنا؟ الجو ليس حارا بعد، تقوده إلى الجزء المغطي من الفناء حيث جلس ذلك الصباح الأول مع آنا وليلي.

ـ خير يا حبيبي، شكلك تعبان والدنيا لسة صبح؟

ـ ذهبت وقابلت أبي منذ قليل، يبدو في صحة جيدة.

ـ الحمد لله، وتتنهد.

يصمت شريف باشا قليلًا ثم يقول:

ـ فيم يفكر طول اليوم؟

ـ من يعلم؟ يقرأ القرآن.

ـ هل يعرفك؟

ـ أظن ذلك، يبتسم حين أدخل.

يبدو على شريف باشا نوع من نفاد الصبر فتكمل أمه: «لازم يصفي له قلبك، فهو أبوك، وإن كان ظلم أحدا فهو ظلم نفسه أكتر».

ـ كلما فكرت فيما فعله بك ـ

ـ لم يفعل بي شيئًا. كان طيبا لطيفًا معي لمدة ٢٦ عاما، ثم جاءتنا هذه الكارثة..

ـ كان يمكنه أن يعالجها بشكل أفضل..

تهز أمه رأسها بالنفي: «يعالجها كيف؟ كان يمكن أن نرسل إلى المنافي. كان يمكن ـ بعد الشر ـ أن يقتلوه. كان يمكن أن يبقى في السجن سنين طويلة. أنت ـ مع كل فلسفتك ـ ألا تري هذا؟ عندما هزمت الثورة تغيرت الحياة كلها».

ـ قلبي لا يسامحه.

ـ لأنك تشعر أنه جلب إليك العار. يا بني لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها. ربنا يسامح، وانت لا؟ عمك يا سيدي جلب لنا شرفًا بما يكفي، وأنت أيضًا عشت حياة كريمة شريفة، أعلم أنها كانت مليئة بالعقبات، لكنك تحملتها وكونت لنفسك اسمًا وسمعة حتى في هذه الأيام الصعبة. لا تقس في قلبك على أبيك..

نعم كون لنفسه اسمًا وسمعة، لكنه طالما شعر أنه يحتفظ بنفسه

في حالة انتظار، حالة تأهب وكأنه يمر خلال ممر جبلي ضيق يقوده إلى حيث يظهر أمامه طريق واسع واضح لم يع وجوده من قبل. نظر إلى أمه: جميلة حتى في الستين، ذات بشرة ناعمة وعينين حانيتين رائقتين. كانت في أوائل أربعينياتها حين ترهبن أبوه.

ـ بالتأكيد لم يكن الأمر سهلا عليك ـ كنت في مقتبل العمر..

تضيء عينا زينب هانم بشقاوة مفاجئة:

ـ ما الذي يدور في فكرك؟ كان يمكنني الزواج؟ ولي ابن طويل عريض ذي شنبات؟ يا للعيب ويا للعار! ترن ضحكتها في الفناء: يا سيدي أنا أخذت حظي من الدنيا وزيادة، وأنت وليلي وأخي وأسرته تملئون عليّ دنياي. فإن كنت قلقًا على انظر أنت إلى نفسك. هل أنت راض هكذا؟ لا ولد يناديك بابا ولا بنت تجلس في حجرك؟

ـ أمي..

ـ عارفة، عارفة، ترفع يديها قانطة، ممنوع فتح الموضوع. ولكن، إذا كنت قلقا عليّ فالأولي أن تقلق على نفسك، من يسأل عليك عندما تكبر؟ جميع أصدقائك متزوجون وأصحاب عائلات...

ـ هذا في الحقيقة هو الموضوع الذي جئت للحديث فيه.

ـ ماذا؟ تفتح زينب هانم عينيها على وسعهما وتميل إلى الأمام وتضع يدها على ركبة ابنها: والنبي صحيح؟ جئت تحدثني عن الزواج؟ أعمل إيه؟ أزغرد؟ لقد نسيت حتى صوت الزغاريد. من يا حبيبي؟ من تريد فأذهب حالا وأطلبها لك؟

ـ يا أمي، فرحة أمه تغذي القلق على وجه شريف باشا: اسمعيني جيدا فأنا محتاج لرأيك، لنصيحتك، الموضوع مليء بالمشاكل.

ـ مشاكل؟ أي مشاكل؟ كل مشكلة ولها حل، تعتدل زينب هانم في جلستها وعيناها لا تفارقان وجه ابنها.

ـ إنني أفكر في ليدي آنا.

ـ ليدي آنا؟ الإنجليزية؟

يومئ بالإيجاب وهو يرقبها، تخفض عينيها وتطلق نفسا طويلا، ثم ترفعهما إلى عينيه بنظرة مليئة بالهم:

ـ ألا يكفيك ما عندك من مشاكل؟

ـ أعرف.

ـ وهي التي اختارها قلبك؟

يبتسم لها: يبدو هذا.

ـ أمامك خيرة بنات البلد، أي واحدة منهن تتمناك.

ـ نعم ولكني لا أعرفهن.

ـ تعرف العروسة أيام الخطوبة ثم...

ـ كبرت على هذا، ثم ألم نتبادل هذا الحديث ألف مرة من قبل؟

ـ نعم يا حبيبي ! أعرف! أعرف لكن، إنجليزية!

يقوم شريف باشا من مقعده، يقطع المسافة إلى الحائط ثم يعود: أدور في دائرة مفرغة، أقول ليتها كانت مصرية، فرنسية أي شيء إلا

إنجليزية ثم تأتي إلى مخيلتي وأنتهي إلى القبول، هي إنجليزية. هل يعني هذا أن الزواج منها مستحيل؟ أو أنه لن ينجح؟ لا أعرف، كل ما أعرفه أنها دخلت قلبي وسكنت فيه.

ـ هل حدثتها في هذا؟

ـ لا، يهز رأسه ويعود إلى الجلوس. في الغالب ستقبله، ربما لأسباب خطأ، تري الترفع والكبرياء في وجهه وتتخيل ما تشاء وراء هذا الوجه. لديها الشجاعة لتعارض المؤسسة البريطانية، بل ربما تجد لذة في معاندتهم.

ـ تبدو متعبا يا حبيبي.

ـ أبدا.

ـ خير. قد أتى هذا الحب الذي كنت تنتظره! ولكن هل كان لابد تقع في حب إنجليزية؟

ـ يا أمي ارحميني! أين كنت أقابل امرأة مصرية لأحبها؟ نعم أراهن في مناسبات عائلية، لكن أن أجلس إلى واحدة ونتبادل الحديث؟ هل هذا يمكن أن يحدث، ليلي تزوجت حسني ابن خالها ونشآ معا، لم يكن لي مثل حظها.

ـ خلاص يا ابني خلاص، لا تزعل نفسك، أنت تحبها وتريدها، ربنا يقدم ما فيه الخير.

ـ هل أحدثها في الموضوع؟

ـ هل تعرف من أهلها؟ أبوها؟ أمها؟

ـ نعم كانوا ناس طيبين وماتوا.

ـ كانت متزوجة؟

ـ نعم هي أرملة.

ـ وتقبل ذلك؟

ـ نعم.

ـ إذن تحدث معها، على بركة الله.

ـ ربمـا ترفضنـي طبعا، فتحل جميع المشاكل.

ترفض ابنها؟ الباشا؟ مع أن زينـب هانم تعرف طبعا أن القرد في عين أمه غزال، لكن الأمر هنا ليس مجـرد حب أم لابنهـا، العالـم كله يسلم أن ابنها رجل كامل، رجل ملو هدومه، لكن هل لإنجليزية أن تتزوج مصريًا حتى ولو كان باشا مثله؟ حقا إذا رفضته ستختفي المشاكل، وبعد أن اتجه فكره للزواج يمكن...

ـ انتظر، لا تذهب بعد، وتضع زينب هانم يدها على ذراعه لتجلسه إذ تحرك ليقوم من مقعده: نشرب فنجان قهوة معا وأنا أفكر. تنادي وتأمر بالقهوة ويجلسان في صمت.

تقول له بعد رشفة من فنجانها

ـ اسمع يا بني، تعرف أنني رأيت هذه السيدة، طبعا لـم نتبادل حديثا، وليلي هي الأخري حدثتني عنها، تبدو طيبة ومستقيمة، لكن مشاكلها ستكون أصعب من مشاكلك.

ـ هل هذا رأيك؟

ـ نعم، وتومئ زينب هانم برأسها: سيدخل التغيير حياتها كلها، سيغضب منها أهلها، وسيقاطعها الإنجليز، وحتي لو لانوا سيكون

صعبا عليها بصفتها زوجتك أن تزورهم أو يزوروها، ستنزع من أهلها ومن كل ما تعرفه، حتى لغتها لن تستعملها.

يدفع شريف باشا مقعده لكن أمه تمسك بيده:

ـ إذا كانت تشعر نحوك بمثل ما تشعر به أنت نحوها ستطرح عنها العالم كله وتأتي إليك، لكن إذا أخذتها ـ وتشدد زينب هانم قبضتها على يد ابنها باليدين ـ ستصبح كل شيء في الدنيا بالنسبة لها، إذا أحزنتها لمن تذهب؟ لا أم ولا أخت ولا صديقة! وهذا يعني إذا أغضبتك، سامحها، إذا خالفتك، صالحها، ومهما يفعل الإنجليز لا تحملها ذنب أهلها، فهي لن تكون زوجتك فقط وأم أولادك إن شاء الله، بل ستكون ضيفة عليك وغريبة في حمايتك، وإذا ظلمتها لن يغفر الله لك.

عينا شريف مبللتان بالدمع وهو يرفع يد أمه إلى شفتيه عندما يطلق يدها ترفع فنجانه وتهزه برفق ثم تقلبه في الطبق.

يقول: «تعودين إلى الخزعبلات القديمة؟» لكن يبتسم، وتنادي زينب هانم على مبروكة، وعندما تظهر خادمتها الحبشية العجوز: تعالي اقرئي الفنجان للباشا.

تتربع مبروكة على الأرض، تميل الفنجان وتنظر فيه ثم تعيده إلى الطبق: «لسه» وتبتسم له: «والله زمان يا باشا».

ـ أتركك تفعلين، يقول وهو يرد الابتسامة: هذه المرة فقط، من أجل خاطر أمي. كانت مبروكة جارية أهديت للغمراوي بك وأهداها هو إلى ابنته، فظلت في رفقة زينب هانم منذ كانت كل منهما صبية، تزوجت مرتين لكنها لم تنجب وعندما أصبح اقتناء

العبيد والجواري ضد القانون لم تكترث وظلت مع مخدومتها، صديقتها. كانت تضع كل مدخراتها في مصاغ الذهب، فهي تحمل ثروتها في عنقها وذراعيها. عندما كان صغيرا كانت تعطيه عيدية تعادل عيديه أمه قرشا بقرش. أمسكت مبروكة الفنجان في يدها وهي صامتة تفكر. قالت زينب هانم:

ـ خير يا مبروكة.

ـ كل خير يا ست. شايفة سكة، سكة ضيقة، طالعة ونازلة، طريق صعب، شايفة واحد راجل رفيع رهيف، لابس برنيطة، مش طربوش ولا عمة، لأ برنيطة، لكن نيته سليمة، منتظرك يا باشا، عايز منك حاجة.

تبتسم زينب هانم لابنها ويرفع هو حاجبيه.

ـ السكة بتفتح على وسعاية بيضة، وسعاية بيضة منورة فيها نور كتير! الله! نور وفرح، شايفة حاجة صغيرة... طفل بيجري عليك، بص! تمد يدها بالفنجان إلى شريف باشا، ينظر إليه سريعا ويهم واقفا يعدل الجاكته ويمد يده إلى طربوشه. تصر مبروكة:

ـ مش شايف الطفل يا باشا.

ـ الحقيقة لأ مش شايف.

تمد يدها بالفنجان إلى زينب هانم «أهو! طفل يجري نحو الباشا.»

ـ وبعدين؟، تقول زينب هانم: وبعد كده يا مبروكة؟

ـ أرى شيئا بعد ذلك. كله أبيض، لم تديري الفنجان بما يكفي يا ستي قبل أن تقلبيه.

أول مايو ١٩٠١

ـ يا آبيه سأظل دائما أختك الصغيرة، لكني الآن أستأذنك في أن أحدثك بصراحة. ليلي واقفة في مكتبه، خلعت حبرتها فظهرت في فستان بديع من الأزرق والوردي الداكن.

ـ طيب، تكلمي! لكن لماذا تقفين في وسط الحجرة هكذا؟ ويشير بيده إلى الأريكة، تهز ليلي رأسها: لا! أفضل الوقوف. أريد أن أتحدث معك عن ليدي آنا.

ـ ماذا عن ليدي آنا؟

ليدي آنا التي تحدث معها في ضوء القمر كما لم يحادث امرأة من قبل عدا أمه وليلي ومعهما كان عليه أن يحتاط، كان حبهما له يحتم عليه ألا يظهر أمامهما شبهة ضعف أو حزن، وإذا لم يكن سعيدا فعليه أن يبدو على الأقل راضيا أو مسلما أمره لله. يسألها مازحا:

ـ هل خطفت مرة ثانية؟

تنظر ليلي إليه عاتبة: سترحل.

ـ ترحل؟

ـ ستعود إلى وطنها، إلى إنجلترا.

يشيح بوجهه ويسير إلى النافذة، ماذا كان يتوقع؟ أن تبقي إلى الأبد؟ طبعا ستعود يوما إلى بلدها، طبيعي، يلتفت إلى ليلي:

ـ طيب ثم ماذا؟

ـ آبيه إنها تنتظر منذ ٥ أسابيع، تنتظر كلمة منك.

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ـ لأني امرأة. تتقدم ليلي وتضع يدها على ذراعه: أعرف، من الطريقة التي تذكرك بها، كما لو كان حديثا عابرا، أعرف أن بالها مشغول بك. يمكن أن أقول: خير لها أن تعود إلى بلادها، لولا أني أعرف أنك أنت أيضا تفكر فيها.

ـ وكيف تعرفين ذلك.

ـ أعرف من نفسي، ثم إن ماما أخبرتني أنك حدثتها في الموضوع.

ـ يا لكن من نساء، لا تبتل في أفواهكن فولة. يتحرك شريف باشا مبتعدًا عن أخته: وهل أخبرتك ماما باعتراضاتها؟ هل نقلت إليك تصورها لحياة السيدة إن هي ـ إن هي انتقلت للعيش هنا؟

ـ نعم. وبالطبع لن يكون سهلًا عليها، وإن كانت أي امرأة غير آنا لقلت إنها لن تقدر على هذا التغيير. لكن آنا تختلف، عقلها كبير، ولم تنعم بحياة سعيدة، وأيضًا ـ أنت تريدها. آبيه، ضع ثقتك فيها واترك لها أن تقرر، فهي ليست طفلة.

ـ ليلي..، ينظر شريف باشا مليًا في عيني أخته: هل تعتقدين أن بإمكاني أن أسعدها؟ أن أعوضها عما سوف تفقده؟ ليس لمدة شهر أو سنة، إنما لكل ما تبقي من العمر؟

ـ نعم يا آبيه..، تلمع عينا ليلي بدموع لا تسمح لها أن تسيل: نعم. أعلم علم اليقين أنك ستسعدها. وهي أيضًا سوف تدخل الهناء إلى حياتك.

هكذا أجبته يومها، وكنت موقنة من قولي، موقنة من

صواب ما أقوم به، ولهذا استطعت أن أستجمع شجاعتي وأذهب إليه لأحدثه هكذا. واعلم أنني كنت أنظر إلى الموضوع من منظور زيجتي السعيدة وأقر أيضًا أني لم أكن أريد فقدان تلك الصديقة الجديدة التي أضفت ألقًا جديدًا على حاجيات حياتي العادية بمشاركتي فيها. لكن محركي الأكبر والأحق كان حبي له، واقتناعي أنه إن ترك ليدي آنا تغادر البلاد فسوف يبقى وحيدًا ما بقي من عمره، وسوف تزيد الوحدة من مرارته يوما بعد يوم. وقد قلت حقًا حين أكدت له إيماني بأنه سوف يسعدها. كيف لا وهو أخي الحبيب الذي ظلل حبه وحنانه سنين حياتي كلها؟

* * *

ـ ظننت ـ في حديقة سانت كاترين ـ أنني أعجبتك؟

ـ جندت عزمي كله لكيلا أمد ساعدي وأطويك.

ـ ولهذا احتفظت بيديك وراء ظهرك طول الوقت؟

ـ كنت مضطرًا.لو تركتهما لامتدتا إليك ـ هكذا..

داخل نطاق ذراعيه تصف آنا ثلاث قبلات على ذقنه.

ـ ماذا أجد هنا؟ يهتف بصوت خفيض ـ زرارًا. وهذا آخر وهنا أجد الكنز.. ـ ظهر يده يرقد على رقبتها وهو يفتح الحلية التي ترتديها حول عنقها..

ـ أمي.

ـ تشبهينها تمامًا. إن جَعَّدْتِ شعرك وتركته منسابًا.. يا لجمالها..

ترفع آنا ذراعيها. تمسك بالحلية على سلسالها وتخلعها وتمد بها يدها له: خذها!

ـ ماذا؟

ـ إنك معجب بها، وفي الكتب التي تصف عادات المصريين يقولون: إن أظهر شخص الإعجاب بشيء ما من الأدب أن يهدي له..

ـ ليس صحيحًا. الصحيح أنه لو أظهرت أنتِ الإعجاب بشيء يجب على المضيف المصري أن يهاديك به..

ـ ولم إذن لا يكون العكس؟

يرى الضحكة في العيون البنفسجيـة: آنا! إنك تسخرين مني!

ـ أرجوك أرجوك خذها. أحب أن تكون لك فأكون معك طول الوقت: في مكتبك، وحين تجتمع بأصدقائك..

ـ لا أستطيع أن أرتديها يا حبيبتي، وأخاف أن تضيع إن احتفظت بها في جيبي.

ـ لماذا لا تستطيع أن ترتديها؟

ـ لأنها من الذهب، وانظري إلى رقة السلسلة..

ـ إذن سأغيرها حتى تستطيع ارتدائها..

ـ آنا، آنا! لا أحتاجها. لدي أنت. انظري: هذا ما أحتاجه، وهذا..

تقبض آنا على يده ولا تتركها: لماذا إذن لم تدع يديك تمتدان إلي؟ كنت تعلم أنني أريدك..

ـ لا، ليس أنك تريديني، فقط أنك في الغالب تسمحين لي..

ـ فلماذا لم تتقدم؟

ـ لم يكن من العدل ـ من أصول اللعب. هاك رد إنجليزي..

ـ لم لا يكون من العدل؟ ولا زالت تتشبث باليد.

ـ الصحراء.. النجوم..

ـ ظننت أنها تدير رأسي؟

ـ إذن انتبهي. سأخبرك بما فكرت.. أتريدين سيجارة؟ لا؟

يضعها جانبا، ويخرج سيجارة يشعلها: لو أننا التقينا على متن باخرة، مثلاً، تعبر البحر الأبيض المتوسط..

ـ ولماذا على متن باخرة بالذات؟

ـ أحاول أن أجد ظروفًا تسمح لنا بأن نتعارف ونمضي أيامًا في صحبة بعض، وهذا ليس سهلًا..

ـ حسن. على متن مركب إذن.

ـ أو في مكان ما من أوروبا، مكان مألوف لكِ، عادي بالنسبة لكِ، لنقل باريس مثلًا، هل كنت تقفين أمامي كما وقفتِ في سانت كاترين، توحين لي أن أضمك؟

ـ نعم. لو عرفتك كما عرفتك هنا.

ـ لم تكوني لتعرفيني..

ـ أعلم ذلك. ولذا، يا حبيبي، كان من الضروري أن يكون لقاؤنا هنا، والصحراء والنجوم جزء من هذا الـ «هنا»!

ـ إذن شكرًا للصحراء، شكرًا للنجوم. آنا، قومي. قفي. أريد أن أتملي منك. فكي هذه الأزرار. ببطء....

*   *   *

فيما بعد، ورأسها تستند إلى صدره، وأنفاسه في شعرها، تسأله آنا: هل تعتقد أنه كان مكتوبًا؟

ـ لقاؤنا؟ يتنفس عبق شعرها، ويعجب كيف تتبدل الحياة هكذا لمجرد وجود هذه المرأة هنا، بين ذراعيه؟

ـ نعم. هل تعتقد أن القدر حاول أن يجمعنا؟في الكوستانزي، في قصر عابدين..

ـ ثم ضجر القدر وقرر أن يدبر عملية اختطافك..

ـ ويودعني منزلك فتضطر للاهتمام بي.

ـ رأتك مبروكة في فنجان قهوتي ـ تسمع آنا الابتسامة في صوته.

ـ إذن لا مجال للشك..، تلتصق آنا به في رضا: إن مبروكة تعلم كل شيء عن القدر.

بداية نهاية

ومنها يمكنه إبداع أشكال أشد حضورا من الإنسان الحي

شيلي

هل هي أفاعيل القدر؟ أم جاذبية الماضي؟ هل يجد العقل سهولة في استيعاب البيت القديم، خاليًا، لا يتغير، أكثر مما يجد في استيعاب الأصوات ووجهات النظر وإشراق الآمال وإحباطات اليأس؟ أم أنه الالتزام بإنجاز مشروعها أعادها إلى هذا البيت؟

انحناءة في السلم المعتم وكشف لها شعاع هزيل من الضوء عن باب موارب.

بعد يومين من سهرة الأتيليه دفعت إيزابل الجنيهات الخمسة رسم اصطحاب الكاميرا ودخلت من المدخل القديم إلى الفناء الرطب يتردد فيه الصدى لكل الأصوات، تخلصت من الدليل بدفع البقشيش وتجولت في البيت الخالي تحاول أن تتخيله منذ مائة عام، تبدع في خيالها دلائل الحياة اليومية منثورة في حجراته: جريدة مفتوحة على الأريكة إلى جانب الشباك، كتاب، كوب من الماء شُرب نصفه ـ مجموعة مفاتيح على منضدة، وعلي الأرض زوج شبشب ترك فارغا عندما جلست صاحبته على الأريكة وجذبت قدميها تحتها لتسترخي في دفء.

تجولت إيزابل في البيت وفي خيالها علقت ستائر على النوافذ العارية وراقبتها تهتز بفعل النسيم ـ وفركت البخور في المباخر

المعلقة فملأ الجو بعطره الطيب. أدارت صنبور النوافير وأنصتت إلى صوت الماء يتدفق رفيقا على البلاط، وعلت فوق أصوات الماء أصوات أطفال في لعبهم وأصوات نساء تنادي عليهم عندما يصخبون ويعنفون في اللعب. هبت من المطابخ في الدور الأسفل رائحة بهارات تحمص وخبز طازج يخرج من الفرن. جلست خلف المشربية ترقب في خيالها شريف باشا وقد عاد يذرع قاعة المدخل الكبيرة ويداه معقودتان خلف ظهره والشباب خاطفو آنا يقفون في صمت تعس ينتظرون ما ينطق به. كانت تؤطر المنظر في شباك الكاميرا تعدل البؤرة في القاعات الخالية ثم تلتقط الصورة مرات ومرات.

ستفاجئه بهذه الصور، سيفاجأ بكل ما تعرفه، والآن تنزل السلم الخلفي المعتم بدرجاته المرتفعة، وعندما تصل إلى القاع تري شعاعًا من النور. تدفع إيزابل الباب فينفتح. تخطو إلى الخارج في شمس ساطعة، تظلل عينيها بيدها وتضيقهما اتقاء للضوء الباهر وتدرك أنها في فناء آخر، يحده جداران من اليمين واليسار، ويحده من الأمام بناء قليل الارتفاع تتوجه قبة خضراء متربة. يُفتح باب تخرج منه امرأة تتقدم نحوها. ثمة لمحة مألوفة في هذا الوجه المرحب، في ملابسها الفضفاضة زرقاء وبيضاء، في وضع المرأة وهي تمد ذراعيها.

«مرحبا»، تنادي بصوت حلو خفيض: «يا مرحب، ننتظرك من زمن!»

تتنحي جانبا لتفسح لإيزابل كي تدخل من الباب. حجرة رطبة تغمرها الظلال، إلى اليمين يقوم ضريح عالٍ يفصل بينه وبين

الحجرة شباك من الحديد المشغول، حول الضريح شموع موقدة، بعضها احترق حتى لم يبق منه إلا ومضات تلمع في برك صغيرة من الشمع، وبعضها قائم مستقيم تسيل على جوانبه نقاط الشمع في أطوال مختلفة تتجمد على الجوانب. يلقي لهب الشموع الضوء على ثراء الألوان من الأخضر والأحمر والذهبي تزخرف غطاء الضريح من القماش يتدلي إلى رخام الأرضية في طيات ناعمة، وقرب الضريح باب موارب يبدو أنه يؤدي إلى الطريق، وإلي اليسار ساحة مفتوحة تنتهي بستار مكون من مجموعة من الحصر، وقد فرشت كذلك أجزاء من الأرض المبلطة بالحصير، وفي الحجرة كنبتان فرشت كل منهما بالوسائد، وطبلية من خشب. الضوء الوحيد ينفذ من فتحات النوافذ الصغيرة في أعلى الجدار ومن ضوء الشموع في الضريح. وتحت إحدى النوافذ يقوم نول نسيج عالٍ من الخشب ومقطع قماش لامع ملفوف تحته، وقرب النول تري رجلا مسنا يجلس على كرسي ذي ظهر مستقيم يرتدي الجبة والقفطان وعمامة بيضاء، وقد أحني رأسه ويبدو مستغرقا في التفكير. الأصوات في الشارع خافتة بعيدة. تستدير إيزابل لتنظر خلفها لكنها لا تجد المرأة ذات الملابس الزرقاء.

تخطو إيزابل خطوتين إلى الأمام. الشيخ لا يبدي حراكا. تقول في صوت متردد: «السلام عليكم» ويأتيها الرد: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته»، يرفع الشيخ رأسه ويستدير إليها. يسقط الضوء الخافت الآتي من الباب الموارب خلفها على وجه صبوح شاب.

يقول الشيخ: «اقتربي».

تتقدم إيزابل بمقدار وتتوقف على مسافة منه. يرفع الشيخ عينيه وينظر في وجهها. يتكلم ويخيل لإيزابل أنها تنصت إلى التمني في صوته قبل سماعها الكلمات. يسألها:

ـ هل جئت لتتزوجيني؟

تتلعثم إيزابل: «أنا..؟»

يرن صوت في الفناء: «السلام عليكم» وتدخل امرأة بسرعة من الباب، ترتدي الجلباب الأسود الواسع الذي ترتديه نساء الطبقات العاملة، ممتلئة الجسم يعلوه وجه صبوح مستدير ملفوف في طرحة سوداء: «سلام عليكم يا شيخ عيسى»، تصيح المرأة ثانية وهي تسرع إلى إيزابل: مرحب يا ست، أهلا وسهلا، وتضمها إلى صدرها العريض فيتطرق إلى أنف إيزابل نفحة من عطر زهر البرتقال.

ـ يا ألف مرحبا. اقعدي يا حبيبتي. اقعدي يا ست الكل. واقفة كده ليه؟ مش تقول للضيفة اقعدي يا شيخ عيسى؟ معلهش يا حبيبتي. ما تخديش على خاطرك منه. أصل مالناش زوار كتير. غير زوار الشيخ هارون ـ تشير إلى الضريح: يحضرون أمم. طبعا لا يدخلون هنا، لكنهم ينوّرونا أيضا، لكن إنت نورتينا وشرفتينا. أعمل لك شاي؟ والا تحبي إيه؟ أعمل لك شاي يا شيخ عيسى؟

فيرد: لا. عايز حاجة ساقعة. عايز سفن آب.

ـ حاضر يا حبيبي. أجيب لك زجاجة سفن آب. والهانم؟

ما اتشرفناش باسمك.

ـ إيزابل.

ـ عاشت الأسامي ـ خدامتك أم آيه. طيب يا ست إيزابل ـ صح كده؟ اقعدي يا اختي، اقعدي واستريحي ـ شوفي القماش ده. وهي تفرد طيات الغطاء على وسادة الكنبة: كله بركة. الشيخ عيسى نفسه نسجه. تشربي سخن والا بارد يا حبيبتي؟

ـ أي شيء، تتمتم إيزابل وهي تجلس على الكنبة وتضع الحقيبة المفتوحة بجانبها وفيها الكاميرا.

تصيح أم آية وهي تخلع الطرحة من على رأسها وتكشف عن منديل الرأس الأبيض تحتها: «عندنا كل شيء» تكور الطرحة وتضعها تحت إبطها: السخن والبارد جاي حالاً. أقول لك أجيب لك حاجة ساقعة الأول والشاي بعد شوية. يا مرحب يا مرحب. اتكلم مع الضيفة يا شيخ عيسى ـ سليها. تسرع بالخروج ويعود الصمت إلى الحجرة. يحدق الشيخ عيسى في إيزابل:

ـ هل أنت أجنبية؟

ـ نعم.

ـ شعرك أصفر.

ـ شعر أبي كان بهذا اللون.

ـ وأمك؟

ـ شعر أمي.. كان لونه داكنًا، تقريبا أسود.

يسأل: هل تحبين أمك؟

تقول إيزابل: نعم! أحب أمي.

يقول الشيخ: «الجنة تحت أقدام الأمهات. تذكري هذا».

تتحسس إيزابل بأصابعها القماش الذي تجلس عليه. لا تستطيع أن تتبين الألوان في الضوء المحدود لكنها تميز شرائط من ألوان داكنة وعلي مسافات متباينة يلمع شريط رفيع من القصب.

تسأله: أنت نسجت هذا إذن؟

ـ نعم.

ـ وماذا أيضا؟

يرد في صوت حزين: أشياء كثيرة، لا أستطيع العمل إلا عندما تكون يداي بخير.

تسأله إيزابل: ماذا أصاب يديك؟

يقول: أحيانا تؤلمني. وهي أحيانا مجروحة.

يفرد يديه أمامه وينظر إليهما. في العتمة تتبين إيزابل بصعوبة علامة باهتة في وسط الكف في كل يد قبل أن تنزل عليهما وتغطيهما أصابع يد طويلة بيضاء، أصابع السيدة ذات الرداء الأزرق. تركع عند قدميه، ووجهها يتطلع إلى الشيخ عيسى، وتري فيه إيزابل نظرات من الحنان الدافق. تسأل المرأة: هل تؤلمك؟

فيرد: لا!

تحني المرأة رأسها وتقبل كفيه ثم تضمهما وتضعهما في حجره. تدخل أم آية تحمل صينية نحاس صغيرة عليها زجاجتان لونهما أخضر. تقول: السلام عليكم يا ستنا الطاهرة، وتضع الصينية على المنضدة وتمسك بيد السيدة وتقبلها وهي تقوم واقفة.

تسأل أم آيه في قلق: ألا تجدينه بخير اسم النبي حارسه؟

ترد الأخري: الحمد لله.

ـ والآن حضرت ست... تستدير إلى إيزابل.

ـ إيزابل.

ـ حضرت ست إيزابل.

ـ أنا..، تتلعثم إيزابل: ربما لا يصح....

تسكتها أم آية: ولم لا؟ وادخلوا البيوت من أبوابها، إنت دخلت من الباب، إحنا رحبنا بك.

تبدأ إيزابل في الوقوف قائلة: ولكن على أي حال ربما ـ لكن السيدة ذات الرداء الأزرق تلتفت إليها بابتسامة حلوة:أنت آنستينا. استريحي، البيت بيتك.

ـ اتفضلي، تمسح أم آية فتحة الزجاجة بكمها وتقدمها لإيزابل فتأخذها، وتعطي أم آية الزجاجة الأخري للشيخ عيسى.

ـ اشرب يا حبيبي بالهنا والشفا.

المرأة ذات الرداء الأزرق واقفة عند الباب.

ـ أترككم في رعاية الله، تقولها وتختفي في الفناء المغمور بضوء الشمس.

تجلس أم آية على الكنبة المقابلة: قولي لنا بقي يا حبيبتي، أين تعلمت العربية؟

* * *

استقر رأي أمل على ما ستفعله.

عندما تنتهي من حكاية آنا ستقفل شقتها وتنتقل إلى طواسي. لمدة وليس إلى الأبد. إن كان عليها مسئولية اليوم فهي مسئولية الأرض والناس الذين يعيشون فيها. هناك يمكنها أن تفعل الكثير وتعطي الكثير وتتعلم أكثر. لو كانت تستطيع أن ترتب موضوع القائمة، لكنها لا يمكن أن تطلب من الفلاحين قائمة بالأسماء، ولن تستطيع أن تعيد فتح المدرسة بدونها. تقترب من نهاية كوبري الجامعة فتري تمثال نهضة مصر قائمًا أمام عينيها: التمثال الذي كانوا يتجمعون عند قدميه! أيام المظاهرات عندما شعر جيلهم كله بعد نكسة ٦٧ بما ستفعله بهم الهزيمة وكيف يمكن أن تلقي بظلها المنكر على كل سنوات عمرهم، فتدفقوا في الشوارع يحاولون درء خطرها. في عام ٦٨ وقد بدا أن الشباب سيفتحون العالم وأنهم، شباب الطلاب في مصر، سيكونون من الفاتحين، اتخذوا نهضة مصر رمزا لهم: فلاحة شامخة، يدها على رأس أبي الهول واليد الأخري تزيح الحجاب عن وجهها. تمثال قديم وحديث في نفس الوقت، منحوت من جرانيت أسوان الوردي، صاغه محمود مختار، أول فنان تخرج في مدرسة الفنون الجميلة التي أنشئت بميزانية من حملة تبرعات كبيرة أسهمت فيها الحكومة والأهالي. عظيم، مازال التمثال قائما والنهضة آتية بالتأكيد، إذا تمكنت من فتح المدرسة ستدهن الجدران باللون الأبيض وتعلق لوحات بهيجة عليها، ستسجل أغنيات الأطفال وتتعلم الخبيز، ستبحث عن ممثل عجوز يكون لديه أراجوز وصندوق الدنيا، وشاعر ربابة يروي الحكايات؛ لا بد أنهم مازالوا يروون السير والحكايات في مكان ما.

وهي تنتظر في الإشارة تشعر أمل أن هناك من ينظر إليها فترفع بصرها، تري شابا يحدق فيها من الشباك العالي لعربة الشرطة الواقفة بجانبها، لحيته سوداء كثيفة وعيناه داكنتان مركزتان ويداه تقبضان على القضبان الحديدية في النافذة؛ تدير أمل بصرها وتنظر أمامها مباشرة لكنها تشعر بالخجل، الخجل من أنها طليقة هنا في سيارتها، حرة أن تسوق السيارة إلى أي مكان تريد، وهذا الشاب محبوس في قفص وكأنه حيوان. بلد من هذا؟ هذا هو السؤال اليوم.

النور الأخضر يضيء فتدوس بنزين وتسرع بالسيارة إلى الأمام. كانت تبكي عندما حكت لعمر على التليفون عن الرجال الذين رأتهم مربوطين في حبل معا ومحشورين في كشك على جانب الطريق، وعندما روت له ما قصه الفلاحون عليها قال لها: إن العالم على وجه العموم فظيع. فقالت: لكن ليس هذا حتما. الدنيا لا يمكن أن تستمر هكذا. وهذا رأيها الذي تتمسك به. ما أهمية عشرين، خمسين سنة في حياة مصر؟ طالما يظل البعض منا مثابرين يفعلون ما في مقدورهم. وما في مقدورها اليوم هو أن تذهب إلى الأرض وتعيش مع الفلاحين. لا تملك أن تفعل شيئا إزاء بيع الصناعات الوطنية، ولا إزاء الصفقات والفساد واليأس والعنف التي تدفع الشباب أن يطيلوا اللحي ويطلقوا الرصاص ويفجروا القنابل أملا في العودة إلى زمن مضى منذ وقت بعيد، لكنها تملك قطعة أرض عليها ناس يعتمدون عليها في معاشهم. يمكنها أن تحافظ عليها وعليهم من الضياع. يمكنها أن تتعلم

حديث الأرض وتحكي قصصها. وربما يحضر الأبناء لزيارتها. مضى وقت طويل لم يحضروا فيه إلى المنيا، ربما يرفع أحدهم سماعة التليفون ويقول: «ماما سأحضر لأبقي معك بعض الوقت» وعندما يحضر تريه المدرسة والعيادة وتقدمه لأهل البلد. سيقولون ما شاء الله! كم كبر! ربنا يخليه لك. ستجلس معه في الفراندة وتستمع إلى حكاياته، وإذا بقي مدة كافية يمكن أن تطلعه على حكاية آنا. وستشعر ـ وهي تجلس معه في المغارب ـ سيشعران بحضور آنا وشريف البارودي وليلي وزينب هانم وكل أجدادهم، ولعلهما يستشعران ولو بشكل مبهم النسق في النسيج ، في هذه اللحظة من التاريخ على هذه البقعة من الأرض.

* * *

ـ شوفي دي وكمان دي، تقولها أم آية وهي تحضر مقاطع من النسيج، تفردها وتطرحها على ركبة إيزابل.

تتمتم إيزابل: جميلة جدا، وهي ترفع القماش إلى الضوء القليل وتتساءل إن كانت أم آية تريد أن تبيعها شيئا. وتسأل: هل الضوء هنا يكفيه في العمل؟

يقول الشيخ عيسى: يداي لا تحتاجان ضوءا.

تقول أم آية: قلبه ينير له كفاية، اسم الله عليه. قولي لنا يا ست إيزابل إنت قاعدة في مصر كتير؟

تقول إيزابل وهي تضع القماش جانبا: سأغادر باكرًا.

ـ لكنك ستعودين.

لم تكن إيزابل متأكدة إن كان هذا سؤالا ـ تقول: نعم سأعود، لكن يجب الآن أن أعود إلى بلدي وأري أمي فهي مريضة.

ـ ربنا يريح قلبك وتعودي مطمئنة إن شاء الله. ولست متزوجة؟

ـ لا، كنت متزوجة لكن انفصلنا، وتضيف: «بدون أطفال»، فهي تعرف الآن أن هذا هو السؤال التالي.

ـ ربنا يعوض صبرك يا حبيبتي.

ـ إن شاء الله. تقولها إيزابل ولا بد أن وجهها احمر لأن أم آية تبتسم وتقول: «لكن بالك مشغول».

وترد إيزابل بدون تفكير: «نعم». ولدهشتها تستمر: لكني لا أعرف مشاعره نحوي. تشهق أم آية: مشاعره؟ وماذا تكون مشاعره؟ حد يشتهيه القمر ويقول لا؟

تبتسم إيزابل وتهز كتفها.

تقول أم آية: أكيد هو رايدك إذا كان راجل. أكيد هو رايدك لكن هناك سبب يمنعه من الكلام.

تقول إيزابل: نويت أن أكلمه هذه المرة.

ـ لا فائدة من الكلام يا حبيبتي. اسأل مجرب ولا تسأل طبيب. الكلام يروح وييجي وكل واحد يفهم ما يريد.

ـ ماذا أفعل إذن؟

ـ تتزيني وتتعطري وتقعدي معه على راحتك وانت امرأة وعارفة الباقي.

ـ العصر. يهتف الشيخ عيسى وصوت المؤذن يسبح في القاعة.

ـ لا بد أن أذهب. تتقدم إيزابل نحو الشيخ فيمد إليها يديه فتضع فيهما يديها.

يقول: اذهبي يا بنتي وهو يمسك يديها بين يديه.. اذهبي ربنا ينير طريقك ويعطيك ما تتمنين ويعوض صبرك خيرا.

تستدير إيزابل لتري أم آية تغلق لها حقيبتها بالسوستة. تقول: لا تنسي أغراضك وخلّي قلبك دليلك. تحتضنها وتغمر رائحة زهر البرتقال أنف إيزابل.

(١٩)

آمِن وسوف ترى

ج. ي. منصل (١٨٦٥)

القاهرة ٦ مايو ١٩٠١

سيعقد زواجي

أنظر إلى الكلمات ولا أكاد أصدق، لكنها حقيقة. سيتم عقد زواجي بعد أسبوعين أو أكثر قليلا، ولو كان الأمر بيد شريف باشا لتم غدا لكنه يفضل أن يتولي العقد صديقه الشيخ محمد عبده، وهو في الوقت الحاضر في إستامبول ولذا سننتظر عودته.

تضع آنا القلم وتنظر من شباكها، لكن الرجال الجالسين في شرفة فندق شبرد يرتشفون الشراب ساعة المغرب، وخدم الفندق والمارة في الطريق، الجميع لا يعكسون شيئا مما يدور في ذهنها وقلبها. تعبر الحجرة وتتفحص وجهها في المرآة لا بد أن شيئا ما يظهر في وجهها وحقا كان خداها مضرجين وعيناها تلمعان، وقد ازداد عمق اللون فيهما، تتحسس وجهها بيدها......

ذهبت ـ بناء على طلبه ـ إلى بيت والدته. واتجهت عند وصولي إلى القاعة الكبيرة في المدخل. كان واقفا وظهره إلى الباب في زيه الرسمي الذي يرتديه في المدينة كما رأيته أول مرة، يداه معقودتان خلف ظهره وحبات المسبحة

تتحرك بين أصابع يده اليمني.

استدار وأنا أدخل من الباب فرأيته بكل تفاصيل مظهره مطابقا للصورة التي حفظتها في قلبي طوال الأسابيع الخمسة الماضية: الحاجبان معقودان كادا أن يلتقيا فوق العينين. عيناه شديدتا السواد تبديان قلقا في هذه اللحظة، الشعر الأسود الغزير يخالطه الشيب في فوديه، الكتف ثابتة مستقيمة، رأسه مرفوع. دق قلبي بعنف فتوقفت في مكاني ساكنة بالباب. بدا أنه فوجئ لحظة أن استدار ورآني، لكنه استدرك توا وخطا بسرعة إلى الأمام.

«ليدي آنا!» هتف وهو يأخذ يدي في يده: «اعذريني إنها تلك..» وأومأ برأسه إلى فستاني. وطبعا منذ لحظة اختطافي حين أودعت في بيته لم يشهدني إلا في زي الرجال أو في روبه المنزلي القديم أو في الرداء الحريري الفضفاض الذي أعطته لي شقيقته، لم يرني ولا مرة في ملابس سيدة أوروبية. وقف ينظر إلى ويداي في قبضته كما لو كان في حاجة للتأكد أنني فعلا نفس المرأة التي يذكرها والتي كتب لها خطابه، ولا بد أن القلق بدا عليّ فأسرع يقول: «اعذريني لقد غلبني الـ...». لم يكمل بل قال: «تعالى، تعالى نجلس».

جلست على أريكة وجلس بجانبي لكن سرعان ما قام ووقف أمامي، وعندما رفعت بصري إليه وجدته ينظر إلى في تركيز ثم أشرقت عيناه بالابتسام.

قال: «إنك جميلة جدا كما أذكرك».

أجبت: «لكن مختلفة قليلا»، فأومأ بالإيجاب: «لكن مازلت أنت، أليس كذلك؟»

قلت: «أنا فعلا أنا» ثم أضفت: «وبعد قليل يمكن أن أعود إلى الملابس التي ارتديتها في الصحراء».

ضحك: «لن يكون هذا ضروريا، يجب أن أعتاد هذه الملابس، آه يا آنا» أشار في نفاد صبر وهو يدير بصره بعيدا: «بودي أن أنتهي من الكلام» دس يديه في جيوبه: «لكن هناك إجراءات وترتيبات..»

سألت: «ترتيبات؟»

ـ للزواج.

دق قلبي بعنف ثم ساد صمت فأظلم وجهه.

ـ أنت...، نظر إلى بجد: «هل أسأت فهمك؟ خطابي.. ظننته واضحا، وهذا الصباح تلقيت منك ردا...»

قلت: «نعم، نعم» ودق قلبي بعنف وارتفع الدم إلى رأسي حتى خشيت أن يغمي عليّ.

ـ وجهك ممتقع.

كان صوته هادئا بل جافا، وشعرت أنه بطريقة ما يتراجع، يبتعد بالرغم من أنه مازال واقفا أمامي، وأيقنت أني أريده، أريده أن يعود إليّ، وأن أهم شيء ألا يخطئ فهمي الآن.

ـ سيدي، نطقت محاولة أن يعلو صوتي على وجيب قلبي! لقد شرفتني بطلبك هذا ويسعدني حقا أن أقبل عرضك.

ساد صمت فدفعت نفسي للكلام ثانية:

ـ إذا بدا تصرفي غريبا فهذا لمجرد أني ظننت أن الأمر سيستغرق مزيدا من الوقت ـ ربما بضعة أيام ـ قبل أن نصل إلى هذه النقطة. رفعت بصري إليه. كان لا يزل مقطبا، مددت يدي وقلت برفق: «شريف باشا» أخذت يده وجذبته ليجلس بجانبي. قلت وأنا أنظر إلى يدينا.

ـ نعم! نعم! يسعدني جدا أن أتزوجك.

قال وهو يقبض بشدة على يدي: يجب أن تكوني متأكدة، متأكدة تماما وبدون أي تحفظ لأنك ستتنازلين عن الكثير....

ـ أنا متأكدة، قلتها وكنت أعني ما أقول. سمعته يزفر نفسا عميقا ثم لمس وجهي بيده الأخري يتحسس تضاريسه كأنما ليحفظها، ويتلمس ما يجده سائبا طليقا من خصلات شعري، أما أنا ففقدت الإحساس بأي شيء إلا قربه مني ولمساته، لكن عندما ظننت أنه سيقبلني ابتعد عني وأطلق يدي، وكانت الخواتم قد حفرت أثرا لها في جوانب أصابعي فجلست أتأملها وهو يذرع الحجرة أمامي.

قال بنفاد صبر: «لو كان محمد عبده هنا لأمكن أن يزوجنا غدا».

ـ أليس هناك غيره؟ سألت السؤال ثم شعرت بوجهي يحتقن فلم أقصد أن تبدو كلماتي بمثل هذه الجرأة، وفعلا رأيت وجهه الذي كان عابسا نافد الصبر منذ برهة، رأيته يشرق بابتسامة خبيثة!

ـ ها؟ ها؟ كانت سيدتي تحتاج بضعة أيام لنصل إلى هذه النقطة! لكن، نعم. لا أحد غيره يجرؤ أن يزوجنا، ولا يصح أن أطلب من أحد، أما هو فلديه السلطة.

سمعنا صيحات أحمد: «لالو! لالو» ودخل يجري إلينا فاستدار خاله ورفعه بين ذراعيه، ولما فرغ أحمد من عناقه قال لي بالفرنسية «سنكمل الحديث فيما بعد» وقال لأحمد شيئا بالعربية فسمعت اسمي يتردد فلما نزل الطفل إلى الأرض جرى إلى ليقبلني، ثم دخلت ليلي تجري إلى ووجهها يشرق بالابتسام، وسرعان ما تلقيت العناق والقبلات من الأم والطفل معا. هتفت:

ـ مبروك يا آنا! ألف مبروك، واتجهت إلى أخيها تعانقه: «مبروك يا آبيه» ورأيت دموع الفرح تلمع في عينيها.

سألت: «متى؟ متى يتم العقد؟»

قال شريف باشا: «كنا نتحدث ـ نقول..»

وبدا على ليلي أنها فهمت مباشرة وبدا القلق في عينيها مكان الفرح. قالت: «يجب الاحتياط، لكل منكما حذار! لا يجب أن يعرف أحد بالأمر قبل أن يتم العقد».

أعتقد أنني في تلك اللحظة فقط أدركت الخطر الكامن في الخطوة التي أقدمت عليها، ولم يدفعني هذا لإعادة التفكير ولا لثانية واحدة، لكن شعوري الجديد بالسعادة شابه في تلك اللحظة قلق طارئ، إذ أدركت أن أصدقائي قد لا يشاركوني فرحتي كما أحب: سير تشارلز وكارولاين وجيمس بارنجتون ومسز بوتشر، هؤلاء الأصدقاء لا يهون على التفكير في البعد عنهم إلى الأبد، لكن في أحسن الأحوال سيكون لعلاقتنا لون جديد. تذكرت الفضيحة التي شبت منذ ٣ أسابيع عندما تناولت سيدة ألمانية العشاء في فندق شبرد في صحبة رجل كان يبدو مصريا، وقدم الجرسون اليوناني للضيف (الذي اتضح أنه من أقرباء الخديو) طربوشا مملوءا بالسلاطة مع تحيات الإدارة. ثم فكرت في لورد كرومر وإدارته فطعن قلبي رمح بارد من الخوف ـ لكن ليس على نفسي.

قال: «اسمعي يا آنا، سنقوم بكل الإجراءات المضبوطة، وأري أن نعقد زواجا مصريا أولا ثم نسجله عند المعتمد البريطاني.»

قلت: «عقد الزواج المصري يكفيني»

ـ لا يا ليدي آنا، قال وهو يبتسم: «الليدي آنا التي لا تخاف من شيء. سنتبع الإجراء المضبوط»، ثم بمرارة: «وحتي يتم العقد للأسف لا أستطيع أن أدعوك للخروج معي لأتودد إليك خاطبا كما يجب. ليس هناك مكان يمكن أن نذهب إليه معا».

ـ عليك أن تتودد إلى فيما بعد يا سيدي، وسأنتظر.

صعدنا إلى الطابق الأعلي وقبلتني زينب هانم بحنان فائض، بل قبلتنا نحن الاثنين والدموع تجري على خديها، وصفقت مبروكة وصيفتها الحبشية وخشخشت الأساور الذهبية الثقيلة في ذراعيها، لكن شريف باشا أسكتها وهي ترفع زغرودة، قال بحزم: «ليس الآن، عندما يتم العقد»، ثم عاد وربت على كتفها وقبل رأسها في عطف لأنها كما فهمت مربيته وكانت له أما ثانية. قال: «أما أبي فستقابلينه عندما يتم زواجنا».

تنتابني الدهشة لبرهة إذ أرفع عيني من مفكرة آنا، وأجدني في حجرة نومي وصندوقها مركون في نظام بجوار الحائط. ملاءة الغطاء مطوية على السرير في انتظار صعودي للفراش للنوم، استغرقت تماما في ذلك المنظر في قاعة البيت القديم في حرملك جدتي، كان قلبي يدق مع قلب آنا وشفتاي تتشوقان إلى قبلة حبيبها. أطرح عني أسر تلك الصور وأقوم واقفة أتمشي في الشقة، أقف في الشرفة وأنظر إلى الشارع تحتي لأعود بفكري إلى الحاضر.

من غيري قرأ هذه المفكرة؟ وعندما قرءوها هل شعروا أنها تخاطبهم، لأن شعوري بآنا تحدثني، تكتب من أجلي، من القوة لدرجة أني أحيانا أكتشف أني أحدثها في خيالي، وفي الليل أحلم بها، أجلس معها ونتحدث كما لو كانت صديقتي، أو أختي.

في المطبخ أصب لنفسي كوبا من الماء البارد من الثلاجة وألتقط

خيارة أقضمها وأنا أعود إلى حجرة النوم. إيزابل سافرت لكن جميع أغراضها مازالت هنا: الملابس التي لن تحتاجها، المخلاة والحقيبة الكبيرة ذات الجرار فيها الكاميرا والعدسات، الكتب والأشرطة التي جمعتها كلها عندي، خزنتها في حجرة الأولاد. هي الآن في بقعة ما فوق المحيط الأطلسي عائدة إلى أمها وإلي أخي.

يجب أن أكلمه. لا بد أن أكلمه بصراحة، عنها. لا أدري كيف أفسر حكايتها عن الضريح في البيت القديم. إيزابل امرأة عاقلة وعملية، وهي أحيانا رومانسية وعاطفية لكنها ليست مجنونة، وليست ممن يعتقدون في الأطباق الطائرة أو الاختطاف على يد سكان الكـواكـب الأخري، ومع ذلك كانت متأكدة أنها دفعت بابا فانفتح ودخلت إلى الضريح، وجلست هناك تشرب سفن أب وتتحدث مع شيخ غريب وخادمة بشوش وسيدة ترتدي ملابس مثل ملابس العذراء في الصور.

عدنا أنا وهي إلى البيت في اليوم التالي وكما توقعت كان الباب المؤدي إلى الضريح مغلقًا عليه قفل ومغطي بالعنكبوت. درنا حول البيت إلى مدخل الضريح. كان القبر مغطي بالقماش الأخضر المعتاد، نعم كانت هناك شموع، لكن هناك شموعًا في كثير من الأضرحة، وكان المكان خلف شباك الحديد المشغول مظلما من الصعب أن أتبين فيه أي شيء. ناديت الحارس وأخبرته أننا نريد أن نري الشيخ. قال:

ـ ها هو الشيخ، وهو يشير إلى الضريح.

قلت: لا. الشيخ الآخر الذي يعيش بالداخل.

قال: آه. الشيخ المستخبي! ليس عندنا واحد الآن. الشيخ الكبير توفي ولم يحضروا شيخا جديدا ليحل محله بعد.

سألت: متى توفي الشيخ الكبير ؟

قال: من حوالي سنة. كان شابا تقريبا، لكنه تقيّ، مرفوع عنه الحجاب، وكان أبوه هنا من قبله. لهم هنا من زمن طويل، من ١٠٠ سنة قبل أن تأخذ الحكومة البيت وتحوله إلى متحف.

ـ يعني من سنة حتى الآن لا يوجد شيخ في الداخل؟

ـ شيء معروف يا ست. الموضوع أن الشيخ الذي يعيش هنا لا بد أن يكون ـ أنت عارفة ـ فيه شيء لله. يعني أنه لا يحتاج شيئا من متاع الدنيا. هذه شروط الوقفية، ولن تجدي رجلا كهذا بسهولة.

ونحن نستدير لنبتعد فكرت في سؤال آخر:

ـ ماذا عن أم آية؟ هل مازالت تعيش في المنطقة؟ قال الرجل: لا أعرف. لم أسمع بها.

إيزابل منزعجة. كانت تريد أن تجادل الرجل لكني جذبتها من ذراعها. في السيارة قالت بانفعال: أنا لا أفهم ! كانوا هناك، رأيتهم وتحدثت معهم.

قلت لها: اسمعي يا إيزابل، أنا أحيانا أفكر في أناس وأماكن وتكون الصورة من الوضوح والقوة لدرجة أني أصدم إذ أدرك أن الأمر كان مجرد خيال.

ترد: كانوا هناك، مثل وجودنا أنا وأنت هنا.

أفكر وأنا أضع كريم الليل على وجهي في المرآة: غدا أحجز

مكالمة معها بالتليفون ومكالمة لعمر. ليس عندي اشتراك دولي وإلا أغراني بمهاتفة ولَدَيّ كل يوم.

القاهرة، ١٢ مايو ١٩٠١

عزيزي سير تشارلز:

تسلمت لتوي خطابك المؤرخ في الثامن من الشهر. أسعدني خبر توسط دوق كورنوال لعرابي باشا عند السلطان والخديو، وهذا نبأ مفرح حقا ولعله يعوض بعض الشيء عن الظلم الواقع عليه منذ سنوات طويلة. سبق أن ذكرت لك أن محمود سامي باشا فقد بصره في سيلان فلم يكن الجو هناك يناسبه بالمرة، وهو الآن يستعين ببناته وأحفاده في القراءة لأنه مشغول بجمع مختارات من أجود أشعار العرب في ديوان واحد مع شرحه والتعليق عليه، وهو عمل ضخم خصوصا بالنسبة لرجل كفيف. أما الآخرون فقد توفاهم الله، فلعل العفو عن عرابي يخفف بعضا من آلام الجراح التي يشعرون بها هنا.

الحياة عندي تسير على نفس الوتيرة. أقيمت حفلة تنكرية راقصة هنا في شبرد الأسبوع الماضي، وفي الفندق قاعة شرقية (أندلسية) فخمة وكبيرة تصلح لتلك المناسبات. كان ٤ ضباط ممن وصلوا في وقت متأخر إلى القاهرة يريدون حضور الحفلة لكنهم لم يعدوا زيا للتنكر فانتهزوا فرصة وجود ملابس سيدات معلقة في دواليب في الممرات خارج الحجرات واستخدموا عددا منها، وحققوا نجاحا كبيرا في

الحفلة لكنهم لم يعنوا بإعادة الفساتين إلى مكانها قبل أن يذهبوا للنوم، مما سبب ارتباكا للإدارة في الصباح التالي. أمكن تهدئة السيدات وتعويضهن في النهاية وعاد السلام يسود، وهذا لون وإيقاع الترفيه هنا.

أسر لي جيمس بارنجتون أنه يفكر في العودة إلى إنجلترا، فقد ترملت والدته حديثا وهو يشعر بالمسئولية نحوها خاصة أنه ابنها الوحيد. في رأيه أن العمل في هيئة تحرير صحيفة في لندن يمكن أن يناسبه، وأنه قد يفيد الصحيفة كثيرا بخبرته، وقد وعدته أن أكتب لك مستفسرة إذا كنت تعرف طريقا له في هذا المجال، وهو حقا شاب كفء وأعتقد أنك ستتعاطف معه.

تسألني متى أفكر في العودة، وأنا لم أخطط لهذا بعد، ولا أجد الحرارة مزعجة حتى الآن، وأحقق تقدما طيبا في دروس اللغة العربية.

تتوقف آنا عن الكتابة، تشعر بالزيف وهي تكتب لهذا العزيز عليها عن تقدمها في دراسة اللغة العربية. تنحي الصفحة جانبا وتبدأ من جديد والظاهر أنها نقلت الفقرات الأربع الأولى؛ لأن الخطاب يستمر في صفحة جديدة.

وأعتقد أنك ستتعاطف معه، أظن أنه سيعود قبلي، ولذا سأطلب منه أن يحمل إلى مستر ونتروب الأعشاب التي طلبها منى في الخريف الماضي، وإذا كان هناك شيء تحب أن أرسله لك من هنا.

الحق أنها منذ شهرين، وقد أخذت حياتها في القاهرة تمثل الواقع الأساسي في نظرها، بدا أن صورة سير تشارلز وكارولاين وبيتها في لندن لم تعد تحتل مكان الصدارة في ذهنها، فهي قلقة على سير تشارلز لكنها تعلم أنها عاجزة أن ترفع عنه ثكله والحزن الراسخ في قلبه. وهل خشيت كذلك ـ لو كانت في لندن ـ أن تظل فريسة ذلك الحزن إلى الأبد؟

١٧ مايو

اليوم خلعت خاتم إدوارد من إصبعي ووضعته هو والخاتم الذي أهديته له في الكيس الجوخ الذي صنعته لي إميلي منذ سنوات، لعله كان خيرًا أن أتيحت لي الفرصة وهذا الوقت لأستعد لما سيدخل على حياتي من تغيرات جسيمة، فأودع الماضي بقدر ما أستطيع، وأنساه.

كنت أظن أنني سأشعر بالحرج نحو ذكر إدوارد في هذه الظروف، لكنني أعتقد أنه لو كان حيا لما اهتم بأمر زواجي ثانية، ربما كان يشعر بالفرح لي وبحمل ينزاح عن كاهله. إلا، إلا إذا ـ أظنه كان يفعل ذلك في حالة زواجي من شخص مقبول لديه، أما زواجي هذا....

أحاول أن أتخيل إدوارد وشريف باشا (مازلت عاجزة عن استخدام اسمه بدون اللقب) أحاول أن أتخيلهما يلتقيان، لكن حتى في خيالي لا أستطيع أن أجعلهما يتصافحان.

بالتدريج أفهم ما يحدث لي الآن فأنا أضع مسافة بيني

وبين من عرفتهم وأحببتهم طول حياتي. أستطيع تخيل كارولاين تقابل شريف باشا وتمازحه مع بعض الغزل، أما الرجال، حتى سير تشارلز العزيز على ـ أبي وحده، أبي كان يمكن أن يصبح صديقه، ليس هنا في مصر ولا في إنجلترا، لكن لو أنهما التقيا في بلد آخر، يمكنني تخيلهما يتحادثان بظرف هادئ بالفرنسية، أما أمي فأنا متأكدة لو التقيا لأصبحا صديقين في التو واللحظة.

لم أره منذ أحد عشر يوما، وإذا سارت الأمور حسب الخطة الموضوعة لن أراه إلا في اليوم الثالث والعشرين، لكن ليلي ـ صديقتي العزيزة ـ التي ستصبح قريبا أختي، تحمل إلى رسائله وتحكي لي بابتسام كيف يتذمر ويتململ كلما مر يوم لا نلتقي فيه، وتهتف: يا حبيبتي آنا! كم أنا سعيدة! كنت يئست من زواجه يوما، والآن أسرعي وهاتي لنا عروسة لأحمد. لكن أحيانا تنظر إلى متفكرة وتقول: «تعرفين أن آبيه سيدعك تسافرين إلى بلدك لتزوري أهلك متى شئت»، قلت لها :طبعا أنا متأكدة من ذلك... «لكن» وبدا عليها القلق: «لا تتوقعي أن يصحبك.» قلت: «نعم أدركت ذلك من البداية.»

«يمكن أن ينتظرك في فرنسا.»

قلت لها: «أنا بخير يا ليلي. من السابق لأوانه أن نبدأ القلق على اشتياقي لبلدي». والواقع أنني لا أرضى له أن يحضر إلى لندن ويحدق الجميع فيه بدون تحية، أو أسوأ من ذلك.

ربما في يوم من الأيام عندما تحصل مصر على الاستقلال نأخذ أطفالنا إلى إنجلترا ونفتح البيت في هورشام في أشهر الصيف وأفرجه على... ـ لكن علينا الانتظار طويلا حتى يتحقق هذا الأمل».

أطلعتني ليلي على الترتيبات المنتظرة! العقد في يوم والتصديق في اليوم التالي، لأن العقد إذا تم تنفيذه لا يملك لورد كرومر أن يوقف الزواج، أما الزفاف ففي اليوم الثالث. ناقشنا التفاصيل فقلت لها أود أن تجري أحداث العرس ـ بقدر الإمكان ـ وكأنني مصرية، فأنا متأكدة أن هذا سيسعد زينب هانم التي انتظرت طول هذه السنوات لتفرح بزواج ابنها. وأظن كذلك أنه سيسعده هو الآخر. أما عن نفسي فحيث إن عقد زواجي لن يتم في كنيسة هورشام العتيقة، فالخير أن يكون الأمر مختلفا تماما، وبناء عليه تركت الأمر فيما يتعلق بي بين يدي ليلي وعليها أن تتولي أمري كما لو كنت شقيقتها. وسعدت هي بذلك وبدأت بالتوصية على فستان للسهرة من اللاميه الذهبي من عند خياطة فرنسية في شارع قصر النيل لأرتديه يوم الزفاف، وكلما ذهبت إلى البيت الكبير أجدها هي وزينب هانم والعاملات في البيت جميعا مشغولات بالخياطة والتطريز في قطع متعددة من الملابس تقاس عليّ وتعدل وتشبك بالدبابيس حتى يأخذني التعب وأطلب الرحمة. خسارة أن إميلي لا تشارك في كل هذا النشاط، وكانت ستفرح بالتأكيد عدا أنني لا أعرف ما سيكون رأيها في هذا الزواج.

١٨ مايو

طلبت اليوم من ليلي أن تسأل شريف باشا إذا كان من الممكن أن نعيش مع والدته. أنا لم أر بيته لكني فهمت أنه مبنى على الطراز الأوروبي مثل كل البيوت الحديثة، لكني أحب البيت القديم ويزداد تعلقي به بعد كل ساعة أقضيها فيه، فسألت: «ألا يمكن أن نعيش هنا ولو لفترة؟ سيكون من الصعب على أن أدير البيت بالطريقة التي يحبها، وأفضل أن أتعلم من والدتك وليس من الخدم».

أعرف أن زينب هانم تتمني أن يعود ابنها ليعيش معها تحت سقف واحد وإن كانت لم تقترح ذلك، وأود لو رزقنا طفلا ـ يارب ـ أن أجلس مع ليلي في الرواق (المسقوف) على حافة الفناء نطرز ملابس الأطفال ونرقب أطفالنا يلعبون قرب النافورة، وأنا أنصت إلى وقع حوافر الخيل والضجة على الباب تنبئني أن زوجي قد عاد إلى بيته.

(٢٠)

وأْذَنوا لي اليوم أن أدخل إلى محبوبي

إدموند سبنسر

٢٢ مايو ١٩٠١

الشيخ محمد عبده يهز رأسه وقد عقد حاجبين لم يخطهما الشيب كما خط الذقن الوقور، يقرأ الخطاب الموجه إلى الأمير يوسف كمال بينما يجلس الرجال في صمت في الحجرة الواسعة بسيطة الأثاث: بياضات سمنية اللون تغطي الكنب والوسائد، وخزائن الكتب تعلو إلى السقف. عندما يفرغ من قراءة الرسالة يناولها للشيخ محمد رشيد رضا الجالس إلى جواره، يقول في أسى:

ـ هؤلاء الناس! لن نتقدم خطوة طالما يفكرون بهذه الطريقة.

يرد شكري بك العسلي:

ـ هؤلاء الناس يلزمهم التعليم، وفضيلتكم في موقع يمكنكم من تعليمهم، فيضيف شريف باشا:

ـ كلمة منك تسكتهم.

يرد الشيخ:

ـ دعوني أفكر في الموضوع.

يشعر شريف باشا بالعطف على صديقه القديم: عاد بالأمس فقط

من إستامبول، واليوم لم ينقطع سيل الزوار وأصحاب الحاجات. التعب باد على وجهه. يقول برفق:

ـ مد شكري بك إقامته بالقاهرة ليلقاك، لكن إذا كنت متعبا نعود في وقت آخر...

ـ لا، لا. أنا تحت أمر شكري بك وأمرك...

يقول شكري بك:

ـ كنا نأمل أن تتوقفوا عندنا في القدس يا سيدنا.

ـ في المرة القادمة إن شاء الله، أملي أن أصلي في المسجد الأقصي مرة أخيرة إن أذن الرحمن..

ـ وكيف كانت زيارتكم للباب العالي؟

ـ مثل كل مرة، دسائس ومؤامرات! كان جواسيس السراي يتبعونني كظلي أينما ذهبت.

ـ عبد الحميد لا يثق في أحد.

قال شريف باشا:

ـ عنده أسبابه، يعلم أن كثيرين يودون التخلص منه.

ـ يا سيدنا، سمعنا أن السلطان قابل الدكتور هرتزل وديفيد ولفسون، فهل جد جديد؟

ـ فهمت أنهما قدما نفس العروض والتأكيدات، قالا له ان الصهاينة ثابتون على ولائهم لعرشه، وأنهم لا ينخرطون في جمعيات سرية مثل الأرمن أو البلغار، وأنهم لن يلجأوا إلى القوي الخارجية في طلب المساعدة...

هب شكري بك واقفًا: أكاذيب! إنهم يرفضون حمل الجنسية العثمانية بالضبط لهذا الغرض، ليظل في مقدورهم كأجانب أن يلجأوا إلى الدول الأجنبية العظمي، وإذا نشب نزاع بينهم وبين مواطن عربي لا يحاكمون إلا أمام قناصلهم.. كم عرضوا عليه هذه المرة؟

كان شكـري بك حادا في غضبه لكن محمد عبده يرد عليه في هدوء: لم يحددوا مبلغًا بالذات، بل اكتفوا بالإشارة إلى أنهم يعرفون أن خزينته في حاجة إلى المال، وإلى أن أصدقاءهم يتحكمون في أكثر من ثلاثين بالمائة من أموال العالم، فإذا أعطاهم فلسطين وتركهم يحكمون أنفسهم كما حدث في ساموس..

ـ ساموس أعيدت إلى أهلها، سكانها سمح لهم أن يتولوا حكم أنفسهم..

ـ كان هذا هو المثال الذي ذكروه.. في المقابل يدفعون مبلغًا محددًا للسراي وجزية سنوية..

ـ ثم ماذا؟ يتريث شكري بك وقد ضاقت عيناه وهو يركز بصره على وجه الشيخ.

ـ استمع عبد الحميد إليهم، لكن لم ينته إلى شيء، كان عزت باشا العابد حاضرًا وأفزع السلطان بقوله إن الثورة ستشب في جميع أنحاء البلاد لو باع الأرض من تحت أقدام أهلها.

ـ لماذا يوافق على مقابلتهم أصلا؟ يتساءل شكري بك: لقد

رفض عرضهم لشراء فلسطين سنة ٩٦، وهو يعرف أنهم مازالوا يسعون لنفس الغرض....

ـ عبد الحميد ماكر جدا يا شكري بك، وهو كفء لملاعبة هرتزل وغيره، إنه واقع تحت ضغط أن يركز ديون تركيا في مصدر واحد ويضمنها، وفي اعتقادي أنه وافق على مقابلة هرتزل اتقاء للخطر الأكبر الذي يحمل همه.

ـ هرتزل هو الخطر الحقيقي الذي يهددنا، لقد اشترت مؤسسة صندوق الاستيطان اليهودي أرضًا من أجود الأطيان في طبرية والفلاحون هناك ثائرون ثورة كبيرة..

ـ هرتزل قال للسلطان إنه يراسل الشيخ يوسف الخالدي ـ يقاطع شكري بك الإمام بحده:

ـ ليس هناك مراسلة بينهما. الخالدي كتب رسالة إلى صديق له في باريس ـ الحاخام زادوك كاهن ـ يرجوه أن يستخدم نفوذه ليحول طموحات الصهيونية عن فلسطين. أطلع كاهن هرتزل على الرسالة، فتعهد هو بالرد عليها.

ـ أنت على علم بالموضوع إذن؟ يسأل شريف باشا: هل اطلعت على تلك المراسلات؟

ـ نعم. كتب الخالدي رسالة عاطفية (بالفرنسية) مشهدا الله والتاريخ وختمها بجملة: استحلفكم الله دعوا فلسطين تعيش في سلام، وكتب هرتزل رسالة ماكرة، ملأها بوعود مالية وتهديدات خفية.

قال الشيخ رشيد رضا: عاش اليهود في فلسطين منذ قديم الزمان، أما اليوم...

ـ عاشوا كما يعيش غيرهم، قال شكري بك ثم أضاف: أما اليوم فيأتون بالآلاف يدعمهم صندوق الاستيطان. انظروا! وأخرج قصاصة جريدة من جيبه: الأهرام في ٢٤ إبريل (١٩٠١).

تروي الجريدة خبرا منشورا في جريدة مورننج بوست الأمريكية يفيد أن الصهاينة عقدوا اجتماعا كبيرا في ميلووكي، وبدءوا حملة عالمية لجمع التبرعات من اليهود في كل البلدان لشراء فلسطين من السلطان عبد الحميد الثاني.

ـ إنهم يعرضون أسعارا عالية لشراء الأراضي وبعض الملاك ـ كبار الملاك الذين يعيشون في المدن ـ يبيعون، والفلاح بدلا من أن يزرع الأرض ويدفع للمالك نصيبه من المحصول، يصبح وقد تحول إلى عامل أجير، أو طرد من الأرض. لا يريدون التعامل مع العرب بالمرة، فأطفالهم لا يذهبون إلى مدارسنا، وهم لا يسمحون لأبنائنا بالالتحاق بمدارسهم، يتحدثون لغات البلاد التي جاءوا منها، ويديرون شئونهم بأنفسهم، ويحتفظون بجنسياتهم الأجنبية. ماذا يريدون من العيش بيننا؟

يخيم الصمت. يسير شكري بك إلى النافذة ويتوقف عندها برهة. عندما يعود إلى مجلسه يرفع الشيخ محمد عبده عينيه عن مسبحته ويقول:

ـ إنني أفهم دواعي قلقك، ورأيي الشخصي أن حلمهم مستحيل. إن صهيون التي يحلمون بها فكرة، أو مكان في الجنة، والجنة لا

تتحقق على الأرض. لكني سأحدث قطاوي باشا وأسأله المشورة، وأتصور أنه لا يحب أن يرى الانقسام ينشب بيننا..

يقول الشيخ رشيد رضا: الحق أننا منقسمون على أنفسنا بما يكفي.

ـ إنه قدرنا! حظنا أننا ولدنا في هذه الأيام.

ويعلق شريف باشا: كانت الأمور تبدو مختلفة في الستينيات والسبعينيات.

ـ لعل السبب أننا كنا في مقتبل العمر..

ـ لعلنا لا نحقق شيئا أو نحدث تغييرا يذكر إلا في شبابنا.

ـ أبدا! إننا جميعا نحدث تغيرات ـ تغيرات ليست كبيرة ـ ليست الثورة الفرنسية، لكنها ستتراكم وتتجمع في النهاية، وبخسارة أقل.

يبتسم شريف باشا: منذ عشرين عاما لم يكن محمد عبده يرى عيبا في الثورة الفرنسية. تقدم شكري بك ليصافح الإمام: أشكر فضيلتكم وأرجوكم أن تتذكروا أن الخالدي وأنا لسنا وحدنا اللذين يساورنا القلق لما يحدث في فلسطين.

يخرج رشيد رضا مع شكري بك العسلي، ويبقي شريف باشا والشيخ وحدهما. يتنهد الشيخ ويمسح بيديه على وجهه المتعب، فيسأله صديقه:

ـ ماذا تري في كل هذا؟

ـ أرى أنه موضوع يدعو للقلق، وكذلك تلك الرسالة التي أعطيتها لي، والضريبة على خيوط الغزل التي يحاول كرومر أن يفرضها...

هز شريف باشا كتفيه كأنما لينفض هذه الأمور عنهما وانحني إلى الأمام مسندا مرفقيه إلى ركبتيه:

ـ عندي موضوع خاص أريد أن أحدثك فيه. خدمة كبيرة، يا صديقي، أحتاجها منك.

ـ خير؟ تلمع عينا الشيخ بالانتباه: مرني.

ـ غدًا تعقد زواجي.

يضيء وجه الشيخ بالفرح، فيضيف شريف باشا: على سيدة إنجليزية: الليدي آنا ونتربورن.

يتفحص محمد عبده وجه صديقه ويسأل بهدوء: ولم غدا بالذات؟.

يعتدل شريف باشا في مقعده: لأنه لو علم أحد بما ننوي يمكنك أن تتخيل العواقب، ولأنني لا أستطيع أن أراها حتى أطمئن إلى أنها زوجتي على سنة الله ورسوله، ولأنني انتظرتك ١٧ يوما والعمر يتقدم بي وليس لدي وقت أضيعه أكثر من هذا! أتريد المزيد؟

لم تفارق عينا الشيخ عيني صديقه، والآن تنتشر الابتسامة على وجهه حتى تملكه كله، وينحني إلى الأمام ليحتضنه:

ـ مبروك يا شريف باشا! ربنا يتمم لك بخير.

يبعده قليلا وينظر في وجهه وهو يربت على كتفيه، ثم يعود فيقبله.

وأنا أوقع العقد رنت زغرودة مبروكة عالية صادقة، ولم يفكر أحد في إسكاتها. عَقَد زواجنا الشيخ محمد عبده صديق شريف باشا، وإذا كان لأي إنسان القدرة على منح البركة فهي لهذا الشيخ الورع. وكتبوا العقد بالعربية والفرنسية.

وها هما الصورتان في صندوق آنا: عقد قران ليدي آنا ونتربورن (مسيحية) بنت سير إدموند دي فير (متوفي) وليدي أورورا دي فير (متوفاة)، (أرملة المرحوم كابتن إدوارد ونتربورن من الفرقة ٢١ لانسرز في جيش صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا العظمي) الرشيدة البالغة، على شريف باشا البارودي (مسلم)، صاحب أملاك ومن الأعيان وعضو المجلس التشريعي ومهنته محام... ويذكر العقد أن شريف باشا دفع صداقا لليدي آنا مبلغ خمسة آلاف جنيه مصري. أجري في عقلي حسبة صغيره فأقرر أن آنا كانت تستطيع أن تشتري بهذا المبلغ ١٢٠ فدانا من أجود الأطيان. ويتعهد شريف باشا في العقد بمؤخر صداق قيمته عشرين ألف جنيه إذا طلق ليدي آنا بدون رغبتها، كما يضع عصمتها بيدها، فلها مثل حقه في تطليق نفسها منه، وأضيف بند في العقد أنه في حالة استخدام شريف باشا لحقه القانوني في اتخاذ زوجة أخرى يكون الطلاق نافذا ومؤخر الصداق مستحقا منذ تلك اللحظة، وشاهدا العقد حسني بك الغمراوي وشكري بك العسلي، ومسجل رسميا في يوم ٢٣ مايو ١٩٠١.

وفي ذلك التاريخ تغلق آنا كراسة مذكراتها السرية زرقاء الغلاف وتعود إلى المجلد الأخضر الجميل.

ترددت أمام بعض النقاط وخفت أن يبدو في العقد

وكأنني لا أثق في حسن نيته، لكنه قال إن العقد أفضل هكذا فوافقت. دفع لي المهر جنيهات ذهبية في كيس ثقيل، رجوته أن يحتفظ لي به عنده لكنه مصر على إرساله إلى البنك الذي أتعامل معه في إنجلترا.

رأسي يموج بمشاعر وإحساسات مختلطة، شكري بك وحسني بك كانا في غاية اللطف، وملأت الفرحة ليلي وزينب هانم حتى أني سعدت إلى جانب فرحي الخاص أن أكون السبب في فرحهما. ومبروكة تقول وتكرر ألم أر كل هذا في الفنجان؟ وليس لدي أي فكرة عما تعني، لكني أهز رأسي وأوافقها!

ماذا أكتب عن زوجي؟

وضع دبلة عريضة من الذهب في إصبعي وقبل يدي.

قال: «يومان ونكون معا» واهتز قلبي فرحا وكأنه يهم بالقفز خارجا ليستقر في صدره هو.

ستكون هذه آخر ليلة أقضيها في هذه الحجرة التي عشت فيها أكثر من نصف عام. طلبت من إميلي أن تحزم حقائبي، وأخبرتها أني سأغادر في الصباح ثم أرسل في طلبها سريعا، بدت عليها الدهشة لكني أعتقد أنها تتخيل أني ذاهبة إلى الإسكندرية وبعد إقامة قصيرة هناك سنرحل إلى إنجلترا.

الليلة لا بد أن أكتب خطابا لسير تشارلز.

٢٤ مايـــو ١٩٠١

هذه آخر ليلة أنام فيها وحدي. وصلتني رسالة رقيقة واعدة من زوجي منذ نصف ساعة: «نوما هنيئا يا ليدي آنا. أنا وأنت أمامنا مهام خطيرة غدًا». فعلا سأنام أو أحاول النوم، لكن يجب أن أسجل أحداث هذا اليوم الفريد.

غادرت الفندق فوجدت عربة زوجي في انتظاري، كما اتفقنا، على ناصية شارع المغربي وشارع عماد الدين. سارت بنا العربة إلى دار المعتمد، وهو ممسك بيدي طول الوقت. كان قد أرسل رسالة سبقتنا إلى لورد كرومر ليتجنب كثيرًا من الشرح على حد قوله، وعند وصولنا قابلنا شاب يعمل في مكتب زوجي أتى ليتولي الترجمة. فهمت أنها المرة الأولى التي يدخل فيها شريف باشا هذا المبني، وبدا لي المكان غريبًا بعد أن كان مألوفًا في عيني، إذ رأيت القلق مرسوما على وجوه الموظفين، يتحاشون لقاء عيونهم بعيني وهم يقودوننا إلى مكتب اللورد.

قام لورد كرومر واقفا ليحيينا وأحني رأسه لزوجي لكنه لم يمد يده ليسلم عليه، ودخل في الموضوع مباشرة ونحن نجلس أمام مكتبه:

ـ هل أفهم أنك تريدين الزواج؟

كان يوجه حديثه لي ولا يخفي نفوره حتى لسعتني لهجته ورددت عليه بالفرنسية كي يفهم زوجي كل كلمة:

ـ لقد تزوجنا فعلا يا لورد كرومر، ونرغب في تسجيل الزواج ليتم الاعتراف به في بريطانيا.

رأيت وجهه يحتقن لكنه سيطر على غضبه وسأل متى تمت المراسم. ترجم الشاب التابع لنا هذا الكلام إلى العربية وتولى زوجي الرد ـ وطوال المقابلة كان لورد كرومر يتحدث بالإنجليزية، وأنا بالفرنسية، وشريف باشا باللغة العربية. لم يُقدم لنا شايًا أو قهوة ولم نتبادل أي مجاملات. أشار زوجي إلى مساعده فأحضر نسخة العقد المكتوبة بالفرنسية ووضعها أمام لورد كرومر الذي فحصها لحظة ثم استدار إلي:

ـ ليدي آنا، هل تدركين ما تفعلين؟

لو بدا لي حزينا أو متحيرا لتعاطفت معه، لكنه لم يظهر إلا النفور والغضب. سأل:

ـ هل يعلم سير تشارلز وينتربورن بهذا الأمر؟

قلت: لقد كتبت له ولغيره من الأصدقاء.

هتف لورد كرومر: هذا كلام فارغ. كان المفروض ألا يتورط محمد عبده في هذا الموضوع.

نطق زوجي: ببعض الكلمات القصيرة الحادة. نقلها المترجم: الباشا يقول إن ما يهمنا هو تسجيل العقد، وليس معرفة رأي لورد كرومر فيه.

قال كرومر: ليدي آنا، يستحسن أن نتحدث على انفراد.

وضعت يدي لحظة على ذراع شريف باشا وقلت: لا أعتقد أن لدي ما أقوله ولا يسمعه زوجي.

تحدث لورد كرومر بصوت آسف وقلق هذه المرة: يا عزيزتي إنك ترتكبين خطأ كبيرا، إن الموظفين هنا يمكن أن يحدثوك عن شابات نجدهن هائمات مشردات بعد دخولهن في مثل هذه الزيجات، ستسمعين ما وصلت إليه أحوالهن.

عندما توقف المترجم عن حديثه المهموس، أجبت: لقد سبق أن سمعت تلك الحكايات، وأحسست أنها تُروي بنوع من الاستمتاع، ولا أظن أنها تنطبق عليّ.

تحدث زوجي ببطء حتى يتابعه المترجم: لورد كرومر، أظن أني أفهم بعضا مما تشعر به، ما كنت لأسعد لو أن شقيقتي أرادت الزواج من رجل إنجليزي، والواقع أنني في الغالب كنت أفعل كل ما في وسعي لأمنعها. وبصرف النظر عن آرائك المغلوطة، يبدو لي أنك تقدر زوجتي وتعتقد أنك تسعى لمصلحتها، ولن تعني تأكيداتي بالإضافة إلى ما تؤكده هي شيئا بالنسبة لك ولكن...

استدار لورد كرومر إليه وقال: شريف باشا ـ

كان صوته فظًّا لكن أسلوبه مهادن: شريف باشا، لم يسبق أن التقينا لكني سمعت عنك.

أحنى زوجي رأسه انحناءة قصيرة، واستمر كرومر: بالرغم من كل شيء أعرف أنك رجل موصوف بالنزاهة وأنك تفهم

الدنيا جيدا، ولا بد أنك تدرك ـ أقولها لك صراحة ـ كل ما ستخسره ليدي آنا بارتباطها بهذا الـ.. العقد. إنها سيدة نبيلة ذات أسرة ومكانة، لا أظنك ترضي كرجل شريف أن...

قاطعتُه أنا مسرعة: لورد كرومر ـ إذ ملكني خوف مفاجئ أن تصيب كلماته هدفها. جاء دور زوجي ليضع يده على ذراعي، وعندما فرغ من الكلام قال المترجم:

ـ يقول الباشا إنه يدرك تماما أن ليدي آنا قد شرفته بقبولها الزواج منه، وإذا فقدت مكانتها في مجتمعكم بسبب زواجها فهي غلطة مجتمعكم والخسارة خسارتكم، والباشا متأكد أن الدوائر التي ستتحرك فيها منذ اليوم ستعطيها من التبجيل والاحترام كل ما تستحقه لنبالتها ولمكانتها كزوجته.

وانفجر لورد كرومر: دوائر؟ أية دوائر؟ لن أوافق على هذا.

قلت له: سيدي اللورد، لقد تم الزواج، وإذا لم يكن في الإمكان تسجيله، فبمقدورنا أن نستغني عن التسجيل.

خرج لورد كرومر من الغرفة، ويخيل إلى أنه استشار بعض معاونيه لأنه غاب بضع دقائق، وعند عودته اتخذ مكانه خلف مكتبه لكنه لم يجلس، ظل واقفا، وقال وهو ينظر إلى شريف باشا: عليك أن توقع تعهدا ألا تتخذ زوجة أخرى ما دمت متزوجا من ليدي آنا.

وكانت لهجته في الكلام أنسب أن توجه إلى بائع يشك

في أمانته فشعرت بالغضب يغلي في عروقي، الغضب من أجل زوجي والغضب من أجل بلدي، خشية أن يظن شريف باشا أننا كلنا لا نعرف أصول اللياقة وأدب الحديث. قلت: لورد كرومر، هذه إهانة.

ـ ليدي آنا ! إني مصر، من الواضح أنك خالية الذهن تمامًا.

ـ التعهد مثبت في العقد، قالها زوجي بهدوء وهو يقوم عن مقعده، وفيه بنود أخرى يجدر بك أن تقرأها. أكون شاكرا لو أمرت بإرسال الأوراق بعد تسجيلها إلى مكتبي. أعتقد أننا أخذنا ما يكفي من وقتك.

والتفت إلي: سيدتي؟

وخرجنا. أنا متأكدة أن لورد كرومر قرأ العقد، ومتأكدة كذلك أن القراءة لم تهز ثقته لحظة في أنه مصيب في تقييمه لزوجي، فليس من عادة اللورد أن يشك في نفسه. في العربة حاولت الاعتذار لكن زوجي وضع إصبعه على شفتي قائلا: شش، لا داعي. نحن السعداء، فلا تفكري في شيء سوى هذا.

كانت المقابلة مع إميلي هي الأخرى فظيعة، وقد أرسلت في طلبها بمجرد استقراري في بيتي الجديد. أعرف أنها كانت غاضبة مني وإن لم تفصح عن غضبها إلا بزم شفتيها قليلا:

- إذن سيدتي لن تحتاج إلى خدماتي بعد اليوم.

قلت إنني أريدها أولا أن تتأكد من تسليم هذين الخطابين لمسز بوتشر ومستر چيمس بارنجتون، ووضعت الخطابين في يدها، أما عن الباقي فأنا في حاجة إليها إذا رغبت في البقاء، لكن ظروفنا تغيرت بحيث أشك أنها ستكون سعيدة. أعطيتها مهلة ٣ أيام تقيم في فندق شبرد وتفكر في الأمر ثم أرسل في طلبها.

وارتحت أنها لم تبق هنا، لأنهم يحتفلون اليوم بليلة حنتي، والواقع أني لم أضع حنة في كفيَّ ولا قدميَّ لأن ليلي قالت إن هذا أصبح موضة قديمة، لكن ما وقع على جسمي من حك ودعك وتدليك ونتف وتلميع وغسل جعلني أشعر أن أطرافي وحدها كافية لإنارة قاعة احتفالات. خادمات تجري هنا وهناك طول اليوم، هذا عدا الماشطات المكلفات بي، وزينب هانم مشغولة في المطبخ مع عدد من النساء يقمن بإعداد وليمة الغد. وأحمد وسط كل هذا هو وغيره من أطفال لا أعرفهم يختلسون حبات من الفاكهة ومن الزبيب والحلوي، ويتسلقون أجولة المؤن المتروكة في الفناء، ويرشون بالماء كل من يمر قرب النافورة، فهم يعرفون أنهم اليوم يلعبون كما يشاءون ولن يعاقبهم أحد. ولا ينقطع الغناء ولا الزغاريد طول اليوم، ومن حين لآخر تدخل ليلي لتفرجني على شيء جديد: حلية ذهبية، أو طقم من كئوس كريستال، أو طقم شاي من الفضة، وتقول هدية من فلانة أو فلان ثم تحملها بعيدا.

والأزهار! سلال وسلال من الزهور تصل طوال اليوم.

قالت لي ليلي معتذرة أنني سأجد الحجرات المخصصة لنا عارية بعض الشيء لأن أخاها فكّر أنني سأجد متعة في اختيار المفروشات بنفسي، فأكدت لها أنه على حق. لم يسبق أن خطر هذا على بالي، ولكني الآن أتطلع بشغف إلى اختيار وتصميم المفروشات، ويمكنني أن أستلهم صور فردريك لويس العزيز علي، أما الليلة فأبيت في حجرة صغيرة للضيوف في جناح زينب هانم، وقد طلّت على عدة مرات لتتأكد أنني لست حزينة أو متوحدة في المكان الغريب. كم أنا سعيدة! سعادة هائلة، سعادة تكبر وتعلو وتحتاج أن تنطلق في أنشودة تغمر العالم حولي، والحق أني لست متوحدة، إلا أنني أتمنى لو شاركني سعادتي اليوم أحد من أصدقائي القدامى - ربما كارولاين.

شريف باشا يقضي الليلة في بيته. ها قد اختفت كل شكوكه وتساؤلاته، لم تعد ليدي آنا الإنجليزية، إنها الآن ليدي آنا زوجته، آنا هانم حرم شريف باشا البارودي. يبتسم لنفسه وهو يغطس في ماء الحمام، وهو يدور ملفوفا في برنس أبيض في حجرات البيت الذي سيغادره غدا بعد هذه السنين. من الغريب أن يشعر بكل هذه السعادة، سعادة السكينة، حتى في ذلك اللقاء التعس مع كرومر، لم يطاوعه قلبه أن يكره الرجل. آه، لكن كم كرهه كرومر! وكره أن يضطر إلى الجلوس في مكانه وعقد الزواج يخرق بصره. يبتسم شريف باشا ابتسامة واسعة. وكانت هي رائعة - لم تنطق كلمة واحدة

بالإنجليزية ولم تسلم في نقطة واحدة. في كل خطوة تبهجه! حتى رغبتها في العيش مع أسرته خلصته من القلق على أمه في وحدتها. دهشتها للبنود المضافة لعقد الزواج. يدها على ذراعه في مواجهة كرومر!

في حجرة نومه يعيد فتح علبة القطيفة على مائدة الزينة: غدا مساء عندما يراها ستتألق هذه اليواقيت في أذنيها وعلي نحرها، وفيما بعد ستخلعها عنها يداه.

(٢١)

ولعمري إنّ ما قالوه لصحيح، وإنّ في هذه اللذة التي لا توازيها لذة لو دامت، لتنبيهًا على اللذات الموعودة في الجنان، إذ الترغيب في لذة لا تعرف لا ينفع، فلو رغب العنين في لذة الجماع، أو الصبي في لذة الملك لم ينفع الترغيب فيه، فإحدي فوائد هذه اللذة في الدنيا الرغبة في دوامها في الجنة، ليكون ذلك باعثا على عبادة الله عز وجل.

قال: فانظر إلى حكمة اللّه تعالى، ثمّ رحمته كيف جعل شهوة واحدة حياتين: حياة ظاهرة وحياة باطنة، فالحياة الظاهرة حياة المرء ببقاء نسله، والحياة الباطنة هي الحياة الأخروية، فإنّ في هذه اللذة الناقصة بسرعة الانصرام تحرك الرغبة في اللذة الكاملة بلذة الدوام، فتحث على العبادة الموصلة.

الإمام الغزالي، إحياء علوم الدين، القاهرة ١٣٥٨ هـ(*)

(*) النص الوارد في الرواية الإنجليزية من الإمام جلال الدين السيوطي ـ وحيث إننا لم نتمكن من الاهتداء إلى النص بالعربية فقد استبدلناه بنص مشابه من الإمام الغزالي.

٥ أغسطس، ١٩٩٧

اتخذت إيزابل قرارا: أخي سيبادلها الحب.

قال لي: لا أستطيع أن أدخل في علاقة معها، سني لا تسمح، لا أستطيع تغيير طريقة حياتي، ومن الصعب التوفيق بين كل ما هو مطلوب مني، لا يمكن أن أقع في كل ذلك ثانية.

قاطعنا عامل التليفون: قولي مع السلامة.

قال عمر: وقتك انتهي، سأطلبك أنا.

عامل التليفون: قلت مع السلامة؟

قال أخي عندما طلبني: إيه حكايتك؟ لم لا تشتركين في الخط الدولي؟

ـ لا أريد.

ـ يعني تفضلين الذهاب والوقوف في الطابور في مكتب تليفون قميء لتحجزي مكالمة؟ إنها مكاتب تصيب الإنسان بالاكتئاب.

ـ لا أقف في طابور ولا تكاد تجد فيها أحدًا، معظم المشتركين عندهم الآن خطوط دولية.

ـ فهمت. موقف مبدئي مدروس، طيب، خلاص، ماذا كنت أقول؟ صديقتك.

ـ صديقتي أنا؟ أنت أرسلتها هنا.

ـ خرجنا معا بالأمس، خابرتني بالتليفون وهي ـ لا أنكر أنها تجتذبني.

ـ لم أطلب مكالمتك لأسألك أن تجاريها أو تقبل تحديها.

ـ لا! لكنك أوصيت بها.

ـ فكرت أنه يستحسن أن تعرف أنها متعلقة بك جدا.

ـ نعم! أعرف.

ـ يالتواضعك يا عمر!

ـ اسمعي. دعك من هذا الكلام، ما المفروض أن أفعل؟ سني ٥٥ سنة، وقد خضت هذه التجربة. لا أطيق.

ـ لا تطيق ماذا؟

ـ أن أعود للشرح والتبرير مرة ثانية، تجربة مؤسفة جديدة.

ـ هل لا بد أن تنتهي بالأسف؟

ـ هذا ما يحدث دائما.

ـ طيب! أنت حر.

ـ حر؟ وضحك.

لم أخبره بالرؤيا أو الكشف أو الشيء الذي تجلي لها في البيت القديم، فليس له صبر على الخرافات، وتخيلته يقاطعني قبل

أن أنتهى من الحديث: وتريدين أن أجاريها وأقبل ما تعرضه؟ لا يا حبيبتي، قريبتنا والا ما قريبتنا، أنا خارج هذا الموضوع. حافظ عمر على صداقة كل امرأة تعلقت به، وأطفاله يحبونه جدا، وإذا كانت إيزابل تعجبه فلماذا لا يجاريها؟ ربما لن يكون هناك وقت كاف لتنقلب العلاقة إلى حزن. ما أحزن الفكرة!

يقول: ما أخبار الصندوق الذي أرسلته لك؟ هل تقدمت كثيرا في تفاصيل الحكاية؟

ـ جدا، وهما الآن على وشك الزواج. أفكر في أن آخذ الأوراق كلها وأذهب إلى طواسي.

ـ لماذا؟

ـ فكرت في الإقامة هناك لبعض الوقت، في الأرض.

ـ في أغسطس؟ أنت مجنونة؟ اسمعي، ربما أحضر عندكم في النصف الثاني من الشهر، ويمكن أن نقضي يومين معا.

ـ مدهش! هل ستعلمني بموعد وصولك؟

لم أسأله عن سبب حضوره ولا عن أي طريق يسلك. أعرف أن تليفونه مراقب. ظلوا في نيويورك طوال ٣٠ عاما يمجدون أصول أخي الفرعونية، يحبونه ويزجون لأنفسهم التهنئة بناء على هذا لبعدهم عن التعصب، يتفاوضون عن إشاعة أنه اشترك في المصادمات في عمان سنة ٧٠ وعن عضويته في المجلس الوطني الفلسطيني، وعندما استقال من المجلس والعالم يحتفل بنصر جديد للدبلوماسية، والزعماء يتصافحون بلا حماس في حديقة

البيت الأبيض، أصبح يمثل الشبح الذي يقول ـ لمن شاء أن ينصت ـ إن اتفاق أوسلو لن يفلح ولا يمكن أن ينفذ.

تلك الليلة، ليلة السادس من صفر ١٣١٩، كانت آنا تبدو ملكة، كانت مضيئة تتلألأ وهي تتحرك بين المدعوات، وقد حباها الله بنعمته وفتح قلوب الحاضرات لكل كلمة منها أو حركة.

كان من عاداتنا أن تجلس العروسة في الكوشة وتأتي إليها المدعوات عند دخولهن لتحيتها وتهنئتها، ثم تجلس الضيفة في مكانها أو تتجول في القاعة تتحدث مع غيرها من المدعوات، إلا أن آنا لم تصبر على الجلوس في مكانها طويلًا، وسرعان ما تركت الكوشة وتحركت بين المدعوات تبادلهن الحديث بالفرنسية لمن يعرفنها وبالابتسامات والتحية لمن لا يعرفن. فوجئت السيدات في البداية لكن سرعان ما رحبن بها واعتبرن سلوكها دليلا على التواضع وعدم التكلف ورغبتها في كسب رضاهن وسعدن بها كثيرا.

كان فستان زفافها طويلا مرسلا، خاطته مدام مارتا من الحرير المقصب، مفتوح الصدر ويكشف عن جمال نحرها وكتفيها، وعلي ذراعيها زوجان من الأساور الذهبية السميكة هدية والدتي، وحول رقبتها وفي أذنيها يواقيت زرقاء وماسات ثمينة أرسلها أخي في الصباح. شهقت آنا إعجابا عندما فتحت العلبة، ورفعت بصرها إلى. سقط شعاع الشمس على وجهها فقلت لها: «إنها في لون عينيك بالضبط».

جهزناها بثوب العرس ورفعنا شعرها الذهبي تاجا ناعما

على رأسها شبكنا فيه تاج العروس، لكن لم ترتد طرحة. أشعلت مبروكة بخورا من العنبر الخام ودارت طول اليوم في غرف العروسين تتمتم بالصلوات والتعاويذ، وعندما فرغت آنا من زينتها دارت حولها بالمبخرة وجعلتها تخطو فوقها سبع مرات وهي تتلو كل ما تعرفه من آيات وتعاويذ حماية من عين الحسود وعثرات الحظ، واستسلمت آنا لأفاعيل العجوز بطيب خاطر ومنحتها عملة من الذهب وهي تعانقها في إعزاز.

في ذلك اليوم دارت صواني الشربات على أهل الحي وأضيئت المشاعل في الفناء وأمام مدخل البيت، وعرضت الهدايا في القاعة ليشاهدها الضيوف، وملأت سلال الأزهار الحجرات تحمل بطاقات الأصدقاء والمعارف يهنئون أخي ويتمنون له السعادة، ولم ينقطع طول المساء صوت عجلات العربات تتوقف أمام البوابة ويهبط منها المدعوون. الرجال يبقون في الفناء وفي قاعة الاستقبال الكبيرة في الدور الأرضي، والسيدات يصعدن إلى حجرات الاستقبال في الحرملك وإلي الشرفة، والأطفال يتنقلون طول الوقت بين الطابقين.

من خلف المشربية كنت أرقب ما يدور في الطابق السفلي: كان أخي واقفا في حلة كاملة من زي الاستقبال الرسمي في البلاط، وبجانبه زوجي، وعلي الجانب الآخر شكري بك. كان يحيي ضيوفه ويتلقي تهانيهم. جاء جميع أعضاء الوزارة إلى بيتنا في تلك الليلة، وكذلك مشايخ الأزهر، والأمير محمد على نيابة عن أفندينا، ومختار باشا نائبا عن الباب العالي. أسرع الحاضرون بتقديم مقعد لعمي محمود سامي باشا والتف حوله أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وإسماعيل صبري وإبراهيم اليازجي مشكلين ركن الشعراء! كان خالي

مصطفى بك الغمراوي ينزل في بيتنا هو وأسرته. كان مصطفى بك كامل حاضرا وكذلك قاسم بك أمين، وكل منهما يتجنب الآخر! كان قطاوي باشا بين المدعوين وكذلك ابنه، هنري، والبابا كيرلس، ومحمد بك فريد، والشيخ محمد عبده والشيخ على يوسف والشيخ رشيد رضا وغيرهم كثيرون، والخلاصة أن مصر كلها كانت تحتفل في بيتنا في تلك الليلة.

وعندما دخل رجل إنجليزي ذهبت إلى آنا وسحبتها إلى المشربية فقالت: هذا جيمس بارنجتون قد استجاب لدعوتنا. وكذلك حضرت مسز بوتشر (زوجة الأسقف الإنجليزي). أخذت يدي آنا في يديها وقبلتها بعطف وتمنت لها السعادة.

كان الشيخ يوسف المنيلاوي قد أرسل إلى أخي ينبئه أنه سيغني لنا في تلك الليلة فأعد له التخت، وغني فعلا دورين في غاية الإبداع. وما إن فرغ من «بافتكارك إيه يفيدك؟» إلا وسمعنا جلبة وحركة وأصواتا كثيرة ترتفع،نظرت من المشربية فرأيت أن عبده أفندي الحامولي قد وصل لتوه والشيخ المنيلاوي يصر على التنحي لعبده أفندي بل والغناء خلفه كواحد من بطانته. وسرعان ما ارتفع ذلك الصوت الرخيم إلى الحرملك ثم إلى السماء، وتوقف الجميع عن الكلام أو الحركة. أذكر أنني نظرت حولي ورأيت الشابات وقد أخذهن الطرب وتخيلتهن وقد أصبحن جدات بعد سنوات طويلة يحدثن أحفادهن قائلات: «كانت ليلة! سمعت سي عبده أفندي يغنى في زفاف شريف باشا البارودي على عروسه الإنجليزية».

كيف أترجم كلمة طرب بدون أن يبدو كلامي غريبا أو غرائبيا؟ كيف أصف لإيزابل تلك الحالة العاطفية الروحانية وحتي الجسدية التي تغشانا عندما تتفتح الروح لأنغام الموسيقى الشرقية البارعة.

إنها حالة ذات خصوصية وطلاوة ولها جذر خاص بها «ط ر ب». أي فنان يمكن أن يطلق عليه اسم «مغني»، أما المطرب فله صفات خاصة. كان عبده أفندي الحامولي يلقب بمطرب الملوك والأمراء، وفي تلك الليلة في البيت القديم في حي طولون أثارت موهبته الفرح والحزن في قلوب مستمعيه. كيف تلقت آنا هذه الموسيقى الغريبة؟ في ظني أنها فتحت لها قلبها كما فتحته لكل ما وجدته في حياتها الجديدة.

بعد منتصف الليل سمعنا انطلاق الزغاريد وقرع الطبول تنبئنا أن العريس صاعد إلينا ليأخذ عروسه. نشبت حركة وهمهمة والسيدات يعدن إلى مجلسهن، وعدد منهن يدنين الطرحة الحريرية على وجوههن. ارتفع صوت الطبول والزغاريد حتى توقف عند الباب، ثم ساد الصمت عندما ظهر أخي واقفا وحده في مدخل القاعة. لم أره في حياتي بمثل هذه الوسامة والرجولة. فتشت عيناه عن آنا ثم أضاءت بابتسامة وجدت الجواب في لمعة عينيها. عبر الحجرة بطيئا وهي جالسة في سكون في انتظاره عالية الرأس مستقيمة الظهر.

اتخذ مقعده في الكوشة وعاد صوت الطبول إلى الارتفاع تصحبه أغاني الزفة تؤديها العوالم في حماس. بعد قليل فاضت بأمي الفرحة وكانت تحلف أنها سترقص في الفرح يوم يتزوج ابنها، فقامت واقفة ورقصت رقصة الهوانم بطيئة في أبهة، وبعد قليل انضمت إليها جليلة هانم والدة حسني تلوح بمنديلها في إيقاع منتظم بخطوات الرقصة الفلسطينية الوقورة. كان أخي يضغط بيده على يد آنا وقد فرت الدموع من عينيها، إذ أدركت قيمة التحية التي شرفتها بها سيدتان في هذه السن الجليلة.

لم ترقص أمي رقصتها الفلسطينية في زفاف أي منا. لم تشهد إلا زواج عمر الأول سنة ٦٦ بعد وفاة أبي في ذلك العام، وتم الأمر بسرعة حتى إننا لم نتمكن من السفر إلى نيويورك لحضوره. قالت أمي: «أبوك ـ الله يرحمه ـ لو كان حيا لما حدث هذا! أخوك جالس في أمريكا يخطب ويتزوج براسه وكأن لا أهل له»، وعندما تم الطلاق بقيام حرب ٦٧ زاد استغراب أمي أن يتم مثل هذا الحدث الجسيم وكأنه حادث عارض. أذكر جلستها في حجرة الجلوس في بيتنا القديم في الحلمية تقول: «الحمد لله أني لم أقابل أهل البنت! أين كنت أداري وجهي منهم الآن»، وأذكر أني نظرت إليها في عجز لا أعرف كيف يمكن إفهامها أنها بعيدة تماما عن إدراك ما يحدث حولها.

وعندما حضر عمر لزيارتنا بعد الحرب أنحت عليه باللوم كما لو كانت عروسه الأمريكية ابنة أحد أصدقائنا: كيف سيتعاملون معها الآن؟ وماذا يظن الناس بها؟

قال لها: كان قرارنا نحن الاثنين يا أمي، وخيرًا لكل منا.

سألت: لكن ماذا حدث بهذه السرعة؟ في سنة؟

قال: الحرب.

ـ الحرب؟ الحرب تدفع رجلا ليطلق زوجته؟

رد ساخرا: اكتشفنا نحن الاثنين أنني عربي.

أفكر في تلك الأيام وكيف اكتملت سعادتنا في تلك الليلة، فبالنسبة لأبي اعتدنا حالته، وقد دخل إليه المقربون من الضيوف وحيوه ولم ينقصه الرضا. وأعتقد أنني كنت أسعد

في تلك الليلة مما كنت حتى في ليلة زفافي منذ ست سنوات، كنت أعرف حسني وأحبه لأنه ابن خالي، لكنني كنت مقبلة على عالم مجهول بزواجي منه والذهاب معه إلى فرنسا، كما أثقلني الهم لتركي والدتي وحدها في البيت الكبير، أما اليوم فسعادتي مع زوجي وابتهاجي بأحمد حقائق ثابتة في حياتي، وأخي مقدم على الزواج ـ أخيرا ـ والزواج من امرأة يحبها، وأمي سعادتها مضاعفة بزواج ابنها لتعود الحياة تملأ بيتها.

قام أخي واقفا وأمام هذا الجمع من الضيوف قبل يدي أمي ورأسها، ومد يده إلى آنا، تأبط ذراعها وشق طريقه بطيئا بين الزغاريد والغناء وقرع الطبول، وبدرة قطع الذهب الرقيقة تنهال عليه وعلي عروسه، وأقسم بكل عزيز وغال أن ما من قلب بين المجتمعين في تلك القاعة إلا تمنى لهما الخير والسعادة.

أخذ شريف باشا عروسه إلى مسكنها الجديد، أما الباب المغلق خلفهما فلم يفصلهما تمامًا عن أصداء الهرج في البيت والضجيج في الشارع وضخب حفل الزفاف وأصوات الضيوف المنصرفين إلى بيوتهم.

* * *

٢٦ مايو

استأذن زوجي وغادر البيت لأمر عاجل استدعاه إلى مكتبه. لا أعرف ما الموضوع بالضبط لكنه يتعلق بالخبر الذي جاءه ليلة أمس عن صدور عفو الخديو عن عرابي باشا. عندما أخبرني بهذا قلت إنني سمعت أن دوق كورنوال

زار عرابي باشا منذ أسبوعين في سيلان، فنظر إلى نظرة غريبة وقال: «كفي؟ لدينا الليلة ما نفعله خيرا من الحديث في السياسة».

وهذا صحيح، فكما قالت الملكة الراحلة منذ نصف قرن وسار قولها مثلا: «كانت ليلة جد مربكة وممتعة»، والآن، اليوم، أشعر ـ لا أعرف كيف أصف مشاعري بالضبط ـ كأن جسدي كان غائبا وأشعر الآن بحضوره، كأنني للمرة الأولى حاضرة في جسدي.

قبل أن يخرج زوجي اصطحبني لأقابل حماي الجديد. إنه رجل لطيف جدا، يبدو أكبر بكثير من عمره (٦٦ سنة). قبل زوجي يده وفعلت مثله فابتسم بارودي بك العجوز وهز رأسه راضيا.

البيت هادئ جدا اليوم، وفيما عدا زيارة زينب هانم ومبروكة اللتان دخلتا ونحن نجلس إلى مائدة الإفطار بتمنيات «صباحية مباركة»، تركني الجميع وحدي. ويخيل لي أن زينب هانم وخدمها في حاجة إلى الراحة بعد ما بذلوه من مجهود في الأيام الأخيرة، وليلي بطبيعة الحال مشغولة بالضيوف النازلين ببيتها، أما أنا فسعيدة وراضية، راضية فقط بأن أكون. آخذ حمامي وأتم زينتي على مهل، أرقد على الأريكة تحت المشربية أرقب ماسات من أشعة الشمس تتلألأ وتتشكل على يدي وعلي ملابسي. أنام وأصحو وأنتظر عودته.

١٠ أغسطس ١٩٩٧

تحدثني إيزابل بالتليفون تقول: «أوحشتني».

ـ وأنت كذلك، كيف الحال؟

ـ أمي. أظن أنها على وشك ـ هزلت جدا ولا تكاد تتكلم.

ـ أنا آسفة.

ـ إنها هادئة تماما، وليست تعيسة، لكنها غائبة عنا.

ـ ماذا يقول الأطباء؟

ـ لا يقولون شيئا ذا أهمية. أنظر إليها وأتمني لو كنت أعرف المزيد عن حياتها، لا كما رأيتها لكن كما رأتها هي.

ـ إنه انشغالنا بقصة آنا.

ـ نعم. لماذا لم أحدثها ـ أسألها، عندما كانت لدي الفرصة؟

قلت : الغالب أننا لا نفعل.

ـ يا إلهي تتحدثين ببرود إنجليزي، تضحك: «الغالب أننا لا نفعل»، وتقلدني في لهجة تعتبرها إنجليزية مترفعة.

أقول: حسنا، أنت الأمريكية! اطلبي منها أن تشركك في مشاعرها، أو أحسن : أن تشاركك في مشاعرك.

ـ قابلت عمر عدة مرات.

ـ ثم ؟

ـ إنه لطيف جدا معي، مشغول جدا ودائما مستعجل. ذهبنا معا إلى معرض تصوير فوتوغرافي عن الصين. ينطلق كالرصاصةمن

صورة إلى أخرى، يتأملها وهو يتحرك. توقف مرة واثنتين ـ لأجلي ـ وقال: هل نتمهل هنا؟ لكنه عندما يتمهل من أجلي أعجز عن التفكير في الصور لأن عقلي مشغول بأنه ينتظر. في النهاية تبعته وهو يتفرج على المعرض بأقصي سرعة. لكنه دعاني إلى عشاء رائع بعد ذلك.

ـ إيزابل، هل أنت بخير؟ يبدو أنك منفعلة أكثر مما يجب.

ـ آه بخير أكيد. لا لست بخير. أريده أن يحبني.

ـ إيزابل!

ـ هذا ما أريده. ليس الأمر بيدي. بصدق حاولت أن أقاوم. كأنني أعرف أن حبه سيكون رائعا وكأنني..، تتوقف تبحث عن كلمات مناسبة: أكاد أرى الحب بيننا متحققًا ورائعًا لكنه يرفض أن ينظر. يرفض أن يراه. أعرف أن كلامي يبدو جنونا.

ـ إيزابل.

ـ هذا ما أشعر به، ولا أصدق أنه لا يشعر به هو الآخر.

ـ هو أكبر منك وقد عاني الكثير.

ـ اسمعي يا أمل ـ

ـ ماذا؟

ـ سأخبرك بشيء أكثر جنونا ـ

ـ ماذا؟

ـ تذكرين حكاية الشيخ المستخبي وكيف اتفقنا أنها مستحيلة أو بالأحري أنت قلت ذلك؟

ـ نعم؟ وسقط قلبي، أمها مشرفة على الموت، وقد عقدت آمالها على آخي، وأنا سحبتها معي إلى آنا وتاريخ أسرتنا.

ـ اسمعي! فتحت كيس الملابس التي تحتاج الغسيل اليوم، الآن، منذ لحظات، للمرة الأولى بعد أن كنت هناك، في ذلك البيت، الكيس الذي وضعت فيه الملابس التي ارتديتها في ذلك اليوم. أتعرفين ماذا وجدت؟

ـ ماذا؟

ـ الملابس رائحتها عطر أزهار البرتقال.

ـ يا إيزابل!

ـ صحيح! أحلف لك. من أين يجيئني عطر أزهار البرتقال هنا؟

لا أجد ما أقوله.

ـ أمل.

ـ نعم.

ـ ما رأيك؟

ـ اسمعي يا إيزابل، لا تحدثي عمر في هذا الموضوع.

ـ سيظنني مجنونة.

ـ نعم سيظن ذلك وسيهرب منك، وتكون النهاية.

ـ أعرف. لن أذكر له شيئا، على أي حال سيسافر قريبا، خلال أسبوع.

للحظة فكرت أن أقول لها إني سأذهب لها، لكن إذا كان عمر سيحضر هنا، سألتها: هل ستكونين بخير؟

ـ نعم أنا بخير. طبعا.

ـ صوتك يبدو وكأنك ـ

ـ سأكون بخير .

ـ ما أخبار عملك؟

ـ قابلت أستاذتي أمس وهي راضية بما قدمت.

ـ اسمعي، تفرغي لأمك، ولعملك، والباقي سيأتي في حينه.

ـ أعرف.

ـ وكلميني قريبا.

ـ طبعا سأفعل.

أجلس على حرف سريري. لم أعتقد يوما أن الأبواب المغلقة يمكن أن تفتح فجأة بمعجزة، لكني أحاول دوما أن أبقي على عقلي متفتحا. بعد برهة، أواصل ارتداء ملابسي، أطالع صورتي في المرآة باهتمام لم أعهده منذ مدة طويلة. أبدو مثل واحدة من أمهات صديقاتي في المدرسة. لكن مقبولة. أين من شكلي في الماضي؟ يدق الجرس ويأتيني صوت تحية على الإنتركوم: «طارق بك يقول إنه منتظرك في السيارة». أخفت الأنوار وألتقط حقيبة يدي وأخرج.

نحتسي شرابا في البار في الدور الأخير في هيلتون رمسيس ونحن نرقب من موقعنا في العلو عقود الأضواء تلتف وتلتوي على ضفتي النيل، وعلي الكباري والميادين التي أنشأها الخديو إسماعيل: أمامنا كوبري قصر النيل وبعده خطوط العمارة الأنيقة

للسفارة البريطانية، ووراءها قلعة السفارة الأمريكية في قلب جاردن سيتي.

يقول طارق: إنت عارفة، كنت مخطئا في ذلك اليوم. لقد تغيرت فعلا.

ـ ليس بمستغرب. وأبتسم.

ـ لقد ازداد جمالك.

وعندما تظهر السخرية على وجهي يقول:

ـ لا، إنني جاد. كنت دائما جميلة، أما الآن ففيك شيء أكثر؛ شيء خاص جدا يلفك.

أقول: نعم! الماضي.

ـ كان يجب أن نتزوج.

ـ أكيد! وكنت ستقول هذا الكلام اللطيف لامرأة أخرى في هذه اللحظة.

ـ منذ متى تتهكمين بهذا الاستخفاف؟

ـ أنا مستخفة؟ وأنت الذي تتحدث عن العمل مع الإسرائيليين؟

ـ انسي الإسرائيليين. أنا أتحدث عن أمورنا الشخصية.

أردد: لا فرق بين الشخصي والسياسي.

يقول: أوكي، قولي لي ماذا تفعلين أنت من أجل كل تلك الأمور التي تهمك لهذه الدرجة؟

أقول: سأفعل ما بيدي، أعيش في طواسي وأرعي الأرض بنفسي.

ـ وتعتقدين أن هذا سيساعد مصر؟

يبدو أنه لا يصدق ما يسمعه.

ـ ترعين قطعة أرض وتسعدين قلة من الفلاحين؟

ـ سأعيد تشغيل الوحدة الصحية.

ـ وستقولين إنك ستعلمينهم النسيج لينسجوا قماشهم بأنفسهم.

ـ وسأعيد فتح المدرسة.

ـ هل وجدت مدرسين؟

ـ لا.

ـ لماذا؟

ـ لأن لا أحد يقبل تقديم قوائم بأسماء للحكومة، وكان صديقك محيي بك يعرف ذلك جيدا.

ـ ماذا ستفعلين إذن؟

ـ لا أعرف. ربما أقوم بنفسي بالعمل في المدرسة.

ـ تذهبين هناك. تجلسين في المدرسة كل مساء؟

ـ إذا اضطررت.

ـ كلام فارغ. لا تقدرين على ذلك. سأرسل لك شابين من عندي من المزرعة.

ـ ماذا؟

ـ سأرسل لك الرجال وأضمنهم عند المحافظ.

ـ أتفعل ذلك حقا؟

ـ قلت نعم وسأفعل.

ـ مصريين؟

ـ وبعدين يا أمل.

ـ آسفة. لماذا تفعل ذلك؟

ـ لأني لا أريد أن تذهبي وتجلسي هناك، لأنك تريدين فتح المدرسة ولأن من الخير والحق فتح المدرسة.

ـ لا نستطيع أن ندفع لهم مرتبات كما يجب.

ـ لا يهم، سأتولي أنا الموضوع.

هل يحاول أن يتولي أمر حياتي، لقد مضى زمن طويل منذ سمعت من يقول يمكنك أن تفعلي كذا أو لا يمكنك، مدة طويلة منذ تدخل أحد في حياتي، لكنه يفكر في التعامل والتجارة مع إسرائيل، وهو متزوج، لكنه أيضا صديقي. أليس كذلك؟

أقول: طارق، قلت إن الأيديولوجيات انتهت. هل تؤمن بأي فكر؟

يقول بدون تردد: العدل. أؤمن بالعدل.

لا أستطيع أن أخالفه في هذا. لا أقول وماذا عن العدل للفلسطينيين، سأدخر هذه لمرة أخرى. أفكر أن أحدثه عن إيزابل

واهتمامها بعطر زهر البرتقال أفكر أن أحدثه عن زواجي وكيف انتهي. أنظر إلى النهر والأضواء تلمع تحتنا وأقول: «ما أجمل النيل! جمال يفطر القلب».

يقول: ليس في العالم ما يضارعه.

أقول: أما كان يستحق قدرا أفضل.

يعطي منادي السيارات خمسة جنيهات: لعل هذا يسعدك. ويضحك مني.

في السيارة المرسيدس الفارهة ينظر أمامه ويسألني: هل أخطفك؟

ـ لا من فضلك فأنا أتوقع أن أخي سيحضر من نيويورك.

١٨ أغسطس ١٩٩٧

أنا وتحية نعمل في حجرة الضيوف، رفعنا البياضات من على الأثاث. أنا أخرج الكتب من الخزانة وأنفض عنها التراب، وهي تجلو المرآة فوق التسريحة بأوراق جرائد قديمة مبللة بالماء، الراديو مفتوح يذيع أخبار الميليشيات في لبنان تضرب صبرا بالمدافع، وعدد المصابين حتى الآن ٦ قتلي وثلاثون جريحًا، كلهم من المدنيين، تحية تمصمص بشفتيها: «يا ستار يارب». وتتساءل عن هذا الخراب ألا ينتهي أبدا؟ أفكر في زمن مضى، سنة ٦٣ عندما كان أبي على قيد الحياة وذهبنا إلى لبنان لمدة أسبوع. زرنا أقاربنا، وزرنا صيدا وصور، وصعدنا إلى أطلال قلاع الصليبيين ونظرنا إلى

البحر يلمع تحت الشمس. أفق بعيد جدا، من هنا إلى إفريقيا على اليسار وأوروبا على اليمين وإلي الأمام في خط مستقيم إلى بحار زرقاء شاسعة في مياه الأطلسي.

في حوالي الساعة السادسة دق جرس التليفون ـ الحادية عشرة صباحا في نيويورك.

قالت إيزابل: ودعت أخاك منذ قليل في المطار. ثم حدثتني عن الأمس: كانت ياسمين تتكلم بوضوح وكلامها مترابط لكن عن زمن آخر وبلغة أخرى، لا تتحدث إلا بالفرنسية.

تقول ياسمين: ماما حزينة وبابا يذكرها دائما أن إنجلترا بلدها قبل كل شيء، ويقول لها إن فراقنا لمدة قصيرة لكنها ترفض الذهاب بدونه. ١٩٤٠. باريس على وشك السقوط تحت احتلال النازي ونور تحاول ما في وسعها ليخرج جان ماري زوجها منها، تخشي إذا وصلت هي وياسمين ذات الستة عشر ربيعا في أمان إلى إنجلترا أن يجازف زوجها ويبقي في المدينة، ولن تدع ذلك يحدث.

ثم بدأت تتحدث عن ولادة الطفلة في سلام.

تقول إيزابل: وشعرت كأن طلع لي عفريت، عندما أدركت أنها تتحدث عني.

تقول ياسمين: مرضت مرضا طويلا، لهذا بقيت هنا طول هذه المدة. لا أدري كيف يدبر جوناثان شئونه، حقيقة لا أعرف، فهو عاجز عن خدمة نفسه، رجل حبُّوب، مغرم بالطفلة من الآن. لا بد أن أحافظ على الجنين وأضعها سالمة.

تسأل إيزابل: كيف تعرفين أنها بنت؟

ـ ماذا؟ طبعا بنت، اسمها إيزابل. جوناثان يحبها جدا لكن الضغط شديد. أترين؟ أشد مما يحتمل. نعم. تحني إيزابل رأسها موافقة وهي جالسة إلى جانب فراش أمها.

في الخارج كانت الشمس تصب حرارتها على ذلك الشارع في مانهاتان، لكن الستائر كانت مسدلة في الحجرة وجهاز التكييف يئز بصوت منخفض.

ـ لو ولدتها الآن ستسلم. ستكون الولادة مبكرة بعض الشيء، لكنها ستسلم، عندهم أطباء مهرة هنا، أمهر أطباء في العالم يعملون هنا في لندن. أليس كذلك ياسيستر؟ نعم! أعرف. لا يجب أن أكثر من الحديث. مضر ويضر الطفل.

تنظر إيزابل إلى الممرضة التي دخلت بهدوء لترفع ذراع يا سمين وتمسك معصمها الدقيق برفق وهي تنظر في ساعتها. تتساءل إيزابل إذا كانت الممرضة تعرف الفرنسية.

تقول الممرضة بالإنجليرية: أنت بخير يا مسز كابوت. حالتك بخير.

ـ هل تفهم الفرنسية؟ أم أن ما تقوله أمها أصبح لا يهم بالمرة؟

ـ ستكونين بخير يا مسز كابوت، بخير حقا. استريحي وحاولي الاسترخاء الآن.

ـ كانت ترفس وتتحرك طول الوقت، والآن سكتت تماما. ربما نائمة تستعد للرحلة.

تغمض ياسمين عينيها وعندما تفتحهما ثانية يعود بها خيالها إلى

١٩٤٤ وقد تعرفت لتوها على جوناثان كابوت، دبلوماسي شاب نابه، ملحق بمكتب أيزنهاور في لندن. تحتج في حديثها مع نور أمها: «أنا لا ألومك ولا أنتقدك: أقول فقط إن صراحته تعجبني. كل شيء عنده بسيط. إذا تحدث يقول ما يعني ويعرف ما يريد، يفيض بالأمل والطاقة، أنا أحب بابا كثيرا، لكن لا يمكن أن أختار مثله زوجا».

تسأل الممرضة إيزابل إذا كانت تود الحديث مع الطبيب المعالج ليصف لها مخدرا؟

ـ عنده حجرة واحدة، حجرة كبيرة في الدور الأعلي تحت السقف، لها نوافذ عريضة مائلة في اتجاه السماء المفتوحة، وعنده جراموفون، والأرضية عارية يسهل الرقص عليها. شقتنا مثقلة بكل ذلك الأثاث الذي لا يقل عمره عن مائة عام: الستائر الثقيلة والنجف الذي يستقر عليه التراب ويحتاج للتنظيف والتلميع باستمرار، واللوحات الكبيرة الكابية: لعلي أحبه بسبب شقته البسيطة العارية في العلية تحت سطح البيت!

تطلب إيزابل أن يدعوا ياسمين بلا تخدير. شعرها الأسود اللامع أصبح هالة شعثاء من البياض، حركة يدها المرتعشة المعتادة أن تزيح الشعر عن جبينها لم يعد لها وظيفة، تذكر إيزابل براقصة باليه متقدمة في السن تعرض كيف تكون الحركة.

ـ لم أتوقف عن حبه يوما واحدا. حتى وأنا بين ذراعي الآخر. ما جذبني إليه؟ شبابه. كان شعره أسود وكذلك عيناه ـ مثلي. شعرت بعينيه، خلفهما طبقات من الحزن، لكن كان من الضروري أن أقطع

ما بيننا. كنت أعرف أن لا فائدة، لا بد أن أتخلي عنه، وكأن قطعة من قلبي تستأصل مرة ثانية.

تعود الممرضة للسؤال: «هل أنت متأكدة؟»

ياسمين تنتحب: «فالنتين.. فال، فالنتين».

تتكور على جنبها وتلتصق بالوسادة، تدس برأسها تحتها لتمسح فيها دموعها وفمها وأنفها.

عندما انتهي الأمر هاتفت إيزابل أخي:

ـ هل يمكنني مقابلتك؟

ـ تعرفين ـ أنا مسافر غدا، وأمامي أشياء كثيرة لا بد من إنجازها.

ـ كم سيطول غيابك؟

ـ أسبوع ـ ربما عشرة أيام.

ـ أمي ماتت.

ـ إيزابل. سأحضر عندك في الحال.

ـ لا. لا أريد الذهاب إلى الشقة.

ـ أين أنت؟

ـ أنا في تليفون عمومي.

ـ خذي تاكسيا وتعالي هنا. الآن.

وهكذا ذهبت إلى شقته، وعندما رآها على بابه أخذها بين ذراعيه: طفلة جميلة، حزينة، يتيمة. صب لها شرابا ودلك يديها

الباردتين ودفأهما بأنفاسه وعاد فأخذها بين ذراعيه، ويخيل إلى أنها تمسكت به وبكت فقبل وجهها الغارق في الدموع وفمها، وتعلقت به وكأنها تتعلق بالحياة نفسها.

أخذها أخي إلى فراشه، وفيما بعد عندما استغرقت في النوم جر عليها الغطاء، وعندما فرغ من حزم حقائبه رقد إلى جوارها فاستيقظت وعادت تلتفت إليه. عند شروق الشمس بدأت تحدثه عن أمها.

٢٠ أغسطس، ١٩٩٧

أعرف الآن أين ذهب أخي ولماذا. لا بد أنه في رام الله. فهناك حسب أخبار الراديو تعقد السلطة الفلسطينية مؤتمرا للوحدة الوطنية وأكاد أسمع صوته في خيالي يقول «تأخرتم كثيرا» لست مطمئنة فأخي لا يحب رؤية «المقاومة» تتحول إلى «السلطة».

قال: «أول إجراء يتخذونه، أول شيء ينشئون أجهزة الأمن، أحد عشر جهازا أمنيا! سيحفظون الأمن نيابة عن الإسرائيليين. يتولون هم الشغل القذر». أخي يقول رأيه بصراحة، يقوله حيث يُسمع ويصبح خطرا.

أضع باقة من أزهار البازلاء الوردية في زهرية في حجرته، أرتبها وأقنع نفسي أنها ستظل مزهرة حتى يأتي، أنفخ على البتلات أفرق بينها كي تتمكن كل زهرة من التنفس وأنا أنصت لأخبار الراديو عن اعتراض واشنطن على المؤتمر للسماح للإسلاميين بالاشتراك فيه وبث دعايتهم. تلح على نغمة تتردد وتتردد في ذهني:

وين ؟ عا رام الله، وين؟ عا رام الله

قوللي يا مسافر وين؟ عا رام الله

رأيت في الجريدة اليوم مجموعة من الصور من الأرض المحتلة لا تختلف في شيء عما ينشر كل يوم: شباب مصفوفون أمام دكاكين مغلقة في شارع مبلط بالحجارة، شيوخ يرقبون أشجار زيتونهم تقتلع من الأرض، نساء يصرخن ويولولن والبلدوزر يهدم بيوتهن ـ أي واحدة من النساء الباكيات كان من الممكن أن تكون أمي، تشدني صورة بالذات: طفل في الثالثة أو ما أشبه مرفوع عاليا فوق أكتاف الرجال في جنازة أبيه، يحمل رشاشا ويرتدي عصابة رأس مكتوب عليها: «عائدون» ووجهه هادئ. هل يصح أن يخط طريق حياة طفل منذ بدايته بهذا العزم؟

عن نفسي حاولت ألا أثقل كاهل أبنائي بعبء تاريخنا، واليوم أقنع نفسي أني سعيدة بحريتهم.

وين ؟ عا رام الله، وين؟ عا رام الله...

كنا ننشد هذه الكلمات ونحن طلبة، كانت سنة ١٩٦٨ ورام الله قد ضاعت منذ عام.

(٢٢)

ذلك المنديل كان هدية لأمي

من غجرية تقرأ البخت

عطيل، شكسبير

٢٢ أغسطس ١٩٩٧

أنا في انتظار أخي، في انتظار أبنائي، في انتظار إيزابل، في انتظار أخبار من المنيا، في انتظار.. مراوح السقف دائرة طول اليوم، وشبابيكي مفتوحة طول الليل. رفض الاستئناف في قضية نصر أبو زيد، ولا مفر من بقائه هو وزوجته في أوروبا. لأن الدولة لا تضمن لهما الأمن. أفكر في هذا الرجل المصري القح: قصير، ممتلئ، ضحوك، متحدث، ملتح يزحف الصلع على رأسه، أتخيله متدثرا في معطفه الشتوي يستكشف طريقه في شوارع بلاد الشمال النظيفة الباردة، ويخط لنفسه حياة جديدة بعيدا عن الوطن.

٢٧ مايو ١٩٠١

أخطرتني إميلي أنها قررت العودة إلى الوطن، وقد جهزتها بكل ما يلزم، وتعهد زوجي بترتيب إجراءات سفرها.

مُدوّنة مقتضبة في مفكرة آنا. هل خاب أملها في وصيفتها؟ أم هي غاضبة أن تفضل إميلي الرحيل بعد كل هذه السنوات في خدمتها؟ أو لعلها ارتاحت أن ستشرع في حياتها في عالمها الجديد بدون متاعها من العالم الذي خلفته وراءها؟ وماذا عن إميلي؟ لا أريد أن

أظلمها لكنني مهما حاولت، لا أتخيلها إلا مزمومة الشفتين، تهز رأسها في أسف وهي تقص عليهم ـ في لندن بعد عودتها ـ الطريقة التي خرجت بها من خدمة سيدتها.

٢٩ مايو ١٩٠١

خصصت لي زينب هانم شابة صغيرة اسمها حسناء لتقوم على خدمتي الشخصية؛ وهي فتاة لطيفة لها وشم أزرق رقيق على ذقنها، وقد أظهرت كفاءة في تصفيف شعري وغسيل القطع الصغيرة الرقيقة من ملابسي. تري هل يأتي يوم أتحدث معها ببساطة كما أرى زينب هانم ومبروكة تتحادثان؟

٣ يونيو ١٩٠١

قررنا أن نؤجل شهر العسل، وربما نذهب إلى إيطاليا في وقت لاحق من العام، والواقع أنني لست في حاجة إلى تغيير الجو، فعندي من التغيير ما يكفيني.

أطلعني زوجي على مقال بقلم مصطفى بك كامل في جريدة اللواء، يهاجم فكرة عودة عرابي باشا قائلا إنه كان خيرا له أن يموت في المنفي مثل زملائه، وقد أسف زوجي لصدور مثل هذا الكلام، فهو تعبير عن الانقسام بين صفوف الوطنيين، ولأن عرابي شيخ مسن يستحق كرم المعاملة، على أنه لا يتوقع فائدة ترجي من عودته.

٧ يونيو

زيارة من الخياطة بعد أن أبديت رغبتي في تفصيل عدة أطقم على الطراز المصري. عرضت على الأقمشة واخترت ألوانا من الأزرق العميق والأخضر الزرعي بكلف من الأحمر القاني والوردي المترب، وكلها ألوان قد تبدو زاعقة في ملابس أوروبية لكنها تناسب طراز الملابس هنا تمامًا.

أصحو كل يوم على نسق من الحياة يطيب لي ويسعدني: نستيقظ في الصباح ونتناول الإفطار معا. يخرج زوجي لعمله وأقضي أنا الصباح مع زينب هانم. أدخل معها المطبخ وحجرات الكرار وحجرة المفروشات، وأرقب ما تفعله، وهي تدعوني بإشارة من رأسها ويدها أن أبين لها كيف أتعامل مع الأمور المنزلية.

وقد أصبحت مسئولية ترتيب الأزهار من اختصاصي باتفاق الجميع، ونجحت في إعداد طبق من اللحم الضأن بعد نقعه في التمر هندي! في الحادية عشرة نشرب القهوة معا في الرواق المفتوح على الفناء، ويوما بعد يوم يزداد ارتباطنا أنا وهي بعلاقة من الصداقة الحنون، لا تقوم على الحديث بل على الاشتراك في المهام المنزلية وعلي جلساتنا هذه في الصباح، وأشعر كل يوم بازدياد سعادتها لاختيارنا الإقامة معها. ما أروع أن تكون الظروف التي تسببت في هنائي قد جلبت الرضا كذلك للآخرين.

عندما يعود زوجي إلى البيت نتناول الغداء مع الأسرة

في حوالي الساعة الثانية في العادة، ثم ننسحب إلى غرفنا للقيلولة. بعد الظهر عندما يعود زوجي إلى عمله أو إلى الحلمية (فهو لم ينقل حجرة مكتبه بعد إلى هنا) يكون الوقت مناسبا لتلقي الزيارات من السيدات أو ردها، وتصحبني ليلي دائما في هذه المناسبات وهي تقود خطواتي في هذا المجال بكل حرص، فلست الآن مسئولة عن سمعتي فقط، بل أنا حرم شريف باشا البارودي، وكل ما أفعله ينعكس عليه، وإذا خلا اليوم من الزيارات يمكنني الذهاب إلى المتاجر (دائما في عربة مقفلة وبصحبة حسناء وخادم من الذكور) لأختار الأقمشة والمفروشات لجناحنا، وقد فرشته بوسائد مزخرفة وستائر حريرية زاهيةالألوان ومناضد مطعمة بالصدف.

أشعر بالسعادة وأكاد أضحك بصوت عال وأنا أخط هذه الكلمات؛ شعور أكيد مثل شعوري بدفء النار بعد ليل بارد رطب، والعجيب أنني أكتشف إعزازي لأعضاء بدني: هذه الأطراف التي خدمتني طوال ثلاثين عاما، والشعر الذي كنت أمشطه بلا تفكير كل ليلة، أشعر بالحدب عليها جميعا كما لو كانت كائنات عزيزة علي.

بعد أسبوع كتبت بخط مسرع في جزء واضح:

١٥ يونيو ١٩٠٣

منذ ساعتين وأنا ألتزم حجرتي وحدي. لا أصدق أن الرجل الذي اخترته من دون الرجال، الرجل الذي تركت من أجله كل عزيز في حياتي - هل أخطأت لهذه الدرجة؟

أستعيد في ذهني ما دار بيننا من نقاش فلا أجد تفسيرا يمكن أن يطمئنني أو يعزيني.

عندما عاد إلى البيت ساعة الغداء لاحظت وجهه متغيرا وتناول طعامه في صمت، وتبادلنا النظرات أنا وزينب هانم. عندما انفردنا سألته إن كان قد تلقي أنباء أزعجته فرد عليّ بسؤالي أين ذهبت في اليوم السابق؟ فذكرت أسماء المتاجر التي زرتها، فسألني إن كنت ذهبت إلى مكان آخر. بحثت في ذاكرتي ثم قلت إني ذهبت إلى البنك.

سألني: «ولماذا ذهبت إلى البنك؟» فأجبت في دهشة «لماذا؟ لأني احتجت بعض النقود» فسألني بنبرة برود لم أسمعها منه من قبل: «ألا تدركين أنك متزوجة؟» أصابتني الحيرة وقلت: «نعم أدرك أنني متزوجة لكنني لا أفهم ما علاقة هذا بزيارتي للبنك». قال «أنت زوجتي وتذهبين إلى البنك وتسحبين أموالا ـ وبدون أن تخبريني؟»

كان يتحدث في غضب مما حفزني أن أرد بأن المال مالي ومن حقي أن أسحب منه إذا شئت وعبرت عن خيبة أملي أن يستعمل خدمه ليتجسسوا على حركاتي.

ـ يبدو يا سيدتي أن خدمي أقدر منك على إدراك ما يليق وما لا يليق، قالها وهو يغادر الحجرة وسمعته يتحرك في الحجرة المجاورة لكني امتنعت عن الذهاب إليه، وبعد قليل سمعته يغادر البيت.

لا أعرف كيف أفسر ما حدث فقد كان في غاية الكرم

في هداياه وفي الشروط التي ضمنها في العقد. هل كنت عمياء؟

من المؤكد أن مدام رشدي كانت ستحذرني لو كنت مخطئة، لكننا تكتمنا أمر الزواج، على أني لم ألحظ أي تحفظ في تعبيرها عن سعادتها بزواجنا. آه ما أقل ما أعرفه عنه! هل يمكن لدليل قلبي أن يخطئ إلى هذه الدرجة؟ أيمكن أن أكون في نظره مجرد أرملة إنجليزية ثرية وحمقاء؟ تؤلمني هذه الفكرة إلى حد الموت!

تلاشي كل ما استقر في نفسها: المسكن الذي فرشته ورتبته بحب وعناية، الصحبة المحبة الصامتة بينها وبين أمه، رابطة الصداقة التي عقدتها مع أخته وفي ظنها أنها لن تنفك، يحمر وجهها خجلا وغضبا لذكري الساعات التي قضتها معه، بين ذراعيه، في هذه الحجرة بالذات، وتعود الدموع تنهمر من عينيها.

لا أدعي أن علاقتهما لم تكتنفها عثرات، كيف يتسنى ذلك لمن تحابا عبر أوطان وبحار؟ أذكر أني دخلت يوما إلى آنا في الشهر الأول من الزواج وقد سمعت من أمي أن بين الزوجين مشكلة لا تعرف سببها، وكانت أمي قلقة لأن أخي خرج من البيت غاضبا بوجه مغبر وآنا لزمت حجرتها وقالت حسناء، خادمتها، إنها تبكي.

رفضت آنا الجلوس لكني توسلت إليها أن تحكي لي ما حدث بحق قرابتنا وسألتها: «ألسنا أختين؟» فنظرت إلى نظرة غريبة، وفي النهاية فهمت أنها ذهبت إلى البنك وسحبت

بعض المال، وعندما علم أخي بذلك استجوبها في الموضوع فشعرت بجرح مشاعرها.

قلت لها كان يجب أن تتوقع غضب أخي إذا شعر بالإهانة، ومن الطبيعي أن يشعر بالإهانة، فما دامت في حاجة إلى المال، لماذا لم تطلب منه؟ شرحت لها أن العرف عندنا أن مال الزوجة ملك لها، وزوجها إذا كان قادرا ملزم بتوفير كل ما تحتاجه من نقود سواء لنفقتها الشخصية أو ما تنفقه في البيت.

ـ استعانتك بمالك الخاص يا آنا اتهام لزوجك بإهمال واجباته أو بالبخل، وقد تتعرضين للشك في أن لك أغراضا للنفقة سرية لا تستطيعين الإفصاح عنها لزوجك.

تتمسك آنا بغضبها: ولماذا يكلف الخدم بالتجسس على حركاتي؟

ـ هذه مشكلة أصعب. لكن دققي النظر في قلبك، ماذا ظننت به قبل دخولي إليك؟ إنكما لا تعرفان إلا القليل أحدكما عن الآخر، وهو رجل ذو وضع في المجتمع، وإلي جانب قلبه الذي وضعه بين يديك وضع سمعته، فكري في موظفي البنك يتهامسون فيما بينهم عما يدعو حرم شريف باشا البارودي أن تأتي بنفسها لتسحب نقودا من حسابها. هذا الخبر لا بد قد وصل الآن للمعتمد.

يتغير وجه آنا وليلي تتحدث، تجري إلى الخزانة لتفتحها: يجب أن أعيد هذه النقود الآن ـ حالا.

أقنعتها بعد لأي أن إعادة النقود الآن ستزيد الأمر سوءا، فقد كانت من كرم المشاعر بحيث تندفع لإصلاح الخطأ في الحال.

آه ما أشد هذا الجرم! كيف داخلني هذا الشك في زوجي. إني خجلة من تلك الأفكار وسعيدة إلى أقصى حد أن اتضح لي خطئي.

أعـددت رسالة لمسز بوتشر أتبرع بمبلغ من المال للمؤسسة الخيرية التي أنشأتها لرعاية الأيتام، حمدا للرب على السعادة التي أصبحت من نصيبي، ووضعت الرسالة في كيس من النقود وانتظرت.

٢٨ يونيو ١٩٠١

في الليلة الماضية عاد زوجي مبكرا ودخل إلى حجرتي ووقف أمامي وهو يمد إلى يده، وكان وجهه شاحبا بادي التعب.

قال: «عجزت اليوم عن العمل، تعالى يا آنا، ولنتجنب النزاع. لا أعتقد أنك قصدت جرحي.»

فسألته: «هل تتكرم بإرسال النقود إلى مسز بوتشر غدا، لتنفقها في وجه من أوجه الخير التي تشرف عليها؟» وأخذني بين ذراعيه.

في وقت متأخر من الليل أخذ وجهي بين يديه هامسا: «الفـرق بين طرقنا وعاداتنا كبير، فليصبر كل منا على الآخر».

* * *

٥ يوليو ١٩٠١

ارتفعت حـرارة الجو. أنا وأحمد غير مسموح لنا بالنزول إلى الفناء بدون غطاء للرأس، وأفاجأ طول الوقت بحسناء إلى جانبي تقدم لي أكوابا من الماء البارد المعطر بماء الورد، أحيانا ينظر زوجي إلى بقلق، إذ يبدو أنه ليس واثقا أنني سعيدة راضية، وهو يصر على فكرة أن حياتي هنا تقيدني، والحق أنها لا تختلف كثيرا عن حياتي في لندن، فيما عدا أننا لا نجد شيئا نفعله معا خارج البيت، فالمجتمع المصري يدين بالحجاب، وليس لزوجي مكان في المجتمع الأوروبي، لكن إذا كنا لا نتمشي معا في الحدائق العامة فنحن نتمشي في حديقة بيتنا، وقد أحضر لي شجيرات من الورد الإنجليزي زرعناها في بقعة ظليلة من الحديقة، وحذرته ألا يشطح به الخيال إذا لم تزهر هذه الشجيرات فأنا لست وردة رقيقة.

ـ فماذا تكونين إذن؟

ـ لا أدري، لكني أعرف أن لدي كل ما أحتاجه وأرغب فيه.

قال وهـو يضمني إليه: «أخبريني إذن، فيم ترغبين الآن؟»

هل ينمو الحب بلا نهاية؟ أشعر كل يوم بحبي له يتجذر عمقا في روحي أكـثر وأكـثر. أسكـن بين ذراعيه ملتصقة به

حتى أشعر بنبضات قلبه وكأنها تصدر عن قلبي أنا، وأعجب أني منذ أربعة أشهر فقط لم أكن أعرفه.

١٢ يوليو ١٩٠١

حدث الأمر بشكل طبيعي وأصبحت أتلقي دروسا في اللغة العربية على يدي والد زوجي، اعتدت زيارته لبضع لحظات كل يوم ولاحظت أنه يرحب بي، لكننا لا نتحادث فأخذت كتابي معي، وكان يشهد محاولاتي للقراءة فأخذ يقرأ لي وأنا أقرأ بعده، وهكذا بدأت دروسنا.

إنه رجل دمث، أضعفه احتجابه الطويل وقلل من ثقته بنفسه، وكذلك الحزن الذي أثقل كاهله عمرا. زوجي يعامله باحترام لكني أشعر أنه متبرم به، ليس لضعفه الراهن بل للطريق الذي اختاره منذ عشرين عاما، إنهما مختلفان حتى ليصعب التفكير فيهما كوالد وابنه، وهكذا كنت أرى إدوارد وسير تشارلز.

سير تشارلز يكتب لي لكن ليس كثيرا. كتب لي خطابا للتهنئة وتمني لي السعادة: «إلا أنني يا عزيزتي لا أستطيع القول أني أتوقع ذلك في ثقة»، وبعد الخطاب الأول يكتب لي بدون الإشارة إلى حالتي الجديدة، فأجدني محرجة أن أذكر أيا من تفاصيل حياتي له، وأقتصر على أخبار دراستي للغة العربية، والحديقة وأي أنباء سياسية أسمعها من زوجي.

كارولاين تكتب من وقت لآخر عن أخبار الأصحاب وتعبر عن اهتمامها بمعرفة أخبار حياتي الجديدة، لكن أجدني عازفة عن تزويدها بتفاصيل «الحياة في الحريم»، لو أنها حضرت في زيارة لأسعدني أن أستضيفها في بيتي، وحينئذ فقط يمكنها أن تكون صورة حقيقية لحياتي هنا. مسز بوتشر هي الوحيدة التي أستقبلها بين معارفي الإنجليز هنا، وتحمل لي أخبار جيمس بارنجتون الذي يعود قريبا إلى لندن. أعطيتها طردا صغيرا ليسلمه چيمس إلى سير تشارلز ليوصله بدوره لمستر ونثروب، فيه الكافور وزيت حبة البركة وقد طلبهما منى منذ أكثر من ستة شهور، وفي هذا وسيلة لتقديم جيمس بارنجتون إلى سير تشارلز. وعدت مسز بوتشر أن تساهم بالكتابة في المجلة النسائية التي نخطط لإصدارها، وفكرة المجلة اقترحتها مدام زينب فواز وشابة صغيرة تسمى ملك حفني ناصف، وتتضمن الخطة إصدار نسختين واحدة باللغة العربية والأخري بالفرنسية، واجتذاب كتاب من أكبر عدد ممكن من الطوائف والجاليات.

والفكرة أساسا هي دراسة ومقارنة أحوال النساء وتطلعاتهن في مختلف المجتمعات، إلا أن المجلة لن تقتصر على موضوع النساء بل تتعرض لموضوعات تهم الجميع، لتثبت أن النساء مستعدات للنزول إلى مجالات أوسع مما يتاح لهن اليوم.

يحدثني زوجي عن مشروع مدرسة للفنون الجميلة

وهو يرجو أن أشارك في التخطيط للمشروع، على أن كل شيء متوقف حتى نوفمبر لأن المتنفذين من أهل القاهرة غادروها إلى أوروبا أو إلى الإسكندرية لقضاء شهور الصيف، وإذا أمكن إقناع حماي بالسفر سنذهب نحن أيضا إلى الإسكندرية، وأنا متشوقة لرؤية المدينة التي كانت الثغر الذي نفذت منه أول ما دخلت إلى حياتي الجديدة. كيف أراها وقد تغيرت ظروفي؟

٢٥ أغسطس ١٩٩٧

أخي لا يستطيع المشي ببطء، يسير في خطوات واسعة على حافة الماء، وأجدني أعود إلى لعبتي السرية القديمة فأحاول أن أقيس خطواتي على خطواته، وأتمكن من محاذاته ٧ خطوات ثم أقفز قفزات تشاتشا سريعة لألحق به. أول ذكرياتي عن أخي على هذا الشاطئ ـ لا ـ أول ما أذكره عنه سفره: أراني في مركز الصورة أرتدي فستانا صيفيا أحمر بحمالات من الأشرطة، جالسة على كتف أبي ألوح مودعة وأمي تقف بجانبنا، وفي البعيد من الصورة، بعض الرجال المندفعين هنا وهناك على الرصيف، وبعد مساحة الماء الداكن منقوطة بقوارب صغيرة فيها مزيد من الرجال، يقف أخي بجانب حاجز سفينته، طويل شاحب وشعره الأسود يلمع في ضوء الشمس. وذكرياتي التالية عنه هنا على شاطئ العجمي حيث بني لنا أبي مصيفا متواضعا بعد بيع الفيللا الكبيرة التي بناها جدي وشريف باشا على الجانب الآخر من الإسكندرية لتتمكن نساؤهما من السباحة واللهو مع أطفالهن بدون تطفل الغرباء. كان أخي يعود إلينا في الإجازات الطويلة ويتسلي بقدر ما يستطيع

مع أخت تصغره باثنتي عشرة سنة. كنا نبني قصورا من الرمال، وعلمني السباحة وكرة المضرب، وكنا نتمشي كما نفعل اليوم: هو يسير في خطوات سريعة على حافة الماء، يثير بقدميه رذاذ الماء وأنا أتابعه، أجري بجواره على الشاطئ. أمسك بذراعه لأبطئ سرعته، أقول:

ـ لا بد أنه إجراء مفيد، من ناحية المبدأ على أي حال أن تجمع كل الأطراف ليتناقشوا؟

ـ إنها مجرد عملية احتواء. هذا ما يهم عرفات: الاحتواء والمحافظة على مصداقيته، لكن ماذا يفعل الآن؟ عنده أحد عشر جهاز أمن.

أخي يتحدث بقوة وإصرار. لم أسمعه يوما يتحدث إلا بقوة وإصرار، وكأنه يجر خطا تحت كل كلمة يقولها. تنظر إليه وتظنه معجباني هاويا، لأناقته وملابسه الغالية واهتمامه البالغ بالتفاصيل، فإذا نهض إلى العمل تجد نفسك في دوامة، دوامة من العمل المنظم. يضيف: «عنده اليوم سجونه ويستخدم التعذيب وتكسير العظام لا فرق بينه وبين الإسرائيليين، على الأقل عند الإسرائيليين إجراءات يمكن من خلالها مساءلة ما يحدث في السجون، أما عنده فلاشيء، لا شيء بالمرة. ليس على الساحة الآن إلا حماس، ليس لأحد غيرهم مصداقية في الشارع، اكتسبوها بمجهودهم، هم الذين يواصلون المقاومة ويتحملون الخسائر».

ـ وبعدين؟

تخلص من ذراعي وعدت إلى القفز بعد عدة خطوات كي ألحق

به. لون البحر يتغير إلى لون الرصاص الكابي وقد بدأ المصطافون يرفعون الحصر ويلفونها وينثرون الرمل عن المناشف.

ـ مسألة محزنة. حضروا محاضرتي وسألوا أسئلة جيدة، فهم أذكياء ملتزمون ولهم قضية، لكن لا يمكن للمرء أن يوافق على التطرف أيا كان ـ

ـ والمؤتمر؟

ـ لا شيء. كلام فارغ. طلب من حماس أن يوقفوا العمليات فأجابوا ـ وعندهم حق ـ أن بدونها لن يقتنع الإسرائيليون بالتنازل عن أي شيء.

ـ وماذا عنك؟ كيف انتهي الأمر بينكما؟

يركل الماء ثم ينحني ويلتقط شيئا يمسحه في بنطلونه ثم يقدمه لي: زلطة سوداء ناعمة لامعة، بيضاوية تماما مجلوة بماء البحر والرمال والشمس يعلم الله كم عمرها من مئات السنين.

يقول: «احتفظي بها ـ قلت له إن هذا أول اجتماع ـ أول اجتماع رسمي ـ أحضره منذ استقلت من المجلس الوطني الفلسطيني وسيكون الأخير ـ الحمد لله أن لدي جواز سفر أمريكيا. لكني عائد، سأذهب إلى القدس، أريد أن أزور بيت أمنا».

قلت: عليك بالاحتياط.

رسائل الكراهية والتهديد أصبحت من الأمور العادية في حياة أخي، وقد استهدف بيته في نيويورك برسائل ملغمة مرتين.

أخيرا أفتح الموضوع: «حدثني عنها إذن، عن إيزابل». خلف

النوافذ الزجاجية لمطعم زفيريون الليل والبحر كتلة واحدة من السواد، فنحن في «أبو قير» حيث قام في الماضي البيت الكبير الذي بناه جدي، فيللا كثيرة الحجرات تحيطها حديقة رملية مسورة تنمو فيها شجيرات التين. هدمت منذ سنوات عديدة، الشاطئ اليوم مغطي بأكواخ من الأسمنت يستأجرها المصطافون من الطبقة الوسطي الذين انحدر بهم الحال، إلا أن الظلام يكسوها الآن فيرحم أعيننا من قبح المنظر. هدير الأمواج يصل آذاننا؛ غاب الجندي البريطاني العجوز الذي تخلف هنا بعد انتهاء الحرب العالمية يعزف نوبة رجوع على الشاطئ بلا نهاية. كنا نجلس هنا في هذا المطعم ننصت إلى طرف من لحن «اسكتلندا أرض الشجعان» يعزفها على مزمار القرب، يحملها لنا النسيم، تعلو إذا اقترب، وتخفت إذ ينقلب راجعا، أفكر: لعله مات. رقد ومات على الشاطئ، فوجده الناس في الصباح ووهبوه كفنا وقبرا كما وهبوه طعاما ومأوي في حياته.

يرد أخي: لا أريد الحديث في هذا الموضوع، هذا شيء فظيع

أسأله في دهشة: فظيع؟ لم؟.

ـ قضيت ليلتي الأخيرة في نيويورك معها.

ـ نعم! أخبرتني.

ـ أمها كانت توفيت للتو. فعلا للتو.

ـ ولم تنزعج ؟ أعني: أليس هذا محاربة الموت بالحياة.. كما يقال؟

ـ كنت على علاقة بها، أحببتها يوما.

ـ من؟ إيزابل؟

ـ أمها.

يرفع كأسه من نبيذ جناكليس ويرشفه رشفة فيلوي شفتيه ويضع الكأس على المائدة: «هذا النبيذ يزداد سوءا كل سنة» يتساءل: «لم يعجزون عن إنتاج نبيذ جيد في بلدنا هذا؟»

أحاول أن أفهم هذا المنعطف الجديد، فأسأله: «متى كنت على علاقة بوالدة إيزابل؟ هل كنت تحبها قبل وفاتها؟»

ينظر إلى منفعلا: «نعم يا عزيزتي، منذ زمن بعيد قبل وفاتها، في عام ٦٢ بالتحديد».

«لكن ـ» وأحاول أن أتخيل ذلك.. «كانت أكبر منك كثيرا».

ـ لم تبد كبيرة، أقصد أنني لم أفكر في فرق السن، كنت صغيرا.

ـ لكن.. كيف عرفت؟ أقصد: متى عرفت؟

ـ في تلك الليلة الأخيرة في نيويورك ـ استيقظت في الفجر ـ أقصد إيزابل ـ ولم نستطع النوم فقمنا وصنعنا قهوة وبدأت تحدثني عن أمها ـ وفجأة أدركت.. شيء فظيع حقيقة.

يضع الشوكة والسكين متقاطعين في الطبق إلى جانب السمكة التي لم يأكل إلا نصفها، ويزيح الطبق لمسافة قصيرة بعيدا عنه، ويمسح فمه بشدة بالمنشفة.

ـ لكن ألم تكن تتصل بها؟ كيف حدث أنك لم تعرف؟

ـ كانت علاقة قصيرة جدا، دراما مثيرة، صدمت وقاسيت، يبتسم في سخرية: «ضربت ـ حرفيا ـ على رأسي. كنت في مظاهرة، شيء

من حماقات الشباب، وتدخل البوليس وأصابتني ضربة في الرأس، ولم أشعر بشيء حتى أفقت لأجد نفسي في سرير في مكان ما وسيدة جميلة تنحني عليّ».

ـ وبعدين؟

ـ وقعت في غرامها، بقيت في بيتها يومين، والتقينا مرة بعد ذلك، ثم قطعت الصلة بيننا. أرجح أنها قررت أن العلاقة محكومة بالفشل، وهذا صحيح طبعا. وطبعا لم يكن هذا رأيي.

ـ وانتهى الموضوع؟

ـ كتبت لها بضعة خطابات، خطابات كثيرة فيما أظن، أتوسل وأكابر... إلخ، فأرسلت لي خطابا واحدا، رسالة قصيرة تفيد أن قرارها نهائي. واصلت حياتي لفترة حاملا أمارات قلب جريح ثم انتهي الأمر. يلتفت إلى الجرسون: كوب ماء بارد من فضلك، ومن فضلك ارفع هذه الأطباق. ويلتفت إلى: تريدين حلوا؟ أنا سأطلب قهوة.

أطلب قهوة أنا الأخري وكوب ماء.

ـ عندما بدأت إيزابل في الحديث عن أمها فهمت. كنت منذ البداية أرى فيها شيئا لا أتبينه، وكأنني أعرفها من قبل، وعندما سمعت الاسم وخبر الطفل المتوفي ـ أخوها ـ والسفارة الأمريكية في لندن كلها طابقت ما أعرف. كانت تذكرني بأمها.

أسأله: هل أخبرتها؟

ـ بالطبع لا.

أجدني محتارة لا أستطيع تكوين رأي في الموضوع، لكن أقول

له بعد برهة: ليس الأمر فظيعا بهذه الدرجة، طبعا صدمة تعيد إلى الذاكرة أشياء كثيرة، لكنها ليست كارثة.

ـ يحتمل أن تكون ـ إيزابل ـ ولدت في نهاية عام ٦٢ وعلاقتي بياسمين كانت في مارس.

ـ تظن؟ لا يمكن أن تظن أنها؟

ـ إنه احتمال .

يحضر الجرسون القهوة ويشرب أخي كوبا كبيرا من الماء في جرعة واحدة ويمسح فمه ثانية بالمنشفة. نجلس في صمت. أقرباء لا بأس لكن هذا أقرب من اللازم. هل وقعت إيزابل في غرامه لأنه أبوها؟ أرفع كوبي وأرشف الماء في بطء ثم أقول:

ـ لا أظن الأمر كذلك، وإلا كنت شعرت بشيء مألوف فيها، ولم أشعر بذلك ومازلت. ليس فيها أي ملمح منك.

يقول: «لعلك على حق». ثم يضيف: «لذلك نسيت النسجية التي سألتني عنها. خلعتها من الإطار وكنت أنوي أن ألفها وأضعها في الحقيبة وعندما فوجئت بتلك الحكاية، نسيت تماما.

نقطع مسافة طويلة بالسيارة من أبو قير إلى الإسكندرية ثم من الإسكندرية إلى البيت في العجمي.

تــلاتــيــن نــجــمــة تــضــوي
عــلــى وادي الــســرو
تــلاتــيــن نــجــمــة تــهــوي
عــلــى وادي الــســرو

ننصت في صمت إلى شريط صابرين الذي أحضره من رام الله.

عندما نصل إلى البيت أعد الشاي وأحضره إلى حجرة المعيشة، نجلس في المقاعد الخيزران وينظر أخي إلى ويقول: تزدادين جمالا كلما رأيتك.

تأخذني الدهشة فأمرر أصابعي خلال شعري المتشبك بهواء البحر المالح. يقول:

ـ صحيح! هل هناك صديق موجود في الصورة؟ أهز رأسي نفيا وأفكر أن أحدثه عن طارق عطية. يقول: المفروض أن يكون هناك أحد.

ـ لا متشكرة! هذه الأمور انتهت عندي.

يقول: يا شيخة! غير معقول! امرأة في جمالك؟

أقول: انتهي! وأبتسم: إلا إذا وجدت رجلا مثلك.

ـ كلام فارغ! رجل مثلي لا يصلح لك بالمرة.

ـ على الأقل نعرف بالتأكيد أنك لست أبي.

ـ اعملي معروف يا أمل! ليس هذا موضوع للتنكيت.

ـ أنت لست أباها.

ـ كيف تعرفين.

ـ أنا أعرف.

ـ كيف تعرفين؟

ـ الحكاية مليئة بمصادفات أكثر من اللازم بدون هذه الإضافة! هي تجد الصندوق ثم تلتقيان ويتضح أنكما أقارب. ألا يكفي هذا؟

ـ يكفي لماذا؟ للتكوين الفني للرواية؟ هل هذا ما تعنين؟

ـ اسمع. أخبرها. وليجر كل منكما اختبار جينات.

ينفخ بصبر نافد: قلت لك لا أريد الدخول في هذه العلاقة، قلت لك ستسبب مشاكل.

١٢ سبتمبر ١٩٠١

لم أفكر يوما أن حادثة كهذه تزعجني لهذه الدرجة. التقيت اليوم بثلاث سيدات كنت أعرفهن معرفة طفيفة. أقول التقيت لكن لم يكن هذا ما حدث بالضبط. دخلت محل جواهرجي في شارع قصر النيل وكن هناك، وبطريقة طبيعية إذ لم أتوقف لأفكر ـ ألقيت التحية، فأشحن عني وشغلن بجمع الحقائب والمظلات وخرجن من الدكان في الحال وقد حرصن على تعبير التجاهل المدروس على الوجه. منذ ستة أشهر كن يعتبرن تعرفي عليهن شرفا!

واصلت عملية الانتقاء واشتريت ما حضرت لأجله وخرجت والبائع يتظاهر بأنه لم يلحظ شيئا، لكني شعرت بيدي باردة كالثلج ولبعض لحظات كنت لا أكاد أرى الحلي التي وضعها أمامي. لن أطلع أحدا على ما حدث؛ وبالذات زوجي فأنا أتخيل ألمه وغضبه لأجلي، وعلي الآن أن أتخلي عن أملي في استئناف علاقة عادية مع أهل بلدي، كانت مسز

بوتشر تبدو في نظري سيدة غير عادية لكني اليوم أدرك أنها ممتازة حقا وسوف أحافظ على صداقتها وأقدرها حق قدرها، أنا في الحقيقة لا يهمني رأي أولئك السيدات، لكني جرحت.

هذه الواقعة ستروي بالتأكيد على موائد عشاء كثيرة بارتياح وتشف.

(٢٣)

كيف أحبك؟ دعني أصف كيف أحبك

إليزابيث باريت براوننج

١٧ ديسمبر ١٩٠١

«... ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام، وهي: ما حكم هذه الصور في الشريعة الإسلامية، إذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم النفسية، أو أوضاعهم الجثمانية؟ و هل هذا حرام أو جائز، أو مكروه أو مندوب أو واجب؟ فأقول لك: إن الراسم قد رسم، والفائدة محققة لا نزاع فيها، ومعني العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد مُحِي من الأذهان، فإما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة، وإما أن ترفع سؤالا إلى المفتي وهو يجيبك. فإذا أوردت عليه حديث: إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون أو ما في معناه مما ورد في الصحيح، فالذي يغلب على ظني أنه سيقول لك إن الحديث جاء في أيام الوثنية وكانت الصور تتخذ في ذلك العهد لسببين:

الأول اللهو، والثاني التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين، والأول مما يبغض الدين، والثاني مما جاء الإسلام لمحوه، والمصور في الحالين شاغل عن الله أو ممهد للإشراك به، فإذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر في المصنوعات. وقد صنع ذلك في حواشي المصاحف، وأوائل السور، ولم يمنعه أحد من العلماء، مع أن الفائدة في نقش المصاحف موضع النزاع. وأما فائدة الصور مما لا نزاع فيه على الوجه الذي ذكر...»

ـ هل هذا معقول؟، ينفجر شريف باشا غاضبا وخطاب محمد

عبده في يده: «غير معقول أن نحتاج إلى مثل هذه الشهادة قبل الشروع في إنشاء مدرسة! ماذا يظنوننا؟ أمة من الأطفال؟»

ـ يا سيدي هدئ نفسك، على الأقل المفتي صديقنا وهو رجل مستنير. كنت أظنك سعيدًا بتأييده للمشروع، ويرفع إسماعيل صبري باشا حاجبه مستفسرا وهو يتأمل صديقه.

يذرع شريف باشا الحجرة في ضجر: أنا الذي طلبت منه هذه الشهادة لكن يثيرني أن نضطر إلى شرح الأساسيات مرات ومرات، الفن يرقي بالنفس. أليس هذا معروفا لنا جميعا؟ بعد خمسة آلاف سنة؟ هل نعود إلى البداية في كل خطوة؟

يبسط إسماعيل صبري يديه في إشارة تنم عن عجز مؤقت: «هذه أيام عصيبة».

يقطب شريف باشا: فلنذهب الآن. يطوي الخطاب ويضعه في جيبه: فلنذهب الآن وننهي هذا الموضوع. يتوقف الرجلان أمام المرآة الكبيرة في صالة بيت إسماعيل صبري وبعد ضبط ربطة العنق وإحكام وضع الطربوش على الرأس ينتقلان إلى العربة الواقفة بالباب.

يسأل إسماعيل صبري: لكنك قابلت عرابي بعد عودته؟

ـ ذهبت لزيارته لكن كنا وحدنا، وكان ذلك قبل هذه التطورات الأخيرة.

يقول إسماعيل صبري والعربة تنطلق في الشوارع المظلمة: قد يحجم عن الحضور. ويتكئ كل منهما إلى الخلف في ركنه المقابل.

ـ لعل وعسي لكني أعتقد أنه لا يدرك الأثر الذي خلفه.

ـ من نكد الدنيا أن يأتي يوم أقف فيه في صف مصطفى كامل ضد عرابي!

يتعجب إسماعيل صبري: ماذا دهاه حتى يسمح بإجراء ذلك الحديث الصحفي؟ يصرح أنه سعيد برؤية الإنجليز في مصر؟ بعد كل هذه السنين؟

ـ شاخ وأصابه الخرف، أصبح عجوزا أحمق هو الآخر، كان عليه أن يدرك المطب من أول لحظة دعوه إلى الحديث في جريدة المقطم.

ـ لم يكن يوما ذكيا أو حصيفا، يقول إسماعيل صبري: كان وطنيا وشجاعا، وكان له حضور لكنه افتقر إلى الذكاء.

ـ كان عليه أن يلتزم الصمت، يعود إلى الوطن إذا شاء، لكن يلتزم الصمت.

وها هو أحمد عرابي فعلا. يلمحه شريف باشا لحظة دخوله إلى سلاملك ويصا باشا واصف. القاعة مزدحمة برجال حضروا للاحتفال بعودة ابن ويصا باشا من أوروبا. الجو مشحون بدخان السجائر وأصوات الحديث ورنين الأكواب وفيما وراء كل ذلك يقف عرابي وحده بقامته المديدة، رأسه الذي يعلو على رءوس معظم الموجودين قد خطه الشيب، واللحية بيضاء تماما. جاريبالدي مصر، تخطر الصورة على ذهن شريف باشا وتصيبه بالمرارة وهو يستحضر فورة العاطفة التي غمرته عندما ذهب لزيارة قائد أبيه عند عودته من المنفي في أواخر سبتمبر. أضحت اليوم عاطفة تاريخية

يشوبها الأسف! وهو غاضب أن يأتي عرابي اليوم بما يعتبر خيانة للثورة؛ لكن يؤلمه أن يرى الشيخ يقف هكذا وحيدا. يبحث عن ويصا باشا ويزجي له بعض عبارات التهنئة، ثم يتجه إلى الركن الذي يقف فيه عرابي. يشعر برءوس تستدير إليهما وهو يحيي الشيخ، على أنه لا يجد ما يقوله له بعد السلام عليه والسؤال عن صحته وصحة الأسرة، ويشعر بالارتياح عندما يلحظ مصطفى فهمي باشا متجها نحوهما. حسنا! الرجلان اليوم باعترافهما من أصدقاء الإنجليز ويمكن أن يتبادلا الحديث بحرية. بعد قليل يتركهما معا؛ رئيس الوزراء وصاحب الثورة الفاشلة. آنا في الطابق العلوي مع النساء. يتساءل إن كانت قرب المشربية وهل ترقبه الآن في موقفه، لكنه بطبيعة الحال لا يرفع بصره إلى الحرملك.

ـ شريف باشا البارودي؟

يلتفت فيري ملتون بك يقف أمامه مادا يده.

يسلم شريف باشا باختصار ويتراجع خطوة.

يقول ملتون بك بالإنجليزية: أعتقد أننا لم نتعرف قبل اليوم.

يرد شريف باشا بالفرنسية: يؤسفني يا ملتون بك أني لا أتحدث الإنجليزية.

ـ خسارة، ينظر إليه الطبيب نظرة ثاقبة: فرنسيتي ضعيفة جدا، فنحن في حاجة إلى مترجم إذن.

ينحني شريف باشا انحناءة طفيفة وعندما يظهر إبراهيم بك الهلباوي ويبدأ الحديث مع ملتون بك يستأذن ويبتعد. ملتون بك لا غبار عليه في نظر شريف باشا، طبيب جاء إلى مصر وفتح مستشفى

وحسب ما سمع عنه يؤدي عملا طيبا، ويدرب بعض الشباب من المصريين، لكن الرجل لم يحدثه قبل اليوم، لماذا يتقدم أمام الجميع ويحييه؟ هل يقولون عنه اليوم إنه صديق الإنجليز؟ يقطب مفكرا فإذا بقاسم أمين يضع يده على كتفه ويقول:

ـ نحن في فرح يا باشا.

يبتسم معاكسا صديقه: عقبي لفرحك.

يقول قاسم أمين: أنت تعرف رأيي في مؤسسة الزواج، لكن لو كنت محظوظا مثل بعض الناس ـ

ـ سأدعو لك!

ينضم إليهما الأمير محمد إبراهيم: أريد أن أهنئك. قمت بعمل مجيد في المجلس بالوقوف في وجه تلك الضريبة الجديدة. كنت أتحدث مع مصطفى كامل في هذا الموضوع منذ قليل.

ـ المجلس يفعل كل ما يستطيع، يهز شريف باشا كتفه: لكن رأينا كما تعلمون غير ملزم.

يقول قاسم أمين: وكانت حركة خبيثة على أي حال.

ـ سيعودون للمحاولة.

يقول الأمير محمد إبراهيم: أتعجب كيف يجرؤ كرومر على مثل هذا الفعل؟ يحاول فرض ضريبة على صناعة النسيج المحلية، حتى الغزل! يضرب صناعتنا ليفتح المجال لصناعتهم هم!

ـ لقد فجروا، يقول قاسم أمين.

ـ أوقفنا القانون في المجلس ولنأمل ألا توافق عليه الجمعية

العمومية في العام القادم. علينا أن نتحدث مع كل عضو منهم، يقول الأمير محمد إبراهيم: وسيعمل مصطفى كامل على إبقاء القضية حية في اللواء.

يشير شريف باشا للبواب: أحضر عربة.

ـ عربتك هنا يا باشا. سأنادي السائق.

ـ لا، سأتركها للسيدات. هات لي عربة أجرة.

ضجر. لا يستطيع الليلة أن يطرح عنه القلق. خطاب محمد عبده يحمل الفتوي التي طلبها منه. عرابي بين الضيوف. لو كان في طواسي لأسرع بحصانه حتى يزول عنه القلق. لو كان في الإسكندرية أو على شاطئ البحر الأحمر لنزل إلى الماء، تملكته رغبة مفاجئة في السباحة وكأنها حاجة ملحة، يتخيل نفسه يغطس في الماء البارد، يسبح ويسبح ضد تيار قوي يفرغ ذهنه من الفكر، لكنه في القاهرة، فيصعد إلى المركبة الواقفة في انتظاره.

«إلى طولون يا أسطي.» لا فائدة من الذهاب إلى النادي فجميعهم في الحفل. يخرج الساعة من جيبه، لن تعود آنا إلى البيت قبل ساعة على الأقل. تمر العربة ببيت شقيقته في الحلمية ثم ببيته هو بنوافذه المغلقة. والحصان العجوز منكس الرأس في صبر. يذكر للسائق اسم الشارع فيسأل السائق: عند بيت الإنجليزية؟

ـ ماذا قلت؟

يكرر السائق: عند بيت السيدة الإنجليزية؟

ـ اسمه بيت البارودي يا حيوان وليس بيت السيدة الإنجليزية.

ـ لكن هناك سيدة إنجليزية تعيش فيه، يصر السائق: هذا معروف، أحبت الباشا وتزوجته، حكاية معروفة.

يزمجر شريف باشا: وماذا في ذلك؟

ـ ولا حاجة، يقال إنها سيدة طيبة، لا تخرج إلا محجبة، حتى وإن لم يطلب منها الباشا أن تسلم. لكن يقولون إنها كالقمر، يا سلام، بيضاء و..

ـ أنزلني هنا.

ـ حلال على الباشا، فهم يحكموننا على أي حال.

وماذا كان يفيد ضربه بالكرباج؟

يترك شريف باشا طربوشه في المدخل ويخلع رباط عنقه وهو يسير في البيت الساكن. الرجل كان يقول ما لا بد يثرثر به الجميع. أولا ملتون بك يحييه كأنه صديق ثم حوذي يسمي بيته بيت الإنجليزية، تهب حسناء واقفه عندما يصل إلى جناحه.

ـ روحي نامي!

ـ لكن سيدتي ـ

ـ سأخبرها، لن تحتاجك الليلة.

هي عجبة، لو كان أحضر زرافة لسموا البيت بيت الزرافة، المسألة لا تتعلق بكونها إنجليزية.

في حجرة آنا يغمره جوها، يهدهد أعصابه المتوترة. خزانة الملابس الكبيرة التي أقنعها بالموافقة على بنائها تشغل جدارا، مرايا الأبواب تعكس في إطارها الخشبي زخرفة خشب المشربية،

الأزهار على المنضدة المنخفضة المطعمة بالصدف تردد ألوان الوسائد المنثورة على الأريكة، تعكس المرآة الأنيقة الناموسية المعقودة أعلى الفراش، الروب المنزلي من الحرير الأبيض الناعم مع كلفة رقيقة من الرمادي بلون رقبة اليمامة يتدلي على ظهر أحد المقاعد، ما إن يدخل إلى هذه الحجرة حتى في غياب آنا حتى تشمله روح السكينة وتنفذ الطمأنينة إلى نفسه.

مفكرتها على المنضدة. كانت قد رفعت بصرها من الكتابة عندما دخل الحجرة وقالت: تستطيع قراءة الإنجليزية؟ أليس كذلك؟ واضطر للاعتراف أنه يستطيع فعلا قليلاً.

ـ هذه المفكرة بلا قفل، قالت ويدها على الكراسة الكبيرة الخضراء: ليس عندي أسرار أخفيها عنك.

ـ لا، لا. يكفيني ما تتحدثين به.

يلقي المعطف والصديري على كرسي ويعود للهبوط إلى الطابق الأسفل ليدخل المكتبة. يخيل إليه أحيانا أن كل هذا يمكن أن يتلاشي في غمضة عين، هذه الدنيا التي أرستها، هنا إلى جانب عالمه هو، لكن مختلفة. كانت رائعة الجمال الليلة عندما نزلت إليه تحييه قبل خروجها، تتألق في حرير بنفسجي، وشعرها كأنه باقة من الأزهار الذهبية على قمة رأسها.

ـ جميع السيدات يلبسن فساتين أوروبية في الحفلات، تمتمت وكأنها تعتذر وهو ينظر إليها.

قال: ما أجملك! وأحني رأسه يقبل ذراعها في موضع يتلألأ بين

الثوب البنفسجي وقفازها الطويل الأسود. والآن يقف أمام مكتبه يعاين الأوراق المنثورة أمامه: مسودة بيان إنشاء مدرسة الفنون، مسودة مشروع الجامعة المصرية، مسودة اللائحة المنظمة لنقابة عمال، نص خطاب الخديو الموجه إلى وينجيت في الخرطوم: «إنه من دواعي سروري أن أراك هنا في هذه الأرض الشاسعة... والعلم البريطاني يخفق جنبا إلى جنب مع العلم المصري». خطاب مؤسف لا بد كتب له في قصر الدوبارة، ومن يدري بأي شكل من أشكال الحكم كان عباس حلمي سيلتزم في ظروف أخرى؟ كان يبدو مستعدا لحسن التصرف، كان يمكن أن نجعل منه ملكا دستوريا. اعتلي العرش وكل مرة يقوم بأي فعل يهدده كرومر بمدافعه، واليوم تحول فيه الذكاء إلى مكر، وكل طاقاته مسخرة للتآمر وجمع المال، للإنجليز أن يحتقروه كما شاءوا، ويكون لديهم حق. يشعل شريف باشا سيجارة ويبتعد عن المكتب. يضطجع في كرسيه ويغمض عينيه. يتساءل كيف يقيّم أبوه حديث عرابي في المقطم لو قرأه؟!

الستائر الحمراء الثقيلة تغطي الأبواب التي تقف في الربيع مفتوحة تؤدي إلى فناء لعبه في طفولته. استغرق نقل متاعه من الحلمية أسابيع، والآن كتبه مرصوصة في ثلاث خزائن تصطف على ثلاثة جدران في الحجرة، ومكتبه يقف بزاوية في الركن البعيد. تردد في شغل الحجرة التي كانت مفضلة عند والده لكن أمه حثته على ذلك وكذلك شقيقته، وعندما ذهب ليستأذنه ابتسم الشيخ وأومأ بالموافقة والطيبة، وأغلقوا بيت الحلمية ولم يبق فيه من الخدم إلا البستاني.

نظرت آنا في شك إلى الفوتيهات الوثيرة والمكتب الكبير من خشب الورد عندما أدخلها الحمالون إلى البيت. قال لها: «آسف لقد فقدت تلك القدرة» واحمر وجهها إذ قرأ أفكارها ثم عادت فقالت: «ليس هناك ما يمنع أن تكون مصريا أصيلا وتجلس إلى مكتب!» وعندما فكر في الأمر تذكر أنه حتى في كتاب الشيخة عائشة في طواسي لم يتعلم قط أن يجلس مرتاحا متربعا يكتب على مكتب أرضي أو طبلية. وقد كست الوسائد بقماش سادة وخشن من كتان من زراعات أرضية، فاتسق الأثاث الجديد مع الحجرة القديمة حيث يجلس الآن يتأمل معنى أن يرث أباه هكذا والشيخ مازال على قيد الحياة. يطفئ السيجارة ويغادر الحجرة. يخرج إلى الفناء في البرد، يعبر إلى الفناء الأصغر الملاصق، يدفع باب الزاوية ويدخل. يهب ميرغني جالسا على الدكة الخشبية التي ينام عليها.

ـ ليس هناك شيء، عد لنومك.

يسود الظلام في الحجرة الكبيرة فيما عدا الشموع التي تضيء الضريح البسيط. يلتقط شريف باشا شمعة ويظللها بيده الأخري، يقف بباب الحجرة الداخلية يتأمل أباه في نومه: الشيخ راقد على ظهره تحت البطاطين يشخر بصوت منخفض وقد تعري أحد قدميه، هزيل يكاد يقع من حرف الفراش الضيق المنخفض، فمه مفتوح قليلا ورأسه عار. كم من سنوات مضت منذ رآه شريف باشا بلا عمامة؟ جلد رأسه الباهت يظهر تحت الشعر الأبيض الخفيف. لقد شاخ حقا. ليس اليوم ببعيد حين تقع على ابنه مهمة إغلاق هاتين العينين وحشو الفم بالقطن وغسل البدن الهزيل وتكفينه

وحمله إلى مقبرة الأسرة. كم كنت أحبه! يقعي شريف باشا ويقرب الشمعة إلى وجه أبيه يبحث عن الوجه الضاحك الوسيم الذي كان يعبده في طفولته وفي صباه. كان أول ما يخطر له عندما يحضر الشهادة من المدرسة، عندما تخرج في مدرسة الحقوق، في كل خطوة خطاها كان همه الأول أن يفخر به أبوه، وكم كان هو فخورا بأبيه في بذلته العسكرية، وزاد فخره عندما انضم إلى عرابي مع أخيه الأكبر محمود سامي. يتفحص شريف باشا البارودي وجه أبيه النائم ويعيد في خياله المنظر منذ عشرين عاما: أبوه والضباط الآخرون يقفون خلف عرابي في عابدين، وأوكلاند كولفين واقف إلى جانب الخديو يحثه على إطلاق النار، وعرابي يشرع سيفه، وتوفيق مترددا يستجمع غضبا هزيلا ضعيف الشخصية:

ـ ما أنتم إلا عبيد إحساناتنا.

ورد عرابي الذي أصبح صيحة تتردد في أنحاء البلاد:

ـ لقد ولدتنا أمهاتنا أحرارا.. ولن نستعبد بعد اليوم!

ويراجع في ذهنه المطالب التي صاغوها وحفظتها الأمة عن ظهر قلب.

هل كانت أكثر مما يحق للناس أن يطلبوا؟

أني لعرابي أن يعرف أن مطالبة الخديو بالإصلاح سوف يجر كل ثقل الإمبراطورية البريطانية على رأس البلد؟ يقوم شريف باشا واقفا. لم يكن لديهم المهارة أو الذكاء، مجموعة من ضباط الجيش والشعراء والمحامين، حتى عرابي كان يفضل الحديث عن بايرون بدلًا من مناقشة الإستراتيجية. كانوا وطنيين لا ساسة، وقد دفعوا

الثمن غاليا. يضع يده برفق على رأس أبيه الضارب في الصلع.

كنت أريد العودة إلى البيت ـ إليه، لكن ليلي وزينب هانم رأيا أن اللائق الانتظار حتى يقدم السحور، ولم يكن بوسعي أن أذهب بدونهما. أدركت تعكر مزاجه منذ نزلت إليه أحييه قبل مغادرتي البيت، وعندما نظرت من المشربية ورأيته واقفا في صمت إلى جانب عرابي باشا رق قلبي له لعلمي كم يؤرقه ذلك الشيخ.

أجزم بصدق أن أخي وجد السعادة والفرح في زواجه، وعاشت آنا بيننا في مودة ورحمة. وفرت الصحبة لأمي والحب لابني، وبعض البهجة لقلب أبي المسكين، وعن نفسي أصبحت صديقتي المقربة؛ فقد خلت من ذلك التكبر والبرود مما اعتدنا تصوره في مواطنيها حتى كدنا ننسي أنها إنجليزية لولا أنها كانت تستغرب أشياء وتعجب بأشياء اعتدناها حتى لم نعد نراها أو نفكر فيها، جعلتنا ننظر بعين جديدة إلى ما حولنا، فنري الأشياء بعينيها، ونري فيها ما يبهرنا.

كان يكفي أن تري وجهها يضيء عند سماعنا الأصوات التي تدل على عودته إلى البيت، أو نلحظ نظرة الحنان تطل فجأة من عينيه عندما ينظر إليها لتدرك عمق الحب الذي نما حتى ملك قلبيهما. وأذكر أن أخي فاجأنا يوما ونحن نضرب الموسيقى معا، هي على البيانو الذي اشتراه لها وأنا على العود الذي تعلمت العزف عليه من حماتي. كنا نعزف مقطوعة لديبوسي طورناها لندخل فيها العود، ولم نسمعه يدخل الحجرة أو ندرك أنه موجود معنا حتى سمعناه يصفق، والتفت إليه وأكاد أجزم أني رأيت الدموع في عينيه. احمر وجه آنا كما يحدث لها كلما

فوجئت وذهبت إليه فأخذها بين ذراعيه أمامي وقال: أقسم بالله أني لم أسمع في حياتي موسيقي أحلى من هذه.

لكنها عجزت أن توفر له راحة البال، كأنه غاضب أن تكون حياته الخاصة سعيدة في إطار ظروف عامة يكرهها، أو أنه يتمني لو امتدت سعادته الشخصية لتشمل مصر كلها. شعرنا جميعا بضيق صدره يزداد ورغبته في التغيير تمتد، وكان يعمل ليل نهار ليحقق التغير في جميع المجالات التي يوليها اهتمامه، وبدأت آنا تساعده: تترجم له من الصحف البريطانية وتستخدم صلاتها في إنجلترا لتزوده بما يمكنها من أخبار تتعلق بالحياة هنا.

٢١ ديسمبر ١٩٠١

أمس دعا زوجي عددا من أشهر قادة الرأي العام في مصر إلى إفطار رمضان، من بين الضيوف كان الشيخ محمد عبده، ومصطفي بك كامل، وقاسم بك أمين وطلعت باشا حرب وأحمد لطفي السيد وأنطون الجميل وغيرهم، وكانت فكرته ـ وأمله ـ أن يتفقوا بعد نقاش ودي وخاص على مواقف يتخذونها علنا في بعض الأمور ولا يختلفون عليها. وكان الجميع متفقين بالنسبة لعدد من الموضوعات، أولها إنهاء الاحتلال وتسديد الدين الخارجي. وأبعد من ذلك كان هناك إجماع عموما على الحاجة لتحديث مصر. ألا يمكنهم أن يتفقوا على موضوعات أكثر تفصيلا؟

تقول ليلي: أتعرفين ماذا يناقشون؟ وتومئ برأسها ناحية الستائر.

تهز آنا رأسها وهي ترفع بصرها لحظة من الصفحة، والقلم الرصاص مازال في يدها:

ـ إنهم يتناقشون عنا، تبتسم ليلي ابتسامة صغيرة وتعود إلى الخياطة.

تشعر آنا بالفضول: كيف؟ يتناقشون عنا؟

ـ خذي هذا. تنحني ليلي وتبحث بين الجرائد والمجلات المبعثرة على المنضدة المنخفضة بجانب الأريكة وتخرج كتابا صغيرا في تجليد بسيط وتريه لها. تضع آنا كراسة الرسم جانبا وتقوم من مكانها لتأخذه. تتهجي العنوان وهي تجلس إلى جانب ليلي: الـ مرأة الـ جديدة. المرأة الجديدة؟

تصيح ليلي وهي تصفق قليلا: برا ڤو. رأيت كيف تتعلم بسرعة ياماما؟

ـ نبيهة، اسم النبي حارسها ـ

دخلت مبروكة بصينية القهوة. تضعها على الأرض وتجلس أمامها متربعة، أساورها تخشخش وهي تستقر وتعتدل في جلستها. تبتسم زينب هانم وعينها على دفتر حسابات البيت المفتوح أمامها: ربنا ينور طريقها دايما.

ليلي، وهي تنعطف إلى وظيفة المعلمة: والآن لو غيرنا علامة التشكيل هنا وهنا، وتغير علامتي تشكيل على غلاف الكتاب فأصبحت الكلمة تكتب هكذا: ماذا تكون؟

تتمهل آنا في فحص الكلمة ثم تبادر:

ـ مرآة؟

ـ ترد ليلي: إجابة صحيحة، وماذا تعني؟

تهز آنا رأسها فتشير ليلي إلى المرآة الكبيرة على الحائط الأيسر.

ـ مرآة؟

تهز ليلي رأسها بالإيجاب.

ـ لكن لم هذه الصلة القريبة بين اللفظين: المرأة والمرآة؟

ـ المرآة لا بد مشتقة من رأي، لكن لا أعرف ـ آه انتظري: المرء هو الشخص وامرأة مؤنث مرء، أيمكن أن المرء هو ما تقع عليه الرؤية؟ ما رأيك ياماما؟ المرء ما يُري؟

ـ وهل الإنسان وحده الذي تقع عليه الرؤيا يا بنتي؟ الحيوانات والأشجار وكل ما خلق في الدنيا تقع عليه الرؤية.

ـ يمكن الإنسان وحده هو الذي يرى نفسه.

ـ ناس تري بالعين وناس تري بالقلب، اسم النبي حافظك وصاينك، تقدم مبروكة فنجان القهوة لزينب هانم.

ـ لازم نكشف عن الكلمة في المعجم، أو نسأل آبيه.

تسأل آنا: أتظنين أن كلمة «mirror» الإنجليزية مأخوذة من مرآة؟

ـ لا أعرف! من أول من عرف المرآة؟

تقول آنا: إذا كانت الكلمة مشتقة من جذر في اللغة العربية، فلا بد أنها موجودة في اللغة العربية أصلا.

ترد ليلي: عليك أنت بالكشف عنها في المعجم.

تسأل آنا: لكن ما حكاية هذا الكتاب، ولم قلت إنهم يتحدثون عنا؟

تشير ليلي إلى غلاف الكتاب: المؤلف تحت مع آبيه شريف. هذا الكتاب الثاني له، وعندما نشر كتابه الأول أثار ضجة لدرجة أن السراية حظرت دخوله القصر! في رأيه لا يجب إجبار النساء على لبس الحجاب، ويجب أن تحصل الفتاة على التعليم مثلها مثل الولد. أليس كذلك يا ماما؟ تسأل وتكرر السؤال باللغة العربية.

تصيح مبروكة: تخلع الحجاب؟ اللي يعيش ياما يشوف.

ـ الحجاب سلو تركي يا مبروكة، لا عربي ولا مصري. هل الفلاحة في الريف تسير محجبة؟

ـ لهم عاداتهم ولنا عاداتنا، ما من سيدة محترمة تخرج من بيتها بوجه مكشوف.

ـ على أي حال، الرجل لا يقول امنعوا الحجاب. يقول لا يصح فرضه على النساء، ويترك لهن الاختيار.

ـ وماذا يفعل هو بحريمه؟ يترك لهن الاختيار؟

ـ الشيخ محمد عبده متفق معه في الرأي.

ـ المفتي؟

ـ نعم! يعني أنت تعرفين أكثر من المفتي؟

ـ والله العظيم لو أعطوني مال قارون ما أخرج بوجهي مكشوف.

تضحك ليلي: ومن ينظر لك؟

ـ ولو ! الحرمة حرمة. مش كده يا ست زينب؟

ـ يا مبروكة! هل طلب منك أحد أن تكشفي وجهك؟

ـ ولو! هل ستسير النساء في الشوارع كاشفات؟

ـ يا ستي هذا زمانهم. أنا وانت خلاص لن نتغير.خلي الشباب يقرون ما يريدون.

ـ طول عمرك طيبة أكثر من اللازم.

تقول ليلي موجهة الكلام إلى آنا: على أي حال الكل يتحدثون في الموضوع، والصحف مشغولة به، جريدة اللواء تعارض الكتاب، مصطفى كامل مع تعليم المرأة لكنه يريد الاحتفاظ بالحجاب، طلعت حرب ينادي بأن يبقى كل شيء على ما هو عليه، والاثنان تحت مع آبيه، وكذلك قاسم أمين والشيخ محمد عبده، فمن الطبيعي أن يتحدثوا عنا..

تهمس زينب: الشيخ محمد عبده رجل عظيم، وعينها على دفتر الحساب، ربنا يحفظه للبلاد.

ـ آمين! تؤمن مبروكة على كل دعوات زينب هانم كبيرة وصغيرة.

تسأل آنا: وما رأي النساء؟

ـ منقسمات كما ترين، وتشير ليلي برأسها نحو مبروكة وهي تبتسم: تعالى نذهب وننصت لما يقولون.

ـ وهل هذا جائز؟

ـ طبعا يجوز. ماما، تعالى معنا. لنذهب ونسمع ما يقولون..

مبروكة: اتركي الرجال في حالهم ياست ليلي.

ـ لا تخافي. سأنظر إلى زوجي فقط. ماما تعالى معنا..

تذهب ليلي إلى أمها وتأخذ القلم من يدها وتضعه على الدفتر وتساعدها على الوقوف. تلتفت إلى مبروكة بشقاوة: هل تأتين معنا؟

ـ لا يا ستي، أنا جالسة هنا مع أحمد، راجل كفاية عليّ.

زينب هانم: هاتي غطاء وغطيه، الولد حيبرد. لا أفهم لم لا يذهب إلى الفراش وتأخذينه في الصباح؟ تقول لليلي التي تمسك بالستارة الثقيلة وتزيحها كي تمر خلالها النساء.

تجد آنا نفسها مع رفيقتيها فيما يشبه المقصورة في الأوبرا، وأمامها المشربية التي تطل على السلاملك، تضع ليلي إصبعا على شفتيها محذرة، وتتكئ بركبتها على الصُّفَّة الخشبية الملتصقة بالحائط تحت زخارف المشربية، وتفتح ضلفة الزجاج السميك بحرص فيطرق سمعهن على الفور خشخشة فناجين القهوة في أطباقها. تقترب آنا وزينب هانم بحرص في الظلام ويركع ثلاثتهن على وسائد الصفة الخشبية وقد ألصقن الوجه بالحاجز الخشبي.

التجربة لا تغادر خيالي، عندما دخلت خلف الستائر ذكرت لأول وهلة مجلسي في مقصورة الأوبرا في صحبة

مدام حسين رشدي: ستائر القطيفة الثقيلة تنسدل خلفي والساتر أمامي، الظلام السائد والانتظار المترقب للأحداث التي تدور أمامي مؤطرة على المسرح المضيء، إلا أن الركوع على وسائد المقعد الخشبي بخشونتها وصلابتها التي لم يسبق لي الشعور بمثلها في مصر ملأ قلبي بشعور من الرهبة وكأنني في الكنيسة، وعندما لمحت وجه ليلي ملتصقا بزخارف الشباك الخشبية تضيئه بقع من النور تأتي من القاعة أسفلنا، تملكتني فكرة أني في حضرة لوحة رائعة لامرأة جميلة في طقس الاعتراف في كنيسة إيطالية، وطقس الاعتراف في الواقع لا يضيئه نور إلا أن الضوء في اللوحة الفنية من نور رحمة الله وغفرانه للخلق أجمعين.

تنازل شريف باشا عن مجلسه التقليدي في القاعة لصديقه الشيخ محمد عبده الذي يكبره سنا. يجلس مفتي مصر الأكبر على الأريكة في صدر القاعة وقد خففت لحيته الشيباء وشاربه المشذب بعناية من حدة نظرته، ومن القوة الكامنة في جبهته، يغمر البياض اللحية فيما عدا مثلث أنيق تحت شفته السفلي، قفطانه من الشاهي الأبيض المخطط، وجبته من البني الداكن، وعمامته البيضاء ملفوفة بإحكام على رأسه. انتثر الرجال على الأرائك والكراسي المريحة، الشيخ رشيد رضا يرتدي الجبة والقفطان أما باقي الضيوف فيرتدون الحلة الإفرنجية.

يستمر الشيخ رشيد رضا في الحديث: من الواضح أن العرب يكونون وحدة طبيعية، فأنا من سوريا وأنطون بك من لبنان

ونحن الاثنان نعمل هنا في مصر ولنا جميعا نفس الآراء وأهدافنا واحدة..

يرد مصطفى كامل: ونحن جميعًا جزء من الإمبراطورية العثمانية، فنحن ضعفاء منقسمون على أنفسنا بدون الأتراك.

قاسم أمين: الإمبراطورية نفسها ضعيفة. كلما تحركت أوروبا يتراجع السلطان، لو كانت له القوة كيف تأتّي لبريطانيا أن تحتل مصر؟

أنطون الجميل: ولنذكر المشاكل في فلسطين. السلطان عاجز عن إيقاف حركة الهجرة الصهيونية إلى فلسطين.

يرتفع صوت طلعت حرب ثابتا عميقا في القاعة: هم أقلية من الناس، مضطهدون ومعذبون. وقد رحبت الإمبراطورية باليهود منذ سقوط الأندلس.

ـ أعتقد أن أنطون بك على حق، يقول الشيخ محمد عبده بلطف، وترقب آنا الرجل الذي تجله بشعور خاص منذ يوم قرانها: علينا أن نتوقع مزيدًا من المشاكل من ناحيتهم. ألم تسمعوا أخبار مؤتمرهم الخامس؟ أسسوا صندوقا وطنيا وطلبوا التبرعات من الجماعات اليهودية في جميع أنحاء العالم.

أنطون الجميل: هذه الأموال ستستخدم في شراء الأراضي في فلسطين.

وتذكر النساء المنصتات في الظلام شكري العسلي وحديثه المهموم والرسائل التي يحملها معه. يصيح رشيد رضا: يجب

أن نتعلم منهم، حتى وإن كرهنا ما يفعلون، علينا أن نتعلم منهم، يمتازون بالتصميم ويعملون متحدين...

ـ هم أيضا منقسمون. تسمع آنا صوت زوجها يتحدث فتتحرك لتتمكن من رؤيته بوضوح:

ـ بعض شبابهم انفصلوا عن الحركة وكونوا جماعة جديدة باسم الفصيل الصهيوني الديموقراطي، وهناك رجال الدين يعارضون تسييس الديانة اليهودية، وهناك كذلك عقلاء يقولون إن هناك عربا يعيشون في فلسطين..

أنطون الجميل: العقلاء والمتقون أقلية.

يبتسم محمد عبده: وما الجديد في ذلك ؟

يقول مصطفى كامل في ضجر: الصهاينة أحد مشاكلنا، وغيرهم كثير أشد إلحاحا: الامتيازات الأجنبية مثلا والقوانين الخاصة.

يدور ميرغني بهدوء بين الضيوف، يرفع الأطباق الفارغة ويضع مكانها أطباقا عامرة بالحلوي، ويدور ثانية حاملا صينية أكواب الكركديه والتمر هندي وعصير التفاح وقمر الدين.

حسني بك: كرومر نفسه يهمه التخلص من الامتيازات الأجنبية لأنها تنقض سلطاته.

شريف باشا: في رأيي يستحسن أن نترك له التصرف في الامتيازات الأجنبية. لا شك أنها تنقص من سيادتنا لكن هذه مسألة نظرية بحتة، وبدونها ستكون قبضته على البلاد أشد وأعتي، أما القوانين الخاصة فموضوع آخر.

طلعت حرب: لن نتخلص منها أبدا يا باشا، فطالما الاحتلال البريطاني قائم يحتاجون إلى هذه القوانين لحماية أنفسهم.

شريف باشا: وليتشدق كرومر بادعاء المساواة للجميع أمام القانون.

طلعت حرب: التصنيع هو الحل، يجب أن نضع التصنيع نصب أعيننا. لقد بدأ المنشاوي باشا وآخرون يستثمرون في صناعة النسيج، ونظام الضرائب الجديد الذي يقترحه كرومر سيؤدي بهم إلى الإفلاس قبل انتهاء العام.

شريف باشا: لقد عارضناه في المجلس ويجب أن نعمل على أن ترفضه الجمعية التشريعية.

يصيح مصطفى كامل: كل هذا مضيعة للوقت، الاحتلال مشكلتنا الأولى، يطالعنا أينما توجهنا، وعلينا أن نركز جهودنا لإنهائه، ونقف إلى جانب الباب العالي فكل ما يقويه يمنحنا القوة، يجب أن نلتمس العون من فرنسا ومن الولايات المتحدة، فليس لهم مصلحة في بقاء الإنجليز في مصر، ومبادئ الحرية والديمقراطية منصوص عليها بوضوح في دستورهم.

الشيخ محمد عبده: في الإمكان أن نفعل كل هذا، لكن علينا ألا نترك شئوننا الداخلية في ركود.

يثني عليه قاسم أمين: خذ مشكلة المرأة، مثلا..

ـ مشكلة المرأة مع جليل احترامي ـ ينحني طلعت حرب في اتجاه قاسم أمين: مشكلة مفتعلة. ليس لدينا مشكلة للنساء في بلادنا.

ـ بعد إذن طلعت بك أعتقد أن لدينا مشكلة وأننا نعرض أنفسنا لخطر جسيم إذا تجاهلناها ـ

تتعرف آنا على الضيف المصري الذي التقت به في صالون الأميرة نازلي وتتساءل: هل أخبر زوجها بذلك اللقاء؟ ترجح أنه لم يفعل، لأن شريف باشا لم يذكر لها شيئًا من ذلك.

يستمر قاسم أمين: لا يمكن أن نطلب النهضة لمصر ونصف سكانها مازلن في العصور الوسطي. ولنأخذ أبسط الأمور مثالًا: كيف نعهد لأمهات جاهلات بتربية أطفالنا على النهج الصحيح؟ كيف يجد الرجل السند والصحبة عند زوجة جاهلة؟

يقول مصطفى كامل: ليس لي اعتراض على تعليم البنات، لكن حذار من المساس بالحجاب.

تستاء ليلي إذ تسمع أخاها يقول: يستحسن ألا نخوض في موضوع الحجاب، لكنه يكمل: ولندع النساء يتخذن القرار بأنفسهن، لكن حبذا لو اتفقنا على ضرورة تعليم البنات.

ـ يا سيدي عَلِّم البنين أولا، هل يحصل جميع الأولاد على فرص التعليم؟

ـ لا، يشارك أحمد لطفي السيد في النقاش: لكن إذا كنا نخطط لدفعة قوية في التعليم، ونهدف إلى إصدار قانون بالتعليم الإلزامي حتى سن معينة، فيجب أن يطبق على البنات ولا يقتصر على البنين. علينا أن نبدأ على الطريق الصحيح ـ

ـ وإلي أين تنتهي؟ بالسماح للنساء بالعمل؟ بإعطاء المرأة

الحق في الطلاق؟ بتغيير قوانين المواريث؟ يقول طلعت حرب في غضب.

تري آنا زوجها يهب واقفا والشيخ محمد عبده يضع يده على ذراعه قائلًا: يا سيدي، لم يتحدث أحد في تغيير القانون! إننا نتكلم عن تعليم البنات القراءة والكتابة.

لم يصلوا إلى اتفاق. تلك الليلة قال لي زوجي بعد انصراف الضيوف: «نعم لا بد من تغيير في القوانين، لو ملكت الأمر لغيرتها غدا».

إن أسعد أوقاته هي الأيام التي يقضيها في طواسي، في أرضه. هناك إذا اتخذ قرارًا ينفذ فيصبح واقعا، لا يتعذر عليه أمر إلا ما لا تسمح به الطبيعة، فهو لا يطيق التسليم لإرادة إنسان غيره. هو سعيد في طواسي وكان سعيدا في روما، وكأنه وجد حرية هناك، الحرية أن يكون نفسه ولا شيء غير نفسه. عندما ذهبنا إلى روما كنا زائرين مجهولين لا يعرفنا أحد، نتجنب الأماكن التي يتجمع فيها السواح الإنجليز ونذهب حيث يذهب الإيطاليون. تمشينا في الشوارع، ودخلنا الكنائس، وأكلنا في مطاعم بعيدة عن الشوارع المطروقة. كانت أقل الأشياء تسعدنا: الاتفاق على اللقاء في ميدان صغير مستتر، أن أعتمد على ذراعه ونحن نسير في الطريق، الجلوس جنبا إلى جنب في المسرح، كانت كلها مغامرات جديدة بالنسبة لنا، وكان مزاجه رائقا يداعبني في لطف وسعادة. إلا أنني أعتقد أنه لا يمكن أن يطيق الحياة

مغتربا؛ حتى بصرف النظر عن الاعتبارات الخاصة بأسرته. لو عاش مغتربا لأصبح رجلا بلا هدف، فهدفه وهمه في الحياة هو مصر.

القاهرة في ٣٠ ديسمبر ١٩٠١

الوالد العزيز سير تشارلز

شكرا لرسالتك المؤرخة في أول هذا الشهر تعلمني بتعيين مستر بارنجتون في صحيفة تريبيون، وقد أسعدني الخبر وأملي أن يكون فيه خير كثير؛ فمستر بارنجتون على معرفة تامة بالأمور هنا، وإلي جانب تعاطفه يمتاز بسرعة البديهة وبقلم معبر سيال، ومن المؤكد أنه يشعر بفضلك عليه وسيثبت أنه عند حسن ظنك، ولعلي أضيف إلى حسن تقديرك له إذ أفيدك أنه حرص على أن يوفر لمن كانوا في خدمته مكانا في بيوت بعض البريطانيين المقيمين هنا، لأن البيوت المصرية لا تقبل في العادة من عمل في بيوت الأجانب.

أخشي أن عامنا هذا لم يشهد تغيرا يعجبك في طريقة حكم العالم، وليس لدي أمل يذكر أن العام القادم سيكون خيرا من سابقه. حدثتني مسز بوتشر عن مستر بلنت عندما سمع أن روزبري رشح نفسه ليرأس الوزارة أنه قال: «حكم سالزبري شر بما فيه الكفاية، أما روزبري فيعني تحكم

بورصة الأوراق المالية في الحكومة» وفي ظني أنك توافقه على هذا الرأي.

تردد اسم مستر بلنت كثيرا هنا في الشهور الماضية بسبب حادث وقع في أملاكه، إذ طارد بعض الضباط ثعلبا في أرضه، وحاول الرجال العاملون في الأرض مطاردتهم، لكن الضباط رفضوا المغادرة فنشبت بينهم معركة، وألقي القبض على المصريين وحوكموا أمام محكمة خاصة أدانتهم للاعتداء على ضباط بريطانيين وعوقبوا بالسجن، ويبدو أن مستر بلنت يحاول استخدام هذا الحادث للمطالبة بإجراء تغيير في القانون الخاص، ولو أفلح في ذلك لرحب به المصريون هنا، لأن مسألة صيد الحيوانات ومطاردتها في الأرض المزروعة ـ وكل بوصة أرض ـ غير الصحراء ـ أرض مزروعة هنا ـ يتلف المحاصيل ويصيب الفلاحين والملاك بأضرار تصبح مدعاة للغضب والشكوى.

تسألني إذا كنت قد قابلت زوجة لورد كرومر الجديدة، والجواب بالنفي، فليس لي أي تعامل مع قصر الدوبارة، ولا صلة لي بأي من البريطانيين المقيمين هنا عدا مسز بوتشر فهي مثال الطيبة ونتزاور بانتظام.

أعترف أني أفتقد احتفالات عيد الميلاد عندنا، ربما أكثر هذا العام من العام الماضي، هذا بالرغم من أن شريف باشا فاجأني بهدية ثمينة: صليب حبشي مطعم بالياقوت إلا أنه بدا لي غريبا أن تمر ليالي الاستعداد للكريسماس

في الثالث والعشرين والرابع والعشرين من ديسمبر وكأنها أيام عادية، خاصة هذا العام حيث حل الكريسماس في شهر رمضان. طبعا سيتم الاحتفال بعيد الميلاد عند الأقباط في السابع من يناير، لكنني لن أجد فيه الموسيقى التي اعتدتها وأحبها كثيرا. عزفت بعض الترانيم على البيانو الذي اشتراه لي زوجي مؤخرا، لكن لم أستمتع بها كعهدي، وأظن أنها زادت قليلا من شعوري بافتقاد أناشيد الكريسماس في كنيسة سانت مارتين. في العام الماضي استمتعت مع الجالية البريطانية بعزف رائع لموسيقي هذا الموسم، كان المسئول عنه مستر تمبل جيردنر، لكني أسمع هذه الأيام أنه بدأ العمل في التنصير بجد وحماس، وهو يلقي مواعظه على المراكبية في النيل عند بولاق مما قد يؤدي في حدسي إلى شغب ومشكلات.

لقد بدأت الأمور هنا تكشف لي عن تراكبها وتعقدها وعن صعوبة موقف زوجي، وهي صعوبات تواجه كل من يفكرون مثله، فعليهم المحافظة على توازن دقيق يكاد يستحيل أحيانا.

إن للوجود البريطاني هنا أثرا مؤسفا إذ يوقع الفرقة في صفوف الحركة الوطنية، وكانت موحدة بزعامة عرابي باشا، هدفها السير على طريق الديموقراطية والتحديث، وكثيرا ما سمعتك تتحدث باستياء عن أسباب تدخلنا في ذلك الوقت، فلولا تدخلنا لأمكنهم حل الصراع بين الشعب والخديو بطريقة ما فيما بينهم. وكان ارتباط مصر بتركيا

في ضعف متزايد طوال مائة عام، ومن المحتمل أن الخديو بدون مساعدتنا لم يكن قادرا على الوقوف طويلا في وجه إرادة الشعب. وهم اليوم متحدون في الرغبة في التخلص من البريطانيين إلا أن بعضهم يؤمن بضرورة تنفيذ الجلاء أولا وفريق آخر يرى أن لا سبيل إلى ذلك إلا بالتدريج ومن خلال تقوية المؤسسات الوطنية.

وتبرز على الساحة اليوم فئات أخرى: مثلا أناس كان من الممكن أن يتقبلوا تأسيس التعليم المدني أو الاستغناء تدريجيًّا عن الحجاب لكنهم اليوم يعارضون هذه التطورات لشعورهم بالحاجة إلى التمسك بقيمهم وتقاليدهم الموروثة في وجه الاحتلال، وفي نفس الوقت يجد الواقفون في صف التغير والتطور أنفسهم مضطرين دوما إلى درء شبهة الضلوع مع الإنجليز.

ونقطة أخرى هي علاقة مصر بتركيا، فهناك من يؤمنون أن على مصر أن تدعم ارتباطها بالسلطان المسلم في إستامبول لتقوي على مواجهة النفوذ البريطاني، ويذهب غيرهم إلى أن الإمبراطورية العثمانية في انحدار، ويشيرون إلى عجز السلطان عن حماية أراضيه من انتهاكات أوروبا ويحتجون بأن تأسيس خلافة عربية فتية ونشطة في الحجاز هو الحل، وعلي مصر أن تتحالف معها، ويري فريق آخر أن تعتمد مصر على تاريخها وتقف بمفردها، دولة علمانية تحتضن مواطنيها المسلمين والأقباط سواء.

والنتيجة أن تلك الخاصية التي تميز مصر ويكمن فيها سر قوتها، وهي ثراء ثقافتها وتنوعها، تؤدي هنا إلى ضعفها، وفي اعتقاد زوجي أنه لولا وجود الاحتلال البريطاني في مصر لقل شأن السلطان وسطوته، ولوقفت مصر على قدميها وحدها، ولعبت الرابطة الطبيعية للتاريخ واللغة دورها في التقريب بينها وبين غيرها من الشعوب العربية.

فحضورنا في خير افتراض معوق وفي أسوأ الحالات غاشم ظالم. يشعر الجميع بوجودنا أينما ولوا وجوههم مما يجعل تهمة الخيانة جاهزة دوما تلقي في وجه كل من لا يشاركك الرأي في أتفه الأمور.

القاهرة في ٣٠ ديسمبر ١٩٠١

عزيزي جيمس

سمعت لتوي الأخبار الطيبة من سير تشارلز؛ أنك عينت في هيئة تحرير صحيفة التريبيون، وسعدت لك كثيرا، وأملي أن تكون سعيدًا بالحياة في لندن. أليس من الغريب أن فرصة استمرار الصداقة بيننا وأنت على البعد خير مما كان يتاح لنا لو أنك بقيت في القاهرة؟!

سأسأل زوجي عن العنوان الذي يمكن أن تراسلني عليه وأفيدك به.

لا أظنني أستطيع أن أزودك بأخبار عن معارفنا هنا؛ فأنا لا أرى منهم إلا مسز بوتشر التي تشملني بعطفها وتزورني

من حين لآخر، وفيما عداها هي ومدام حسين رشدي تقتصر صداقاتي على المصريات، وأنا مشغولة تماما بأمور العائلة، وقد وجدت سعادة في زواجي تفوق كل ما تخيلته، فشريف باشا محب حان يرعي شعوري، وليلي أخت عزيزة، وطفلها أحمد معبودي الخاص. وقد توطدت الصداقة بيني وبين حماتي ونتبادل وصفات الطعام عمليا في المطبخ، وقد ازداد تعلقي كذلك بالبارودي بك الكبير، وهو يجلس طول اليوم في صمت في خلوته، لكنه يرفع بصره إلي ويساعدني إذا تعثرت في قراءة لفظ عربي عند الحاجة. ما زلت أمارس التصوير والرسم، لكن شاغلي الجديد هو النول والنسيج، وقد اشتري لي زوجي نولا متوسط الحجم - وبعد أن سألته إن كان ينوي أن يغيب عنا عشرين سنه، شغفت بالنسج عليه، واكتشفت أن العمل عليه لا يغيّبني عما يدور حولي، بعكس القراءة أو الكتابة؛ إذ تعزلك بالضرورة عن كل شيء، وقد لا تسمع ما يوجه إليك من كلام، وقد ترفع بصرك فتصيبك الدهشة أن تجد نفسك في ذلك المكان وقد حملتك صفحات الكتاب بعيدا واستغرقتك. أما إذا جلستُ إلى النول فأظل جزءًا من كل ما يحيط بي، ويبدو لي أن الأصوات والروائح والأشخاص الذين يغدون ويروحون حولي، كلها تدخل في عناصر النسيج. أستطيع أن أخمن ما يدور بذهنك: «آه آنا دخلت في الميتافيزيقا» لكنني في الواقع عملية تماما، فأنا أعمل على النول وأشارك في حديث أحمد الطفولي. تأمل الفارق، ففي عمليات الرسم والتصوير لا بد من الحذر دوما

من البقع التي قد تلطخ اللوحة والملابس، والرسام مضطر إلى الإنجاز بسرعة قبل أن تجف الألوان أو يتغير الضوء.. أضف إلى هذا متعة استخدام اللوحة النسجية التي أبدعتها ـ آه! لقد نسيت نفسي وبدأت ألقى عليك دروسًا ومواعظ: موعظة النسيج! أليست فكرة مضحكة؟ لكني بصدق أعتقد أن جلوسي إلى النول في فناء البيت قد جلب بعض المسرة إلى شيخوخة البارودي بك....

١٧ ديسمبر ١٩٠١

يُحكم شريف باشا الغطاء فوق أبيه ويبعد قدم الشيخ برفق عن حرف الفراش ويغطيها بالبطانية ثم يغادر الحجرة.

في خارج الخلوة يذكر أن هنا وقع بصره على آنا وآبيه أثناء الدرس، كان الرأس الأشقر والرأس المعمم ينحنيان على الكتاب، وسبابة أبية تشير في رعدة خفيفة إلى شيء في صفحاته. آنا ترفع عينيها وتبتسم في وجه الشيخ. يسير عائدا إلى البيت. إن حالة الرضا التي تشع منها تسعده. هذا إذا كانت راضية مستقرة. إنه يرقبها في انتظار دلائل على القلق، لن يدهشه قلقها، يعلم الله لو كان مكانها لتململ. إنه يوفر لها الألوان والأوراق، وكل كتيبات الموسيقى المنشورة التي يجدها. عندما صاحت بالإعجاب أمام لوحة نسجية أمر بنول أرسل إلى البيت، وجاء بامرأة علمتها كيف تستخدمه. وضعت النول في الفناء بجوار باب أبيه، وأصبح مجلسها هناك تعمل ببطء وهي تتعلم هذا الفن الجديد، والشيخ يرقب كرات

الحرير البراقة ترقص وتتدحرج في أشعة الشمس. قالت أمه: «ربنا عوض صبرك خيرا» وامتلأ قلبه بالدفء وهو يرقب زوجته الغريبة هذه تشغل نفسها في البيت القديم كما لو كان هو المكان بالذات الذي تمنت دوما أن تقضي فيه أيامها، ويفيض قلبه إذ تجيئه في فراشه وكأنها لم تعرف رغبة في لياليها إلا في أحضانه.

ـ أمرت حسناء أن تذهب إلى فراشها فلا حاجة لك بها الليلة.

تتعثر أنامله وهو يفك أزرارها ومشابكها وأربطتها وينفد صبره قبل أن يفرغ فينزل بثقله على الحرير والدانتلا والجسد المستجيب تحته ويئن في نحرها: «آه يا آنا، آنا. كم أحبك!»

أول يناير ١٩٠٢

حب، أحب، يحب. عشق يعني حب يربط اثنين معا، شغف هو حب يعشش في حجرات القلب، هيام هو حب يطوف الأرض، تيه يعني حب تفقد فيه نفسك، وَلَهٌ هو حب يحمل الأسي في طياته، صبابة تعني حب ينضح من المسام، هوي هو حب يشترك بالاسم مع الهواء ومع السقوط، والغرام هو حب على استعداد لدفع الثمن. ما أكثر ما تعلمت في السنة الماضية! ليس في مقدوري أن أصف كل ما تعلمته..

(٢٤)

... كانت لحظة الحلم (بإمكانية تغيير وجه الحياة) هي الترف الاستثنائي الذي تمتع به أبناء « جيل السبعينيات»، وحرمت منه الأجيال اللاحقة، ومع ذلـك... لكل وضع ضريبته..

أروي صالح ١٩٩٧

١٥ سبتمبر ١٩٩٧

شن الفلسطينيون ثلاث هجمات انتحارية في القدس الغربية أسفرت عن ٧ قتلي، حاولت وحدة من الجيش الإسرائيلي النزول في الأنصارية في جنوب لبنان فقاومتها وحدة من قوات أمل إلى جانب سكان المنطقة، أسفرت المحاولة عن مقتل ١١ جنديًّا إسرائيليًّا. وصل عرفات والملك حسين إلى القاهرة في لقاء قمة مع مبارك. جندي إسرائيلي يطلق النار بطريقة عشوائية على ٣٠ فلسطينيا في حافلة في الخليل. القبض على ١٠٧ فلسطينيا في الضفة الغربية. السلطة الفلسطينية تقبض على ٦٧ فلسطينيا آخرين. في الجزائر قتل ٤٩ وجرح ٦٠ في منطقة بني صوص في العاصمة، وقتل ٤ في بني موسى، وقتل ١٣٧ يقال إنهم إرهابيون في جبال الشريعة. مصرع ١٣٠ جزائريًا هربوا من البلاد عندما اصطدمت السفينة التي تقلهم بسفينة أمام ساحل نيجيريا. الأمم المتحدة اضطرت إلى السحب من ميزانية حفظ السلام لدفع مرتبات موظفيها. وفاة الأميرة ديانا وخروج ٥ ملايين مودع للسير في جنازتها. وفاة الأم تيريزا. وفاة موبوتو. النمسا توافق على تعويض ضحايا النازي عن ذهبهم المفقود.

كانت تلك بعض الأحداث التي وقعت أثناء أسبوعين قضاهما أخي عندي، أعرفها لأنه كان عاجزا عن قضاء ساعتين بدون النظر في صحيفة أو الاستماع إلى قناة إخبارية في الإذاعة أو التلفزيون. تململ من الإقامة في بيتنا على الشاطئ فعدنا إلى القاهرة حيث كان يشتري ٧ صحف عربية كل صباح، وفي آخر الليل ينزل إلى ميدان طلعت حرب ليحصل على الجرائد الإنجليزية والفرنسية. اشتري لي جهاز كمبيوتر شخصي، ورتب اشتراكي في الإنترنت. حدثته عن اتصالي بطارق عطية وعن وعده بالمساعدة في تشغيل المدرسة في طواسي، ولم أحدثه عن خطط طارق لاستثمار أرضه، ولم أرتب للقاء بينهما.

إيزابل اتصلت وقالت إنها ستبقي في نيويورك حتى تنتهي من الإجراءات القانونية المتعلقة بوالديها تقول: أنا أزحم لك حجرة في شقتك.

- إنها حجرتك.

- يمكن أن تنقلي أغراضي إذا أحببت.

أكرر القول: إنها حجرتك، وسيبقي كل شيء كما تركته.

أعلم أنها تنتظر عودة أخي. عندما يتحدث إليها ألاحظ تغير النبرة في صوته إلى نبرة أعمق رنينا، نبرة حنان جنسي، لكنه محجم عن الالتزام، ويكرر لي مقولة إنه في الخامسة والخمسين. أقول له: تبدو في أحسن حال، وتتصرف كأنك في الثلاثين.

- لكني لست في الثلاثين وقد تعبت من الشرح والإيضاح.

لا أستطيع العيش مع امرأة إلا إذا كانت تعرف كل شيء، ولا تحتاج أن أخبرها أو أشرح لها.

ـ ما هو المفروض أن تعرفه؟ أسأله وإن كنت أعرف الإجابة.

ـ كل شيء.

ـ ماذا؟ مصر، فلسطين، أمريكا، أبناءك، الموسيقى التي تؤلفها، الماضي والحاضر والمستقبل؟ اسمح لي!

ـ ليس من الضروري أن تعرف المستقبل.. ويسخر مني بابتسامة عريضة.

كان يخطط لتقديم حفلات موسيقي مجانية في غزة وأريحا وقانا، فكلف مدير أعماله بالبحث عن ممولين. اقترحت أن يقدم حفلا في الصعيد ويحضر إلى طواسي. كنت أكتب قصة آنا في الأوقات القليلة التي يخرج فيها وحده، رفضت أن أطلعه على مخطوطي، لكني أطلعته على مفكرة آنا ورسائلها ومصباحها وشالها الأبيض، فرّجته على العلم الأخضر الكبير بالهلال والصليب وفردناه معا، وكذلك فردنا المقطع من النسجية الذي وجدته ملفوفا بعناية في ركن من الصندوق، اللوحة التي تكمّل ما عنده. كرر: أنا آسف، سأحضرها في المرة القادمة.

شبكنا المقطع في شماعتين وعلقناه من رف في خزانة كتب عاليه: أوزوريس جالسا. يمكن التعرف عليه أينما كان بوجهه الأخضر وجسده المكفن، يداه معقودتان على صدره تحملان الصولجان، والمذبة، تعلو تاجه المرتفع كتابة بالخط الديواني منسوجة بعناية

وكل نقطة أو همزة أو علامة ترقيم في مكانها بالضبط، كلمة عربية واحدة: « الميت».

١٠ مايو ١٩٠٥

زوجي نائم وأنا لا أستطيع الهدوء أو الاستقرار في الفراش بسبب الجنين، منذ أسابيع وأنا لا أستطيع الرقاد، بل أنام جالسة تسندني الوسائد كالمريض طال به المرض. إنه ثمن ضئيل أؤديه مقابل السعادة التي حظينا بها بسبب هذا الطفل حتى قبل ولادته، عدا أني متعبة وقلقة لقلة النوم، والجميع يداومون على نصحي بالعناية بصحتي وزيادة قوتي استعدادا للولادة.

أنا خائفة من الولادة. لا أستطيع التظاهر بغير ذلك. وقد حاول زوجي مرارا أن يقنعني بالاستعانة بخبرة طبيب بريطاني، واقترح ـ مرة واحدة فقط في بداية حملي ولم يكررها ـ أن ربما أفضل العودة إلى « وطني» لأقضي أسابيع الوضع والنفاس بين « أهلي». وقد رفضت عرضه في المرتين قائلة: إنني لن أشعر بالأمان وبالعناية الفائقة في أي مكان خيرا من هذا البيت، ولن أوافق على أي ترتيبات يمكن أن تعوق بهجتنا في هذه المناسبة. إن حاجته إلى الفرح ماسة هذه الأيام، فقد ألقى الوفاق الودي بين بريطانيا وفرنسا بظله على مصر كلها، وهو رغما عن ذلك مستمر في عمله وكفاحه من أجل مصر، إلا أن في الجو ثقلا يشي بتسرب الأمل.

وفي أواخر ١٩٠٤ ظهرت علامات الحمل على آنا، فشملتها أمي بكل رعاية وحنان، أما أخي فلو طلبت منه لبن العصفور لجاءها به. كان ترحيبنا بخبر الحمل وشعورنا بالامتنان لآنا فائقا، خاصة في تلك الأيام الكئيبة بعد إعلان الوفاق الودي بين فرنسا وبريطانيا في إبريل من ذلك العام. فبعد زيارة مدام جوليت آدام لمصر وجولتها في البلاد، وبعد احتفاء الأعيان من الوطنيين بها ـ وقد أكرموا ضيافتها وحتي أفندينا أقام لها وليمة ـ وإذا بإعلان الوفاق يصدر عن الدولتين مطلقا يد فرنسا في المغرب مقابل انفراد بريطانيا بمصر. قمنا بحملات غاضبة طوال سبعة شهور وقدمنا العرائض والاحتجاجات، وباءت جهودنا بالفشل وتم التصديق على اتفاقية الوفاق، ثم كسر عباس حلمي قلوبنا بالظهور بجوار كرومر تحت العلم البريطاني في ساحة قصر عابدين، يستعرض قوات الاحتلال بمناسبة عيد ميلاد الملك إدوار.

القاهرة في ١٢ مايو ١٩٠٥

عزيزي چيمس

وصلتني رسالتك المؤرخة في ١٠ مارس وبها صورة بيتك الجديد في تشلزي. إنه بيت جميل وإذا قدر لنا أن نحضر إلى إنجلترا في يوم من الأيام فمن المؤكد أن نتحفك بالزيارة. لا بد أن والدتك سعيدة بسكناك بالقرب منها.

طفلنا المنتظر موعده أوائل الشهر القادم، والجميع هنا يبالغون في العناية بي، ومحظور على أن أصنع أو أشتري

شيئا للطفل حتى تتم الولادة تجنبا للفأل السيئ وجميع القواعد والأوامر فيما يخص القدر والنجوم وما يجلب الحظ الطيب أو الحظ السيئ وما يجلب الحسد أو يدرأ العين جميعها تصدر من مبروكة. وهي وصيفة حبشية عجوز رافقت حماتي طول العمر، حتى شريف باشا يعمل لها حسابا لأنها كانت مربيته في طفولته.

أحمد الآن في الخامسة من عمره، وسيم وأعتقد أن له أذنا موسيقية وأنه موهوب حقا، وكثيرا ما يقضي الساعات بجانبي أمام البيانو، وقد أصبح يجيد العزف بدرجة لا بأس بها. أخبرناه أني أربي له ابن خال صغير ليلعب معه في المستقبل، فيسألني كل يوم عن أحوال النونو، وهل ظهرت منه قطعة صغيرة يمكنه أن يراها.

إن الحياة في هذا البيت يرفرف عليها الود والسعادة بالرغم من موجات الخيبة والقلق التي خلفها الوفاق الودي في نفوس الجميع، ولا أحد يعرف لها نهاية، فالخديو من جانبه طرح عنه الأمل في أن يكون حاكما حقا فأطلق العنان لجشعه، ودبر صفقة أراض في مشتهر لمصلحته الخاصة، لكن الشيخ محمد عبده بصفته مسئولا عن الأوقاف تصدي له وأوقف تنفيذها، ونتيجة لذلك أخذت السراي والصحف الموالية لها في شن حملة كراهية خبيثة ضد الشيخ، وكان لورد كرومر قد ساند محمد عبده في معارضة الصفقة فتضمن الهجوم نشر صور فاضحة مزيفة للشيخ يتعاطي الخمر ويجالس نساء أوروبيات، وكان من أثرها أن قدم

الشيخ استقالته من مجلس إدارة الأزهر، وأصابه المرض حتى أصبحنا جميعا في قلق على صحته.

بلغني أن هناك إشاعة في لندن أن كرومر يفاوض إلدون جورست أن يسلمه مصر بشرط أن يسلمها جورست إلى إرنجتون، ابن كرومر، بعد سنوات! يتصرف وكأنه الملك الحاكم هنا، ويبدو أنه حقا يتخيل نفسه ملكا! على أنه يستحق منا الشكر لإبطال مشروع العريش في سيناء ـ لكنه شرع أخيرا يزور المحافظات ويطوف بها وكأنه في موكب للنصر، مما يحز في النفوس ويؤذي المشاعر الوطنية.

لم أسمع من قبل بمشروع العريش، فعدت أطلب المساعدة من ابني في لندن، وأسفر بحثه عن التالي: في سنة ١٩٠٢ إذ كان هرتزل يبحث عن وطن لليهود، وقع في خاطره إمكانية استخدام قبرص أو العريش، وأفلح في كسب تأييد لورد روتشيلد بأن زين له أن تسهر جماعات المستوطنين الجدد على حراسة قناة السويس، ويفسدون مشروع السكة الحديد المشترك بين تركيا وألمانيا، ويشكلون عينا على تركيا لمصلحة بريطانيا عموما. ذهب هرتزل بمساندة روتشيلد إلى جوزيف تشمبرلين وزير المستعمرات، قال تشمبرلين ليس في مقدوره أن يعطيه قبرص، لكنه رتب له لقاء مع وزير الخارجية، لورد لانسداون، لمناقشة موضوع العريش، وأرسل لانسداون صديقا له يدعي جرينبرج إلى مصر في مهمة خاصة لبحث الأمر مع كرومر.

أمر كرومر بإجراء دراسة جدوي للمشروع، لكن استقر رأيه في

النهاية أن كمية المياه التي ستحتاجها تلك المستوطنات الزراعية التي يريدها هرتزل لا يمكن الاستغناء عنها من مياه النيل، وأن عمليات مد المواسير ستعطل العمل في قناة السويس لأسابيع لا يمكن التنبؤ بعددها. وهكذا تحول عنا شر بوساطة شر آخر.

الخيار الوحيد أمامنا الآن أن نواصل العمل، فأنا أعمل في مجلة «المصرية» مع غيري من السيدات، وقد بدأنا في جمع التبرعات لتأسيس مستشفى، وأنشأ زوجي مدرسة في طواسي بالاشتراك مع خاله، ونعلق آمالا عريضة على مدرسة الفنون، كما بدأ مصطفى كامل باشا حملة قوية لإنشاء جامعة مصرية. بعد استقالة زوجي من مجلس شوري القوانين احتجاجا على موافقتهم على الميزانية الأخيرة بدون حتى همسة اعتراض (الواقع أنهم قدموا الشكر للحكومة على جهود جميع الوزارات ـ هذا من آثار الوفاق) انخرط في العمل أكثر مع مصطفى كامل. وقد شرع هو ويعقوب آرتين باشا وحسين رشدي باشا وغيرهم من الأعيان في حملة لتأسيس نادي للخريجين تمهيدا لتأسيس الجامعة.

عزيزي جيمس: خسارة حقا أنك لم تشهد المتحف الجديد الذي يضم روائع من الآثار يكفي جمالها وحده سببا لزيارة مصر.

أذكر عند أول حضوري إلى مصر أنك حدثتني عن الآثار القديمة وعن أسفك أن نخبة رائعة منها قد وجدت طريقها إلى أوروبا، وقد أدركت بعد ذلك أن المثقفين من المصريين

ـ ولا عجب ـ يشاركونك هذه المشاعر ويرون في الاتجار بالآثار سرقة لماضيهم تضاف بالتأكيد إلى نهب حاضرهم، ويجدون عزاء حزينا في بند من بنود اتفاقية الوفاق الودي ينص على أن تظل إدارة الآثار المصرية من اختصاص فرنسا لأن البريطانيين والأمريكان يشكلون اليوم أكبر خطر على الآثار.

لدي أخبار ستسعدك فيما أظن، وإن لم أحدثك بها قبل اليوم. عندما كنت تتأهب لمغادرة مصر حرصت ـ فيما علمت ـ على توظيف من عملوا في خدمتك، وكنت أعلم حسن تقديرك لخدمات صابر إلى جانب حبي له لإخلاصه لي في تلك الظروف التي أسفرت عن تغيير خطير في مسار حياتي، فسألت زوجي أن نستخدمه عندنا، لكنه رفض ولم ألح عليه ـ خاصة أنني علمت أنك ألحقته بأحد بيوت الإنجليز. إلا أن صابر فيما يبدو لم يكن سعيدا هناك، فانتقل للخدمة في بيت آخر بنفس النتيجة، ومنذ فترة قصيرة تقدم إلى شريف باشا في مكتبه، ووافق زوجي على مقابلته وألحقه بخدمته ـ في المكتب وليس في البيت ـ وهم يعلمونه القراءة والكتابة ويستفيدون من معرفته باللغة الإنجليزية، وقد أثنى زوجي على ذكائه وإخلاصه، وصابر سعيد في عمله الجديد، فقد انتهزت فرصة حضوره إلى البيت ليسلّم بعض الأوراق ونزلت إليه، وقال لي بنفسه إنه سعيد وختم كلامه ويده على قلبه بعبارة مدهشة « يا ست هانم، رقبتي لك أنت والباشا» وأعتقد أنه يعني ما يقول.

أرسل لك كتابين نشرا حديثًا: مجموعة القصائد التي أصدرها المرحوم محمود سامي باشا، والكتاب الذي يقرؤه الجميع هنا: حديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحي، قد يفيداك حتى لا تنسي لغتك العربية...

عندما قام لورد كرومر بجولته المظفرة في المحافظات في يناير ١٩٠٥، بعد وفاة عمي محمود سامي باشا بشهر واحد، بدا لنا أن كأس المرارة امتلأ وفاض. رأي كثير من الأعيان ألا أمل في الخلاص من الإنجليز في الوقت الراهن فتباروا في استضافة كرومر وإكرامه أثناء تجواله في محافظات مصر، وجاء بعضهم إلى أخي ينصحونه أن يتخلي عن موقفه المحكوم بالفشل، ويوحون إليه لو أنه كان في المنيا في الوقت المناسب، ليشرب اللورد الشاي في بيته، يكون خيرا له، وتحسب له حسنة مقابل سوءات تاريخه وآرائه المعروفة وزواجه. ولزم أخي القاهرة كما انتقل مصطفى بك الغمراوي إلى القاهرة وأقام عندنا طول مدة تجوال اللورد، وهكذا لم تحظ طواسي بالزيارة، ومثلها أراضي المنشاوي باشا وغيره من الأعيان الثابتين على المبدأ، وكان للمنشاوي باشا دوافع تخصه إلى جانب ما يدفعنا جميعا إلى رفض تقديم الضيافة لكرومر، فقد تسببت سياسة اللورد بمحاربة أي صناعة وطنية ناشئة في إفلاس مصنع المنشاوي للنسيج، ووقع غيره من الأصدقاء ممن استثمروا أموالهم في صناعات السكر والدخان في مآزق مماثلة، ومن حسن حظ أسرتنا أن ظروفنا المادية من حيث الثروة لم يؤثر فيها الاحتلال، وحياتنا العائلية سعيدة لم يمسها شر.

كانت آنا في هذه الشهور محط قلقنا، وإن كانت تظهر

بوضوح أنها سعيدة لا ينقصها شيء، لكن حبنا لها كان يدفعنا إلى تعويضها عن خلو حياتها من أم أو شقيقة من الطبيعي أن تلازمها في هذا الوقت العصيب.

٢١ مايو ١٩٠٥

تحضر الداية لزيارتي كثيرا هذه الأيام، وكلما وقع نظر زوجي علي يبادرني بالدعوة للمشي في الحديقة أو الصعود إلى سطح البيت، وكذلك زينب هانم وليلي، ولا أظنني سرت على قدمي مسافات أو صعدت سلالم بقدر ما يحدث لي هذه الأيام. زينب هانم تعلمني حركات وتمرينات يشاع أنها تسهل عملية الولادة، وحسناء تدلك جسمي يوميا بزيوت معطرة، ومبروكة لا تكاد تكف عن التمتمة بالأدعية وحرق البخور في حجراتي، وقد أعدوا لي حجرة من الحجرات المخصصة للضيوف لتكون حجرة الوضع، وحمل إليها كرسي الولادة، وبها سرير، وسأبقى بها بعد الوضع طوال أربعين ليلة، ثم أعود إلى فراش زوجي!

أراه ينظر إلي وكأنه يتوجس من رأيي في هذه الاستعدادات، ويحاول أن يتبين مدى غرابتها في نظري، متسائلا إذا كان في مقدورهم فعل شيء يطمئنني ويشعرني بالألفة، والحق أن الموقف غريب ـ غريب لدرجة أن لا شيء يهم الآن، فحالتي نفسها غريبة ومدهشة. ليس لي خبرة بالولادة ولم أشهد عملية وضع في حياتي ولذا فأنا مطمئنة إذ أترك الأمر بين يدي زينب هانم وليلي، وأعتبر نفسي بين أيد خبيرة.

من حسن الحظ أن الطفل المنتظر يشغلنا هذه الأيام؛ فقد

تكالبت علينا أحداث كثيرة في الأسابيع القليلة الماضية: اشتد مرض صديقنا الشيخ محمد عبده وهناك كلام عن سفره للخارج للعلاج، طلبة مدرسة المهندسخانة أعلنوا الإضراب وينظمون مسيرات في الشوارع وهم يرتدون زيهم العسكري؛ ونخشي أن تقع المواجهة بينهم وبين قوات من الجيش، بلغتنا أخبار للتو أن شكري بك وغيره من الأعيان في يافا والناصرة والقدس وضعتهم السلطات تحت التحفظ في بيوتهم لحيازتهم منشور نجيب عزوري «أرض العرب للعرب» ـ ونستعين على هذه الظروف بالتمسك بحبنا وانتظار طفلنا. وكثيرا ما يخطر لي أن طفلي يوضع في الميزان أمام جميع شرور العالم، وإلي الآن ترجح كفته، فزوجي يبتسم إذ يَري بطني يكبر وجسمي ينتفخ ويداعبني بالتظاهر بالعجز عن تطويقي بذراعيه!

القاهرة ٣ يونيو ١٩٠٥

عزيزي سير تشارلز

أنا في انتظار الوضع يوميًا، وبالرغم من أنني في صحة جيدة وروحي المعنوية مرتفعة وألقي رعاية فائقة إلا أنني أشعر بخطورة الموقف، لذا أرجو أن تعذرني إذا تخليت عن التحفظ الواجب والمعتاد وأنا أصرح لك اليوم بما يعتمل في قلبي.

إنني سعيدة هنا لدرجة أنني أشعر بالامتنان لمجرد أني على قيد الحياة، إلا أنني أطلب المزيد، فإن أكثر ما يهمني مما خلفت ورائي عند استقراري هنا هو الحفاظ على صحبتك. ونحن لا نستطيع زيارتك، ألا تحضر لزيارتنا؟

عزيزي سير تشارلز، لقد كنت لي أبًا عزيزًا محبًا طوال سنوات طويلة، وكنت لي صديقًا ومرشدًا فيما يتعلق بأمور كثيرة ربما لم ندركها في حينها أنا وأنت: إن كل ما أومن به من فكر عن الصدق والعدل تعلمته منك أولًا، ليس بالتلقين ولكن بملاحظة المواقف التي اتخذتها في الشئون الخاصة والعامة. كنت أول من أيقظ اهتمامي بمصر، وما زلت أحتفظ، مما أحضرت لي معك عام ٨٢، بالشال الأبيض وفنجان القهوة في غلافه الفضي.

اتفاقية الوفاق الودي صدمت المصريين بشدة. كان كثير من الوطنيين يعتبرون فرنسا حليفهم ضد الاحتلال البريطاني، ولم يكن زوجي ممن يضعون ثقتهم في فرنسا، إلا أنه يرى أن هذا الوفاق ينذر بعصر تفعل فيه بريطانيا ما تشاء في مصر بلا اعتبار لرأي العالم. وليس أمامنا اليوم إلا الرأي العام البريطاني نخاطبه ونلجأ إليه. أفكر كثيرًا في أيرلندا وأن أي تقدم حظيت به المشكلة الأيرلندية كان نتيجة لاستعداد أفراد مستنيرين للدفاع عن قضيتها. ومن حسن حظ الأيرلنديين أن قضيتهم كانت تعرض باللغة الإنجليزية، وأنهم وجدوا بين حكامنا أصدقاء يمكن الاعتماد عليهم. والوضع مختلف في مصر، فليس هناك أحد غيرك أنت

ومستر بلنت يمكن أن يشرح قضية مصر (وأعترف أنني كنت أتوقع أن يفعل مستر رينيل رود شيئًا) على أنني أعتقد الآن أن احتياج المصريين لأن يتحدث الإنجليز باسمهم يشكل نقطة ضعف، فهناك من يتساءلون كيف يمكن للمصريين أن يحكموا أنفسهم إذا كانوا عاجزين عن شرح قضاياهم؟ والواقع أنهم لا يستطيعون الكلام لأنهم لا يجدون منبرًا للحديث، ولصعوبات اللغة التي تواجههم، ولا أعني بهذا مجرد القدرة على ترجمة الخطاب العربي إلى الإنجليزية، بل القدرة على الحديث كما يتحدث الإنجليز أنفسهم، عندئذ فقط تظهر عدالة قضيتهم للسامعين، إذا نزع عنها رداء المصطلح الأجنبي.

حسنًا.. لو أن مصريًا أتيح له أن يخاطب الرأي العام البريطاني بطريقة يفهمها، فيستخدم العبارات المناسبة والاقتباس الفطن ويضرب على الوتر الحساس الذي يدخل إلى قلوب وعقول الشعب البريطاني، ألا يستحق هذا الشخص أن يجد منبرًا ميسرًا له؟

أعرف أن حالة أيرلندا تختلف عن حالة مصر، لكن هناك أوجهًا لهذا الاختلاف لصالح مصر، فمصالح بريطانيا في مصر لم تشتبك وتتعقد بعد كما حدث في أيرلندا، ويمكن فكها بدون ضرر كبير، فليس في مصر مستوطنون من بريطانيا عاشوا سنوات على أرضها، وعدد الموظفين الإنجليز هنا وإن كان أكبر من اللازم في نظر المصريين - فليس من الضخامة بحيث يشكل خلعهم مشكلة خطيرة، وكل المطلوب هو

إجلاء جيش الاحتلال. وليس بين المصريين الذين أعرفهم هنا من لا يحبذ الإصلاح الاقتصادي أو تسديد ديون مصر، ويمكن في الواقع أن يتقبلوا النصيحة والإرشاد من بريطانيا في المسائل الاقتصادية والمالية إذا صدرت عن صديق اختاروه وليس عن وصي مفروض عليهم.

عزيزي سير تشارلز.. هل تساعدني؟ آه لو رأيت حقول قصب السكر العالي أو زهر الكتان في ألوانه الأزرق والبنفسجي، لو رأيت الأطفال يجمعون القطن في جيوب صنعوها من جلابيبهم كجيوب الكنغر، لو رأيت أشجار الصفصاف العتيقة وشعورها مدلاة في القنوات الجارية، والرهبان عائدين إلى صوامعهم في الأديرة، ونداء المؤذن يرتفع عاليًا في السماء الضاربة إلى الاحمرار ساعة المغرب، فهذه أرض يتجلي فيها الله بلا انقطاع. معذرة لشرودي في الكلام وانفعالي. صديقنا المحبوب الشيخ محمد عبده مريض ونخشي على حياته. تفضل بزيارتنا بعد ولادتي. أتمني أن أضع طفلي بين ذراعيك وأراك تباركه...

وضعت آنا بسلام وسمينا الطفلة نور الحياة لأنها أتت حقًا بالنور في حياتنا، عندما توفي الشيخ محمد عبده أعز أصدقاء أخي بعد الولادة بثلاثة أسابيع كانت نور الحياة هي عزاء أبيها الوحيد. كان يحملها بين ذراعيه ويتمشي بها في الحجرة إذا بكت، ويحضر حمامها ويلفها بحنان في بشكيرها الأبيض الناعم. وكانت نور الحياة جميلة منذ يوم مولدها، كانت لها

بشرة أمها ولون عينيها، وشعرها أسود مثل شعر أبيها. وكان يجلس محدقًا في وجهها وينحني ليقبل قدمها الصغيرة. وبالرغم من أن مبروكة قامت بواجبها ووضعت قلامات من أظافر الطفلة في جيب أبيها لتضمن حبه الدائم، كان من الواضح أنه متيم بحب الطفلة دون الحاجة إلى السحر. والواقع أن أبي وحسني وأحمد كلهم وقعوا في غرام نور الصغيرة بمجرد ولادتها، وعندما أفكر فيها الآن أرى أمامي طفلة باسمة محاطة بالحب والعناية من كل جانب.

أكتوبر ١٩٠٥

أنا راضية ومرتاحة، إذا نظرت إلى نفسي بعين الماضي أرى أمامي امرأة كسولة قانعة بالاستلقاء على وسادة في الحديقة في شمس أكتوبر البديعة، أرقب سكون أشجار الفاكهة النائمة وتغيرات الضوء في المكان، وكل ما يحدث يضيف إلى رضاي حتى أقول كما يقولون هنا: «اللهم اجعله خير». أسمع ضحكات أحمد ترن من مكان ما في البيت وطفلتي تتحرك على الوسادة بجانبي. أدس إصبعي في يدها المنقبضة ولا أستطيع مقاومة تقبيل طرف ثغرها. نور الحياة، نور حياتنا جميعا. أفكر في أبيها فترتجف أطرافي إذ أحس بأنفاسه ورائحته ودفء يده تتحسسني برفق، أستشعر قبلاته وكيف يتوقف ويده على وجهي ليحدق في عيني. عيناه مركزتان وعلي شفتيه ابتسامة خفيفة. أتململ، وإذ تطول اللحظة أتمتم: «أريد ـ». يهمس: «ماذا؟» يده في شعري تمسك برأسي، ثغره يقترب مني وأشعر بأنفاسنا تختلط.

القاهرة ١٥ نوفمبر ١٩٠٥

عزيزتي كارولاين

هل مر كل هذا الوقت حقًا منذ تبادلنا الرسائل؟! أدركت طول المدة عندما غمرني الفرح وأنا أتعرف على خطك على المظروف الذي تلقيته اليوم، وأشكرك بسعادة على تهنئتك لي بمناسبة مولد نور وتمنياتك لي ولها، ولو اختلفت الظروف لكنت تمنيت أن تكوني عرابتها. ألا يمكن أن تعتبري نفسك أمها الروحية بطريقة ما؟

لم تحدثيني كثيرًا عن نفسك أو الأطفال؛ كبروا خمس سنوات منذ رأيتهم آخر مرة. أعلم من رسائل سير تشارلز أنكم بخير، لكن يسعدني أن أتلقى أخبارك حقًا. نور طفلة بديعة نعبدها جميعًا، وجميع من حولها يحبونها بحنان، أما عن نفسي فأنا أحب كل شيء فيها من قمة رأسها إلى أطراف أصابع قدميها الوردية، ولن تدهشي لذلك فأنت مجربة، أما أنا فلم أتصور أن الأمومة رائعة لهذه الدرجة. إنها تبتسم ويخيل لي أن الأصوات التي تصدرها بداية لكلمات. شريف باشا يصر أن أحدثها بالإنجليزية وأعتقد أنه يخشى أنني أفتقد لغتي، وكما كتبت لك منذ مدة طويلة كل حديثنا هنا باللغة الفرنسية فأنا لا أستخدم الإنجليزية إلا في الكتابة وأحيانًا في الغناء، وكم يسرني أن أتحدث معك بالإنجليزية لو حضرت لزيارتنا يا صديقتي العزيزة.

القاهرة في ٢٠ نوفمبر ١٩٠٥

عزيزي جيمس

أشكرك لإرسالك مجلة التاتلر، وقد تفحصت موديلات ملابس السهرة مع أوجيني والنتيجة أننا سنزور مدام مارتا الخياطة قريبًا. أنا أرتدي ملابس مصرية معظم الوقت لكن في الاستقبالات والسهرات في المساء أضطر لارتداء الموضات الأوروبية، ولم أفصل ملابس جديدة منذ حملت في نور. حضرت مسز بوتشر عصر اليوم، ومدام رشدي خارجة من عندي، وقضينا وقتًا طيبًا معًا، وكانت مسز بوتشر تحمل نور وتدللها وتهدهدها طول الوقت، وحكت لي قصة مسلية عن صديقنا القديم مستر جيردنر الذي نجح بعد مشقة في تنصير نوتي واحد، وأخذ الرجل إلى بيته وأسكنه في حجرة عنده وكان يصلي معه باستمرار، لكن بعد ثلاثة أيام حضرت زوجة الرجل تبحث عنه، واتضح أن هدايته كانت بتأثير شقاق زوجي، وصالح المراكبي زوجته وعاد إلى دينه! وتقول مسز بوتشر أن مستر جيردنر اكتأب كثيرًا لكنه استعاد تفاؤله المعتاد مصممًا على مضاعفة جهوده في خدمة الكنيسة.

زوجي يحثني على الاحتفال بعيد الميلاد في الكنيسة هذا العام ولا أظن أني سأفعل، فبالرغم من أن مسز بوتشر ستتعطف معي وتجلسني معها أشعر أني لن أكون مرتاحة. ألا تري الرءوس تدور وتلتقي في حديث هامس؟ وحركة

الململة الواضحة ثم تحديق السيدات في الفراغ أمامهن، وسيستحيل على الإنصات للصلاة أو الاستمتاع بغناء الكورال، ولو فعلت لكان عملًا من أعمال التحدي لا العبادة، ويبدو لي من الخطأ أن ألوث مشاعر عيد الميلاد بهذه الطريقة، وقد صنعت كعكة لعيد الميلاد ولو بدون البراندي، وسنقيم شجرة صغيرة لنور.

أصبحت أتقن العمل على النول وبدأت في نسج قطعة رائعة ـ على الأقل أملي أنها ستكون رائعة ـ عندما أفرغ منها ستكون لوحة نسجية طولها ٨ أقدام وعرضها ٦ ، مكونة من ٣ مقاطع لأن النول عندي لا يتسع لعرض أكثر من قدمين، ولن أستخدم من المواد إلا ما استخدمه قدماء المصريين من الكتان أو الحرير وكذلك مواد الصباغة، وستكون اللوحة إسهامي في النهضة المصرية إذ تصور الإلهة إيزيس مع أخيها وزوجها الإله أوزوريس وبينهما الطفل حورس تعلو رءوسهم آية من القرآن، وسيختار لي زوجي الآية المناسبة فيما بعد. فرغت من إعداد تخطيط اللوحة وسأختار من الألوان التركواز والذهبي والأحمر في لون الفخار مما استخدمه قدماء المصريين والأخضر البرسيمي الذي لم أشاهد مثله في أي مكان في العالم إلا في حقول مصر، وإذا افتتحت مدرسة الفنون الجميلة عندما تنتهي اللوحة وإذا كان لعملي قيمة كافية سأهديها إلى المدرسة.

نور الحياة ترقد في سلتها ترقبني وأنا أعمل، وأحمد يجري وراء بكرات الحرير وبارودي بيه يلف خيوط

الحرير حول أصابعه ثم يفكها بدلا من تحريك حبات المسبحة.

كم أتمنى لو رأيتهم بعينيك، وقد دعوت سير تشارلز لزيارتنا لكني أخشى أن آلام ظهره لن تسمح له بالسفر..

يناير ١٩٠٦

قال زوجي عندما يحين الموسم سأزرع بعض الأشجار هنا من أجلها. لم يلتفت إلى وأنا أقترب لكنه مد ذراعه وسحبني إلى جانبه واستمر يفكر بصوت عال: هنا سأزرع حديقة من أجلها، فيها ظل ونافورة تلعب فيها عندما تشتد الحرارة. حين أنام أحلم به وبنور الحياة.

(٢٥)

إن تنكر الشعوب لمن أحسنوا إليهم من الأجانب قديم قدم التاريخ نفسه

كرومر: ١٩٠٨

القاهرة في ١٨ سبتمبر ١٩٩٧

وعن نفسي، أصبحت أحلامي خليطا من الأزمنة والأماكن: فأنا راقدة في فناء بيت البارودي القديم، بيت الإنجليزية كما سماه الحوذي، ونور جالسة إلى جوار رأسي تجذب عقد اللؤلؤ من رقبتي. يخطر لي أن أتفقد أطفالي النائمين. أحمل نور على خاصرتي وأدخل البيت وأصعد السلم إلى حجرة الأولاد في بيتنا في إنجلترا، أراهم نائمين: الكبير مستلق على ظهره كنجم البحر، مفتوح للقاء العالم، والصغير متوتر مشدود في رشاقة كأنه بطل غطس في منتصف المسافة إلى الماء. ويستمر الحلم فأجد نفسي في بيت لم أشاهده أبدا في صحوي. في الحلم أعرف أنني كثيرا ما حلمت بهذا المكان، وفي الحلم يغمرني شعور بالارتياح أنني أخيرا عثرت عليه؛ إنه يطابق الصورة التي حلمت بها: فناء مضيء مفتوح إلى السماء تحيطه أروقة من أعمدة دقيقة بهت لونها الوردي، وفي وسط الفناء بركة. وتبدو على البيت مظاهر التآكل والتدهور البطيء، فقشور الدهان تتساقط عن الجدران، والحديقة مستفشية لفرط نمو النباتات فيها، أتمشي فيها وأفكر في كيفية إصلاحها، ألاحظ رءوس الأعمدة المتداعية، وقطع الفسيفساء الناقصة في الأرضية

حول بركة الماء، وكراسي الخيزران المتداعية، والوسائد ناحلة اللون. أحب هذا المكان، فأنا أعلم أن أمي في حجرتها في مكان ما بالداخل، وأنها لم تعد تعاني من شوقٍ إلى الوطن، سأدخل إليها سريعا عندما تخرج نور من البركة. أقفُ إلى جوار الماء والبشاكير على ذراعي، أنادي على الطفلة أن تخرج من الماء فنحن في انتظار آخرين، أعرف أن أطفالي سيحبون هذا البيت، وأستطيع أن أتخيل فرحة أخي بالتعرف عليه عندما يراه. أستيقظ من النوم وأحاول أن أستعيد صورة البيت في عقلي، فأري في خيالي نقوشات مدينة بومبي.

أخي رحل وإيزابل لن تعود هذه الأيام، ومعظم من أعرفهم ما زالوا خارج القاهرة في إجازة الصيف. أحزم أغراضي: الكمبيوتر ومخطوط كتاباتي وما تبقي من أوراق آنا ومذكرات جدتي، ويحملها مدني إلى السيارة. أنزل أوزوريس الذي نسجته آنا من على الشماعة وألفه بحرص وأعيده إلى كيس الشاش الذي احتواه أصلا. أطلب من تحية أن تصعد إلى الشقة كل ٣ أيام لتروي النباتات وتتصل بي تليفونيا في طواسي. أقرر قبل أن أبدأ الطريق إلى المنيا أن أمر على المتحف. وأنا الآن أعرف لوحتي النسيج، لعلني لو تجولت في المتحف أعثر على الرسومات التي اتخذتها آنا مرجعا، لكنها ذكرت ٣ مقاطع في رسالتها إلى جيمس. فأين المقطع الثالث يا تري؟

أعبر جسر قصر النيل وأستدير يمينا وأتوقف بجوار المجمع، أقول لمنادي السيارات إذ يقترب مني «لو تركت معك المفاتيح ألا يمكن أن تجد لي بقعة ظل؟»

تذكرت منصور: لو كان حيا لتركت له السيارة.

يسألني الرجل: تتأخرين؟

ـ حوالي ساعتين. أنا داخلة إلى المتحف.

ـ متحف؟ المتحف مقفول.

ـ كيف مقفول؟ الساعة ١٢ والمتحف يقفل الساعة الرابعة؟

ـ بسبب القنبلة. فجروا قنبلة هناك والمتحف قُفل. انظري!

عبر الميدان أرى الدخان وناس تجري وملابس البوليس البيضاء.

أصيح: متى؟ ماذا حدث؟

ـ يقولون واحد رمي قنبلة وقتل سُوّاحا.

ـ يا خبر أسود! أصيح وأجري، أجري عبر الميدان، وخلال موقف الأوتوبيس حتى يوقفني شرطي: ممنوع.

ويقول لي رجل من الواقفين: قنبلة انفجرت.

الدخان يتصاعد من أوتوبيس متفحم، ضباط يصيحون في هواتفهم اللاسلكية وضباط يصيحون في المتجمهرين. يلتفت ضابط بوليس إلى الرجل الذي حدثني ويدفعه في صدره: تحرك من هنا. الحكاية ليست فرجة. يمشي الرجل بضع خطوات وهو يتمتم: اعملوا شغلكم كما يجب بدلا من الفرعنة علينا. أسأل: ماذا حدث؟ هل أصيب أحد؟

ـ نعم وحملوهم من هنا.

يقول رجل آخر: يقولون بعضهم ماتوا.

ـ سواح؟

ـ يقال أمريكان.

ـ يا للمصيبة، يا للمصيبة.

ـ طبعا مصيبة. لن يتوقفوا حتى تفلس البلد.

تقول امرأة: كانوا ألمان. العرق ينضح في وجهها تحت غطاء الرأس الكبير ويفسد الماكياج: كانوا كلهم في الأوتوبيس الواقف هناك، وكذلك السائق. الله يرحمهم جميعا. قلبي على أولادهم وأهلهم.

أقف في الشمس اللاهبة أفكر في السواح جاءوا في إجازة، وفي منصور ولم أعرف يوما إن كانت له زوجة أو أبناء، وأنصت إلى الأصوات تسأل الأسئلة وترد عليها، تتأمل، تخمن، وتطلب الرحمة لأرواح الموتي.

ـ يقال إنه كان رجلا بمفرده وقبضوا عليه.

ـ قبضوا عليه لكن ستحدث ثانية.

أعود إلى السيارة عبر الميدان: الأسفلت تحت قدمي ساخن لزج تحت كعب الحذاء. السيارة ما زالت في الشمس، المقعد ساخن يكاد يحرق باطن ساقي وعجلة القيادة تلسع يدي. ستكون حواجز الشرطة على طريق الصعيد أسوأ اليوم من أي وقت مضى، وفي مكان ما من العالم هناك عدة عائلات لم تعلم بعد بالحزن الذي ضربها.

أقود السيارة في طريقي إلى طواسي. هناك سأبتعد عن كل هذا،

سأشاهد المدرسة مفتوحة ومشغولة، وأرقب حديقتي والحقول خلفها. وسأكون مع آنا.

القاهرة في ٣٠ إبريل ١٩٠٦

الوالد العزيز سير تشارلز

لا بد بلغك خبر رفض السلطان إخلاء طابا، والمفهوم هنا عموما أن قيصر ولهلم يؤيده، فإذا تصرفت بريطانيا بمنطق القوة وأصدرت إنذارا نهائيا كانت النتيجة هي الحرب لا محالة.

وأنا واثقة أنك وغيرك من أصدقائنا في إنجلترا تفعلون كل ما في وسعكم لتعلموا الناس بالحقيقة في هذا الموضوع، ولهذا الغرض أرسل لك مقالا يشرح الموقف القانوني والدولي بالنسبة لطابا منذ عام ١٨٤١ عندما اعترف بحق محمد على (وأبنائه من بعده) في حكم مصر نيابة عن السلطان، لعل جريدة المانشستر جارديان أو جريدة التربيون تنشره.

الشعور العام هنا متعاطف مع السلطان ـ ليس حبا فيه بل اضطرارًا ـ لتغلغل بريطانيا وإطباقها على السلطة في مصر. ويبدو أن الخديو عموما في صف السلطان فهو يتشاور يوميا مع مختار باشا، لكن المعروف كذلك أنه يتقرب إلى الملك وإلي أمير ويلز، ولن يمر وقت طويل حتى يطلب إليه كرومر أن يحدد موقفه.

ويبدو كرومر مصمما أكثر من أي وقت مضى أن يثبت لنا من السيد الآمر في مصر. في فبراير أعلن طلبة مدرسة الحقوق الإضراب احتجاجا على قواعد وتنظيمات جديدة تشبه إلى حد كبير المعمول به في المدارس الابتدائية، فرضها سكرتير وزارة المعارف الجديد، مستر دنلوب، واعتبرها طلبة مدرسة الحقوق مهينة لكرامتهم، وردت الحكومة بإغلاق مدرسة الحقوق لمدة أسبوع تفاوضوا فيه مع الطلبة الذين عادوا إلى الدراسة في الثالث من مارس، وفي ٢٤ مارس عيّن كرومر مستر دنلوب مستشارا لوزير المعارف، أي أنه الوزير الفعلي، والمصريون ساخطون على هذه الخطوة الاستفزازية خاصة أنهم يرون أن الإدارة البريطانية لا تهدف إلى خدمة مصر في مجال التعليم بالذات.

وهكذا تري السياسة تخيم على كل شيء. هل الموقف مشابه في إنجلترا؟ لا أذكر أن السياسة كان لها هذا الحضور في حياتنا إلا في أيامي الأخيرة هناك، بسبب إدوارد. ولعل الحقيقة أنني كنت صغيرة وغير مدركة لمغزي الأحداث، وهنا لا ينجو من ظلها الثقيل المؤلم إلا البارودي بك الكبير الذي احتجب منذ سنوات طويلة في عالم خاص به، ونور، حبيبتنا الصغيرة الغالية التي تدخل في حياتنا أفراحا خالصة جديدة كل يوم، وقد بدأت تخطو خطواتها الأولى في هذه الأيام، خطوات متقلقلة مليئة بالشجاعة والمغامرة. إنها طفلة مباركة حقا، فكل من يراها يقع في حبها في التو، وهي

كريمة العطاء في عواطفها، تستسلم سعيدة للعناق والتدليل من الجميع.

يزورنا هذه الأيام شكري بك العسلي قريب زوجي من الناصرة، وقد استجاب للمرة الأولى لإلحاحنا أن يقيم عندنا ولا حاجة لفتح بيت الأسرة، ونعتقد أن نور هي السبب، فقد تعلق بها حقا وهي أول من يسأل عنه عند دخوله البيت، وصبره عليها في اللعب لا ينفد، أما ابن عمتها أحمد ـ وهو في السادسة من عمره ـ فقد نصب نفسه حارسها ومعلمها، ويسمح لها باللعب بكتبه وبلوح الإردواز الخاص به، ولو تركنا له الأمر لتعلمت القراءة وهي في الثالثة من عمرها. إلا أن أعمق مشاعرها تخص بها أباها؛ فهي تلزم ركبته، وعيناها معلقة في شغف بوجهه مثل الجرو الصغير، أما هو فمهما كانت مشاغله يحرص على العودة إلى البيت في موعد نومها وإلا رفضت النوم. وموعد النوم هو الشيء الوحيد الذي أتمسك به في تنشئتها، فالأطفال هنا يسمح لهم بالسهر حتى يغلبهم النوم أينما كانوا، ولا أرى في ذلك فائدة لهم، وبناء عليه أحمل نور إلى الفراش في الساعة السابعة رغما عن احتجاجات زينب هانم ومبروكة يوميا، إلا أن الطفلة ترحب بذلك وتستمتع بطقس توديع كل ما تحبه في البيت من أشخاص وأشياء وإلقاء تحية المساء على الجميع لتستقر في النهاية بين ذراعي والدها يهدهدها ثم يقبلها قبل أن يضعها في فراشها.

يخيل لي أنني أطلت الحديث عن الطفلة، لكن إذا لم تسرع بالحضور إلينا لتري ابنتك بنفسك، فلا سبيل إلا أن توطن نفسك على هذه النشرات المفصلة، فإمكانية حضورنا إلى إنجلترا تبدو كل يوم أبعد احتمالا بسبب الأحداث التي لا تتوقف. سيزور مصطفى كامل باشا أوروبا قريبا، وقد عبر عن رغبته في مقابلتك، وكذلك مستر بلنت، ومن الصالح تدبير ذلك إذا أمكن.

أجلس في حجرتي القديمة في طواسي والنوافذ مفتوحة على الفراندة لتدخل نسيم المساء. أذكر يوم أتم ابني الأكبر شهره الثالث، كنت واقفة أمام منضدة بيع الأجبان في طابق مبيعات الطعام في سلفردج، والطفل معلق في حمالة لصق صدري. رفع بصره إلى محدقا بتلك النظرة الجادة التي دخل بها إلى العالم، فأخرجت له لساني، وعندما رد على بإخراج لسانه كاد يغمي عليَّ من الفرح. عندما تلفظوا بأولي كلماتهم عندما خطوا أولي خطواتهم، عندما ارتدوا زي المدرسة الجديد لأول مرة والتقطوا حقائبهم: في كل نقطة من مراحل نموهم كان الزهو يملؤني وأقول لنفسي هذه المرحلة أمتع ما مر بهم!

في كلمات آنا أقرأ حبها لطفلتها وأستشف ابتهاج شريف باشا في امتنان وتعجب. أرى الطفلة الصغيرة بشعرها الأسود؛ أذناها مثقوبتان يحليهما قرط ذهبي دقيق. عيناها في لون البنفسج جادة مركزة، تخطو خطوة واحدة مترنحة، تنزل إلى حوض النافورة وتقف بقدميها الصغيرتين البضتين على الأرضية الباردة المبللة بالماء. ماذا تختار من كل ما تجد أمامها؟ تعود للحبو، تستكشف المربعات

والمثلثات، الأزرق والأبيض والأحمر من ألوان البلاط، حتى ترفع بصرها وتلحظ التماع أشعة الشمس على رذاذ الماء فتمد إليها يدا.

والدها يجلس متربعا بجوار حرف النافورة، يرتدي بنطالا من الكتان الخشن يستخدمه للعمل في الحديقة، أكمام قميصه مشمرة وقدماه حافيتان، يحكم وضع طاقية الشمس على رأس الطفلة ثم يضع أصابعه في الماء يحركه في كسل، يكوِّن لها مزيدا من الأشكال لتتفرج عليها، ثم يرفع بصره إلى شباك آنا فتبتسم لهما من خلف شيش المشربية.

أفكر في الذهاب إلى المدرسة لكني أقرر البقاء في صحبة آنا. رجال طارق عطية يقومون بعملهم على خير وجه: شباب يحملون دبلوما متوسطا، يتناوبون العمل في المدرسة خمس ليالٍ في الأسبوع، يساعدون الأطفال في القراءة والحساب، والقرية سعيدة بهم وشاكرة، تتحفهم من وقت لآخر بهدايا من البيض والزبد والفطير. أسألهم أسئلة مواربة عن أي تغيرات في أرض عطية بك لكنهم يجيبون بالنفي: لا جديد هناك ولا جديد بين العاملين. يجب أن أتصل بطارق أو أكتب له رسالة قصيرة أشكره.

١٥ مايو ١٩٠٦

عزيزي جيمس

شكرا لك على خطابك المؤرخ في ٢٠ إبريل وعلي كل الصحف والأوراق التي أرسلتها، أليس عجيبا أن رجلا لم يغادر إنجلترا إلا مرة واحدة في حياته ذهب فيها إلى فرنسا،

ولا يتحدث لغة أجنبية واحدة، يصبح مسئولا عن الشئون الخارجية في بريطانيا؟ لا بد أن والدتك شعرت بالارتياح لاعتذارك عن شغل وظيفة في سوريا. هل تشعر بأي أسف لأنك لا تستطيع أن تخدم في بلد تستفيد فيه من معرفتك باللغة العربية؟

كتب لي سير تشارلز أنك اعتذرت قائلا إنك عازف أن تكون لك أي علاقة بسياسة بريطانيا الخارجية، ويخيل لي أن الحوادث المؤسفة في ناتال ستزيد من يقينك أنك اتخذت القرار الصحيح، وفي اعتقادي أنك ستتمكن من القيام بدور مهم في هذه الشئون وتظل أصدق مع نفسك ومع الآخرين.

الحمد لله أن الأمور هنا لا يمكن أن تنحدر إلى مستوى ما يحدث في جنوب إفريقيا، رغم ادعاءات كرومر أن القلاقل السياسية هنا تعود أصلا إلى التعصب.

أمس تساءلت الصحف إذا كان واجب الجيش المصري أن يدخل الحرب إلى جانب بريطانيا ضد صاحب الجلالة السلطان العثماني عبد الحميد خان (فقد أرسل نصف الكتيبة الخامسة إلى سيناء) أم يعلن العصيان؟ والحق أننا في حيرة، هل نشعر بخيبة الأمل لأن السلطان تراجع عن موقفه بالنسبة لطابا، أم بالارتياح لزوال خطر الحرب؟ كان الشعور العام في صف تركيا بالتأكيد، وسألت زوجي إن كان السبب في ذلك أن تركيا بلاد إسلامية فقال إن الناس كانوا في صف مارشان في حادث فاشودة في عام ٩٨ وفرنسا ليست دولة

إسلامية. لا أعرف كيف يبرر كرومر ادعاءه هذا، فلا أظن أنه يقدم على كذب صريح، لكنه يرى الأمور كما يحب أن يراها، وإذا استجابت الحكومة لطلبه بمضاعفة عدد جيش الاحتلال فسيكون لذلك أسوأ الأثر في نفوس الناس هنا، لقد أكثر في هذه الأيام من العروض العسكرية في الشوارع من باب استعراض القوة، ولم يمض عامان على قوله إنه قادر على حكم مصر بدون جيش لأن الشعب يتقبله بصفته صديق الفلاحين!

بودنا لو ننفق مزيدا من الوقت في طواسي لولا صعوبة إقناع البارودي بك بمغادرة صومعته وعزوفنا عن حرمان زينب هانم من نور (ومن أحمد كذلك فأينما تذهب نور يذهب هو)، وهكذا يستمر الحال كما هو عليه، ونور تفعل أشياء جديدة وتدخل السرور في قلوبنا كل يوم. ما زلت أشتغل على النول، أنسج لوحتي التي حدثتك عنها لكن العمل يسير في بطء: في الوقت الحالي أنا أنسج قدمي إيزيس. وكذلك نزرع غابة صغيرة من أجل نور، والمفروض أن تكتمل الزراعة قبل عيد ميلادها الأول، فيها شجرة سرو إيطالية وچاكاراندا وماجنوليا وليلج فارسي وصفصفافة فلسطينية وبركة بنافورة خصيصا لها، وزينب هانم تعترض على شجرة الليلج الفارسي لأن ثمرتها سامة أحيانا، لكن زوجي يقول ستتعلم نور أن شجرة واحدة يمكن أن تنتج الطيب والخبيث. أرسل صورة رسمتها لها هي وأحمد بالألوان المائية، الشخص المضطجع على كرسي مريح في

الصورة هو شكري بك العسلي قريب زوجي من الناصرة، وهو قلق مهموم بسبب الموقف في الأراضي المقدسة. وكانت وفاة الشيخ محمد عبده ضربه بالنسبة له لأنه كان يأمل في مساندته، إلا أنه مستبشر بالمتصرف الجديد في القدس، على أكرم بك، لاستقامته ونزاهته، وسيتصرف بأمانة بالنسبة للقوانين التي تحاول تنظيم هجرة اليهود. وقد أحضر معه كتابا مهما ومثيرا عن يقظة الأمة العربية وكنت أود أن أرسل لك نسخة لولا أنه ممنوع هنا ولن نستطيع أن نحصل على نسخة أخرى، إلا أنه منشور في باريس ويجب أن تحصل على نسخة منه، ويهمني أن أعرف رأيك فيه.

لقد زاد عدد أهل بيتنا بإضافة طفل في الرابعة يسمي محروس، وهو حفيد أخت مبروكة، توفيت أمه وتزوج أبوه فرغبت مبروكة أن تقوم هي بتربيته، ووافق زوجي على الفور قائلا: لقد قامت مبروكة بتربية جميع أطفال الأسرة ومن حقها أن يكون لها اليوم طفل يخصها. والطفل صغير أسمر ملامحه دقيقة ومنتظمة وشعره أكرت، وقد جاء لتوه من قريتهم في المنوفية وما زال يعاني الخجل والارتباك، وأحمد لا يعرف بالضبط كيف يتعامل معه لكنني متأكدة من إقبالهما على بعض في المستقبل.

نفكر في السفر إلى إيطاليا ثانية في سبتمبر، وربما إلى باريس، إذا حدث سأحاول أن أقنع سير تشارلز أن يقابلنا هناك.

شريف باشا يحفر في الحديقة عندما تأتي آنا إليه. إنه يزرع غابة نور المسحورة، تلك المجموعة من الأشجار المتربة التي ما زالت تحاول أن تزهر في الحي العشوائي الجديد في طولون، الأشجار التي جلسنا تحتها أنا وإيزابل نخط مثلثات في التراب.

١٠ يونيو ١٩٠٦

شريف باشا مشغول في حركة منتظمة مع فضيل ابن البستاني؛ واحد يقوم والفأس يرسم قوسا فوق كتفه والتربة تتناثر منه كالمطر لتسقط على الكومة خلفه في الوقت الذي ينقض فيه الثاني يضرب بفأسه عميقا في الأرض، وبالقرب منهما أبو فضيل، البستاني العجوز، يعد شتلة السرو لعملية الزرع.

يقول شريف باشا: «سننتهي حالا».

يدلي أبو فضيل الشتلة بحرص في الحفرة ويمسكها مستقيمة وفضيل وسيده يدفعان التربة بالجاروف برفق في الحفرة حولها، عندما تنتهي العملية يضع شريف باشا فأسه على الأرض، يقول «اسقها بغزارة الآن». ويلتفت إلى آنا وحين يرى وجهها يهتف:

ـ ماذا حدث بالله؟

يضع ذراعه حول كتفيها ويبتعدان، وفضيل على ركبتيه يربت على التربة ليثبت وضعها حول الشجرة الجديدة، ويحضر أبوه دلو الماء الواقف على مقربة.

ـ وصلتني هذه الأوراق من لندن، تمد يدها بعدد من الصفحات مكتوبة بالإنجليزية، وجهها شاحب والأوراق في يدها ترتعش.

ـ ماذا حدث؟ يعيد شريف باشا السؤال.

ـ جيمس ـ يقول ـ جيمس أرسل لي هذا. إنه خطاب أو نسخة من خطاب أرسل لسير إدوارد جراي يحوي ترجمة. الأصل العربي وقع في يد كرومر هنا في القاهرة يصف خطة موضوعة لقيام ثورة في أغسطس.

ـ ثورة؟ أي ثورة؟

يتوقف الاثنان ويد آنا على ذراع زوجها وعيناها تفحصان وجهه:

ـ شريف؟ هل كنت ستخبرني؟

ـ ماذا تقولين؟ أي ثورة؟

ـ ثورة وطنية.

ـ كلام لا أساس له. تعالى اقرئي لي الخطاب، يسير بها إلى البيت: ادخلي، وبالله عليك لا داعي لهذا الفزع.

يدخلان مكتب شريف باشا. يُجلس آنا في كرسي مريح ويصب لها كوبا من الماء.

ـ الآن، ترجمي لي خطاب بارنجتون أولا.

ـ عزيزتي آنا. أكتب لك على عجل حتى يصلك المرفق على وجه السرعة. هذا الخطاب أرسل إلى وزارة الخارجية لتأييد طلب كرومر قوات إضافية لتدعيم الجيش الإنجليزي في مصر، والمفروض أن الخطاب ترجمة لرسالة باللغة العربية وصلت إلى السكرتير الشرقي عن طريق جاسوس له من أهل البلد، وعن

نفسي أشك في صدقها، لكني قد أكون مخطئا، اعرضيها على زوجك.

ـ والآن الرسالة.

ـ إلى فرع الدوحة البهية، إلى الغيث يهمي من غيمة الجود إلى ابن وبنت النبي ـ

ـ ابن ماذا؟

ـ ابن وبنت النبي.

ـ هذا كلام فارغ.

ـ الكلام مترجم من العربية وأنا أترجمه إلى الفرنسية.

ـ ما زال مجرد كلام فارغ.

ـ يعني ليس هناك ثورة أو فتنة؟

ـ يا عزيزتي آنا ثورة بم؟ الجيش مبعثر في السودان. رجل الشارع؟ الفلاحين؟ أين التنظيم الذي يجمعهم؟ إن روحنا المعنوية لم تنخفض إلى هذا المستوى منذ عام ٨٢، والباب العالي أظهر أنه لا يستطيع إثبات موقفه هو فما بال موقفنا نحن؟ هل تعتقدين أننا مجانين؟

ـ لا، لا. أعرف أنك لست مجنونا، لكن هناك آخرين.

ـ أعطني الخطاب. سأكلف من يعيد ترجمته إلى العربية.

ـ لكن يا شريف ـ

ـ لا تقلقي! لن أطلع أحدا كيف حصلت عليه ولن يذكر اسم

بارنجتون بالمرة، احتفظي بخطابه واكتبي له بالشكر نيابة عني، ومن فضلك ـ انظري إلى، تعالى هنا.

يجذب ذراعها حتى تقوم واقفة، ثم يجلسها على الأريكة ويجلس بجوارها. يضع يده تحت ذقنها ويدفع وجهها إلى الخلف حتى تنظر في عينيه.

ـ هل تعتقدين أني يمكن أن أشارك في خطة تعرض حياتنا جميعا للخطر؟ هل تظنين أني أفعل ذلك ولا أخبرك؟

ـ لا، تهز آنا رأسها وتمتلئ عيناها بالدموع.

ـ ماذا إذن؟ أترين أن مثل هذا الأمر يمكن تدبيره بدون علمي؟

ـ نعم.

ـ نعم؟ يسأل في دهشة.

تنهمر الدموع من عينيها: نعم يا شريف، هناك أناس يمكن أن يتصرفوا بدون علمك. أنت تري أنهم لن يفعلوا، لكنهم يستطيعون. ليس الإنجليز وحدهم الذين يكرهونك ـ الخديو لا يحبك، وقد رفضت مناصب في الحكومة وقدمت استقالتك من المجلس، وكنت صديق الشيخ محمد عبده. تغص آنا بدموعها: الأتراك يعرفون أنك تهدف إلى استقلال مصر عنهم، واليوم تشارك في حملة شكري ضد المستوطنات في فلسطين. الإسلاميون يكرهونك بسبب موقفك في قضية التعليم، وأنا وأنت نعرف أن وطنيين راديكاليين يعتقدون أنك حذر أكثر من اللازم وما تنادي به ينقصه سرعة التنفيذ، ولا بد أن هناك كثيرين لا يصدقون أنك لا

تتعامل مع الإنجليز وأنت متزوج من إنجليزية، ويشكون أنك تلعب بوجهين.

يبتسم شريف باشا: ما كل هذه الشعبية!

- يا حبيبي إن من يعرفونك يعبدونك، ومستعدون لعمل أي شيء في سبيلك، لكن يجب ألا تسقط الآخرين من حسابك.

- اسمعي يا آنا، اسمعي، شش، يقبل وجهها، يمسح دموعها، يحتضنها ويربت على شعرها وعلي رقبتها وظهرها: اسمعي، أعرف أنك واجهت صعوبات كثيرة معنا -

- لا، لم أواجه صعوبة -

- نعم، بعض الصعوبة، أعرف وأتمني لو كان الأمر مختلفا، لكن حياتنا معا تستحق كل ما نبذله أليس كذلك؟ لن أدع أي شيء يمسنا. الليلة سأبحث إذا كان وراء هذا الخطاب أي حقائق. والآن أين شجاعتك يا ليدي آنا؟ اذهبي واغسلي وجهك، لا تفزعي نور وأمي، كنت أظن أنك لا تخافين شيئًا؟

- أنا الآن أخاف، أخاف من أجلك.

- لا مبرر للخوف، صدقيني.

يعقوب أرتين باشا يترجم إلى العربية:

- إلى فرع الدوحة البهية، إلى المطر ينزل من سحابة الجود، إلى ابن وبنت النبي.

يرفع بصره وينظر من فوق نـظارته، يسأل:

ـ هل هذه مزحة؟

ـ اقرأ، اقرأ يا صديقي، يقول شريف باشا مضطجعا في مقعده، وساقاه ممدوتان، وقد وضع قدما فوق قدم وأغمض عينيه.

ـ إلى السيف المسلول في سبيل الحق سيد أحمد الشريف.

يسأل شكري بك: سيد أحمد الشريف؟ من يكون؟

يهز يعقوب باشا كتفه ويستمر:

ـ دام في حراسة العين الإلهية، أخلص التحيات وأكمل البركات، عليك ريح هذه التحيات وشملتك بركات الله.

ـ ريح؟ يفتح شريف باشا عينيه: هل قال ريح؟ ماذا؟ ريح البركات.

يقول شكري بك: التحيات.

ـ أظنه يعني تحيات عطرة، يقول يعقوب باشا وهو يقطب في الورق في يده.

ـ طيب، في هذه الحالة، ويغلق شريف باشا عينيه.

ـ أود أن تفهم من هذا الخطاب أن الرسول وصل والرسالة التي حملها وصلتنا وأن رغبتك استقرت في فهمنا: لكننا فهمنا من كلام رسولك فقط ما أعلنته في خطابك. كيف يمكننا الوصول إلى الكوكب سعاد؟ لنصل إلى هناك ـ ما هذا الكوكب سعاد؟

يردد شريف باشا قول الشاعر:

ـ بانت سعاد فقلبي اليوم مكلوم.

يبتسم شكري بك: مزاجك رائق اليوم يا باشا.

ـ اشتغلت في الحديقة طول اليوم، أزرع أشجارا من أجل نور.

يخشخش يعقوب باشا الأوراق في يده ويستمر:

ـ للوصول إليه لابد من عبور قمم الجبال ووراءها الموت، فالشيء الذي صورته صعب جدا، وصعوباته لا يقدر عليها حتى شخص لديه الوسيلة أكثر منك وهذا شيء مستحيل، الموضوع ينطوي على صعوبات لا يمكن شرحها بالتقرير المباشر ولا بالإيحاء. إن من يريد أن يصل إليه سيجد أشياء كثيرة تتعارض مع القانون المقدس، حتى ولو وصل سليما معافي بل على العكس عليه أن ينحني ويجثم وينقض وحتي في هذه الحالة لن يصل إلى غايته. الله رحمن رحيم. ثم السؤال هل طلبه أن يصل في الليل في الوقت المذكور أم سيصل في وقت آخر؟ الله يسعد من يقرر الأشياء بصراحة ووضوح. البعض يقول إن الوقت المشار إليه في القانون المقدس أقل خطرا، حتى يدخل الرئيس في التابع. هل يمكن ـ

ينفجر شكري بك ضاحكا حتى يستلقي على قفاه، ويبتسم له شريف باشا ابتسامة واسعة، لكن يعقوب باشا يقطب له من فوق نظارته. يقول شريف باشا:

ـ سامحه يا سيدي، إنه مجرد عربي أحمق مصاب بخفة في عقله، لا يفهم كلام الحكماء.

يعقوب باشا: ليس الأمر مدعاة للضحك.

ـ أنا في الواقع.. كل هذا الهراء... يقول شكري بك وهو يغالب

الضحك ويمسح عينيه بمنديله: وهذه العبارة الأخيرة عن الرئيس... ماذا يعني... الرئيس في التابع؟

يقول شريف باشا: أسمعنا الباقي.. ويعدل يعقوب باشا وضع نظارته: هل يمكن للمحبين أن يذهبوا في الليل مرتين، أولا ليسيروا خلف شيوخهم ثم يسببون خروج الآخرين خلفهم؟ خفة الثياب والطعام تدل على حكمة العقل. لقد طرح صفحة الورق ليخفف خطوه حتى إنه طرح عنه حتى حذاء. صدق المثل القائل:

ما للجمال خطوها وئيدا أصخرا تحمل أم حديدا؟

ـ آه الجمال! كنت أنتظرها.. يستقيم شريف باشا في جلسته: لا بد من ذكر الجمال.

شكري بك: كله كلام فارغ.

يعقوب باشا: هناك المزيد، كله من نفس العينة. يتفحص بقية الخطاب سريعا: انتظر إذا تمت رحلتنا ـ بعد إذن القدرة الإلهية ـ سيكون الصيام أفضل في شهر رجب.

ينتظر برهة، ثم: في رجب؟ هل سيحدث شيء في رجب؟

شريف باشا يسأل جادا: ما رأيك في الخطاب؟

يعقوب باشا: لا أفهم منه شيئًا.

شكري: لا يمكن أن يكون كاتبه عربيًا؛ كلامه غير مفهوم.

يعقوب أرتين: هذا من تأليف شخص إنجليزي ـ إنجليزي جاهل خيل إليه أنه يعرف كيف يفكر العرب.

شريف باشا: السكرتير الشرقي، مستر بويل.

ـ ولم؟ لماذا يكتب مثل هذا الخطاب.

ـ لأن كرومر طلب مزيدا من القوات لجيش الاحتلال، ويحتاج إلى إقناع وزارة الخارجية البريطانية بضرورتها، وعليه يكتب بويل هذا الخطاب ويرسلونه إلى لندن مع ادعاء أنهم حصلوا عليه من أحد بصاصيهم.

يعقوب باشا: لا أظن كرومر يقدم على مثل هذا الفعل.

شريف باشا: هذا الخطاب أرسل إلى وزارة الخارجية البريطانية. المفروض أنه يثبت أن هناك تخطيطًا لقيام ثورة...

ـ لكنه لا يثبت شيئًا. إنه قطعه من الغباء.

ـ لكن وزارة الخارجية لن تعرف هذا. سيقرءون كلمة «جمال» وعبارة «الله كريم»، «ريح البركات» ويقولون « عرب متعصبون» ويرسلون القوات.

شكري بك: كيف حصلت على هذا الخطاب؟

ـ لا أستطيع أن أخبرك.

ـ لكن ماذا يمكن أن نفعل به؟

يسود الصمت ثم يقول يعقوب باشا: لا نستطيع أن نفعل به شيئًا، حتى لو كتبنا فيه نقدا نبين أنه ليس من تأليف عربي ـ ما كنت أصدق أن يفعل كرومر شيئًا كهذا.

شريف باشا: ربما يعتقد أن روح الكلام تنبئ عن حقيقة.

شكري بك: لكنه يعلم أن الخطاب مزيف إلا ـ ربما بويل لم يخبره؟

يرد يعقوب باشا: مستحيل! بويل صنيعة كرومر ولا يجرؤ على خداعه.

شريف باشا: التصرف الوحيد في رأيي أن نجد من ينشر هذا الخطاب في لندن ـ إذا أمكن ذلك ـ بدون الكشف عن مصدره، ونكون نحن مستعدين بالرد.

يعقوب أرتين: ردنا سيدخل في مناقشة متخصصة في فلسفة اللغة والاستعارات والصور، علينا أن نتخيل المعني الذي قصده بويل بالعربية ونترجمه إلى الإنجليزية في ترجمة صحيحة. المشكلة أدق من أن تطرح على القارئ العادي، ربما تصلح لعرض أمام محكمة أما جمهور القراء فلا.

شكري بك: ما البديل إذن؟

شريف باشا: نأخذ الخطاب إلى السفارة ونزرعه في عين كرومر، فنقدم الثورة شهرين.

يعقوب أرتين: ولكن أين هذه الثورة؟ هل عندنا ثورة؟

شريف باشا: لا أعرف شيئًا عن ثورة، لكن بوضع الجيش في حالة استعداد واستعراضه في أنحاء البلاد يمكن إحداث ثورة.

شكري بك: طبعا يمكن أن يحدث أي شيء.

شريف باشا: سألت بعض الشباب العاملين في مكتبي وطلبت منهم أن يستقصوا لي الأمر، لكني لا أعتقد أن أحدا يدبر شيئًا من هذا القبيل. كنا شمينا خبر.

١٤ يونيو ١٩٠٦

يقول لي زوجي إن استفساراته تؤكد نفيه لوجود خطط ثورة في أي فرع من فروع الحركة الوطنية. قريبا يسافر مصطفى كامل باشا مرة أخرى إلى أوروبا على أمل إثارة الرأي العام لمساندة استقلال مصر، زوجي يقول ليس من المتوقع أن يحدث أي عنف هذا الصيف وأنا أدعو الله أن يكون على حق.

ليلة أمس عندما صعد إلى طابقنا وجدني في حجرة نور. كانت الطفلة نائمة وظهرها مقوس في منحني رياضي، وقف ينظر إليها لحظة في ضوء المصباح الخافت ثم ابتسم لي قائلا: انظري، إنها تطير.

عم أبو المعاطي يحضر للسؤال عني كل بضعة أيام وقد خصص لي شابة من القرية لتقوم على خدمتي، طلبت منه أن تحضر معها صديقة لها حيث إني مشغولة طول اليوم وستشعر الفتاة بالوحدة، وهكذا تحضر إلى خضرة ورئيسة لبضع ساعات كل يوم. كل منهما متزوجة حديثا وليس عندها أطفال بعد، تنفضان التراب وتقومان بالغسيل وري الحديقة. كان الأكل يبقى في الثلاجة لأيام فتوقفتا عن الطبخ، وأصبحت كل منهما تحضر لي شيئا مما تطبخه في بيتها، وعم أبو المعاطي يحضر ليتأكد أن لدي كل ما أحتاجه، يشرب الشاي معي في الفراندة ويحمل إلى أخبار قريتنا والأراضي

المجاورة. أخبره أني أكتب تاريخ أجدادي فيقول إنه يذكر جدي، وكان صبيا صغيرا عندما توفي.

يحضر لي مصحفا من بيته ويطلعني على اسمه واسم أبيه وستة من أجداده، أسماؤهم مكتوبة الواحد بعد الآخر على الصفحة السميكة داخل الغلاف. يقول:

ـ في المرة القادمة عندما يحضر ابني الأكبر من البحر سأدون اسمه هنا وأعطيه المصحف.

ـ ربنا يطول في عمرك إن شاء الله.

ـ الأعمار بيد الله، أنا عشت ودفنت من كانوا أصغر منى.

ـ ربنا يعطيك الصحة يا عم أبو المعاطي.

ـ نحن نعمل ما نقدر عليه والباقي على الله. يسعل ويخرج علبة الكليوباترا من جيبه، لقد توثقت صداقتنا حتى أصبح يعزم على بسيجارة وأنا أقبلها، وإذا حضر أحد من البلد سأدسها تحت مقعدي وأبعد الدخان بالتهوية بيدي! نتحدث عن الأرض وكيف يمكن إدارتها، يقول إن الفدادين الخمسة للملكية الصغيرة التي طرحها كتشنر أولا ثم عبد الناصر فيما بعد لا تكفي: في الأول تبدو طيبة ويظن الفلاح أنه مستقل ثم يجد نفسه محلك سر، لا يستطيع أن يطوّر أو يدخل الآلات الجديدة، وفي النهاية ماذا يترك لأبنائه؟ يقسم بينهم الفدادين الخمسة؟ في النهاية ما زال الرجل يأكل أرض جاره وواحد يطلع غني وواحد على باب الله.

ـ طيب ما الحل، التعاونيات؟

ـ يمكن، لا يبدو عليه اليقين: لكن الناس تتنازع وكل واحد يريد كلمته تمشي.

ـ إذن ما الأفضل؟

ـ خمسين فدانًا. على الأقل خمسين فدانًا للمالك الواحد ـ مساحة معقولة. المطلوب مالك طيب يعيش في الأرض ويشرك الفلاحين في المحصول.

أبتسم: يعني أنت رجعي يا عم أبو المعاطي؟

ـ أبدا يا ست هانم، يدافع عن نفسه ـ لكن الأرض في يدنا أمانة، علينا أن نفعل ما هو خير لها.

ـ سمعت، أقول ببطء: سمعت أن هناك شركات إسرائيلية تقدم خدمات ـ خدمات زراعية، وسمعت أنهم حصلوا على توكيلات خاصة من الحكومة.

ـ أنا أيضا سمعت ذلك، لكن فوق، في الأرض التي بعد القنال وليس هنا.

ـ ألم يحضرهم أحد إلى هنا؟

ـ لا، ولا في أي مكان في المحافظة.

ـ هل تقبل العمل معهم إذا استؤجروا لتحسين الأرض؟

ـ لا يمكن. وأي واحد يدخلهم فهو (لا مؤاخذة) حمار. إما حمار أو عميل. ألم يستولوا على فلسطين بهذه الطريقة؟ يدعون أنهم يعلمون الناس كيف يزرعون أرضهم، ثم بالشطارة يستولون عليها؟ لا! نحن نفلح أرضنا لآلاف السنين ولا نحتاج غرباء يعلموننا كيف نزرع. ينظر إلى ـ هل تفكرين...؟

ـ طبعا لأ. إنه مجرد حديث سمعته في القاهرة وأردت أن أعرف رأيك.

يقول بعد لحظة: وإذا احتجنا غرباء ففي العالم دول كثيرة عندها تكنولوجيا، لماذا من إسرائيل بالذات ونحن نعرف أن عينهم علينا؟

ـ لأنهم زايدوا على الجميع.

ـ إذن فلنسأل أنفسنا عن السبب.

ـ عندك حق! ليتهم يسمعونك في القاهرة.

ـ كل واحد ماشي بدماغه، يقول وهو يقوم واقفا، أتركك لتعودي لعملك. عايزة شيء؟

ـ عايزة سلامتك.

١٣ يونيو ١٩٠٦

كنت جالسة إلى البيانو وأحمد إلى جانبي ونور على ركبتي، كانت قد اكتشفت الصوت الذي ينتجه خبط يدها الصغيرة على المفاتيح، وكنت أحاول أن أقصر لعبها على المفاتيح العالية، وابن خالتها جالس في الوسط وقد تمكن من عزف لحن مبسط، وكنت أفكر في أن الصبي أصبح في حاجة إلى مدرب يعلمه خيرا مني، عندما دخلت حسناء الحجرة وهي في غاية الاضطراب وطلبت الإذن بأن يدخل إلى محمود أبو دومة، وهو قريب لها كان قد وصل لتوه من

القرية وجاء لزيارتها وليطمئنها على أخبار عائلتها، فأذنت لها؛ فدخل إلى شاب لطيف صبوح الوجه ومحروس متعلق بيده. وكان من الواضح أنه محرج لوجوده في حضرتي وإن قلل وجود الأطفال من ارتباكه، كانت حسناء تجذب كمه قائلة: «أخبر الست، احك لها». وفهمت من حديثه أنه كان ينتظر القطار عندما سمع أخبارا عن صدام في قرية قريبة بين الفلاحين وبعض الضباط الإنجليز، وفهم من الكلام أن الضباط كانوا يصطادون حمام الفلاحين فقتلوا امرأة وأشعلوا النار في شون القمح، وأن الفلاحين هجموا على الضباط بالعصي، وكانت حسناء في أشد الانزعاج، ومصممة على الذهاب إلى بلدها حالا، لكن محمود وأنا أقنعناها بجنون المحاولة، خاصة أن المشاكل ليست في قريتها والحمد لله، وطلبنا من الشاب أن يبقى عندنا هذه الليلة مما سيسعد محروس، ولأنني أريد أن يسمع زوجي حكايته. ما أغبي إصرارهم على صيد الحمام، وما أشد ما يسيء إلى الإنجليز في نظر الفلاحين.

المفروض أن يغادرنا شكري بك غدا، والجميع هنا يشعرون بالحزن لفراقه فهو لطيف المعشر متفتح بالأمل، وقد أسعدتنا ضيافته، وأدخل السرور على جميع أهل البيت، وهو مصر أن يدعونا لزيارة أسرته في الأراضي المقدسة، ويسعدني في الواقع أن أزور الناصرة والقدس وبيت لحم التي ترنمت بأسمائها كثيرا ولم أزرها قط.

زوجي كذلك يود الذهاب لأنه يحمل ذكريات عزيزة من أيام طفولته هناك، وإذا أمكن أن تحضر ليلي وزوجها وابنها ـ لأن جليلة هانم والدة حسني من الناصرة ـ ستكون صحبة رائعة.

ليلي تأثرت كثيرا بحديث شكري بك عن المستوطنين وبدأت تجمع المقالات المنشورة عن نشاطهم، وطلبت مني أن أزودها بأي كتابات أحصل عليها من المصادر الإنجليزية.

١٤ يونيو ١٩٠٦

حملت الصحف اليوم وصفا لأحداث دنشواي، والمواقف أسوأ مما ظننا بسبب مقتل أحد الضباط، وقد خرجت القضية من يد النيابة، وسيتولاها فندلي باشا في المحكمة الخاصة. فرض حصار حول القرية وتم القبض على ٢٥٠ من أهلها. وقد سارع مستر ماتشل بإصدار بيان يثني على الضباط ويلوم الفلاحين لتسببهم في الحوادث؛ وهذا قبل إجراء أي تحقيق، ومن الفلاحين هناك ٥ جرحي وواحد توفي.

١٨ يونيو ١٩٠٦

هذا ما حدث في دنشواي: كانت قوة عسكرية تستعرض في الدلتا وقد أقاموا معسكرهم في المنوفية. رغب بعض

الضباط في اصطياد الحمام في القرية كما فعلوا في العام الماضي. بعثوا برسالة إلى العمدة لكنهم لم ينتظروا وصول الإذن كما هو مفروض قانونا، استولوا على عربتين من المنطقة وذهبوا في صحبة خفير محلي، وكان اختيارهم لدنشواي بسبب أعداد أبراج الحمام المتوفرة فيها، ويعتمد عليها أهل القرية في جزء أساسي من معاشهم. عندما وصل الضباط إلى القرية خرج لهم واحد من كبار السن فيها يدعي الشيخ محفوظ، وطلب منهم أن يطلقوا ذخيرتهم بعيدا عن بيوت القرية لأن القانون يحظر إطلاق النار على مسافة ٢٠٠ متر من أي بيت. لم يلتفت إليه الضباط وانتشروا واتخذوا مواقعهم، وكلها على بعد ١٥٠ مترا من القرية. بدءوا الضرب في الساعة الثانية بعد الظهر وأهل البلد يرقبونهم من المنازل والحقول في كمد.

بعد قليل شبت النار في حجرة خزن فيها قمح حصد لتوه. ولا أحد يعرف بالضبط كيف بدأ الحريق. الفلاحون يقولون إنها طلقة من بندقية أحد الضباط، ومستر ماتشل يقول إن الفلاحين حرقوا قمحهم بأنفسهم، كإشارة متفق عليها للهجوم على الضباط، لكن كيف يمكن الاتفاق على إشارة كهذه ولم يكن هناك من يعلم بقدوم الضباط؟ فقد كان العمدة خارج القرية ووصل إليها أثناء الحادث.

عندما شب الحريق أسرع صاحب البيت (وهو مؤذن القرية) هو وزوجته وشرعا في ضرب الضباط الأقرب إلى بيتهم محاولين الاستيلاء على سلاحهم، انطلقت رصاصة

من بندقية كابتن بورتر وسقطت المرأة، أم محمد. ظن زوجها أنها توفيت وهاجم الضباط هو وغيره من أهل البلد بالعصي وحاولوا انتزاع بنادقهم، عندما سمع الضباط الآخرون الجلبة أسرعوا لمساعدة زملائهم وأطلقوا النار على الناس فسقط منهم خمسة منهم شيخ الخفر فشارك رجال الخفر في ضرب الضباط.

جرى اثنان من الضباط إلى معسكرهم على بعد ٦ كيلو مترات لطلب النجدة. أمسك الفلاحون بالآخرين ونزعوا منهم السلاح، وعندما اكتشفوا أن أم محمد جرحت فقط ولم تمت هدءوا فتدخل بعض شيوخهم لحماية الضباط وأعادوهم سالمين إلى معسكرهم ومعهم بنادقهم.

في هذه الأثناء سقط أحد الضابطين في جريهما إلى المعسكر لطلب المساعدة، كان اسمه كابتن بول. لم يتحمل حرارة الشمس في شهر يونيو فسقط على جانب الطريق أمام قرية يقام فيها سوق اسمها سرسينا، وقفز الثاني في ترعة الباجورية وسبح إلى المعسكر. وجد رجل من سرسينا يدعي سيد أحمد سعد كابتن بول مغمي عليه في الطريق، وبمساعدة بعض أهل القرية وكذلك محمد حسين خفير السوق حملوا الضابط إلى الظل وسقوه ماء وعندما ظهرت القوة الإنجليزية جرى الفلاحون واختفوا، واختبأ سيد أحمد سعد في الطاحونة المجاورة حيث وجده الجنود الإنجليز وظنوا أنه المسئول عن حالة كابتن بول فانهالوا عليه ضربا بكعوب البنادق حتى مات.

توفي كابتن بول بعد ذلك وقدم أهل القرية إلى المحاكمة بتهمة القتل، لكن أعيد فحص الجثة واتضح أنه مات بضربة شمس.

انتهي التحقيق اليوم ومصر كلها في انتظار ما سيحدث.

تطوع زوجي للدفاع في القضية لكن ماتشل رفض إدراج اسمه.

حسناء لا تكف عن البكاء ومحروس الصغير لا يتكلم فبالرغم من أنهما من كمشيش فلهما أقارب ومعارف في كل القرى المجاورة، وقد عمت المأساة المنطقة كلها.

٢٠ يونيو ١٩٠٦

أبحر كرومر أمس إلى إنجلترا في إجازته السنوية، ونشر المؤيد أن المشانق جربت في اليوم السابق في مخازن السجن. سينوب عن كرومر المستشار شارل دومانسفلد فندلي. أدعو الله وأكرر الدعاء أن يسود العدل في المحكمة.

تشكل المحكمة من بطرس باشا غالي رئيس الوزراء، ومستر بوند رئيس المحاكم، ومستر هايتر، قائم بأعمال مستشار قضائي، ومستر لدلو قاضي ادعاء لجيش الاحتلال، وأحمد بك فتحي زغلول رئيس المحاكم الوطنية. ويتولى الادعاء إبراهيم بك الهلباوي، ويقوم بالدفاع محمد بك يوسف وإسماعيل بك عاصم وأحمد بك لطفي السيد.

زوجي يقول إن بطرس غالي في موقف صعب لأنه يقوم بعمل وزير الحقانية لغيابه، لكنه مندهش لموقف الهلباوي وفتحي زغلول، يقول عن الهلباوي إنه لم يكن يوما صديقا لأحد إلا نفسه، أما زغلول فيعتبر أن رئاسته للمحكمة الابتدائية طالت أكثر مما يجب وأن بوند يقف في طريق ترقيته إلى محكمة الاستئناف. لكنه يعود فيقول إنه لم يتوقع هذا منهما.

٢٧ يونيو ١٩٠٦

أعلنت الأحكام: الشنق لأربعة رجال: حسن محفوظ ويوسف سليم وسيد سالم ومحمد زهران، والمؤبد مع الأشغال الشاقة لاثنين: أحمد محفوظ ومحمد عبد النبي المؤذن. ١٥ سنة مع الأشغال الشاقة لأحمد السيسي، ٧ سنين مع الشغل لعدد ٦ رجال آخرين، وخمسين جلدة لثمانية رجال. وتنفذ الأحكام في دنشواي.

٢٨ يونيو ١٩٠٦

في السلاملك يغطي أحمد حلمي وجهه بيديه، تهتز كتفاه ويخرج نحيبه المكتوم. يضع شريف باشا البارودي يده على كتف الشاب. حسني بك الغمراوي يجلس منحنيا إلى الأمام ومرفقاه على ركبتيه يحدق في أرض الغرفة وإسماعيل باشا صبري يمسك بالمسبحة ساكنة في يده.

يجلس الرجال في صمت. في الطابق العلوي تركع ليلي وآنا

جنبا إلى جنب خلف المشربية ودموعهما تنساب في صمت فلا تحاولان مسحها.

ـ أنا آسف.. يجفف أحمد حلمي وجهه ويفرد كتفيه يقول: كان منظرا بربريا، وحشيا. المشانق منصوبة في القرية والعروسة بجوارها، حشد الناس كالأغنام ليشهدوا تنفيذ الحكم. يشنقون رجلا ويتركونه معلقا أمام أسرته وأهله ويربطون غيره في العروسة ويجلدونه، ويعيدون الكرة مرات ومرات. ويدعون أنهم متحضرون.

لا ينطق أحد من الرجال. يقول:

ـ يوسف سليم، سنه ٢٢ سنة، وقف على المنصة والتفت إلى الفلاحين وصاح: «لعنة الله على الظالم» ثم شنقوه.

تمسك ليلي بيد آنا وتتساند المرأتان في أسى. يقول أحمد حلمي: لقد أرسلت تقريري لجريدة اللواء، سجلت الوقائع عارية واستمحت عذر القراء ألا أورد مزيدا من التفاصيل لأن الأوصاف إهانة لأحداث اليوم.

ينتصب حسني بك في جلسته: ستكون هذه نهاية كرومر.

يرد شريف باشا: يجب أن نعمل على هذا.

يسأل إسماعيل صبري. أتظن هذا ممكنًا؟

ـ نعم، يرد شريف باشا: صحيفة ليجيبت تقرأ في الخارج، وقد تبنت جريدة مانشستر جارديان القضية، وجريدة ديلي كرونكل نشرت تلغرافا يوم ٢٠ ـ حتى قبل بدء المحاكمة ـ يفيد أن كرومر اتخذ قرارا بإعدام الرجال رميا بالرصاص. وجريدة تريبيون ستقف

معنا في الغالب. سأرسل مندوبا إلى دنشواي وسنعد تقريرا كاملا عن القضية وسننشره في إنجلترا، فإذا أذيعت القضية وعرف بها الناس سيطالب عدد كاف بتوجيه أسئلة في البرلمان وقد يتبني الأيرلنديون القضية. وزارة الخارجية لم تكن تريد حدوث شيء من هذا، وفيه حرج لهم، مصطفى كامل سيكتب عن القضية في فرنسا. إذا لزم الأمر سنطلب من الصديق الذي زودنا بالخطاب المزيف أن يجد طريقة لإذاعته أو التهديد بإذاعته. ربما لا ننهي الاحتلال لكننا سنتخلص من كرومر.

يسأل أحمد حلمي في مرارة: ومن ترشحون بدلا منه؟ كتشنر؟

يقول حسني بك: شيتي بك ينفع. مدير الجمارك، مولود هنا ويتحدث العربية. يعرفنا جيدا وهو اقتصادي ماهر. يمكن فعلا أن نعمل معه.

يسأل أحمد حلمي: وماذا عن اليوم؟ الناس لم يسمح لهم حتى بدفن موتاهم. حمل البوليس الجثث ومضي بها، محظور عليهم أن يفتحوا بيوتهم للمعزين، محظور عليهم أن يحزنوا..

يقول شريف باشا: سنقيم عزاء هنا.

فينظر الآخرون في دهشة.

- سأفتح بيت الحلمية للعزاء ثلاث ليالٍ، والْخِمْسَان، والأربعين.

إسماعيل صبري: هذا خطر يا باشا.

حسني بك: بل هذا مناسب.

شريف باشا: لا نحتاج إلى إعلان، مجرد إذاعة الخبر بين الناس،

ولن نسمح بخطابة أو مظاهرات ـ القرآن الكريم فقط وتقديم العزاء ـ لا يمكنهم منعنا.

٢٩ يونيو ١٩٠٦

عندما صعد إلى غرفتنا في الليلة الماضية وجدني أبكي، أخذني بين ذراعيه فقلت الكلمات التي طرأت لي:

ـ كم أشعر بالخجل!

ـ لا، يا آنا لا ...

وعندما بكيت وخبأت وجهي في صدره قال: اسمعي.. لا تسمحي لهذه المشاعر أن تقلقك أبدا؛ المسألة لا تتعلق بأنهم إنجليز. عندك الهلباوي مصري وكذلك أحمد فتحي زغلول، وانظري ماذا فعلا. وعندك مستر بارنجتون صديقك إنجليزي وكذلك مستر بلنت....

قلت وأنا أبكي: كنت أنصت، وسمعت ما قاله أحمد حلمي، شيء لا يحتمل. كل هؤلاء الناس في دنشواي الليلة، تلك الأمهات والزوجات والأخوات....

قال: كفي، كفي، الطريقة الوحيدة التي تمكننا من تحمل هذه المصيبة أن نستخدمها لصالح القضية، أن نعمل على ألا يحدث هذا ثانية أبدا، وسنعمل على إطلاق سراح المسجونين وسيساعدنا أصدقاؤك في لندن.

ضمني إليه حتى شعرت بالرعشة في صدره وقال: هل تأتين إلى؟ أنا في حاجة إليك الليلة. وعندما نظرت إلى وجهه رأيت خطوطا جديدة وعميقة حفرت في أركان ثغرة وفي جبهته.

لمدة ثلاثة أيام وثلاثة خِمسْان وفي السادس من أغسطس كان بيت الحلمية والسرادق المقام في حديقته يمتلئ بالمعزين ويفرغهم؛ رجال ونساء من القاهرة ومن مدن الأقاليم ومن قري الدلتا والصعيد، وكان شريف باشا البارودي وحسني بك الغمراوي وغيرهما من الأعيان يقفون بالباب يسلمون على الناس ويتقبلون العزاء. قدمت آلاف من فناجين القهوة السادة شربها المعزون، ولم يسمع في المكان صوت إلا ترتيل القرآن الكريم في رسالة مفعمة بالأمل للأحياء والأموات.

(٢٦)

إن بعض قادتنا اتسموا بالجبن.. ويكاد المرء يقول إنهم خانوا بلادًا كانت كريمة معهم بما يفوق التصور؛ أما عني، فسوف أستمر في هذا الطريق حتى النهاية، فأنا أعتقد أن ثمرة هذا الكفاح، وإن لم يقطفها المكافح الأول، أو الثاني، فسوف يقطفها مصري في يوم من الأيام...

مصطفى كامل، ١٨٩٨

(مترجم عن الفرنسية)

١٧ نوفمبر ١٩٩٧

طواسي

إيزابل حامل، قالت لي في التليفون مساء أمس:

ـ قلت لك إنه مكتوب. نحن نلتقي بانتظام، لكن الحمل حصل من المرة الأولى، من ٣ أشهر. آسفة أني لم أخبرك من قبل لكني كنت أريد التأكد ووعدت نفسي أني سأخبرك في الثالث.

قلت: خبر مدهش يا إيزابل! أليس كذلك؟

ـ نعم، نعم أنا سعيدة جدا.

ـ وماذا عن عمر؟

ـ يعني، ترددت: هو ـ في الحقيقة انزعج جدا. لم يسألني بالضبط إذا كنت أريد الاحتفاظ بالجنين. لم يفعل ذلك، لكنه مهموم....

ـ اصبري عليه...

ـ بالتأكيد! أنا أفسح له الوقت والمكان ولا أضيق عليه، ولم أقترح أن نسكن معا ـ على راحته، وأنا أنتظر حتى يطلبني هو على التليفون ـ في معظم الأحيان...

وقع عمر في الفخ. لا بد أنه وقع في الشرك من ناحية، ومن ناحية أخرى يشعر بالزهو، ثم يتساءل ماذا يقول للأولاد؟ أولاده كبار، أكبر من أولادي. هل سيتفكهون بالموضوع أم يشعرون بالضغينة. الغالب أنه لم يحدث إيزابل بعد عن علاقته بياسمين وإلا كانت أخبرتني، لا بد أنه نحي عنه مخاوفه ما دام يلتقي بها على أي حال، لكن هذا الحمل سيبعث المخاوف من جديد. الأب والجد في واحد مثل رمسيس أو أخناتون أو أي من الفراعنة الكبار. لا أظنه يفرح بهذا فهو رجل عصري، عربي أمريكي، وأقول لنفسي ثانية: ليس أباها.

تقول إنها لا تستطيع أن تخطط لعودتها بعد، وتريدني أن أذهب إلى أمريكا. أقول: وعندما أنتهى من الحكاية.

أظن أنني على وشك الانتهاء. كرومر استقال وحل إلدون جورست محله. وفي جو المصالحة الجديدة قفزت إلى الساحة رسميا أربعة أحزاب سياسية، الأول بطبيعة الحال هو الحزب الموالي للإنجليز: الحزب الوطني الحر وتنطق بلسانه جريدة المقطم وشعاره: « سلامة الوطن والأمة في السلام مع المحتلين المصلحين» وهو حزب يقابل عموما بالازدراء، ثم هناك حزب الأمة الذي شكلة أحمد لطفي السيد وبعض الأعيان وكبار الموظفين، وأسسوا الجريدة لتتحدث بلسانه ويطالبون بالاستقلال عن بريطانيا بالتدريج، وإنهاء الحكم التركي، والاستثمار في التعليم والصناعة والحكم بالدستور، وشكل مصطفى كامل الحزب الوطني الحقيقي وتنطق جريدة اللواء بلسانه ويطالب بالاستقلال فورا وبحكومة دستورية في نطاق الدولة العثمانية. ويأتي الخديو أخيرا ويشكل

حزب الإصلاح من خلال الشيخ علي يوسف وجريدته المؤيد وبرنامجه يشمل الاستقلال بدون تأجيل وحكومة دستورية؛ لكنه يخفف الخطو بالنسبة للعلاقات مع تركيا ويشيع فكرة الدعوة لخليفة عربي يكون هو الخديو.

وزوجي بالطبع يرفض الانضمام إلى أي منها. أحزاب القصر والإنجليز خارج المناقشة أصلا، ولا يعجبه تعلق الحزب الوطني بالدولة العثمانية وهو يرى مزيدا من تعارض المصالح بين مصر وتركيا، وربما كان حزب الأمة هو المكان الطبيعي له، والواقع أن عددا من أصدقائه من مؤسسيه إلا أن الأحزاب الأخري تصر على أن أعضاء حزب الأمة (وجلهم من أغني الأعيان وكبار الموظفين) مصالحهم قريبة من مصالح الإنجليز، وهناك قول إن كرومر بارك تأسيس هذا الحزب قبل خروجه من البلاد، وأعتقد أن زواجنا هو العامل الرئيسي الذي يحول بين شريف باشا والانضمام إلى هذا الحزب، لأنه يبالغ في الحرص على ألا تربط أدنى إشاعة بينه وبين سلطات الإنجليز، والموقف الآن أنه حر ينشر ما يكتبه حيث يشاء، ويعمل في المشروعات التي يشترك فيها كل من الحزب الوطني وحزب الأمة.

نقترب هذه الأيام من تحقيق مشروع مدرسة الفنون الجميلة، وقد عين الخديو الأمير أحمد فؤاد رئيسًا لمجلس الجامعة الأهلية، ويعمل زوجي هو ويعقوب أرتين باشا في إعداد لائحة الجامعة، وأعتقد أن حصيلة ١٩٠٧ كانت طيبة عموما، وسوف يصدر العفو عن المحكوم عليهم في

أحداث دنشواي في آخر العام كالمعتاد في هذه الحالات، وأسأل نفسي هل يعزي الأرامل والأيتام في تلك القرية أن العنف والظلم الذي وقع عليهم أدي إلى سقوط كرومر؟ وأن صداها تردد في العالم أجمع؟ والغريب أن كرومر حسب كل الروايات أصابته الدهشة وخيبة الأمل عندما عاد ليجد المشاعر في جميع الجهات متحدة ضده، وظل إلى النهاية يعزو تلك الكراهية لمؤامرات الخديو لا لأفعاله هو.

لكن كفي، كفي حديثًا في السياسة كما تقول زينب هانم طول الوقت، أرثي للسيدة المسكينة، فالسياسة تحكمت في حياتها منذ زمن بعيد، أولا باشتغال زوجها بالسياسة ثم بعد ذلك ابنها، إلا أنها الآن سعيدة إذ يجري في بيتها ثلاثة أطفال، تنظر إلى في حنان وتقول: « انظري حكمة ربنا يا بنتي، أرسلك إليّ ابني من بلاد بعيدة بعد كل هذه السنوات من الجدب» .

ليتني أستطيع أن أقول: « كفي سياسة» بصدق وإلي الأبد. أحيانا أجدني أفكر في الحياة في لندن حيث تقتصر مشغولياتي على اختيار قائمة طعام اليوم، والإشراف على الأطفال والقيام بأعمال متفرقة في البيت، وربما التمشية في الحديقة، وأحيانا الخروج في المساء إلى المسرح أو للعشاء مع بعض الأصدقاء. والآن في ديسمبر أفكر في شجرات الكريسماس والأضواء، والتوقف عن التسوق لتناول الغداء مع صديقة، لكن إذا تخيلت نفسي في بيتي في ثيرلو بليس

أرى نور تنزل السلم قفزا، وإذا دخلت ردهة المسرح فمتكئة على ذراع زوجي، وإذا دخلت هارودز في خيالي فلأختار له هدية وهدية لزينب هانم، وعندما آخذ راحة من التسوق وأتوقف للغداء فليلي هي التي تجلس قبالتي في المقهى نناقش معًا مشترواتنا وقوائم الهدايا التي أعددناها.

وإذا فسرت حضور آنا بيتنا.. إنه إشارة أن الله سبحانه أراد لبيتنا الخير، فكيف أفسر الأحداث التي تواترت بعد ذلك؟ أحداث نبتت جذورها من هذا الحضور. لا أدري، وسأترك هذا السؤال لعقول تفوق في حكمتها عقلي. عشنا حياتنا معا ولم يكن يمر يوم بدون أن نلتقي ونمضي بعض ساعات في صحبة بعضنا.

بدأت الدراسة في الجامعة ـ كما هو معلوم للجميع ـ عام ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م، وما نسيه الناس اليوم هو أن الجامعة في سنواتها الأولى ضمت فصولاً خاصة للسيدات أيام الجمعة، وقع الاختيار على آنا ونبوية موسى وملك حفني ناصف ولبيبة هاشم للتدريس في هذه الفصول، فدعونا آنا لتحدثنا في الفن، ومدام حسين رشدي لتحاضر في تاريخ أوروبا، وكانت آنا تضحك قائلة إن الحريم قد جعل منها امرأة عاملة، إذ كانت دائما مشغولة بتحضير المادة التي تدرسها والكتابة في المجلة والترجمة من الإنجليزية وإليها لمعاونة أخي. كانت المعلومات تأتيها من أصدقائها في بريطانيا، وكان هو على علم بكل شئون مصر ويمتاز بفكر واضح ومنطق صائب مفعم بحرارة الدعوة، أضف إلى ذلك موهبتها في الكتابة بأسلوب إنجليزي ممتاز مما جعل كل مقال يشتركان في تحريره يصيب هدفه حقا. أصابت وفاة مصطفى كامل البلاد بصدمة عنيفة، وبدا للجميع أن محمد فريد بك سيسير على طريق مصطفى

كامل ويتم ما بدأه، وكان أخي يشترك معه في العمل في شئون العمال ونجحا خلال عام ١٩٠٨ في تأسيس ٤ نقابات عمالية. وبقيام ثورة الدستوريين في تركيا وإعلان الدستور التركي وتشكيل برلمان في تركيا.. بدا لنا أن التغيير قادم لا محالة. رفضت الحكومة البريطانية السماح لمصر بإرسال ممثل لها في جلسات البرلمان التركي، وفي العرض العسكري في نوفمبر انفجر الهتاف بالاستقلال من الطلبة والجماهير.

حياتنا الأسرية كانت هانئة مستقرة، أمي سعيدة بأفراخها حولها، وأبي راض بمراقبة آنا وهي تنسج لوحتها السحرية على النول، وبالرغم من أن الله لم ينعم علينا إلا بطفل واحد لكل منا، فالأطفال يكبرون ويكبر معهم حبهم لنا وحبهم كل للآخر.

نور جالسة على ركبة أبيها، جذبت ساعته الذهبية من جيبه وتحدق فيها مستغرقة. يتأمل شريف باشا ابنته متفكرا، يسود الصمت فترفع ليلي بصرها عن الكتاب وتقرأ أفكار أخيها:

ـ ربنا يخليك لها يا آبيه وتراها عروسة، وتسلمها بيدك لأحمد...

ينتبه إليها: كيف تعرفين أنهما مكتوبان لبعض؟ ربما يلتقيان بأشخاص آخرين ويفضلان ذلك.

ـ ألا تري كم هما متحابان؟ لا يطيقان الفراق ليوم واحد. عندما يكبران ـ

تتدخل مبروكة: بس يا ست ليلي، علم الغيب عند الله وحده.

ـ وأنت من أين طلعت لنا على غفلة؟

أسمع صياحا وعويلا يتجه نحو البيت فأهب من الرؤيا؛ رؤية ما حدث منذ تسعين عاما، والقرع يهز الباب. أجري عبر الصالة وأفتح الباب. في الخارج أجد بنت عم أبو المعاطي حكيمة العيادة ونساء أخريات يتبعهن جيش من الأطفال. النساء عاريات الرءوس والطُّرح تتدلي حول رقابهن.

ـ أخذوا أبويا يا ست هانم! تصيح بنت أبو المعاطي: العسكر أخذوه وأخذوا رجال القرية. الحقينا يا ست هانم، نروح لمين، نكلم مين؟ ربنا ينتقم منهم...

تجلس على الأرض تبكي وتخبط رأسها بيديها. أصيح:

ـ لم؟ لم؟ ما ذا حدث؟ أين أخذوهم؟

ـ بسبب ما حدث في الأقصر يا ست. تقول الحكيمة: لموا الرجالة...

ـ ماذا حدث في الأقصر؟

ـ ألا تعلمين ما حدث؟ الدنيا واقفة على رجل...

ـ ست أمل تشتغل طول اليوم.. تأتي خضرة إلى جانبي: تعرف إزاي؟

ـ قتلوا السواح في الأقصر. خمسين أو مائة لا نعرف. في المعبد، وقامت معركة وضرب رصاص، والآن الحكومة اندارت على الأهالي.

ـ أخذوا أبويا ـ أخذوا أبويا...

ـ ومال قريتنا بهذا؟

ـ قلبوا على الصعيد كله، وليس بلدنا وحدها. حرب يا ست هانم، حرب. ١٧ رجلًا أخذوهم من عندنا، والناس تعمل إيه؟ نقدر نعمل إيه؟

ـ أين أخذوهم؟

ـ مركز البوليس. المركز يا ست هانم.

أجري إلى الداخل وأقف وسط حجرتي وضربات قلبي تدق سريعا، عقلي يدور بكل ما قرأت وما سمعت عما يحدث عندما يقع الناس في يد البوليس: خلع الملابس، تغمية العيون، الضرب. أجلس على الفراش وأغمض عيني وأجبر نفسي على خفض الانفعال، على الهدوء. عندما أفتح عيني أتلقي نظرة الحزن في عيني أمي في الصورة. آخذ نفسًا عميقًا وأرتدي ملابس المدينة. مع جوارب وإيشارب من الحرير. أمشط شعري وأضع قرطًا من اللؤلؤ في أذني وأمرر قلم الروج على شفتي، ألتقط حقيبة يدي ثم يدفعني خاطر فجأة فآخذ جواز سفري الإنجليزي من درج التسريحة وأضعه في حقيبتي مع بطاقة تحقيق الشخصية المصرية ورخصة القيادة. جميع النساء يطلبن الذهاب معي لكن واحدة فقط هي التي تعرف الطريق إلى المركز فآخذها معي هي وبنت أبو المعاطي وخضرة. يداي ترتعشان وأنا أشدد قبضتي على عجلة القيادة. أشعر أنني على وشك البكاء فأطرد عني الدموع بقوة وأجلس منتصبة أمام العجلة. عندما نصل إلى حرف الساحة المفتوحة أمام المركز يجري إلينا الجنود شاهرين السناكي ويرغمونني على التوقف:

ـ وقف. وقف عندك. على فين؟

أقول: نريد أن نقابل المأمور.

ـ ممنوع.

يحيطون بنا. صبية متوترون في غضب.

ـ ما الممنوع؟ نريد الدخول للمركز.

ـ قلت لك ممنوع.

أفتح الباب وأخرج من السيارة.

ـ اسمع أنت وهو، وتدهشني نبرة السلطة في صوتي: ليس هناك شيء اسمه ممنوع. هذا مركز بوليس وأنا داخلة لأقابل المأمور، وإذا لم تفسحوا الطريق حالا، الآن سأطلب محيي بك المحافظ على التليفون المحمول وأخلي يومكم اسود، أوديكم في داهية.

ـ يا ست هانم عندنا أوامر...

ـ أي أوامر؟ واحد منكم يدخل يبلغ المأمور أن أمل هانم الغمراوي حضرت لتقابله وسأدخل وراءك.

ـ لكن السيارات ممنوع تقرب من المركز.

ـ سأترك السيارة هنا، وإذا حدث لها شيء سأسبب لكم مصيبة.

يتجه أحد الجنود إلى المركز وأشرع في السير وراءه، تفتح النسوة باب السيارة لكن الجنود يمنعوهن.

ـ الأهالي ممنوع!

ـ أهالي؟ الناس دول أهلك يا بني...

يقول الجندي: مستحيل! ده أنا أتقتل فيها.

أقول للنساء: انتظروا هنا وسكروا الأبواب من الداخل. أقول للجنود: إياكم أن يقترب أحدكم من النساء.

في مكتبه يقف المأمور لتحيتي، رجل ضخم فوق الأربعين، مكتنز أسود الشارب يبدو مرهقًا، ينضح عرقا في ليل نوفمبر البارد. يجلس رجلان في ثياب مدنية في مقعدين فوتيه في جانب الحجرة. أسلم على المأمور وأذكر اسمي ثم أجلس.

أبدأ: جئت لسيادتك في موضوع بعض الرجال من بلدنا.

يسأل أحد الرجلين في ملابس مدنية: أي بلد؟

ـ طواسي. جاء جنود للقرية اليوم وأخذوا الرجال. حضرت لأري ما يمكن أن نفعله من أجلهم.

ـ وما دخلك أنت في الموضـوع؟ يسألني الرجل ثانية فألتفت إليه. عيناه لونهما رمادي باهت، وهو ينظر إلى من فوق لتحت. لا أعرف ماذا يكون: بوليس أو جيش أو مباحث. هل هو في درجة أعلى من المأمور؟ لا بد أنه كذلك ليتدخل في الحديث بهذا الشكل.

ـ طواسي في أرضي، والفلاحون مسئوليتي. جاءت النساء إلى بيتي وطلبن مساعدتي.

يقول المأمور: عندنا حالة طوارئ.

ـ بسبب الأقصر؟

ـ نعم بسبب الأقصر. قتلوا ٦٠ فردًا من السواح.

ـ وما علاقة طواسي بالأقصر؟ هؤلاء ناس مسالمون...

ـ نحن مضطرون للقبض على كل المشتبه فيهم... وأسمع أثرا من التعب في صوته.

ـ لكن لم يُشتبه في ناس من طواسي.

أصر على طلب الإجابة: هؤلاء ناس يعيشون في حالهم، مشغولون بعملهم ولقمة عيشهم. تأخذونهم من بيوتهم ليلا..

ـ كل بني آدم مشتبه فيه. شاحب العينين يتدخل في الحديث ثانية.

ـ يعني تقبضون على كل رجال مصر؟

أرى وجهه يحمر: والحريم كذلك إذا اقتضي الأمر.

ألتفت إلى المأمور: يا فندم، هل فعل أي من هؤلاء الرجال شيئًا يثير الشبهة؟ هل وجدتم شيئًا في بيوتهم؟

ـ قلت لك عندنا حالة طوارئ.

أسكت دقيقة ثم أعيد المحاولة: إلى متى تحتجزونهم؟

ـ لا أحد يدري. يتوقف.

ألتفت تماما للمأمور. أركز بصري عليه فأجبره أن يرفع بصره وينظر في عيني.

ـ يا سعادة الباشا المأمور، بين هؤلاء الرجال المحتجزين رجال مسنون، شيوخ محترمون، ماذا يفيدكم حجزهم؟ أطلقوهم تهدأ القرية، وغدا ربنا يفعل ما فيه الخير للجميع ويظل معروفك في رقبتنا جميعا.

يبادر شاحب العينين: لن يخرج أحد الليلة. غدا يتم التحقيق معهم وسنري بعد ذلك.

أنظر إلى المأمور لكن وجهه لا ينم عن شيء يقول: سمعت قول الباشا.

أقوم واقفة وأحس بالدموع تطفر في عيني، ينتابني الغضب فأشير إلى الإعلان المعلق على الحائط خلف رءوسهم:

ـ أترون هذا ـ أقرأ ـ «الشرطة في خدمة الشعب» أظن الأمانة تقتضي أن ترفعوه من هنا.

أقود السيارة بعيدا عن الساحة لكنني أبكي على عجلة القيادة، فأنا أعرف ما سينزل بالرجال، والنسوة كذلك يعرفن ويبكين في صمت. أرى في خيالي الحبل حول رقبة عم أبو المعاطي والدم يسيل من ركن فمه إلى التجاعيد المنتشرة في ذقنه. أرتج للصفعات التي تهوي على وجهه وقفاه:

ـ يا كلب يا بن الكلب..

كفي! لا بد أن أمنع نفسي من تخيل ما هو أسوأ.

في البيت تقرر خضرة أن تبقي معي هذه الليلة. أطلب رقم طارق عطية وترد على زوجته أو إحدى بناته:

ـ مساء الخير. أنا أمل الغمراوي. ممكن أكلم طارق بك؟

يأتي صوته على الخط صائحا: أمل! آلو! أرأيت كارثة الأقصر؟

أقول «طارق» وأنخرط في البكاء. أقص عليه ما حدث وأقول: المحافظ؟ ألا يستطيع أن يخرجهم؟

ـ نعم! سأحدثه في الصباح.

ـ لكنهم سيبقون في المركز طول الليل؟

ـ اسمعي، أعرف ما تفكرين فيه، لكن لن يحدث لهم شيء الليلة. البوليس مشغول جدا وهؤلاء ليسوا مهمين. صدقيني، سنخرجهم غدا.

أرسل خضرة إلى القرية: قولي للنساء إني تحدثت إلى القاهرة وإن شاء الله غدا يحصل خير. ابقي هناك واحذروا أن يرتكب أحد حماقة، باكر قبل المغرب إذا لم يخرج الرجال سأحضر بنفسي وآتيكم بالأخبار.

كيف يمكنني النوم أو العمل؟ عالم آنا يبدو بعيدا لكن هل هو حقا عالم آخر؟ أجرب الإنترنت وأقرأ مزيدا من التفاصيل عن حادث الأقصر وأقوالا مختلفة عن القتلي. أطلب دينا في القاهرة فتقول أن لديهم أخبارا عن قري متعددة حدث فيها ما حدث في طواسي. تقول: يمكننا تبني القضية ونشرها، لكن تدخل معارف مقربين من السلطة أسرع. بلغيني بما يحدث.

أملي أن يكون الرجال نائمين. طمأنني بأنهم ليسوا مهمين. تعساء وبردانين، لكن نائمين.

أرسل لأخي رسالة على الكمبيوتر فيرد عليّ بالتليفون، يقول: عطية سيخرجهم. يبدو أنه يعرف ما يفعل.

ـ أليس ظلمًا وخطأ؟

ـ نعم، طبعا، لكنك فعلت كل ما في استطاعتك.

ـ رفضوا أن يسمعوا كلامي، لو كنت هنا لأنصتوا لك...

يقول: أحضر إذا كان هذا يريحك.

ـ لا، لا تحضر.

ماذا يمكنه أن يفعل؟ في الغالب لا يستطيع أن يفعل ما يفعله طارق، عاش في الخارج طول عمره، وليس له علاقات أو صلات بالمسئولين. أردد: لا تحضر. أنا فقط مهزوزة، أنت تعرف أحوالي. أخفف الحدة في صوتي: خبرني عن إيزابل، كيف تسير الأمور؟

يقول: أخبرتها.

ـ ماذا؟ أخبرتها عن أمها؟

ـ نعم!

ـ كيف تلقت الخبر؟

ـ ذهلت. أظن أنها ذهلت. كانت صورة ياسمين في ذهنها امرأة عجوز. أظن أنها تعي الآن حقيقة سني.

ـ لست عجوزا، وكنت أصغر من ياسمين بمراحل.

ـ نعم. لكن هذه الحكاية وضعتني في ذلك الجيل.

ـ هل سألت إذا كنت أعرف؟

ـ نعم. قلت لها إني أخبرتك مؤخرا. على أي حال، لقد أقنعت نفسها بقبول الموقف وقررت أن هذا دليل آخر على أن ما حدث بيننا كان مقدرا.

ـ يعني كأنك صوّبت خطأ في الدورة الأولى؟

ـ نعم كنت متعجلا ولم أدرك أن قرينتي الحقيقية لم تولد بعد!

عادت الضحكة إلى صوته كما اعتدتها. قررت ألا أسأله إذا كان قد أقلع عن الشك في أنه أبوها.

ـ هل ستحضر هنا قريبًا؟

ـ عندما أستطيع.. ثم يضيف: ليس هناك ما يمنعك من ركوب الطائرة إلينا.

أسير في البيت الخالي وأخرج إلى الشرفة حيث جلست مع عم أبو المعاطي. أنظر عبر الحقول إلى القرية، تفتقد الليلة ١٧ رجلا. أنتهى إلى حجرة إيزابل وأقف أمام صورة شريف باشا البارودي خال أبي. شايف يا شريف باشا؟ وتطفر الدموع ثانية إلى عيني وترد العينان السوداوان نظرتي وخلفهما ترقد التل الكبير وأم درمان ودنشواي، ويبدو لي أنه حقا يرى، وأريد ـ آه كم أحتاج أن أكون بين ذراعيه.

١٨ نوفمبر ١٩٩٧

الساعة الحادية عشرة أسمع طرقًا على الباب. أفتح لأجد طارق عطية أمامي. أقول: ما هذا؟ حضرت بنفسك؟

ـ رأيت أنه أفضل. أنا ذاهب إلى المركز. تأتين معي؟

في المركز نجد أن رسالة المحافظ قد نفذت خلال الطبقات اللازمة. يقول المأمور: سننهي إجراءاتنا ويعود الرجال إلى القرية.

يبدو عليه السهر والإرهاق أكثر من الليلة الماضية: لن نحتاج لتعطيلكم..

يرد طارق ببساطة: لا عطلة ولا شيء. سنشرب معك فنجان قهوة حتى تنتهي الإجراءات.

يدق المأمور الجرس طالبا القهوة.

من السيارة نحصي ١٧ رجلا يصعدون إلى بوكس البوليس، ليست هناك حبال حول رقابهم لكن ثيابهم ممزقة وملطخة بالدماء، ورءوسهم منكسة. يحتدم صدري بالدموع والغضب ونحن نتبع البوكس طول الطريق إلى طواسي.

ـ لن يحدث شيء الآن، يقول طارق وهو يتحول بالسيارة عن الطريق العام إلى الدرب المؤدي إلى بيتي. يتبعني إلى الداخل، وعندما أحاول أن أقول: «سأعمل لك شاي» يذوب الحجر الرابض على صدري وأستند إلى كرسي وأشهق بالبكاء.

بعد لحظة يأتي إلي ويأخذني بين ذراعيه ويضمني إلى صدره فأستسلم لحزني وهو يضمني ويمسد شعري ويربت على ظهري.

ـ انتهى الآن، خلاص! عادوا إلى بيوتهم ولن يقترب منهم أحد.

ـ لكن لماذا يحدث لهم ذلك؟ كيف يمكن أن يحدث؟

ـ قوانين الطوارئ، الأقصر...

ـ لكنهم ناس لا علاقة لهم بأي شيء من هذا.

ـ لقد عادوا إلى بيوتهم.

ـ وضربوهم. هل رأيت منظرهم؟

ـ لقد عادوا إلى بيوتهم الآن يا أمل.

ـ والآخرون؟

ـ أي آخرين؟

ـ الناس في القرى الأخري، الذين لم يخرجهم أحد.

ـ هل ستصلحين الكون؟ فعلت ما تستطيعين.

ـ كل ما فعلت أني ناديتك. أنت فعلت كل شيء.

ـ خلاص! انتهي.

ـ ماذا كنت أفعل بدونك؟ لو كنت لا أعرفك؟ لو لم يمكنني الاستغاثة بك؟

ـ نعم ولكنك تعرفينني ويمكنك النداء على في أي وقت.

ـ وقدت السيارة طول الطريق. لابد أنك خرجت على الطريق منذ الخامسة صباحًا.

ـ السادسة.

ـ يا طارق لا أعرف ماذا أقول لك.

ـ لا تقولي شيئًا. تعالى هنا دعيني أنظر إلى وجهك. تفعلين كل هذا بنفسك؟ اذهبي اشطفي وجهك بماء بارد. هل عندك كونياك؟

ـ كونياك؟ لا أتمالك نفسي من الضحك؛ سجائر مع عم أبو المعاطي وكونياك مع طارق عطية. هنا في طواسي.

ـ ماذا يُضْحِك في الكونياك؟

أشرق بالضحك وأجري إلى الحمام، أغسل وجهي وأبدأ ثانية في البكاء.. أسمع النهنهة تصدر عني كأنني طفلة. أقف منتصبة

وأتنفس بعمق؛ شهيق، زفير، شهيق، زفير. أنظر من النافذة. أغصب نفسي على التفكير في زوجته وهي ترد على التليفون.

عندما يراني خارجة من الحمام يقول:

ـ وجهك شاحب جدا. ألم تنامي بالأمس؟

ـ ليس جيدًا...

أحضر الشاي وآتي به إلى الصالة. ينظر حوله والكوب في يده يقول:

ـ كم سنة مضت منذ كنت هنا؟

ـ لا تحاول أن تحصيها.

ـ ليس عليك خوف، لن تكبري أبدا. وإزاء صمتي يستمر: حقًا. قلت لك ذلك من قبل، تزدادين جمالا كلما رأيتك. يبتسم ويضع كوبه في الصينية. يضطجع إلى الخلف مرتاحا في مقعده وقد مد ساقيه أمامه: ليتني رأيتك في المركز أمس غاضبة توبخينهم.

ـ كفي، لا بد كنت مضحكة...

ـ بل كنت رائعة، أنا متأكد...

يمد ذراعه ويمسك بساعدي فوق المرفق. يجرني إليه وعيناه تنظران في عيني لحظة بسؤال، ثم ينزل فمه على شفتيَّ ويده متشبثة في شعري. عندما ألقط نَفَسي أهمس: «ظهري!» يشدني فأركع على الأرض أمامه وينحني على، قبلته تغمر وجهي ورأسي بين راحتيه، يهمس « أمل ـ أمل» أسمع دقة على الباب فأهب واقفة على قدمي.

خضرة ورئيسة واقفتان بالباب وابتسامة كبيرة على الوجه، تحمل كل منهما صينية تغطيها فوطة بيضاء: الغدا. لكم انتم الاثنين... تبتسمان.

ـ كتر خيركم! ستتغدى في الفراندة في الشمس.

تضعان الطعام على المائدة وتسترقان النظر إليه. يسأل: الرجال بخير؟

ـ الحمد لله، والبلد فرحانه وتقبل أيديكم..

تغطي كل منهما ثغرها المبتسم بطرف طرحتها تسألان: تحتاجان شيئًا الآن؟

أقول: نعم! لا تذهبا الآن. فتختفيان في المطبخ.

يقول طارق: يا جبانة، وأهز كتفي.

يقول: ربما معك حق. نحن في الصعيد على أي حال... ويلتفت إلى الطعام: ما كل هذا؟!

ـ وليمة احتفال!

وهو يودعني عند الباب يقول: سأبيت الليلة في بيتنا هنا وأرحل في الصباح. معك رقم المحمول؟

أهز رأسي بنعم.

ـ عليك بالنوم، أول ما تفعلين الآن مباشرة. لا تشرعي في العمل أو أي شيء.

أقول: حاضر.

ـ واذكري يا أمل، لا يمكنك الاختفاء في طواسي إلى الأبد.

وهو يبتعد بسيارته تأتي المرأتان إلى الباب. تقول خضرة: الباشا عينه منك يا ست أمل...

ـ عبد الناصر ألغى الألقاب.

تطوح برأسها: الباشا باشا بلقب أو من غير لقب. والباشا ده عينه منك.

ـ ما هذا الكلام؟ أنا ست كبيرة...

ـ كذب. أنت زي القمر وأي رجل يُجن بك.

ـ أنا أعرفه من ١٠٠ سنة.

ـ الأقربون أولي بالمعروف.

ـ متزوج.

تقول رئيسة: وماله. الرجل له أربعة.

نرقب السيارة تختفي في البعد. أسأل: يعني أدخل على رجل متزوج؟

ـ ولم لا؟ ما دام مقتدر ويعيشك ويسعدك؟ ده باشا يا ست أمل ورايدك. انظري إليه: الخالق الناطق رشدي أباظة.

ـ يعني أسرق رجل من حريمه؟ أخرب بيتها؟

ـ لم يتخرب بيتها؟ هي في بيتها وانت في بيتك. وإذا لم يعجبها الحال تقول، وعندها أولادها وشقتها ونفقتها، ولا يبدو أنه بخيل...

ـ وإذا جاء زوجك أنت وقال لك إنه سيتزوج عليك، ألن تغيري كلامك؟

تضحك رئيسة: كنت أدبحه واشرب من دمه.

تضيف خضرة: المرأة الشاطرة، تخلي بالها من زوجها، تحوّط عليه.

أقول: متشكرة يا بنات على الغداء. سلم إيديكم. سأستريح الآن، وفيما بعد أحضر لكم في البلد لأسلم على عم أبو المعاطي والآخرين.

تقول خضرة: انتظري لباكر يا ست أمل، الليلة البلد مقلوبة.

ـ هذا رأيك؟

توافق رئيسة: أحسن على كل حال.

ـ عظيم! سأحضر غدا، والآن أذهب للنوم ساعة أو ساعتين.

تشيعاني بالنداء والضحكات: أحلام الهنا.

أحلم أني أتشبث بشريف باشا البارودي. أقبل وجهه وعينيه وكتفيه. أرقد بجواره على السرير الكبير في حجرة جدتي وأبكي من الارتياح لأني وجدته. يمسك بي ويسمح لي أن أقبله مستغربًا عنف مشاعري. « الحمد لله أنك لست أبي» أكرر القول. وأنا في صدره أشعر أنني وصلت أخيرًا إلى بيتي وأهلي.

أستيقظ من النوم وأنا أشعر بالخجل والوحدة المرة. أجوس خلال حجرات البيت الخالي. في القرية الرجال في بيوتهم، وطارق عطيه في بيته على بعد كيلو مترات قليلة، لكنه ليس مطلبي. أقف

أمام لوحة آنا،أنظر فيها إلى حديقتها وأرقب شريف باشا وظهره إلى يخطط ويزرع حديقة تظلل على ابنته، أوطن نفسي على العمل وأفتح أوراق آنا، آنا صديقتي التي سجلت كل هذا من أجلي، تكتب الآن عن كوبري أبو العلا، جسري المفضل الذي ينزعونه ويمزقونه إربا الآن وأنا أقرأ:

القاهرة، ١٥ أكتوبر ١٩٠٩

الوالد العزيز سير تشارلز

اليوم أول أيام العيد والاحتفال في كل مكان. عدنا لتونا من مشاهدة الجسر الجديد الرائع في بولاق، إنه بناء وتركيب يثير الدهشة والإعجاب، من تصميم مسيو إيفل وشيد في شيكاغو ثم نقل إلى هنا وأقيم عبر النيل على طرف الجزيرة المقابل للطرف الذي يقوم عليه كوبري إسماعيل، فيصل بين الحي الجديد في الجزيرة ومنطقة الميناء القديم في بولاق. وهو من الحديد ويزن ٢٠٠ طن فيما يقال، لكنه تركيب متشابك يتخلله الهواء وكأنه جسر في حكاية من حكايات الجان، وقد خرج أهل القاهرة ليشاهدوه وكما يحدث كلما تجمع الناس تصاعد الهتاف: « تحيا مصر» «يحيا الاستقلال» مما ينعش الأمل ويبهج النفس.

تتبعنا أخبار محاكمة دنجرا بتهمة اغتيال سير كيرزون ويلي، ونشرت الصحف أقواله في المحكمة وقبيل إعدامه، ولن تجد أحدا هنا لا يتعاطف معه، وقد نشرت اللواء صبيحة إعدامه رثاء جر عليها إنذارا رسميًا، وبدأ فيض من القصائد

عنه - بعضها جيد وبعضها متوسط - يجد طريقه للنشر، ويدلك هذا على قوة المشاعر المعارضة لبريطانيا هنا، وقد رأت الحكومة من المناسب أن تعيد فرض قوانين ١٨٨١ لتكميم المطبوعات، وأصبح النشر وعروض المسرح والمقالات النقدية والاجتماعات العامة كلها خاضعة للقانون الجنائي بلا استئناف، كما أن أي طالب يشارك في المظاهرات أو كتابة المقالات أو تزويد الصحف بالأخبار يفصل من دراسته. وأوقفت محاضرات السيدات أيام الجمعة في الجامعة، وبلغتنا أخبار أن جورست يعد كتابا أبيض يخول له ترحيل الناس من البلاد بدون محاكمة. كل هذا يثير هرجا واضطرابا واحتجاجا عاما.

كتب زوجي مقالا عن هذه الإجراءات أرسلت نسخة منه بالإنجليزية إلى جيمس بارنجتون، ورجائي أن تطرح الموضوع على أصدقائك في البرلمان.

صديقنا محمد فريد بك (الذي خلف مصطفى كامل في الحزب الوطني) مسرور بأحداث المؤتمر المصري الوطني وبلقائه بكير هاردي، وأملنا أن يكون أعضاء حزب العمال أكثر تعاطفا مع آمال المصريين من حزب الأحرار فيما جربنا منه حتى الآن، وقد أثار فريد بك ضجة ضخمة بكشفه في جريدة اللواء عن مخطط مد امتياز قناة السويس لمدة ٦٠ سنة أخرى مما يؤيد شكوك الكثيرين أن الحكومة قد أساءت التصرف بإنفاق جزء كبير من ميزانية الاحتياطي، وتعمل على تعويض خسائرها ببيع امتياز القناة بمبلغ ٤ ملايين جنيه

تقسط على ٤ سنوات. وقد عقد اجتماع لعدد من أعضاء الجمعية التشريعية في بيتنا منذ ليلتين، والجميع مصممون على مناهضة هذا الإجراء.

استقبلنا على العشاء في الحلمية الأسبوع الماضي كاتبا أمريكيا اسمه بنجامين جوردون، وهو يزور مصر بهدف تأليف كتاب عن اليهود في مصر وفلسطين، وكان يحمل خطابا من صديق قديم لشريف باشا في باريس وهو الأستاذ دومانج. وقد عرفه زوجي بكل من قطاوي باشا عميد الطائفة اليهودية في القاهرة وبنزايون بك وغيرهما من أعيان اليهود البارزين، ثم دعوناه هو وزوجته إلى العشاء في الحلمية. علمت عندما تحدثت معه عن مخاوفنا فيما يتعلق بفلسطين أن قطاوي باشا وزملاءه قد عبروا جميعا عن نفس المشاعر؛ الخوف أن تؤدي أنشطة المستوطنين إلى التفريق بين اليهود في جانب والمسيحيين والمسلمين في جانب آخر، وزودناه بتفاصيل عن نشاط مستر روبين في إدارة فلسطين في يافا (وهي في الواقع إدارة استعمار تنظم عملية شراء الأراضي التي يحرّم من يوم شرائها أن يتملكها غير اليهود) وعن نشاط دكتور جاكوبسون، الوكيل الصهيوني الدائم في إستامبول اليوم، وعن نقل على بك أكرم المتصرف في القدس، نِقله إلى بيروت، وغير ذلك من الموضوعات، على أنني لست متأكدة أنه يفهم بوضوح الفرق بين عائلات يهودية تهاجر للعيش في فلسطين كرعايا للدولة العثمانية، ومستوطنين مستعمرين يحتفظون بانتمائهم وولائهم لموطنهم الأصلي.

سنرسله إلى شكري بك في الناصرة على أمل أن تتضح أمامه الحقائق عندما يراها على أرض الواقع.

قرر زوجي أنه من المفيد أن أقابل الزائرين الأجانب وخاصة الناطقين بالإنجليزية، حيث إنهم جميعا يهدفون إلى التعرف على الأحوال السياسية ورأي المصريين فيها، ويري زوجي أن في إمكاننا ـ معًا ـ أن نقدم صورة صادقة لهذه الأمور، تمكنهم من الفهم ومن إعلام الرأي العام في بلادهم لأنهم في الغالب من ذوي النفوذ، وفي هذا خروج على العرف الاجتماعي الذي يفصل بين الرجال والنساء في التجمعات، ولذا نلتزم السرية ولا نقابل ضيوفنا إلا في الحلمية حتى لا يتأثر بيت الأسرة. ويقوم بالخدمة عدد من الخدم الموثوق فيهم منهم صابر الذي كان يعمل عند جيمس بارنجتون وقد أصبح عينا لزوجي وأذنا في أماكن كثيرة لأنه حافظ على علاقاته في قصر الدوبارة وبعض بيوت الأجانب.

بلغني أن كرومر ما زال يحرك الخيوط في وزارة الخارجية فيما يتعلق بمصر. هل هذا صحيح؟ وما مدى نفوذه؟ تسليت كثيرًا بحكايتك عن ليدي كرومر وكيف انضمت إلى المطالبات بحق الانتخاب في معارضة صريحة لآراء اللورد، فهو أكيد يستحق تمردًا ينشب في حصنه الخاص. أليس ظلما أن تدخل النساء في إنجلترا السجن بسبب رأيهن في السياسة؟ سيحصلن على حق الانتخاب في يوم من

الأيام لا محالة، فلماذا لا تهديهن الحكومة هذا الحق اليوم بكرم وتغني الجميع عن المشاكل؟

طواسي، ٢٢ نوفمبر ١٩٩٧

أنتظر إلى ما بعد صلاة المغرب ثم أسير على الأطراف بين حقل وحقل، ثم على جسور الطمي عبر القنوات وأدخل القرية. تنادي على النساء بالتحية والدعوة من داخل الأبواب، أرد عليهن التحية، لكني أتوجه إلى بيت عم أبو المعاطي. نجلس متقابلين على الكنبة الإسطمبولي في مندرته وأقول: حمد الله على سلامتك.

ـ بفضلك، يرد واضعا يده على قلبه. اغتسل وحلق ذقنه، يرتدي جلبابا نظيفًا من الصوف البني والشال الرمادي حول رقبته ونبوته يرقد بجانبه، عمامته بيضاء كالثلج لكن عينه مغبرة. أتحير ماذا أقول له.

ـ يا عم أبو المعاطي أنا أعرف ناس في القاهرة، منظمة صغيرة من المحامين التقدميين والصحفيين، ناس طيبين يمكن أن يرفعوا لنا قضية.

ـ ضد الحكومة؟

ـ ضد البوليس. احتجاز غير قانوني، إساءة معاملة..

ـ يا ست هانم خلّيها على الله.

ـ يا عم أبو المعاطي، ما حدث كان غلط..

ـ نعم. كان غلط لكن انتهي بفضلك.

يتململ في مجلسه في قلق. يريدني أن أتوقف عن الكلام في الموضوع. أسأله: كيف نضمن ألا يحدث مرة ثانية؟.

ـ لا أحد يستطيع أن يضمن شيئًا. هل الواحد ضامن عمره؟

ـ يا عم أبو المعاطي إذا كان كل واحد عندما يعود إلى بيته يقول الحمد لله ويسكت، ماذا يجبر الحكومة أن تتوقف عن معاملة الناس بهذه الطريقة؟

ـ وإذا لم أقل الحمد لله، أقضي ما تبقي من عمري أجري بين المحامين، وتضع الحكومة عينها على بلدنا ويصبح ثأرا. إنما الآن انتهي الموضوع، ولسنا أول ولا آخر قرية يحدث لها هذا، ولا هذه أول ولا آخر حكومة ترهب الناس.

التليفزيون في الصالة يذيع أخبار جريمة الأقصر، وأنا أغادر البيت أتوقف أمام صورة عشرات التوابيت مرصوصة على الرمال.

أسير خلال قرية تموج بالحياة العادية، الدكان الصغير يفرش ضوءه الضارب إلى الأزرق على الطريق الترابي، وأمامه يجلس رجلان في يد كل منهما نارجيلة وأطفال يلعبون على حافة الضوء. لكن هناك خارج هذه القرية، هناك رجال وشباب لا يستكينون، يغلي بهم الغضب، ويقسمون أن يثأروا لقراهم وأهلهم. عندما أفكر فيهم يتجمد الدم في عروقي، أضم قبضتي في جيوب معطفي، أطأطئ رأسي وأسرع إلى بيتي.

يدق الهاتف وأنا أفتح الباب، أندفع جريا إلى الداخل وأصل إلى التليفون قبل الجرس الثالث، لعبة قديمة ألعبها باستمرار. أسمع التليفون يرن وتخطر في رأسي فكرة، إذا لم أصل قبل ثالث جرس

سيحدث شيء للأطفال، وأندفع إلى الأمام وأنا أؤنب نفسي لأني أفكر في الشر في محيطهم وأجرجر سلامتهم في ألعابي الغبية.

ـ آلو؟

ـ ست أمل؟

ـ عم مدني؟

ـ كيف حالك يا ست؟ ازي صحتك؟ صوته يزعق في أذني، أمسك السماعة بعيدة قليلا عن أذني: الحمد لله. ازيكم يا عم مدني؟ كيف حال أولادك وازي أمهم؟

ـ قامت بالسلامة الحمد لله. جابت لنا بنت.

ـ ألف مبروك يا عم مدني. البنات خير. البنات حنينين. قلوبهم فيها رحمة.

ـ معلوم.

ـ وسمتوها إيه؟

ـ حنان.. ويضحك.

ـ يجعل قدومها قدم السعد عليكم إن شاء الله.

(٢٧)

يشهد الله أنني لم أفعل إلا الخير لبلدي

بطرس غالي باشا

٢٠ فبراير ١٩١٠

ما أتعس الأحداث التي أصابتنا هنا.

المسكين بطرس غالي باشا قتل، وإبراهيم الورداني سيعدم بالتأكيد، وأقصي ما يأمل فيه الدفاع هو إثبات أن جراحة ميلتون بك هي المسئولة عن وفاة رئيس الوزراء وليس رصاص الورداني، وبذلك ينجحون في تخفيف الحكم، والأمل ضعيف على أي حال. ألقى القبض على حسني وعدد من رجال الحزب الوطني ثم أطلق سراحهم، وفتشت بيوتهم جميعا، لكن الورداني صامد في موقفه ومصر على إنكار اشتراك أي شخص معه، وعلى أنه ارتكب جريمته لمصلحة مصر. قال إن بطرس باشا خائن والدليل على ذلك توقيعه على اتفاقية السودان في عام ١٨٩٩ ورئاسته لهيئة المحكمة في محاكمات دنشواي، ويدينه بسبب إجراءات القمع من جانب الحكومة طوال العام الماضي، ولمساندته لمشروع مد امتياز قناة السويس، وكلها أعمال مسئول عنها رئيس الوزراء اسميا، لأنه اختار الخدمة العامة والعمل في حكومة مكبلة ومقيدة. كان زوجي يعرفه جيدا ورأيه يقينا أن الرجل لم يكن خائنا وأن المشروعات التي وضعها للإصلاح الضريبي في الثمانينيات مثال للحصافة مع الإنسانية، إلا أنه كان مسالما بطبعه ويهاب سطوة الإنجليز، فكان كرومر يدفعه إلى المقدمة في كل أزمة، وسار جورست على نفس

المنوال، وسيجعل منه اليوم شهيدا قبطيا، ولم يرد ذكر الدين مرة واحدة على لسان الورداني بل كان حديثه عن السياسة وحدها. وهو شاب بارع وصادق، يتيم رباه عمه، وتلقي تعليمه في لوزان ولندن، وعمل سكرتيرا للمؤتمر القومي في جنيف في العام الماضي. يملك صيدلية قرب مركز البوليس في عابدين، وكان بالغ النشاط في حركة النقابات العمالية، يا ألف خسارة كما يقول زوجي، فقد فقدت مصر رجلين وفقدهما يشكل خسارة جسيمة. إن كلمات بطرس باشا الأخيرة تقطع القلب خاصة وأننا نعتقد أنه كان يعني ما قال حقا.

في فبراير ١٩١٠ بعد اغتيال بطرس باشا غالي كُلّف محمد سعيد باشا برئاسة الوزارة، وبعد أيام دعا أخي للحضور إلى مكتبه، اعتذر أخي واقترح أن يتم اللقاء في النادي أو في بيت أحد أصدقائهما المشتركين. التقيا في بيت إسماعيل باشا صبري ودعا رئيس الوزراء أخي للانضمام إلى الوزارة وعرض عليه وزارة الحقانية، وشكر له آبيه شريف تشريفه بهذا العرض لكنه اعتذر، فطالما أن المستشار البريطاني للوزارة موجود وجيش الاحتلال يسند المستشار لا يمكن أن يقبل العمل في الحكومة، وكان رأيي وقتها إنه على حق في رفضه، لكن حسني بك عبر لي عن شكوكه وقال إن الرجل الذي يقف وحده رافضا الانضمام إلى أي تجمع رجل بلا غطاء. ووصل إلى علمنا أن محمد فريد بك رفض الوزارة بدوره، وفي العام التالي حكم عليه بالحبس ستة أشهر لكتابته مقدمة لديوان الغاياتي، ثم نفي من البلاد ومات في المنفي.

في نفس الوقت كان أخي في أوائل ١٩١٠ يعمل بلا كلل ليقوي عزم الجمعية التشريعية ضد قرار مد امتياز قناة السويس، ولولا جهوده وجهود إسماعيل باشا أباظة ومحمد فريد بك لمر الموضوع بدون معارضة، وقد رفضت الجمعية قرار المد.

تدفقت المظاهرات في القاهرة والإسكندرية والمحافظات تأييدا لقرار الجمعية، وكان أملنا أن يعزز هذا النصر جهود العديد من أعيان الأقباط والمسلمين ممن يعملون على تقوية الوحدة الوطنية في بلادنا في مواجهة اغتيال بطرس باشا. لم يسعد إلدون جورست بقرار الجمعية بطبيعة الحال، وقيل وقتها إنه يود أن يترك منصبه في مصر لكن جراي لا يجد من يحل محله مما بعث الأمل في نفوسنا، وفي جو من التفاؤل الحذر سمعنا بالزيارة المنتظرة للكولونيل روزفلت رئيس الولايات المتحدة سابقا.

القاهرة، ٢٢ يونيو ١٩١٠

الوالد العزيز سير شارلز

لم ندهش بالمرة لتقريرك عن خطاب مستر روزفلت عن مصر في دار المحافظة في لندن. كان الخطاب الذي ألقاه هنا في شهر مارس مهينا على نفس المنوال، وزد على ذلك أنه جاء بناء على دعوة منا وأنه ألقى خطابه هذا في الجامعة. كانت الآمال معقودة عليه لأن الأمة التي ينتمي إليها تمثل الديمقراطية والحرية، ولم تلطخ يديها في مشاريع استعمارية (للآن على أي حال). على أنه بلغت أسماع

عدد من المسئولين هنا بعض ملاحظات قيل إنه أدلي بها في الخرطوم مما دعا الأمير أحمد فؤاد باشا رئيس مجلس الجامعة أن يزوره في فندق شبرد ليذكره أن لوائح الجامعة تحرم الخطابة والمناقشات السياسية في قاعات الجامعة، فأكد مستر روزفلت للأمير أنه لا ينوي مناقشة أمور السياسة في الجامعة، وإذا به في حضور قاعة مكتظة بالصفوة من المصريين يبلغهم أن أمامهم أجيالا قبل أن يتعلموا حكم أنفسهم، ويؤنبهم بتهمة التعصب الديني! ولك أن تتصور الهياج الذي أثارته هذه العبارات، فحتي الصحف التي يصدرها الأجانب المقيمون في مصر مثل جورنال ديجيبت، وريفورم ثارت تطالبه بالاعتذار، فمن المهم عندهم ألا تبدو صورة مصر وكأنها في حالة من الفوضي لما قد يصيب تجارتهم وأشغالهم من أضرار. وعقد الحزب الوطني اجتماعا كبيرا في نفس اليوم، وسارت مظاهرة من قرابة ألف شخص إلى فندق شبرد يلوحون بالأعلام المصرية ويهتفون: «يسقط المنافقون» و«يحيا الدستور»، وفي اليوم التالي عقد حزب الأمة اجتماعا في واحدة من أكبر قاعات السينماتوغراف، وفي خطابه ذكر أحمد بك لطفي السيد مستر روزفلت أن مصر نضجت وبلغت سن الرشد منذ آلاف السنين قبل أن تظهر أمريكا في الوجود! والأمر على العموم مؤسف إذ يسبب خيبة أمل جديدة للمصريين ويثبت ما أصبحنا نعرفه من أن الناس في الغرب يعتنقون منظومة من القيم عزيزة عليهم وينكرونها على أشقائهم في الشرق،

وهذا الدرس القاسي يصعب أن يتعلمه قوم قرءوا فلاسفتنا في السنوات المائة الأخيرة وأعجبوا بمؤسساتنا ويطمحون إلى تأسيس نظام حكم على غرار نظامنا، وموقف الغرب هذا يشد أزر من ينادون بالانصراف تماما عن الغرب والتطلع إلى أمثلة الماضي وأيام الخلافة الذهبية، وأنت نفسك قلت ان خير حل لمصر اليوم هو التمسك برابطتها بتركيا على أمل أن تكون من القوة بحيث تقاوم مخططات أوروبا. إن وصفك لخطاب جراي في مجلس العموم تعقيبًا على خطاب روزفلت وإعلانه التراجع عن خطة الوفاق والمصالحة التي طبقت لمدة ثلاث سنوات ونصف، والإعلان صراحة عن فرض سياسة الإكراه في مصر يجمد الدم في عروقي، ولم ينطق نائب واحد من الراديكاليين بكلمة في صف مصر. أعلم أن جورست محبط، لكن بالله ماذا كانوا يتوقعون؟ أليست النهاية الوحيدة الممكنة لسياسة المصالحة هي منح الدستور والتصريح بقيام حكومة نيابية؟ إن جورست يعرف مشاعر المصريين وقد أقنع عددا منهم أنه صديق لهم وأنه متعاطف مع قضيتهم أكثر من كرومر، ومن الطبيعي أنهم شكلوا أحزابا سياسية، وارتفع صوت الصحافة بما يطالب به الجميع وهو إنهاء الاحتلال. والعجيب أن جورست ووزارة الخارجية يتصرفون وكأن المصريين خانوا ثقتهم، وكأنهم تخيلوا أن المصريين يسعدهم أن تتفضل الحكومة الإنجليزية عليهم وتسمح لهم أن يلعبوا لعبة البرلمان، وخاب أملهم أن المصريين مازالوا يطالبونهم بالجلاء! ولن

يدهشني أن يتضح أن هناك اتفاقا بين روزفلت وجراي، وأن خطاب روزفلت وضع خصيصا ليمكن جراي من تطبيق نظام الاعتقالات والطرد من البلاد على طريقتهم في الهند. وعلي حد قولك روزفلت هو السياسي الأجنبي الوحيد الذي يعجب جراي، لأنه يستطيع الكلام معه باللغة الإنجليزية.

وضعت توصية جون ديلون أمام زوجي وهو يشكرك ويوافق على ما فيها من حكمة، وقد ذهب الليلة ليقابل إسماعيل باشا أباظة وسيقترح عليه أن تحتج الجمعية علنا على قوانين القمع والإكراه التي تمرر من فوق رءوسهم، ويقال إن الخديو غاضب بسبب الأوامر والقوانين التي يصدرونها باسمه، ولعله يتبنى القضية الوطنية بعد وفاة الملك الذي كان يعتبره صديقه، وأملنا اليوم معقود على ديلون وكير هاردي فليس لنا من يؤيدنا غيرهم في مجلس العموم.

سننتقل إلى أبو قير على الساحل الشمالي لقضاء فترة الصيف، فزوجي مرهق بالعمل وقلما يجد وقتًا يقضيه مع نور الصغيرة، وهي تتأثر كثيرا لغيابه بالرغم من أن لديها أحمد (وقد شب وأصبح صبيًا في العاشرة ختم حفظ القرآن كاملا، ويكشف عن عبقرية مؤكدة في عزف البيانو).

طوال تعاملي مع هذه القصة لم أفلح في التعرف على أبي في الطفل الذي تصفه كل من آنا وليلي، والآن فجأة أتعرف عليه « لقد

ختم حفظ القرآن كاملا» كان يستمتع بترتيل آيات من القرآن الكريم لنفسه بصوت خفيض وهو يعمل في الحديقة هنا في طواسي، لكني لم أره يوما يلمس البيانو القائم في حجرة الاستقبال في بيتنا في الحلمية، وقد عادت إلى ذاكرتي اليوم نظرات الزهو مع الأسي المرتسمة على وجهه وهو ينصت إلى عمر يعزف لنا في زياراته المتقطعة عائدا من الولايات المتحدة. واليوم أنظر إلى صورته على الجدار هنا في الصالة واقفا خلف والدته ينظر مباشرة إلى الكاميرا. كيف تصور يومها مصيره؟

بالرغم من أن لديها أحمد ومحروس يلعبان معها، وشريف باشا يتأثر أكثر منها، فهو يعي دوما مضى الأيام وبشكل بالغ الحساسية، ففي ليلة قريبة طلب مني أن أعده أن أعود إلى إنجلترا وآخذ نور معي إذا وافته المنية قبل أن تشب ابنته وتختار طريقا تسير عليه ثابتة في أمان، وقلت له لن يحدث هذا فها هو بارودي بك في الخامسة والسبعين وصحته على ما يرام مع أن بنيانه أضعف بكثير من بنيان ابنه، لكنه كان جادا في حديثه إذ قال إن حياتها هنا ستكون صعبة إذا لم يكن هو بجانبها ييسر طريقها ويمهده. لم أجادله في الموضوع، فلم يخرج الأمر عن مجرد نقاش نظري، لكنني قررت أن نذهب إلى المصيف بعيدا عن السياسة والجواسيس وكل ما يكدر حياتنا في القاهرة، وسيفيده البحر وركوب الخيل وبناء قلاع من الرمل على الشاطئ مع نور فتنقشع عنه الأفكار السوداء.

كونتكت، فبراير ١٩٩٨

ترفع إيزابل عينيها فتبصر، فيما وراء المنضدة والشباك، الحديقة والأشجار رمادية في ضباب الصباح الباكر. ترتجف من البرد وقد سقط الشال عن كتفيها. تتحسس خلف ظهرها وتجر طياته وتشدها على ذراعيها العاريتين وعلي صدرها. ترتجف ثانية فتحكم طيات الشال حولها، تمسك أطرافه بيد وباليد الأخرى تخلع نظارتها وتدفع الشعر بعيدا عن وجهها، تضع النظارة على المائدة وتقوم واقفة. تسمع حركة ردا على حركتها من خارج النافذة؛ يتمطي جسم رمادي ويقوم واقفا، ويتجه بلا صوت إلى الباب:

«أوكي ياهني، هني هني...»

تردد له وهي تفتح الباب، لا تستطيع الانحناء بسهولة الآن لكنها تقعي أمام الكلب وتدعه يحك أنفه المبتل في باطن يدها.

ـ تريد الإفطار؟ الإفطار؟ تهمس وهي تمسك أذنيه وتدفع رأسه إلى الخلف. تقول: نعم، نعم أنا أيضًا أفتقده.

وخلفها على المائدة ٧ خطابات غرامية منثورة.

طواسي، بعد ساعة

قالت: كنت في حاجة للحديث معك.

ـ أنا هنا.

ـ تسلمت آخر مجموعة من أوراق أمي، المجموعة المحفوظةِ في البنك.

ـ نعم؟

ـ رسائله فيها وقد قرأتها.

ـ رسائل من؟ أتساءل حتى وأنا أستعيد جلسته أمامي إلى المائدة في مطعم زفيريون وأسمعه يقول: تعرفين. خطابات شاب مهووس.

ـ رسائل عمر. إلى أمي.

ـ آه.

ـ كان واقعا في حبها.

ـ كنت تعرفين ذلك يا إيزابل.

ـ أعلم.

صوتها خال من التعبير.

ـ فماذا حدث إذن؟

ـ الأمر يختلف عندما تقرئين الخطابات فعلا.

ـ كتبها منذ ٣٥ سنة.

ـ لكنها احتفظت بها. كانت تتحدث عنه قبل وفاتها.

الحمد لله أنه أخبرها، لو لم يخبرها ثم تسلمت هذه الرسائل...

ـ بدني يقشعر من هذا البيت، وحدي في بيته مع هذه الرسائل.

ـ اتركي البيت إذن. ليس هناك ما يضطرك إلى البقاء. كم الساعة عندك الآن؟ يا خبر! الخامسة صباحًا؟ ماذا أيقظك الآن؟

ـ لم أستطع النوم. تسلمتها بعد ظهر أمس.

ـ إيزابل، أنت حامل وفي حاجة إلى الراحة.

ـ أعرف، أعرف، اسمعي. كيف تسير الأمور عندكم؟

ـ أروي صالح ماتت. تخرج الكلمات من فمي ولا أستطيع التوقف: أروي صالح. هل تذكرينها؟

ـ نعم! المرأة الجميلة التي قابلناها في الأتلييه. ماتت؟

ـ انتحرت. نشرت كتابا صغيرا عن اليأس من كل شيء ثم قتلت نفسها.

صعقني الخبر وما زلت مذهولة لعنف فعلها وتصميمها. صعدت إلى سطح المبني وألقت بنفسها فهوت إلى الرصيف.

ـ ما أفظع هذا!

نصمت وتمر الدقائق ويخيل لي أني أسمع تكلفتها من دولارات. نعم فظيع. ثم أقول: ربما لو كان عندها أطفال...

ـ نعم. توافق إيزابل على كلامي.

أبو قير، أغسطس ١٩١٠

عدنا إلى زمن الطفولة فلا جرائد ولا حديث في السياسة، ولا يشغلنا اليوم إلا سؤال هل نعود إلى القاهرة قبل بداية صيام رمضان أم ننتظر حتى نقترب من العيد؟ نسبح في البحر ونشيد قصورا من الرمال ونجمع المحار والأحجار

التي صقلها البحر، ونجري وراء الكرة ونلعب الورق، وقد برع محروس في لعبة الشايب ونور تلعب البصرة بشكل مقبول وقد شغفت بالسبعة الكومي بالذات، وتغمرها السعادة عندما تتسلمها ممن يفرق الورق، حتى إننا نعمل على تسريب هذه الورقة إلى أوراقها لنسعد بسماع ضحكتها الظافرة عندما تكتشفها.

بارودي بك رفض أن يغادر البيت في القاهرة، واغتم عندما حاولت حسناء أن تحزم لي النول حتى أمرتها أن تتركه في مكانه، لعله يشعر أن بقاء النول هناك ضمان لعودتنا إلى البيت. تم افتتاح مدرسة الفنون الجميلة منذ سنتين وقد فرغت من نصف المقطع الثالث من لوحتي النسجية!

ليلي وزينب هانم تتناوبان الحضور إلى أبو قير، حسني بك يحضر كلما استطاع، لكن أحمد باق معنا طول الوقت، وقد استقدمنا بيانو صغيرًا من أجله، وعندما تكون ليلي هنا نعزف ونغني ونستمتع بموسيقي من الطراز الأول، وقد اكتشفت بعد خمس سنوات من الزواج أن لزوجي صوتا رائعا من طبقة الباريتون وأنه شغوف بالدراما؛ وإن كان يدفع عنه التهمة بالتظاهر بالسخرية.

نقرأ روايات ونتمهل ونحن نرقب غروب الشمس، وفيما بعد عندما ينام جميع من في البيت، ونوافذنا العالية مفتوحة لهواء البحر نقضي معا أحلى ساعات في هذه الأيام

الرائعة، وفي أثناء النهار عندما أرقبه خارجا من البحر تحت نار الشمس ونور على كتفيه وأحمد ومحروس إلى جانبيه ينبض قلبي بألم لذيذ حبا في كل بوصة من جسده.

طواسي، مارس ١٩٩٨

يظهر طارق عطية على بابي. يقول: كنت مخطئا. تستطيعين فعلا الاختفاء في طواسي إلى الأبد. لكن لا تفعلي يا أمل، خسارة.

أقول: تفضل، ادخل. لعلي لا أظهر كم أنا سعيدة لرؤيته.

ـ تقرئين الصحف على الكمبيوتر؟ ياه طواسي تحضرت!

أصوب إليه نظرة لوم وأقول: طواسي طول عمرها متحضرة!

يقول: كانت نكتة! نكتة. ينظر إلى الشاشة ويحركها ليتابع الأخبار عليها: تعرفين كل ما حدث إذن، قامت ثورة ضد السفير الأمريكي.

أقول حسنا. يستاهل، أول ما يصرح به عند وصوله هنا أن اتفاقيات منظمة التجارة العالمية يمكن تنفيذها ضد صناعة الدواء عندنا بدون انتظار نهاية فترة السماح!

ـ لم يقل ذلك بالضبط.

ـ ثم يجري مقابلات مع الإسلاميين في الوقت الذي يتهمنا الكونجرس بالتمييز ضد الأقباط، والإدارة الأمريكية تخطط للعودة لقصف العراق.

ـ مالك معبأة ضدهم هكذا؟

تدخل خضرة حاملة صينية الشاي، تلقي بطرف الطرحة على يدها قبل أن تسلم على طارق:

ـ مرحب يا باشا، نورت البلد.

ـ منوّرة بأهلها يا ست خضرة. كيف حالك وحال الجميع؟

ـ الحمد لله. يقبلون يديك ويذكرونك بالدعوات.

ـ لم يضايقكم أحد؟

تضحك: لا يجرؤ أحد أن يأتي ناحيتنا.

ـ وكيف المدرسة؟

ـ شغالة وشبانك تمام، آخر تمام.

ـ والأولاد مهتمون بالمذاكرة؟

ـ مذاكرة على الآخر يا باشا.

ـ عظيم، قولي لهم يتشطروا، البلد محتاجة ناس ينموها.

ـ نقول لهم يا باشا. تحتاجوا شيء ثاني؟

ـ لا! شكرا. لكن سأحتاجك بعد قليل.

تقول: أنا باقية.

بعد ذهابها وأنا أصب له الشاي يقول طارق: والآن خبريني إلى متى تظلين هنا؟ بجد.

ـ سأبقي حتى أنتهى من ـ أنتهى من العمل الذي بدأته.

ـ تلك الأوراق، أوراق جدتك؟

ـ نعم.

ـ هل القصة جيدة؟

ـ نعم! أظن ذلك.

ـ إلى متى؟

ـ لا أعرف. أنا أحب البيت هنا. أنا مرتاحة هنا.

ـ ولم بالذات؟

أنظر إليه: في القاهرة أنا في شقتي وتدور حولي الأحداث المهمة وأشعر أن على أن أفعل شيئًا بشأنها لكني لا أستطيع. هنا الأمور مقدور عليها.. قل لي إذن إنني ساذجة.

ـ واحة صغيرة، جزيرة من الثبات في بحر التغيرات، أهذا ما ترين؟ يضطجع في مجلسه وينظر إلى مبتسما.

أسأله: هل ذهبت إلى ضيعتك؟.

ـ نعم.

ـ ماذا قررت في أمرها؟

ـ لم أنته بعد من التفكير.

ـ طارق، هل يمكن أن تطرد الفلاحين من الأرض؟

ـ نعم، وأحرق محصولهم كذلك.

ـ هل أنت جاد؟

يهب من جلسته في ضيق: لا لست جادا. لكنك تجزعين لكل شيء، إذا كانت زراعة الأرض ستستمر لا بد أن تدر ربحا.

ـ صحيح! لكن ألا يمكن أن تكتفي بربح قليل؟ لماذا تضطر إلى

زيادة الربح باستمرار، أنا لا أفهم ذلك الكلام عن النمو المستمر. لا يمكن أن يستمر النمو إلى مالا نهاية...

ـ اسمعي! سأعقد معك صفقة، لن أستأجر أبناء عمنا إذا جئت معي إلى اليونان لمدة أسبوع.

ـ ماذا؟

ينظر إلي.

ـ انفلق أنت وأرضك. اربطها بشريط وسلمها للإسرائيليين بلا مقابل إذا شئت.

يقول: أنت جميلة.

ـ كفي من فضلك.

ـ بصدق. اسمعي. لم أحضر هنا لأتشاجر معك. لن أستأجرهم إذا كان الأمر يزعجك لهذه الدرجة، سأجد غيرهم. أمل؟ ما رأيك؟ عيناه تنطقان في رقة: حضرت لأطمئن عليك ولأري إذا كنت تحتاجين شيئًا، ولأنك أوحشتيني...

ينحني إلى الأمام ويمد يده: هل نظل أصدقاء؟ وإذ ترددت يقول: لا تخشي شيئًا. أعرف أن خضرة في المطبخ.

القاهرة، أول أكتوبر ١٩١٠

الوالد العزيز سير تشارلز

عدنا من «أبو قير» وقد اسمرت بشرتنا واكتملت صحتنا وتجدد نشاطنا. إنها بقعة بديعة الجمال، رمالها بيضاء وماء

البحر فيها صاف حتى تستطيع أن تري الخط الفاصل بين درجات اللون من الأخضر الفاتح بجوار الرمل إلى الأزرق العميق على البعد.

قضينا شهر رمضان بأكملة هناك، كان ممتعا حقا أن نجلس إلى مائدة الإفطار البسيط والشمس تتم سقوطها في البحر، وتذكرت تلك الرحلة إلى سيناء التي قمت بها منذ سنوات طويلة، والحياة لصق الطبيعة التي تتحكم في كل ما نفعل، دقيقة تمر يشعر بها الإنسان في كيانه بدلا من أن يحاول استغلالها.

فكرت فيك كثيرا وبدا لي أن الهدوء والهواء الصحي لا بد أن يفيداك، ولا زلت أتمني أن نقنعك بالحضور.

أفكر في آنا وما أكثر ما تمنت أن تجمع كل من تحبهم تحت سقف واحد. مضى عليها قرابة عشر سنوات وهي مندمجة في حياتها المصرية، لكنها في عدد من رسائلها الأولى إلى كارولاين بورك كررت الدعوة، إلى سير تشارلز تتردد الدعوة في كل خطاب تقريبا. هنا في طواسي أتأمل حياتي في إنجلترا، وأتساءل هل كانت آنا في مصر في حاجة لأن تربط حياتها الجديدة بحياتها السابقة؟ فحتي تصبح حقيقة واقعة كان ينقصها أن يشهدها من تعرفه وتجله منذ أيامها الباكرة؟ آنا نفسها لا تذكر شيئًا من ذلك ولا حتى بإشارة لا في مفكرتها ولا في رسائلها. في مصر التقت برجل استطاعت أن تحبه وتزوجته وأنجبت ابنته، ووجدت مكانها بين أفراد أسرته،

كما وجدت قضية تبنتها، لكنها لا تتحدث لغتها، ولا تلتقي بأهل بلدها، وهم من جانبهم لا يستطيعون، بل يرفضون لقاءها. هل يلقي هذا بظلال الشك على هذه الحياة؟ فلعلها مؤقته، مرهونة بظروفها. وهل يفسر هذا حماسها لقضية مصر ومتابعتها لها بلا هوادة؟

القاهرة في ١٦ نوفمبر ١٩١٠

عزيزي چيمس

وصلنا حديثًا كتاب مستر روثشين (خراب مصر)، وهو كتاب ممتاز يكشف عن فهم تام للأمور هنا في مصر، ولعل مناقشته موضوع أرض الدلتا وتخريبها بالإكثار من الري تسكت المديح الفج لسياسة كرومر في مجال الأشغال العامة. سنكلف من يترجمه إلى العربية، وحتي إذا لم يرد في محتوياته أي جديد لا يعرفه المصريون فعلي الأقل يذكرهم أن ليس كل الإنجليز أعداءهم، وقد شجعنا إعلان كير هاردي تأييده للجلاء والثورة في مؤتمر بروكسل، لكن بقي أن نري إذا كان سيتبني القضية المصرية في مجلس العموم.

شكري بك العسلي مشغول في حملة كبيرة يشنها في فلسطين للحيلولة دون بيع ٢٤٠٠ فدان من أجود الأطيان مجاورة لضياعه في الناصرة وجنين حتى لا تشتريها شركة تنمية الأرض بفلسطين، والبائع، إلياس سرسق، مسيحي سوري صديق للمتصرف في بيروت الذي يملك الولاية

القضائية على كل المنطقة، ونتيجة لهذا أغار البوليس على بيت شكري بك أكثر من مرة.

الحمد لله أن غارات البوليس على البيوت ليست من التجارب التي تعرضت لها، وقد اختار زوجي ألا يباشر عضويته في الحزب الوطني ولذا لم نتعرض للاعتقال وتفتيش البيوت كما يحدث لأصدقائنا من الأعضاء، فأي اعتداء على بيتنا لا بد أن يكون لسبب محدد، وشريف باشا دقيق في الالتزام بالقانون في كل تصرفاته ـ والقانون ما زال يحكم في مصر ـ ولذا أعتقد أننا في أمان من هذه الناحية.

عزيزي چيمس

أقرأ خطابي هذا وأعجب ـ برهة ـ لنفسي وللمشوار الطويل الذي قطعته منذ تلك الأيام الهادئة في إنجلترا، وأتساءل ماذا لو أن إدوارد لم يذهب إلى السودان؟ ولو أن سير تشارلز لم يحضر إلى مصر عام ٨٢ وأثار اهتمامي بما كان يحكيه عنها؟ إلى أي مدى يتعلق مصيرنا في الحياة بحياة الآخرين وأعمالهم الماضية؟ على أني لن أثقل عليك بهذه الأفكار، فهي أنسب لدردشة بجانب المدفأة، وليس من المحتمل أن ننعم بمثل هذا قريبا، بالرغم من أن الأمل ما زال يحدوني ألا تخيب جهود زوجي وعمل الآخرين، وأن مضاعفة جهودنا مرات ومرات ستؤدي بنا حقا إلى يوم نتنفس جميعا فيه نسيم الحرية.

عندما ترفع آنا عينيها عن الخطاب أرى مبروكة تدخل الحرملك. تصيح مؤنبة:

ـ ستصيبين نفسك بالعمي بسبب هذه الكتابة...

وتكرر وهي تهز إصبعا محذرة: «العمي!» ثم تكمل: الشر بره وبعيد. ما فائدة كل هذا العلم؟ أنت وست ليلي تكتبان بلا نهاية. هل الكتابة تؤكل أو تشرب؟ هل تربي الأطفال أو تزرع الفرح في قلب أحد؟.

في نفس الوقت زاد قلقنا بسبب الموقف في الأراضي المقدسة. كان انتصار اليابان على روسيا في ١٩٠٥ ـ وهو نصر فرحت له مصر وبلاد العرب عموما إذ بين أن دولة شرقية قادرة على صد هجمات دولة أوروبية ـ ذلك النصر أو بالأحري هزيمة روسيا وماتلي ذلك من اضطهاد تسبب في خروج موجة كبيرة من حوالي مائة ألف من اليهود الروس نزلوا إلى فلسطين، وبالرغم من أن نصفهم رحل إلا أن النصف الباقي (خمسين ألفا) كانوا في حاجة إلى أرض للاستيطان، وبعد وفاة هرتزل كانت القيادة الصهيونية أكثر شبابا وعدوانية. أعلن وايزمان أن على الصهاينة أن يستمروا في عرض قضيتهم على العالم، إلا أن الميثاق الذي يطالبون به لن يساوي شيئا إذا لم يستوطنوا مساحات كبيرة من الأرض، وستقوم سياستهم على الهجرة والاستيطان وتلقين شعبهم بمبادئهم وأفكارهم. وكان أصدقاؤنا وأهلنا في فلسطين يعيشون وسط كل هذا، وقد قاوموا كل حالة من نقل ملكية الأرض، لكن القرار دائما بيد الحكومة في إستامبول وكان الأتراك في حاجة إلى المال. قرب نهاية عام ١٩١٠ عندما ثار أهل حوران ضد الأتراك وكانوا يشكون من الامتيازات الأجنبية ومن فشل الحكومة

في حمايتهم ضد أنشطة الصهاينة، أرسلت الحكومة التركية سامي باشا الفاروقي ليخمد ثورتهم فكتب قريبنا شكري بك العسلي خطابا مفتوحا إلى سامي باشا شرح له كيف يستهدف مكتب فلسطين أجود الأراضي ويرتب لشرائها خلال شركة تنمية الأراضي لصالح المستوطنين، بتمويل قرض من شركة الصرافة الأنجلو لفانتاين بسعر فائدة واحد في المائة، وكيف أن شرط الشراء أن الأرض لا تباع ولا تؤجر لمسلم أو مسيحي، وشرح فيه أن المستوطنين لا يخالطون الأهالي أو يشترون منهم بضاعة بل يؤسسون في كل قرية ومستوطنة لجنة مركزية ومدرسة، وكتب أنهم يرفعون علما خاصا بهم ولديهم نشيدهم الوطني وخدمتهم البريدية خاصة بهم، لا يصبحون رعايا للدولة العثمانية بل يتجهون إلى قناصلهم في جميع شئونهم، يعلمون أطفالهم فنون الحرب ويملئون بيوتهم بالسلاح وبنادق مارتيني، فهل من المستغرب أن القرويين خائفون والأعيان منزعجون؟

ترجمت هذا الخطاب إلى الفرنسية وترجمته آنا إلى الإنجليزية وأرفقنا به مقدمة كتبها أخي وأرسلناه إلى مستر جيمس بارنجتون ليعمل على نشره في الغرب.

طواسي في مارس ١٩٩٨

تلقيت رسالة على الإنترنت من إيزابل:

أمل، هالو

عن تلك الخطابات، لا تقلقي سأكون بخير. يا إلهي لا

بد أن صوتي كان يدل على أني في حالة سيئة جدا. اختلط الأمر على قرأتها مرات ومرات وأشعر وكأنها كتبت لي. هل يبدو كلامي جنونا؟ إذا كان من الممكن أن يتراسل الناس عبر المسافات فلماذا لا يتراسلون عبر الزمن كذلك؟ وعلي أي حال كانت هي أمي، لكنه ليس أبي، أنا متأكدة تماما من هذا، أعرف أن جوناثان كان أبي. اقترحت أن نجري تحليل دي إن إيه، لكن عمر لا يريد، وأنا شخصيًا مقتنعة.

أفتقدك كثيرًا يا أمل وليتني أجلس معك في شرفة شقتك ونتحدث كما كنا نفعل، إنه لظرف منك وكرم أن تحفظي لي أغراضي طول هذه المدة ولك مطلق الحرية أن تنقليها إذا احتجت، على أني أحب التفكير في أشيائي هناك عندك في شقتك في القاهرة في انتظار عودتي.

كيف تسير أحوال آنا؟ لا تخبريني. سننتظر حتى تحكي لي كل شيء بعد أن نعود إلى شرفتك، والشراب المثلج في أيدينا، وتليفزيون جيرانك يضوي بلا توقف. أخبري دينا أني حزنت جدا لخبر أروي صالح.

١٨ نوفمبر

سمعنا للتو خبر وفاة تولستوي، لقد عاش عمرا طويلا وحقق كل ما يأمل الإنسان أن يحققه، إلا أن موته يحزنني، لقد وجدت في «آنا كارنينا» و«الحرب والسلام» من المتعة أكثر من أي رواية قرأتها.

(٢٨)

تتضح اليوم في دولة تركيا في آسيا ظاهرتان على جانب كبير من الأهمية و إن لم تلفتا الأنظار بعد، ظاهرتان من طبيعة واحدة وإن تعارضت بينهما الأهداف. إن حركة اليقظة في الأمة العربية وحركة اليهود الكامنة لإعادة بناء مملكة إسرائيل القديمة على قطاع كبير من الأرض هناك، لا مناص لهما من صدام مستمر حتى تتغلب إحداهما على الأخري.

ويتوقف مصير العالم أجمع على ما يسفر عنه هذا الصراع بين شعبين يمثلان مصلحتين متضادتين.

نجيب عازوري، باريس ١٩٠٥

القاهرة في ٢٠ أكتوبر ١٩١١

يقول شكري بك:

ـ إن مصير المنطقة كلها واحد، نقوم معا أو نسقط معا. عمر طوسون على حق إذ يدعو للتطوع لمحاربة الطليان في ليبيا. وها هم الليبيون يستنجدون بنا.

يقول يعقوب أرتين باشا: كتشنر لن يسمح لهم بالذهاب. سيجد طريقة يمنعهم بها.

يتحلق الأصدقاء حول موقد أسود يشع حرارة، على الثقوب المتوهجة في سطحه يرص يعقوب أرتين عددا من حبات الكستناء. هم أكبر سنا مما كانوا في بداية هذه القصة منذ عشر سنوات، زاد وزن يعقوب أرتين قليلا لكنه أنيق مهندم كعهده دائما. ما زال كل من شكري العسلي وشريف البارودي طويل القامة عريض الكتفين، لكن مزيدا من الشيب يخالط سواد شعرهما، وقد زادت التجاعيد في الوجه وعلي الجبهة بالذات وضوحا. شكري بك اليوم هو الذي يشع بالطاقة العصبية والغضب مقارنة بصاحبه. ينخسه:

ـ لم تقل شيئًا طول المساء يا شريف باشا.

ـ يعقوب باشا على حق: الأمور كلها مرتبة ومتفق عليها منذ الوفاق الودي.

يعقوب أرتين: فرنسا تأخذ المغرب، وليبيا هي الثمن تتقاضاه إيطاليا. روسيا وألمانيا تقتسمان إيران، ولبريطانيا الجائزة الكبرى: مصر. هذا إلى جانب أنها تسلح العرب في سينا.

شكري بك: ونحن يلقون بنا للصهاينة!

ـ ليس بالضرورة. ألم تكسب لتوك معركة ضدهم في البرلمان؟

يلتقط يعقوب أرتين حبة كستناء بملقطه الفضي، يفحصها ثم يعيدها بحرص إلى الموقد على جانبها الآخر.

ـ خسرت قضية سرسق.

ـ لكنك أجبرت جاويد باشا على الاستقالة.

ـ كانت فضيحة، فهو من يهود الدونما وبصفته وزير المالية كان يقترض من الصهاينة بضمان أرض الدولة في فلسطين. الحكومة مدينة للصهاينة حتى أذنيها، وهي عمليا في جيبهم.

يقول يعقوب أرتين بصوت خافت: المال! المال! عبد الحميد على الأقل كان يرفض عروضهم.

ـ يقال إن مزاجه مقلوب في منفاه حتى إن حريمه هجرنه. يبتسم شكري بك ابتسامه قصيرة.

تصدر قعقعة خفيفة من حبة كستناء فيلتقطها يعقوب باشا بملقطه الفضي ويضعها على طبق لتبرد، يقلب حبتين على جنبيهما.

شريف باشا: عبد الحميد لم يكن في حاجة للمال لهذه الدرجة. الأتراك محاصرون الآن من كل الجبهات.

شكري بك: هل يعني هذا أن نجلس مكاننا ونتركهم يوزعوننا غنيمة؟

يسود الصمت، ثم يعود شكري بك للكلام: وماذا عن القتلي؟ آلاف القتلي في المغرب وليبيا؟ والفلاحين الذين يطردون من أرضهم في فلسطين؟ فظائع الفرنسيين في الجزائر؟

شريف باشا: أصبحت كلها أمورا عادية، وسيزداد الأمر سوءا إذا شبت الحرب بين الأوروبيين.

يعقوب أرتين: لكن التحالف بينهم أسوأ بالنسبة لنا.

الحرب شر لنا والتحالف أسوأ ولا بد أن يقع أحدهما. إنه سباق لإخضاع العالم؛ كل أمة تستخدم الأدوات التي تتقنها: فرنسا، القوة الوحشية؛ إيطاليا، الإرهاب؛ بريطانيا، الغدر والوعود الزائفة والخداع؛ الصهاينة، الصفقات المالية والابتزاز والتسلل في الخفاء. ومصر؟ ما الذي تتقنه مصر؟ المرونة؟ القدرة على الصمود؟ قدرتها على استيعاب الأشخاص والأحداث وامتصاصها في مسام كيانها؟ هل هذا صحيح أم أنه مجرد ترضية وتعزية؟ بل وتهرب من المسئولية؟ وإذا كان هذا صحيحًا، كم يمكن لمصر أن تستوعب وتظل هي مصر؟

يرفع شريف باشا بصره إلى أشجار نور وقد نمت وفاقت قامته طولا، قوية وباسقة بعد خمس سنوات قصيرة. ابنته ونور عينيه. عندما تحتضنه تربت على ظهره كأنه في حاجة لمن يطيب خاطره.

كم يتمني لو يستطيع حمايتها، يطلقها في الحياة كما يطلقها في هذه الحديقة،حرة لكن عيونا محبة ترقبها وتحرسها. وماذا عن أحمد؟ ومحروس؟ ها هما بدءا المشاركة في المظاهرات بالصعود إلى سطح المدرسة والصياح في اتجاه نوافذ قصر عابدين «الدستور يا أفندينا». هل سيقضيان العمر في معارك، تشغلهما أحداث ليست من صنعهما، يوظفان كل ما لديهما من الطاقة والذكاء للحيلولة دون ما يحدث؟

لكن يا حبيبي ـ يسمع آنا تقول ـ إنك تعود لظلم نفسك. انظر إلى كل ماتحقق؛ الجامعة أنشئت وأصبحت حقيقة واقعة، وتعليم البنات يتقدم حثيثا، مدرسة الفنون الجميلة خرجت على الأقل طالبا عبقريا. رودان نفسه وافق على قبول الشاب مختار في مرسمه. تأمل المقالات والأبحاث التي كتبتها والمواطنين الذين دافعت عنهم. انظر إلى أهلك وناسك في طواسي.

هل كان من الممكن أن نعيش حياتنا ونتجاهل السياسة؟ سلطات الاحتلال تقرر ما يزرعه الفلاح من محاصيل، وتقف في وجه كل مشروع صناعي. منعتنا من إنشاء مؤسساتنا المالية، عطلت تحقيق رغباتنا في التعليم، أخضعت كل ما ننشره للرقابة، حرمتنا من صوت يتحدث باسمنا في البرلمان العثماني، تفرض ما يحق لرجالنا أن يقوموا به من أعمال، وتعطل تحرير نسائنا، تضعنا جميعا تحت الوصاية وتحرم علينا أن نكبر ونبلغ سن الرشد. وفي كل عام مر علينا كنا نري مكاننا في مصاف الأمم الحديثة يتراجع، والمسافة التي ينبغي لنا تعويضها تبدو أطول وأصعب. زرعت بذور الشقاق بين قومنا ودفعت خيرتهم إلى أعمال التعصب أو إلى مهاوي

اليأس. وفي فلسطين أمامنا نذير واضح لما يمكن أن يحققه المشروع الاستعماري في آخر المطاف: أن يسحب الأرض نفسها من تحت أقدام سكانها.

هل كان من الممكن أن نتجاهل كل ذلك؟ وأي مساحة كانت تبقي لحياتنا؟ أي مساحة تركت لنا نذير عليها معاشا؟ ومن الرجل الذي تسمح له كرامته أن يحصر نفسه في ذلك الحيز ولا يحاول دوما أن يوسع حدوده؟ ومن المرأة التي لا تري واجبها في مساعدته؟

ظل أخي طول ثلاثين عاما يدفع الحدود ليوسعها بكل الوسائل القانونية المتاحة. شن حملات ضد القوانين التعسفية ودافع عن المصريين ضدها. وقفت آنا إلى جانبه وكانا يلتقيان بالزوار الأجانب على أمل التأثير فيهم، لكنني في ذلك العام، في مفتتح العقد الثاني من القرن، لاحظت هوة تتزايد بينه وبين عمله، وكأن عمله لم يعد يشغل كل عواطفه.

يرفع شريف باشا بصره إلى الحرملك، النور مضاء في حجرة آنا وينفذ من شباكها، إنها تكتب رسائلها ومذكراتها، جالسة في انتظاره. يعبر الفناء في اتجاه خلوة أبيه. يود أن يقضي مزيدا من الوقت مع آنا في طواسي، كانت الأسابيع التي قضاها هناك وفي المصيف من أسعد أيامهما، في طواسي تضع يدك على أهم الأشياء: الأرض والناس. ومن حسن حظه أنه يملك أرضا، أرضا يورثها لنور وأبنائها، تحفظ جذورهم وصلتهم بما يهم. أرض يلجئون إليها عندما يثقل عليهم العالم بأكثر مما يطيقون.

ميرغني نائم خلف الباب لكن والده ليس في فراشه، يجده

شريف باشا جالسا بجانب الضريح وقد أسند رأسه إلى الرخام البارد.

ـ خير يا أبي؟

لا جواب.

ـ ألم تستطيع النوم؟

الشيخ لا يرد، فيكرر ابنه السؤال:

ـ ألم تستطيع النوم؟

يرد بارودي بك في همس: وقت النوم آت لا ريب.

ينزل شريف باشا إلى الأرض بجانب والده ويأخذ يده. يسأل: هل يقلقك شيء؟

يهمس الشيخ: إن الله غفور رحيم.

يجلس شريف باشا في صمت، يقبض برفق على يد أبيه النحيلة بين يديه ويسمع أباه يعود إلى الهمس فيميل عليه ليلتقط كلماته:

ـ لم يكن خائنا. ويدرك ابنه أنه يتحدث عن عرابي، فيؤَمِّن:

ـ لا، لم يكن، رحمه الله.

ـ غدروا به ـ ديلسبس غدر به.

ـ يرحمه الله هو الآخر! كان ذلك منذ زمن بعيد.

ـ الله لا ينسي أحدا. رحمته واسعة وهو لا ينسي أحدا.

ـ قل: «قل هو الله أحد» يا أبي وأرح فكرك. تعال استند إلى، سأسير بك إلى فراشك.

يسند الشيخ رأسه إلى الضريح ويغمض عينيه. تسمع حركة بالباب وتدخل زينب هانم مسرعة ترتدي الروب فوق ملابس النوم، وتحمل مصباحا صغيرا في يدها. تهمس:

ـ بالله عليكم ما الحكاية؟

يهب ميرغني من فراشه. تعيد زينب هانم: لماذا تجلسان هكذا بجانب الضريح؟

ـ أبي أصابه أرق. وتتشبث يد أبيه بيد شريف البارودي.

ـ قم يا بارودي بك. ستصيبك البواسير أكيد لجلوسك على الأرض الباردة هكذا. وأنت أيضا يا حبيبي قم، انهض.

يساعد شريف باشا أباه على القيام ويسير عائدا به إلى خلوته وأمه تنير أمامهما الطريق، يمرون بميرغني جالسا في ذهول على حشيته، يجلس شريف باشا أباه على فراشه. تقول زينب هانم:

ـ سأطلب من مبروكة أن تعد لك كوبا من اليانسون ليساعدك على النوم.

يرد زوجها متشكيا: لا، لا أريد اليانسون، أريد شرابا باردا.

ـ إذن تحضر لك تمر هندي.

ـ الماء يكفي.

يصب له شريف باشا كوب ماء من القلة الموضوعة على الخزانة، وعندما يفرغ من الشرب يرفع بصره إلى زوجته: ابقي معي يا زينب، لا تتركيني.

ـ حاضر. كما تريد.

ينظر شريف باشا إلى الفراش الضيق: تبقين معه أين؟

تقول أمه: اتركه لي. اذهب أنت الآن إلى زوجتك. تأخر الليل كثيرًا.

عندما يدخل على آنا يقول: نظرت إلى نولك فوجدته خاليا؟

ـ فرغت من نسج اللوحة. استغرقت فيها زمنا طال بما يكفي.

ـ أين هي يا آنا؟ هل يمكن أن أراها؟

ـ مبروكة وحسناء تقومان بفردها وخياطة البطانة لها. عندما أفرغ من ضم المقاطع وشبكها معًا سأعرضها عليك.

ـ وماذا تفعلين بعد ذلك؟

ـ أتعرف ماذا أتمني أن أفعل؟ تطوق آنا عنق زوجها بذراعيها.

ـ ماذا يا حبيبتي؟

ـ أود أن أرسمك، لكنك لا تبقي ساكنا مدة كافية.

ـ خَلاص يا ستي. سأجلس لتصوريني.

ـ حقا؟ ترفع بصرها إليه في دهشة. لم يخطر لها أنه يوافق بهذه السهولة.

ـ نعم سأجلس في حديقة نور وأرقبها تلعب، ويمكنك أن ترسمي كيفما شئت.

لا أقول إنه فقد الأمل أو ضعف حماسه، فلعله تمكن من الارتقاء فوق ضباب مشكلاتنا اليومية فشهد خارطة حياته في

أبعادها الدقيقة. كان يقول لي أنت شابة وما زال أمامك وقت، وعن نفسه كان يود أن يخفف من إيقاعه ويرتاح بعض الشيء. بلغ أحمد الحادية عشرة ونور السادسة وكنت أنظر إليهما وأدعو الله أن تنمو المحبة المتجذرة في طفولتهما وتزهر وتكفيهما طول العمر.

تقول حسناء: إذا لم تتوقفي عن مص إبهامك ستكبرين بضبّ ولن تجدي من يتزوجك.

ـ أحمد سيتزوجني مهما فعلت. تخرج نور إبهامها من فمها لتنطق بهذه الكلمات ثم تعيده إلى مكانه.

تقول حسناء: بنت راسها ناشفة.

تقول مبروكة في حنان: ابعدي عنها، تمد ذراعيها فتلجأ نور إلى حضنها وتستكين وإبهامها في فمها في الصدر الدافئ وتستنشق عطر زهر البرتقال الذي استنشقه أبوها قبل نصف قرن، تحيط يد مبروكه رأس الطفلة وتملس على شعرها، تهمس: اسم النبي حافظك وصاينك، ربنا يكتب لك السعد أينما كنت.

٢٠ أكتوبر ١٩١١

.. إنها نعمة من الله لا تقارن وسعادة لي في معرفتي أنني خففت عن زوجي بعض ما يعانيه، وأنه في أحلك الأوقات طوال السنوات الماضية كان يلجأ إلي ويجد عندي السلوى.

لو كان هذا ممكنا لقلت إنني أحبه اليوم أكثر حتى من حبي له في البداية، وكأن القلب مني والروح تعظم وتتسع

ليجد هذا الحب مكانًا أرحب، أو كأنني إذ أفطن لكل جديد يطرأ عليه أو أراه يتغير ينمو حبي ويتسع لأحيط بما بين يدي وأمسك به.

على أنني لا أعرف كيف أفسر حالته النفسية مؤخرا، فقد لاحظت بعض الدلائل، توحي أنه ربما أصيب بالإحباط وضعف الأمل. ما زال يتفاني في الدفاع فيما يقع له من قضايا، لكنه لم يعد يقتنص كل مناسبة ليعرض قضيته، قضية مصر، أمام الرأي العام. وقال في مناسبتين أنه يود أن يقضي وقتا أطول في طواسي أو ربما يسافر إلى الخارج، وأعترف أنني عاجزة عن تصوره يعيش الحياة الخاصة لوجيه عادي، وبالرغم من أنني سأسعد في حياة خاصة معه، فلا مناص من شعور الحزن ليقيني أنه تنازل عن الهدف الأكبر في حياته.

* * *

طواسي، ١٥ يوليو ١٩٩٨

أقرأ العناوين على الكمبيوتر عندي: مجلس الأمن يطالب إسرائيل بإلغاء مشروع القدس الكبرى ـ البرلمان الأوروبي يرفض تقريرًا عن الأصولية الإسلامية وخطرها المهدد ـ مظاهرات في بيروت تطالب بإطلاق سراح السجناء العرب في السجون الإسرائيلية ـ قوات الاحتياط الإسرائيلية ترفض المواجهة مع المدنيين الفلسطينيين ـ المجاعة في السودان ـ إنذار بقنبلة في السفارة الأمريكية ـ مقتل ثلاثة في مواجهة مع الجماعات الإسلامية في الصعيد.

وجاءتني رسالة من إيزابل بالبريد الإلكتروني:

هاي أمل!

يقول الأطباء إنه لا خطر الآن على شريف من السفر، وسنحضر إلى مصر يوم ١٧، إنه طفل حبوب جدا ولا أستطيع الصبر قبل أن تشاهديه. عمر سيبدأ جولة الحفلات الموسيقية هذه الأيام ويقول إنه قد يحضر إلى القاهرة، لكنه سيعلمنا على أي حال. سأنزل في شقتك وأحدثك بالتليفون من هناك. لا تقلقي على فأنا متأكدة أن تحية تستطيع أن ترتب لي كل شيء - مع حبي.

إيزابل

أنا مشتاقة جدا لرؤيتك، عمر أعطاني قطعة نسيج لأوصلها لك. يقول إنك تعرفين ما هي.

رسالة أخي على الكمبيوتر تقول:

يا أعز الناس

العبرة بالخواتم، وإن كنا لا نري خاتمة بعد. أليس كذلك؟ هذا المولود رائع وإيزابل فيما يبدو تكرس نفسها للأمومة.

عيناه مثل عينيك، مثل عيوننا جميعا. ألا يمكن أن تنتزعي نفسك من فلاحيك من أجلي، أم أضطر لزيارتك فأحضر إلى طواسي وألعب دور الباشا؟ سأخبرك بموعد حضوري. الأولاد فرحوا جدا بالطفل.. قلق وانزاح.

مع حبي. مائة قبلة.

تدخل خضرة شاحبة الوجه بسبب الوحم، تخبرني أن عم أبو المعاطي مريض. أذهب لزيارته في المساء. لأول مرة أدخل لما بعد المندرة إلى حجرة نومه. أجده جالسا مستندا إلى الوسائد في سرير نحاسي كبير. يقول لي « شيء بسيط ويعدي» لكنه يتنفس بصعوبة. أسأل:

ـ هل استشرت طبيبًا؟

تقول زوجته: نعم، جاء الطبيب وكتب له دواء أحضرناه.

تعرض على الدواء: مضاد حيوي ومسكن. أسأل: ماذا يمكنني أن أفعل له؟

ـ لا شيء يا ست أمل، ربنا يحفظك. الألم زال مع الدواء وتنفسه أسهل الآن.

أجلس معه بعض الوقت في صمت، وعندما أغادر أضغط على يده المعروقة الراقدة على اللحاف الأخضر. ويصر ابنه أن يسير معي إلى البيت.

القاهرة في ٢٥ أكتوبر ١٩١١

عزيزي چيمس

استقبلنا صديقك دكتور جنسبرج أمس على العشاء في الحلمية بحضور حسني وليلي. كانت أول مرة في مصر تتناول ليلي العشاء في صحبة مختلطة وفي السماح بذلك

مخاطرة من جانب زوجها وأخيها، إلا أنه كان عشاء ناجحا، فدكتور جنسبرج رجل لطيف حقا، ولم تبالغ عندما حدثتني عن واسع علمه وقدرته على فهم الأمور، وبناء على اقتراحك اتفق هو وزوجي أن يكتب كل منهما مقالا يلخص الموقف السياسي من وجهة نظره، وإذا كتب مستر بلنت مقالا ثالثا ونشر الثلاثة معا لا بد أن يؤثر هذا الإجماع على الرأي العام.

على أن العشاء لم يقتصر على مناقشة الأمور الجادة فقد روي دكتور جنسبرج نكاتًا يهودية، وروي حسني وزوجي نكاتًا مصرية وسمعت صابر يتمتم وهو يصب القهوة في الفناجين « اللهم اجعله خير» فنادرا ما تفيض مائدتنا بالمرح.

يتحدث زوجي فيما بيننا عن الابتعاد عن السياسة والشئون العامة والاقتصار على حياة خاصة معي أنا والأطفال، ولا أعتقد أن ذلك في الإمكان؛ وإذا حدث فلن يطيقه طويلا، إلا أنه محق في رأيه أن الأحداث تضخمت لدرجة أن ما يحدث داخل مصر قلما يؤثر في مصيرها ـ فيما عدا العنف والاغتيال. ما أصغر العالم اليوم! وما أكثر ما تتشابك مصالحه!

أعجبتني صورة والدتك في حديقتها...

القاهرة في ٢ أغسطس ١٩٩٨

في طواسي جلسنا في الشرفة كما فعلنا في العام الماضي، نسترجع صداقة قديمة أصبحت قرابة، الباب المؤدي إلى حجرة إيزابل مفتوح حيث يرقد الوليد على سرير جدتي تحوطه الوسائد، وتحميه الناموسية، ويطل عليه شريف باشا البارودي.

هذا الوليد يمس شغاف قلبي. كنت قد نسيت الزغب الخفيف على الرأس، ورقة الأذن، ونعومة الجلد. نسيت الرائحة!

لم أتمكن من السفر إلى القاهرة بسبب وفاة عم أبو المعاطي يوم وصول إيزابل. مات الرجل في هدوء وبلا معاناة، وسبابته ممدودة بشهادة ألا إله إلا الله، يحيط به أبناؤه وأحفاده، وزوجته تبلل شفتيه بقطعة من القطن مغموسة في الماء، واسم ابنه الأكبر مسجل في أول صفحة في مصحف العائلة.

أكرمه الله إذ توفي في الصباح فغسلوه وصلوا عليه ودفنوه قبل غروب الشمس، وفي المساء جاء الناس من جميع القرى المجاورة، جاءوا إلى طواسي ليقدموا التعازي ويسلموا على أبنائه، والنساء يجلسن مع زوجته، يتحدثن عن حياة الرجل الطيب ويدعون له بالرحمة، وصوت القرآن يغمر البيوت والحقول المزروعة والقنوات الساكنة.

لم تقدر إيزابل على الانتظار فقد وصلت يوم الجمعة، وقلت لها إني سأضطر إلى البقاء في طواسي حتى أول خميس، فعدت ألجأ إلى طارق عطية. لم أتخيل أن تسافر إيزابل بالطفل وحدها في القطار أو تواجه حواجز البوليس على طريق المنيا في المقعد

الخلفي لسيارة بيجو. أرسل لها طارق سيارة وسائقها وتعانقنا أنا وهي على عتبة الباب، وبالرغم من أن القرية لم تبتهج وعم أبو المعاطي دُفن في اليوم السابق، إلا أن النساء جئن إلينا بعد الظهر قبل الذهاب إلى عزاء اليوم الثاني، جئن لتهنئة إيزابل ورؤية المولود ونفحه بالهدايا، وكل واحدة منهن سألت:

- وأين الباشا؟ يتركك تسافرين وحدك هكذا بالطفل على ذراعك؟

كم مرة يا تري ستسمع إيزابل هذه العبارة تقال لها في السنوات القادمة؟ قالت: سيسمع اللوم منهن عندما يحضر. أليس كذلك؟

تبدو سعيدة ومستقرة، ما زالت عاشقة لكن بلا ألم، فهو لها الآن، جزئيا على أي حال.

جلسنا في الفراندة وحكت لي ثانية عن وفاة ياسمين وبكينا قليلا، كل منا تبكي وفاة أمها، ولا تنسي أباها.

حكيت لها أخبار آنا إلى الحد الذي وصلتُ إليه، وتعجبنا من هذا البعد بين فرعينا من العائلة وكانت آنا وليلي مثل شقيقتين وأحمد ونور مولعين ببعضهما!

حدثتني عن عمر وأنه لم يقل لها بعد أنه يحبها، لكنها تجد دليلا على ذلك في كل ما يفعله، وقد ذهب معها إلى المستشفي لكنه لم يتحمل البقاء في حجرة الولادة، فوقف في الخارج يذرع الردهة جيئة وذهابا مثل الوالد القلق في الأفلام القديمة، وعندما دخل إليها احتضنها بقوة وهمس: كنت في شدة الخوف عليك. عندما أعطته الممرضة المولود وحمله بين ذراعيه ونظر في عينيه، رأت تعبيرا

جديدًا تماما على وجهه، وأدركت أنه أصبح أسير شريف الصغير إلى الأبد. حزمت جهاز الكمبيوتر وأوراق آنا. حضرت إيزابل معي عزاء الخميس، وفي صباح الجمعة وضعنا كل شيء في السيارة واتفقنا أن تجلس هي في المقعد الخلفي وتحمل شريف في حجرها لأني لم أجهز سيارتي بعد بمقعد أطفال. قبلنا خضرة ورئيسة وقلنا إننا سنعود قريبا وسنحاول أن نحضر الباشا معنا، وتذكرت أني لم آخذ علم ليلي، فعدت جريا إلى الداخل وأحضرته وحسنًا فعلت، فبعد حاجز البوليس الثالث تذبذب مؤشر الحرارة في السيارة في اتجاه اللون الأحمر، وقررنا ألا ننتظر حتى تنفث السيارة دخانا، بل نتوقف وندعها تبرد ثم نملأ الرادياتير من جركن الماء الكبير الذي أحضرناه معنا، فنحن نساء نتعلم من أخطائنا. فرشنا الكليم وجلسنا على جانب الطريق كما حدث لنا من قبل، لكن هذه المرة معنا الطفل. بحثت في السيارة وعثرت بالعلم. غرسنا ثلاث سيقان من البوص في الأرض ونشرنا العلم فوقها، وأرقدنا الطفل على الكليم وأمه بجانبه وأنا على الجانب الآخر، يظلله العلم الأبيض والأخضر، علم الوحدة الوطنية.

وفي جلستنا هذه أخبرتني إيزابل أنها عملت على أن يتأكد أخي أنها تفهم عمله وما يعني بالنسبة له، ولا يقتصر هذا على الموسيقى بل يشمل الكتابة كذلك، فأنشأت له صفحة خاصة على الإنترنت وربطتها بعدة مواقع للمعلومات، واليوم أصبحت مقالاته تجوب العالم وتدخل إلى شبكات المعلومات الفضائية بمجرد ظهورها في الجريدة.

القاهرة في ٢٦ أكتوبر ١٩١١

الموضوع ببساطة هو أن الشرق يجتذب أهل أوروبا لسببين:

الأول اقتصادي، فأوروبا تحتاج إلى المواد الخام لصناعاتها، وإلي الأسواق لمنتجاتها، وإلي فرص العمل لرجالها، وقد وجدت الثلاثة في بلاد العرب.

والثاني يمكن أن نسميه سببًا رومانسيًا، فهم يُنجذبون دينيًا وتاريخيًا لأرض الكتاب المقدس، بلاد القدماء ومسرح الأساطير.

يبدأ هذا السحر ويولد هذا الانجذاب في نفس الأوروبي وهو ما زال في وطنه، وعندما يأتي إلى الشرق المنشود يكتشف في البلاد سكانا لا يفهمهم وربما لا يرتاح لهم. ماذا يفعل؟

قد يبقى ويحاول أن يتجاهل أهل البلاد. قد يحاول تغييرهم وتغيير عاداتهم. قد يغادر البلاد. أو قد يحاول أن يفهمهم.

أمور واضحة وضوح الشمس. يضع شريف باشا قلمه على المكتب. أمور واضحة حتى إنه لا يرى جدوي من ذكرها، لكن لآنا رأي مختلف، فهي لا تهدأ ولا تستريح إذا رأت ظلما حتى يُصحح، ثم إنها تريد له الرضا والسعادة ليس فقط في بيته بل في حياته كلها! يعلم أنها تري في خيالها يوما تنقشع فيه تلك الغمامة التي تظلل حياتهما معا، وما زالت تثق فيما يسمي بالرأي العام؛ لو أن الناس فهموا، لو أننا شرحنا لهم فسوف يمكن تصحيح المظالم والأخطاء، وحينئذ يتخذ التاريخ مسارا مختلفًا.

لا ضرر من المغادرة، وجميل أن يحاول الإنسان الفهم. لكن هذين المسلكين لا يختارهما سوى الأفراد. أما التجاهل

أو محاولة التغيير فضررهما جسيم إذا ارتبطا بحركات قومية واسعة، وبمشروعات استعمارية.

بالنسبة للاختيار الأول يمكن القول إنه بازدياد رغبة المستعمر في تجاهل وجود أهل البلاد يزداد ادعاؤه بحق له في أرضهم على أساس من التاريخ أو الدين، وهذا ما نشهده اليوم في مشروع الاستيطان الصهيوني في فلسطين. أقول الصهيوني وليس اليهودي لأن كثيرا من اليهود يرون المشروع الصهيوني على حقيقته، ولا يدخرون جهدا في التبرؤ منه بل تحذير أشقائهم في الدين من مخاطره برغم ما يصيبهم من أذى نتيجة لذلك.

أما الاختيار الثاني ـ محاولة تغيير أهل البلاد ـ فيتيح لأصحاب الميول الرومانسية من الأوروبيين ـ بلا مشاكل كبيرة مع ضمائرهم ـ مساندة مشروعات مثل المشروع الاستعماري الذي عشنا تحت وطأته في مصر ثلاثين عاما، والذي مازال في بدايته في المغرب وليبيا. يتحدثون عن العبء الذي يحمله الرجل الأبيض على كاهله؛ الواجب المفروض عليه أن يساعد الشعوب البدائية لتحقق إمكانياتها، وأن يلتزم بتمدينهم، يسره أن يتصور نفسه مصلحًا يدافع عن السلم والاستقرار، ويسند الحاكم الشرعي للبلاد، ويضمن سلامة الأقليات الدينية أو الأوروبية.

منهم من يتعلق بالشرق لسعادته بصورته هو في المشرق، وهي صورة تختلف عن صورته في موطنه، فهناك جوانب من شخصية الأوروبي لا تجد منطلقًا لها في بلاده يسمح لها بالانطلاق أثناء وجوده في الشرق.

وهكذا تُحسن الأطماع الاقتصادية الجديدة لأوروبا استخدام مشاعر أوروبا الرومانسية القديمة نحو الشرق.

في ضوء هذا التفسير نجد الإجابة عن كل ما غمض من أسئلة، فتتضح أمامنا معالم الصورة: الاتفاقيات بين الدول الكبرى تمنحها حرية التصرف في بلدان الشرق، اعتداء فرنسا على مراكش، واعتداء إيطاليا على ليبيا، التعاون بين دوائر المال والسياسة في مشروع إزاحة الفلسطينيين وخلق دولة جديدة في قلب بلاد العرب، دولة ليست مجرد صديقة لأوروبا بل أوروبية في تكوينها، واستعمارية في فكرها. فأوروبا ببساطة لا تنظر إلى شعوب البلاد التي ترغب في ضمها، وإذا فعلت فلا تري فيهم إلا ما يتفق والتعريف القديم المقبول لديها: شعوب متخلفة، تفتقر إلى القدرات العقلية والتفكير المنطقي ويتملكها التعصب الديني. شعوب ليست أهلا لأوطانها: بلاد الشرق المقدسة الخلابة لا يستحقونها.

وأين نحن الشرقيين من كل هذا؟ ماذا عن مسئوليتنا في كل ما يحدث؟ نحن في مصر نفخر بتاريخنا، بأن بلادنا أم الحضارة، سلمت راية القيادة فيما بعد إلى أهل اليونان ثم روما، ثم انتقلت الراية إلى بلاد الإسلام حتى القرن السابع عشر عندما كسبتها أوروبا. منذ قرن مضى ونحن نعمل جاهدين لنجد لأنفسنا مكانا في العالم الحديث، لكن مساعينا اصطدمت بما تعتبره أوروبا مصالحها.

منا من أغشت عيونهم قوة أوروبا وسحر آلاتها وإنجازها، فإذا بهم كمن يقف مبهورا أمام بندقية مصوبة إلى صدره.

أيدينا مغلولة بوجود حاكم أجنبي أصلًا في بلادنا،وقد أتاح ضعف هذا الحاكم التركي والقلاقل التي صحبت محاولات بلادنا الخروج على سلطته الفرصة للأوروبيين ليحاولوا الاستيلاء على البلاد والتحكم في مصائرنا.

سيكون رد دعاة الاستعمار على مقالي هذا ـ إذا تجشموا مشقة الرد ـ أنه لا يعبر عن رأي الجميع، وأن كاتبه مثقف بالثقافة الإنجليزية أو الفرنسية أو ثقافة من الغرب على أية حال، فهو لا يمثل إجماع الرأي بين أهل بلده. وردي أن هناك كثيرين يفكرون ويتحدثون كما أفعل، وأن هذا العدد من الرجال والنساء يمثلون الفلاحين في مصر والبلاد العربية كما يمثل نوابكم المحترمون المزارعين في سومرست أو عمال المصانع في شيفيلد الذين وضعوهم في مجلسهم بالبرلمان بأصواتهم الانتخابية.

إن عناصر الثقافة الغربية الي دخلت تكويننا نمت فينا من زيارتنا بلادكم والدراسة في معاهدكم، ففتحنا صدورنا لحضارتكم، وكانت لنا حرية اختيار العناصر التي تناسب تاريخنا، وتراثنا، وطموحنا إلى المستقبل، وهذا هو التبادل الإنساني المشروع.

إن أملنا اليوم معقود على وحدة الضمير بين أصحاب الضمائر في العالم، أولئك الذين يدركون لهذه العبارة معنى، وهو أمل أعلم أنه ضعيف، إذ من الصعب تصور السبيل إلى تحقيق وحدة الضمير بين الشعوب، لكن هذا ما نتمناه، وما كتبت هذه الكلمات إلا للدعوة له...

القاهرة ٢ أغسطس ١٩٩٨

ـ الإنترنت.. قالتها إيزابل وهي ترفع شريف الرضيع إلى كتفها وتربت على ظهره: أنا جادة، إن إمكانياتها مدهشة، انظري إلى الأحداث والمعلومات التي تتجمع عليها، والسرعة التي تنشر

بها الخبر، والحرية من رقابة السلطات، هل رأيت كل المادة التي نشرت على الإنترنت في التضامن مع شعب العراق؟

يستجيب الرضيع للربت و يتجشأ فتدير وجهها إليه قليلا وتقبله في رأسه.

القاهرة في أكتوبر ١٩١١

يضع شريف باشا ترجمة آنا لمقاله في مظروف ويغلقه. غدا يمكن إرساله إلى بارنجتون للنشر في الجرائد الإنجليزية، وسيظهر النص العربي في الأهرام تحت اسمه هو في صيغة خطاب، سيتولي أنطون الجميل هذه العملية، وينشر النص الفرنسي عندما يفرغ جنسبرج وبلنت من ترجمة مقاليهما. أما عن نفسه، فقد انتهي: أنجز ما عليه.

يقوم واقفا ويدفع مقعده إلى الخلف ويتمطي. ترفع آنا بصرها عن الكتاب في يدها وتسأله بالفرنسية: «هل انتهيت؟»

فيومئ أن نعم.

ـ المفروض أنك لا تعرف الإنجليزية، لكنك تقرأ ترجمتي كل مرة؟

يبتسم ويهز كتفيه: عادة قديمة، أقرأ كل ما يصدر باسمي.

ـ أتظن أني قد لا أحسن تمثيل رأيك؟ وهي تبتسم له ممازحة.

ـ بحسن نية فقط. لا تنسي أني رجل قانون.. يلقي بنفسه على

الأريكة إلى جانبها، يرفع كتابها ويقرأ الغلاف: أتعيدين قراءة الحرب والسلام للمرة الثانية؟

ـ أحب العودة إلى أشياء أعرفها، وتضع الكتاب جانبا: تري فيها أشياء لم تدركها في المرة الأولى.

يقول: خسارة ألا نستطيع أن نفعل هذا في الحياة.

ـ ماذا كنت تفعل مختلفا عن الحاضر؟

يعتم وجهه لحظة ثم يقول برقة: كنت أسير إليك في دار أوبرا كوستانزي وأقول: أنت تحبينني وإن كنت تجهلين هذا بعد...

تضحك آنا وتأخذ يده في يدها: كنا كسبنا ١٤ شهرا مضافة إلى سعادتنا!

ـ أو كنت تلوذين بالفرار ولا ننعم بها.

بجذب خصلة من شعرها الأشقر ويخلصها من المشابك القابضة عليها، يتحسسها، يلفها حول أنامله ثم يطلقها.

ـ مستحيل، ما كان من الممكن أن نحرم من هذه السعادة، لا أتصور الحياة بدونك، نحن معا إلى الأبد.

ـ آمين، ويبتسم في عينيها.

ـ هذا ما تقوله مبروكة دائما، تلتفت إليه: فهل الكلمة عربية؟

ـ نعم.. يتحسس رقبتها الملساء والجلد الناعم خلف الأذن.

ـ وأنا طفلة كنت أتعجب من الكلمة، أسمعها في الكنيسة وأتساءل عن معناها.

ـ أمن يعني السلامة ، الفعل آمن يعني اعتقد، أصبح راسخا في عقيدته. عندما يقول أحدنا شيئا وتقولين آمين يعني ذلك أنك تعتقدين فيما قيل، وأن تؤمنين عليه.

ـ أحبك عندما تشرح الأمور في جدية.

ـ لم تنصتي لي..

ـ أنصتُ، لكنني كنت أفكر كم أنت لطيف في جديتك!

ـ لطيف، نعم، هذا أنا، أنت امرأة عابثة.

ـ هل لاحظت؟ نور تشبهك تماما عندما تنظر في جد.

ـ أرى شبهك فيها طول الوقت، إنها أجمل طفلة في العالم، هذه العيون يا آنا، هذه العيون..

والآن يضمها إليه وشفتاه على شفتيها، يلفهما ذلك الإحساس الذي يعرفانه جيدا، يشبه المعجزة في ثباته، كأنه في البداية نغم موسيقي يسمع من بعيد، ثم يقترب ويقترب حتى تجذب آنا رأسها إلى الخلف وتقول: هل نصعد إلى غرفتنا؟

ـ نعم، لكن سأطل على أبي أولا. انتظريني في الفراش.. يهب واقفا، ويشدها واقفةً، يربت على ظهرها ويرسلها إلى الباب. ثم يخرج إلى الفناء البارد.

(٢٩)

لماذا؟ لماذا يا ربي

لماذا تجازيني هكذا؟

توسكا

القاهرة في ٨ أغسطس ١٩٩٨

أخي يقود الأوركسترا في حفل في سارايفو - في أطلال المكتبة الوطنية. شاهدت صورا فوتوغرافية للمكتبة بعد ضربها: الأسقف العالية، والأجزاء المركزية في الطوابق كلها انهارت. أعمدة الرخام تقوم على حواف الهوة فتسند الأقواس المزخرفة بآثار الحريق، والجو حالم مغبش بدخان مليون مجلد إسلامي أشعلت فيها النار. والآن، وسط هذا الدمار، أتخيل أخي بالغ الجدة والتركيز، القمر والنجوم يصبان ضوأهما عليه وعلى فرقته، ذراعاه مرفوعتان، وعصا المايسترو على استعداد بين أصابعه. نقرة، ويفرد ذراعيه، يفتحهما، وتحلق الموسيقى في الجو كأنها صوت راعد يرتفع من باطن الأرض.

سوف يحضر إلينا بعد أسبوعين. أعددت له نسخة من مقال شريف باشا، خطر لي أن يعيد طبعها اليوم باسمه بعد إجراء تعديلات طفيفة. أتخيله داخلا إليّ وأعرف أني سأضمه بشدة، وأتخيله يحمل شريف بين ذراعيه حانيا، آسفا، ساخرا من نفسه. هل سأتم حكاية آنا قبل حضوره؟ أعرف أنني مشرفة على النهاية، إلا أني أبطأت في مراجعتها، فأنا لا أريد لها أن تنتهي .

أرسل أخي مع إيزابل المقطع الذي في حوزته من نسجية آنا. فردناه وعلقناه على خزانة الكتب: ها هي إيزيس، أم كل الملوك، ملكة في وقارها، يعلو رأسها تاج قرني البقرة وقرص الشمس، ذراعها ممدودة لكن يدها ليست في اللوحة. إيزابل سعيدة أنها حملت سميتها رسالة من عمر إلي.

ـ قلت لك مكتوب ـ تضحك ـ أليس في هذا أمارة؟

أقول: كنت أظنك تحكمين العقل.

ـ فعلا.

ـ ماذا عن الألفية؟ أسألها وأنا أرقبها تمسح لثة شريف الصغير بدهان البونجيلا.

ـ تصوري سيكون عمره سنتين ـ سنتين في سنة ألفين!

ـ وجدت لك فقرة تصلح لبحثك. اسمعي:

لو أننا قلصنا سكان الأرض إلى قرية صغيرة من مائة فرد، مع المحافظة على نفس النسب الموجودة اليوم، لظهرت الصورة على ما يلي: تضم القرية ٥٧ فردًا من آسيا، ٢١ من أوروبا، ١٤ من الأمريكتين و٨ من إفريقيا. ٨٠ منهم يعيشون في بيوت تحت المستوى المقبول. ٧٠ لا يعرفون القراءة. ٥٠ يعانون من سوء التغذية. ٥٠٪ من ثروة العالم تتركز في أيدي ٦ أشخاص فقط، وجميعهم من مواطني الولايات المتحدة.

تثبت إيزابل حفاضة نظيفة حول وسط شريف وتقول:

ـ صحيح؟

أسأل: هل ستتمين الدراسة التي بدأتها؟

ـ طبعا سأتمها.

ـ هل هناك تاريخ محدد للانتهاء منها؟

تبدأ: ياه يا أمل، ثم تتوقف: اشتريت لك كتابًا كيف نسيت هذا؟ وجدته في مكتبة تبيع الكتب القديمة، هو عن مستر بويل.

الكتاب: بويل أوف كايرو (طبع تايتوس ولسون وابنه ليمتد ٢٨ هايجيت، كندال: ١٩٦٥) وهو مذكرات كلارا بويل عن زوجها. إيزابل سعيدة بسروري الواضح ونحن نتأمل صورة هاري بويل، بالضبط كما تخيلته بشارب طويل غير منتظم وياقة قميص مغضنة، وفيه حتى صورة للكلب توتي.

القاهرة في ٣١ أكتوبر ١٩١١

الوالد العزيز سير تشارلز

سمعت من چيمس بارنجتون أن صحتك ليست على ما يرام، وأعتب عليك بشدة أنك لم تخبرني بنفسك، فأنا أود الحضور إليك والاطمئنان عليك، وزوجي يقول إن هذا واجب علي، وهو يتحدث عن السفر إلى أوروبا، وأن يُفَرِّج نور على احتفالات الكريسماس لأول مرة كما يجب، وأعترف أن الفكرة تروق لي جدا، إلا أن تقليبها في ذهني يثير نوعا من القلق لا أفهمه ولا أعرف له سببا.

نشر الأهرام مقالا بقلم زوجي يعرض تحليلا مبسطا للعلاقات بين الشرق والغرب كما يراها اليوم، والمفروض

أن تنشر ترجمة له بالإنجليزية وبالفرنسية قريبا، تصحبها مقالات بقلم مستر بلنت ودكتور جنزبرج، وأملي كبير أن تحدث صدى في الرأي العام.

نور كبرت وأصبحت طفلة جميلة ولو رأيتها لأحببتها على الفور. أرى فيها كثيرا من سمات عمتها ليلي هانم في صراحتها وحيويتها المرحة واستعدادها دائمًا للضحك، وعندما تسكت متفكرة أرى فيها صورة من أبيها.

القاهرة في ١٠ أغسطس ١٩٩٨

يصعد إلينا صبي المكوجي محملا بغسيلنا المكوي ترافقه تحية واثنان من أطفالها. عندما أحضر كيس نقودي لأدفع له أجره تقول لي كبري الطفلتين في خجل: «عندك صور للفراعنة» وتشير إلى نسجية آنا المعلقة على خزانة الكتب.

ـ آه. تعرفينهم؟

تقول: «إيزيس وأوزوريس». وأمها تغطي فمها بيدها ضاحكة.

ـ برافو! تعلمت هذا في المدرسة؟

تومئ الطفلة بالإيجاب وتختفي خلف جلباب أمها.

تقول تحية: ذكية تمام. لكنها شقية عفريتة زي الجن...

ـ لا تبدو عفريتة...

ـ بس مكسوفة أمامك...

تخرج إيزابل من حجرتها والطفل على ذراعها. تسأل:

ـ من الجن؟

ـ هذه..، تقول تحية وهي تومئ نحو الطفلة: هاتيه يا ست إيزا.. تمد ذراعيها.. أشيله شوية.

أقول وإيزابل تناولها الطفل:

ـ وانت ناقصة أطفال؟

تشرع تحية تداعبه وتهدهده والطفل يغرغر ويضحك. تقول إيزابل: وجدت لك جذرا آخر كنت أعددته ثم نسيت: ج ن.

ـ قولي.

ـ جن، روح، «جنين» مخلوق ما زال في بطن أمه، «جنان» جنون، فما هو العامل المشترك؟

ـ فلنر ما يقول القاموس.. أمد يدي لأخرج المعجم الوسيط من رف الكتب بين إيزيس وأوزوريس ـ تسأل بنت تحية الصغيرة:

ـ ليه واقفين بعيد عن بعض؟ مش كانوا متجوزين؟

ـ فيه قطعة ناقصة، قطعة في الوسط.

تقول تحية: يبقى ابنهم.

ـ نعم، ويكمل الآية. انظري: الكتابة تعلو رأس إيزيس «يخرج» أوزوريس يقف مواجها لها ويعلو رأسه كلمة «الميت».

أتلو «يخرج الحي من الميت» لابد أن تلك كانت الآية التي اختارها شريف باشا لآنا لتنسجها في اللوحة.

تحية: لكنهم كانوا كفرة. هل عرفوا الله؟

ـ يا تحية هل هناك مخلوق لا يعرف الله؟

ـ صحيح، وتتغني بالكلمة وهي تهدهد الطفل: صحيح، صحيح. أعود إلى القاموس لكن جرس التليفون يدق فتأخذ إيزابل مني الكتاب.

كان طارق عطية. يسأل:

ـ هل استرحت بعد الرحلة؟

ـ نعم وشكرا لك.

ـ وكيف تشعرين وعندك طفل في البيت؟

أضحك: تجربة مدهشة، خصوصا وأننا اثنتان.

ـ هناك اثنان دائما في حالة طفل.

ـ لا، لا اثنتان من الأمهات نتناوب السهر بالليل.

ـ صوتك مطمئن. أنا سعيد أن أسمعك تتحدثين في ابتهاج.

ـ وسيحضر عمر في الأسبوع القادم، هو الآن في سراييفو، ثم يذهب إلى الضفة الغربية وعمان وبعد ذلك يحضر هنا.

ـ سأدعوكم جميعا للعشاء.

ـ فكرة عظيمة.

ـ أمل؟

ـ نعم؟

ـ عندما تستقر الدنيا، ويكون لديك بعض الوقت، أريد أن أجلس معك ونتحدث.

ـ نتحدث في إيه؟

ـ ألا تعرفين؟

....

ـ أمل؟

ـ طارق. من فينا المرتبط؟

ـ أنا في حاجة للحديث معك. فيما بعد ـ مجرد أني أسجل طلبي من الآن.

ـ لا بأس، يمكن أن نتحدث.

وأجدني أقول لنفسي: يمكن أن نتحدث لكن بلا طائل. عندما أعود إلى إيزابل تقول: العامل المشترك هو الخفاء: الجن: من يختفي، الجنين مصغر من يختفي.

ـ وماذا عن جنان؟

ـ من جُنَّ: من اختفي عقله، والجَنَّة هي الفردوس: مكان مختف.

أصيح: طبعًا، واسمعي يا إيزابل، جنينة: حديقة: فردوس صغير! مضبوط أكثر مما يجب!

وأتساءل وماذا عن جند: عساكر؟

دق جرس الإنتركوم فتقول تحية: مدني يطلبني تحت. تلملم أطفالها وتناولني شريف.

ـ عايزة حاجة؟

نهتف أنا وإيزابل معا: سلامتك.

أجد صعوبة في الجلوس إلى ما تبقي من أوراق آنا مع وجود إيزابل والطفل في بيتي. هل هذا صحيح أم أنني أتخذهما ذريعة حتى لا أصل إلى النهاية؟

القاهرة، ١٢ أغسطس ١٩٩٨

أخذت إيزابل شريف وذهبت لزيارة رمزي يوسف وزوجته. تتباهي بعرض طفلها، وأنا أقلب في مذكرات كلارا بويل، أنظر إلى الصور وأقرأ فقرة هنا وفقرة هناك. فجأة أوقفتني عبارة عرضت لي من قبل: «كيف الوصول إلى الكوكب سعاد؟»

مرت ساعة وأنا جالسة والكتاب على ركبتي ـ وأمامي على المنضدة الخطاب الذي أعطته آنا لزوجها وهي في شدة الاضطراب، وكان يزرع شجرة السرو الصغيرة من أجل نور في ذلك اليوم من عام ١٩٠٦ . احتدم غضبني وأنا أقرأ، وكم تمنيت لو كان في إمكاني أن أخبره. ألم تتساءل إيزابل: ما دام الناس يتراسلون عبر المسافات، لماذا لا يستطيعون التراسل عبر الزمن كذلك؟ لكن كيف نكتب إلى الماضي؟

أعود إلى قراءة كلمات كلارا بويل التي كتبتها عام ١٩٦٥:

> **حوالي سنة ١٩٠٦ نشب خلاف بين لورد كرومر ووزارة الخارجية بشأن السياسة التي يجب اتباعها في مصر، وبعث**

لورد كرومر برسالة إلى لندن برأيه في الموضوع لكنها لم تسفر عن نتيجة.

أخيرا لجأ هاري إلى تدبيج ورقة تعكس صورة حقيقية للطريقة التي يعمل بها العقل الشرقي. وقدمها للورد، كان المفروض أنها ترجمة لخطاب وصله سرا، وبهذا الوصف أرسلت إلى وزارة الخارجية، كان لورد كرومر هو الوحيد الذي يعرف أن الخطاب الأصلي من تأليف هاري بويل نفسه. كان من الممكن أن يقع في يده مثل هذا الخطاب في الواقع، لكنه كان في حاجة إليه في تلك اللحظة السيكلوجية بالذات ليقنع وزارة الخارجية برأيه، فلم يتردد في استخدام معرفته العميقة وخبرته بما هو شرقي، لأن ما أراد قوله كان لصالح المصريين ولمزيد من حسن الفهم للموقف. الورقة الأصلية التي كتبها هاري مازالت في حوزتي، كتبها بمشقة على الآلة الكاتبة بإصبعين فقط، وكما يرى القارئ فهي تحمل جميع سمات اللغة الشرقية المنمقة الزاخرة بالصور والتشبيهات والاستعارات، وقد نقلت إلى اللغة الإنجليزية في أسلوب ساواها في براعة الخيال..

كتب الخطاب بهدف تحذير وزارة الخارجية من انتشار التذمر عموما بين المصريين من الشعب والأعيان، والمفروض أنه يحمل تفاصيل مؤامرة لقيام ثورة بين الوطنيين على نطاق واسع. التفاصيل تشمل التوقيت والقوة المعبأة للثورة وطريقة تنفيذ التمرد ضد الحكم البريطاني. كانت كل جملة في الخطاب بل كل كلمة تحتمل تفسيرين، ولا شك أن هاري استمتع حقا بتدبيجه، فبالرغم من أن الترجمة كانت من اختراعه، فهو لم يبتدع الروح السائدة فيها مما عبر بوضوح عن

الموقف. سعد لورد كرومر أن توفر له هذا الخطاب ليفحم به معارضيه وبعث به إلى وزارة الخارجية، مع بيان للسلطات أن الخطاب وقع في يده عن طريق عميل سري يتصل بهاري..

عدت إلى مضاهاة الخطاب المذكور في الكتاب بالخطاب المفرود أمامي على المنضدة. يتطابقان كلمة، كلمة. لعلي غدا أزهو باكتشافي، أما الآن فتتملكني رغبة جامحة أن أجري عائدة إليه لأخبره، أريه الكتاب وأقول: انظر! كنت على حق.

القاهرة، ١٥ أغسطس ١٩٩٨

شريف الصغير يتفزز ولا يستكين، أحمله لصق صدري وأسير به جيئة وذهابا، نعبر البارافان وخزانة الكتب واللوحة النسجية والبوفيه، ثم إلى المرآة في الجدار البعيد، ثم أعيد الكرة ـ ما زلت أفكر في خطاب هاري بويل وفي زوجته وثقتها أنه لمس وقبس ـ أنه فعلا يعبر عن الأسلوب الذي يعمل به عقل المصريين، عقلي أنا، ليس في زمن من الماضي البعيد غمره النسيان، بل في الستينيات، في الستينيات بعد ميلادي أنا! أسير بالطفل جيئة وذهابا مرات ومرات، ثقله على صدري يخفف عني وكذا أنفاسه على عنقي.

أتساءل لو أن بويل لم يكتب الخطاب ولم يرسله سيده هل كانت مأساة دنشواي ستقع؟ أتساءل هل هذا ما دعا كرومر أن يغادر مصر قبيل المحاكمة، بعد أن اختبر المشانق. لا بد أن جميع الموظفين الإنجليز في مصر صدقوا أن ثورة على الأبواب، ولم يعرف الحقيقة إلا بويل وكرومر.

وهكذا ترك كرومر ماتشل ودومانسفلد فندلاي وهايتر وبوند ولدلو ليتصرفوا في الأمر، وهو يعلم أنهم يظنون أنهم أمام تباشير ثورة شعبية، وأمله أنه عندما يعود إلى القاهرة بعد انتهاء إجازته سيجد القلق والاضطراب الذي تبدي منذ الوفاق الودي ومنذ طابا قد تم قمعه، وبإمكان المعتمد أن يعود كما كان «صديق الفلاح». لكن خطته فسدت وضاعت منه مصر، ولعله لذلك لم يذكر دنشواي مرة واحدة في كتابه الضخم الذي نشره في عام ١٩٠٨ وعدد فيه جميع تفاصيل وأحداث حكمه في مصر، فيما عدا دنشواي: لم يأت ذكرها مرة واحدة.

وفيما يخص المصريين: رقي فتحي زغلول وكيلا لوزارة الحقانية بعد المحاكمة، إلا أن صيحات الاستنكار كانت تتبعه أينما ذهب، وقضي إبراهيم الهلباوي أيامه الباقية في محاولة التكفير، فصوره تظهر رجلا تطارده الأشباح، ودفع بطرس غالي حياته ثمنا.

استغرق شريف في النوم على صدري لكني لا أريد أن أضعه في فراشه بعد، هل هذه الأمور مهمة اليوم؟ بعد مرور تسعين عاما على خطاب بويل وثلاثين على تعليقات زوجته العزيزة؟ لو عَرَفَت آنا...

تدخل إيزابل الحجرة، ترتدي برنس حمام ورديًّا، وتجفف شعرها بالمنشفة، تعلقها حول رقبتها وتلقي بشعرها إلى الخلف بعيدا عن وجهها فترانا وتصيح:

ـ آه، أريد أن ألتقط لكما صورة. أتعرفين لم ألتقط صورا بالمرة

للبيبي. تركت الكاميرا عندك هنا. تشكلان معا صورة رائعة وأنت تلمسين رأسه بخدك هكذا. استمري في المشي ـ امشي حتى أحضر الكاميرا..

تجري إلى حجرتها وتعود ممسكة بحقيبتها وعلي وجهها نظرة حائرة. تقول:

ـ أمل، ما هذا؟ انظري، كانت في حقيبتي.

رأيت لفة مستطيلة تتدلي من الحقيبة، ملفوفة في قماش من الموسلين، رأيت لفة مثلها من قبل فأعرف ما هي قبل أن نفتحها. أفك الأطراف بصعوبة بيد واحدة وأنا أضم الطفل النائم إلى صدري باليد الثانية. تفرد النسيج خارج الحقيبة وتهف في الحجرة رائحة خفيفة من عطر زهر البرتقال، وإذا أمامنا الطفل حورس حديث الولادة، صغير وعريان ومازال يحمل رأسه الآدمي، وعلي الرأس يد إيزيس أمه، تعلو رأسه كلمة «الحي».

٥ نوفمبر ١٩١١

مسبحة شريف باشا تتدلي من يده اليمني وباليسري يقلب في رزمة من الأوراق على خزانة كتب منخفضة في حجرة مكتب إسماعيل صبري. على كل ورقة ألصقت صورة فوتوغرافية.

ـ أرى أنها أثارت اهتمامك يا باشا؟

إسماعيل باشا صبري جالس في مقعد وثير وعلي ركبته حرام مخطط في مربعات من الأصفر والأزرق الباهت.

شريف باشا: لا نعرف عنهم إلا القليل، زمان أيام مارييت باشا كنت أريد أن أشارك في الحفائر.. يلتفت مبتسما لصديقه. يرد إسماعيل صبري بابتسامة: وماله. لعلك تفعل. سمعت أنك تفكر في نوع من الانسحاب من الحياة العامة؟

يتصلب شريف باشا في وقفته وكان قد عاد للنظر في الصور. يسأل بلطف: وأين سمعت ذلك؟ يرفع الأوراق ويرتبها في نظام.

ـ الكلام يسري، ينظر إسماعيل صبري بثبات إلى ظهر صديقه القديم: هل هذا صحيح؟

يلتفت إليه شريف باشا: هل تلومني؟

يهز إسماعيل صبري رأسه نفيا: فكرت لو نصحتك بذلك، لكني خشيت ألا تنصت لي وتقول: مرض وأصابه الخوف.

ـ فكرت لو تنصحني؟ لم؟

يخفض إسماعيل صبري رأسه في حركة خفيفة: تقف وحدك أكثر مما ينبغي، خاصة في السنوات الأخيرة، شعرت...

يفتح الباب فجأة ويدخل يعقوب أرتين باشا مسرعا يتبعه خادم مرتبك لم يجد الوقت ليعلن حضوره. يلوح يعقوب باشا بالصحيفة في يده: انظروا ! اضطرابات في البلقان، وتركيا في حاجة إلى المال لتقمعها..

يمد إسماعيل صبري يده وهو جالس: يعقوب باشا! أرجو أن تعذرني...

ـ لا، لا عذرك معك يا مون فرير..

يقبض يعقوب أرتين على يد إسماعيل صبري ويهزها بشدة ثم يتجه إلى شريف باشا.

ينسحب الخادم من الحجرة بهدوء ويغلق الباب خلفه.

ـ كنت تنظر في صور أجدادنا فيما أرى؟ يقول يعقوب باشا وهو يوجه نظره إلى تلة الصور بجوار شريف باشا: صديقنا الشاعر يلح على أن أدخل تاريخ الفراعنة في المنهج في مدارسنا.

ـ ما رأيك؟

ـ فكرة طيبة.

ـ لكننا لا نعرف عنهم الكثير.

يقول إسماعيل صبري في هدوء: نعرف ما يكفي لتلاميذ المدارس.

شريف باشا: من المثير أن نكتشف المزيد..

ـ آه، سحر الماضي، يجلس يعقوب أرتين ثقيلا في فوتيل قبالة إسماعيل صبري: أشد جاذبية من الحاضر بمراحل.

يلقي الصحفية على السطح الزجاجي للمنضدة المنخفضة القائمة بينه وبين مضيفه: مزيد من المذابح سيرتكبها الترك، ومزيد من الديون يقترضونها من أوروبا لتمويلها...

إسماعيل صبري: نحن على شفا حرب، حرب كبيرة...

يرد شريف باشا من موقعه بجوار خزانة الكتب:

ـ هم على شفا حرب، ليست حربنا.

إسماعيل صبري: لكننا سنعاني.

ـ نحن نعاني على أي حال..

يعقوب أرتين: صادق يامون آمي، لكن منذ متى أصبحت قدريا هكذا؟

يهز شريف باشا كتفيه، يقول: سأذهب إلى طواسي، لنقضي الشتاء. تثيرني هذه الصور. أريد أن أشاهد المعابد بنفسي، أريد أن أصطحب أسرتي إلى الأقصر ووادي الملوك..

يتنهد إسماعيل صبري: ليتني أستطيع الذهاب معك...

ـ تعال، يقولها شريف باشا ببساطة: سنرعاك وندبر لك أمورك.

ولماذا لا يرتحلون ـ وعلي مهل؟ يستمتعون بوقتهم معا، يمكن أن يأخذوا أحمد معهم ومحروس كذلك إذا شاء، يمكن أن يتعلم الأطفال الكثير من هذه الرحلة. سيترك والديه في يد من يحسن رعايتهما، ليلي وحسني باقيان في القاهرة، وأمه يمكنها الحضور إلى طواسي كلما شاءت. سينقل صابر وأسرته ليعيشوا في البيت. صابر يخبره إن كتشنر يبغضه أكثر مما كان يبغضه كرومر، هذا مع أنه لم يقابله قط. لو سمع هذا في الماضي لشعر بالرضا، أما اليوم فإنه لا يبالي. محمد عبده مات وقاسم أمين مات وعرابي مات، حتى مصطفى كامل الشاب مات، مات وآلام السرطان تعصر أحشاءه، وماذا جنينا من كل هذا؟ كفاح لا يتقدم إلا قيد أنملة، والعالم من حولنا يهدر كالإعصار.

يتمشي شريف باشا في حديقة بيته الهادئ في الحلمية. لقد شقا

لحياتهما طريقا، حققا حياة طيبة وسعيدة حتى وإن ظللتها أمور أشد خطرا. ربما حان الوقت لإطلاق العنان لهذه الحياة! في الصيف يصطحب آنا إلى أوروبا، وإذا كان لا يستسيغ فكرة إيطاليا وفرنسا يوطن النفس على تجنب التفكير في سياسة أي منهما. يمكنه هو وآنا أن يجدا المتعة في الموسيقى وفي المتاحف وفي الطعام. وليذهبا إلى فلسطين، ليزور بيارات طفولته في عين المنسي، ويصلي في المسجد الأقصي، مرة لنفسه ومرة لمحمد عبده، وقد يذهبون حتى إلى إنجلترا، لماذا لا يتيح لها سعادة العودة إلى وطنها؟ لمجرد حساسياته أن يحدق فيه المارة؟ فليحدقوا. سيرتدي طربوشه ويسير في الحديقة العامة ويحدق فيهم حتى يخفضوا عيونهم. فلتسعد بإطلاعه على جمال ريفها، منطقة البحيرات التي تحبها، وذلك المتحف بلوحاته التي دفعتها للمجيء إليه، وربما يذهبان في زيارة إلى ضيعة بلنت، ويزوران بارنجتون، ولعله هو وسير تشارلز يتفقان في الرأي والمزاج، من حقها أن تسعد وهي تري نور تلعب في ملاعب طفولتها. هل من الضروري أن نستشعر السم في كل شيء في العالم؟

توقف تحت شجرة الجميز التي تنشر أغصانها حتى شرفة غرفة نومه. عشرين سنة عاشها في هذا البيت وحيدا، واليوم أصبح لهما مخبأ، حيث يستضيفان الزوار الأجانب ويقيمان حفلات العشاء، وبعد انصراف الضيوف يخلو البيت إلا منهما، تقف بجواره في الشرفة، ينصت إلى حفيف شجرة الجميز، ويذكر الليالي التي ذرع فيها المكان يملؤه الشوق إليها ـ والخوف. يترك الحديقة ويعبر

قاعة المدخل في خطوات سريعة متجهاً إلى باب الخروج حيث يجد صابر في انتظاره.

ـ أنا عائد إلى البيت.

ـ سأصحبك يا باشا.

يخطوان إلى الخارج وتتوقف أمامهما عربة أجرة، يحاول صابر أن يرفع كبوت العربة ويفشل، يصعد إلى جوار السائق.

يضطجع شريف باشا في مقعده، سيلحق بموعد حمام نور، ثم يتناول العشاء في هدوء مع آنا، لا تصدق أنه سيسعد في حياة خالية من صخب السياسة لكنه سيسعد حقا، بعد قرابة ثلاثين عاما من الجهاد هو مستعد الآن للاعتزال. وهي؟ هل ستسعد؟ لقد تبنت مصر وتبنت قضيته. المرأة الوحيدة في العالم التي قدرت له ـ أرسلها الله إليه. قدر لها أن تختطف ويقذف بها في بيته، يبتسم شريف باشا لنفسه وهو يذكر آنا في قميص رجالي وبنطلون جالسة ـ عنيدة ومصممة ـ في حرملك أمه. لم لا يعود بها إلى سيناء، ويفرجها هذه المرة على شعاب المرجان؟ عالم بأسره تحت سطح الماء، وليس عليك إلا أن تغمر رأسك في البحر وتفتح عينيك. ستستمتع بذلك لا شك. هل كانت ستسعد في حياة من نوع مختلف؟ لا فائدة من طرح هذا الآن، هي تبدو سعيدة معه، لكن لعل بإمكانه أن يعطيها المزيد، ليس مزيدا من الحب والحنان، بل مزيدا من الأشياء العادية في الحياة، مازال اهتمامها يتسع لأشياء كثيرة؛ الناس والأشجار والتصوير والموسيقي والطهي، امرأة مشغولة دائما، لكنها تشيع حولها جوًا من السكينة والراحة في جميع الأحوال. طالما أتاها في

فرحه، وولهه، وجنانه، وفي حزنه وفي يأسه. كانت له بحرا يسبح فيه، وصحراء يركض في أنحائها، وأرضا يحرثها. يصيح بالسائق: «أسرع يا رجل».

١٥ أغسطس ١٩٩٨

الوقت مساء وأنا أتابع الأخبار على شاشة التليفزيون حين تدخل إيزابل إلى حجرة المعيشة.

تقول: نام.

أبتسم لها. أزمة جديدة تتنامي بين العراق والولايات المتحدة وليس بين العراق والأمم المتحدة.

تقول إيزابل: أمل؟

ـ نعم؟ أستدير إليها قليلا.

ـ أعرف كيف حدث أن وجدناها في حقيبتي.

ـ كيف؟

ـ هي وضعتها في الحقيبة.

يصيبني الخوف. أسأل بهدوء: من التي وضعتها في الحقيبة؟

ـ المرأة التي كانت في الجامع. أم آية. هي التي وضعتها..

أنظر إليها ويتملكني الغضب. ليس عندي تفسير أفضل، لكني غاضبة مع ذلك.

ـ ما زلت لا تصدقين ما أقول..

ـ فعلا، لا أصدقك..

ـ في ظنك، ماذا حدث إذن؟

ـ لا أعرف، لا أعرف يا إيزابل لكنني لا أستطيع أن أصدق ـ

ـ اسمعي! تميل إلى الأمام وقد اتسعت عيناها: لقد استعدت في ذاكرتي كل ما حدث. كنت على وشك الخروج وكدت أنسي هذه الحقيبة. كنت قد أنزلتها عن كتفي ووضعتها في مكان ما بالداخل، على الدكة الخشبية أو على الأرض، وكانت مفتوحة، أنا متأكدة لأني كنت أستخدم الكاميرا ولم أغلقها، وأنا خارجة اتجهت إلى المرأة وناولتني الحقيبة. قالت: «لا تنسي أغراضك» وابتسمت واحتضنتني، وعندما أخذتها كانت السوستة مقفولة.

ـ ولم تشعري أن الحقيبة ازدادت ثقلا؟

ـ لا، وبعد برهة: لكنها دائما ثقيلة.

ـ ولم تعودي لفتحها بالمرة؟

ـ لا. كنت أستعد للسفر، ولم ألتقط صورا بعد ذلك، وتركتها هنا عندك.

ـ لا أفهم. كيف أفهم؟

ـ من أين لي بهذا الشيء؟ تسأل: ولماذا أكذب؟ ما دمنا فيها، يمكن أن أقول أنت وضعت اللفة في الحقيبة، فالحقيبة عندك منذ شهور.

ـ لم يحدث..

ونجلس في صمت.

لن أعرف أبدا كيف عَلِمَتْ. سمعتها تصرخ قبل سماعي

العجلات والصياح والقرع المدوي على الباب. كنت في الفناء، وقبلها كنت معها في حجرة نور، فآنا ما زالت تحممها آخر شيء قبل النوم. كما يفعل الإنجليز. خرجت نور من حوض الاستحمام ورفضت أن تلبس لباس النوم وظلت تلف بشكير الحمام الأبيض الكبير حول جسمها، خلعنا عنها البشكير فعادت تلفه حول نفسها ثانية، حولناها إلى لعبة: نشد أطراف المنشفة ونسأل «ما هذا؟ ماذا وجدنا هنا؟ هل هنا قرد؟ أم غزال؟» فتلقي عنها البشكير وتضحك جزلة «بنت! بنت صغيرة!» وتعود تلتف بالبشكير، مرة وثانية، ثم طلبت عروستها. بحثنا عن العروسة وتذكرت أنها كانت تلعب بها في الفناء بعد الظهر، ناديت على حسناء، لكن لابد أنها كانت في المطبخ فلم ترد، فنزلت أبحث عن العروسة، ولذا كنت في الفناء. كانت العروسة هناك ملقاة بجوار النافورة، وأنا أنحني لألتقطها سمعت صرخة آنا، صرخة مهولة طويلة رنت في البيت وبعثت الرعدة في أوصالي، سمعها أحمد فجاء يجري من الحديقة.

كانت تصرخ «لا» بالإنجليزية، رفعت رأسي فرأيتها تخرج من البيت كالإعصار، تجري في الفناء، تتعثر، «لا، لا» ثم سمعت الجلبة في الخارج: العجلات والصياح ودق أقدام الجياد ثم الخبط على الباب، جريت، وجدتها هناك تجذب الترابيس وتجر الباب الثقيل وقد حضر فضيل وميرغني جريا ليساعدا في فتح الباب، ثم سمعت أصوات الرجال يصيحون بكلمة واحدة: «الباشا، الباشا».

حملوه إلى الداخل. أخي. حمله إلى الداخل ثلاثة رجال ورجل عجوز محني الظهر يعرج خلفهم يحمل عصاه

وطربوشه، والجياد تدق بحوافرها وتصهل وتتراجع ولا أحد يحكمها.

حملوه إلى السلاملك وآنا متعلقة به. توقفت عن الصراخ لكن مازالت تردد «لا» وهي ممسكة بذراعه: «لا! لا!» وتهز رأسها، ترفض ما حدث، تطرده بعيدا، تعيده من حيث أتى، هذا المصاب الذي حل بنا.

همس «شش». سمعته وخانتني ساقاي وقد غمرني شعور بالفرح: نوبة مرض، أزمة قلبية، ذبحة، أي شيء، المهم أنه حي، حي ويقول «شش»، وعندما وضعوه على الديوان ونزلت آنا على ركبتيها بجواره رفع يده ووضعها على عنقها.

في البداية لم أفهم ما حدث، حتى تراجع عنه الرجال ورأيت بقع الدم على ثيابهم فهرعت إليه، دخلت نور الحجرة في تردد، جاءت تستطلع صراخ أمها. لا تزال عارية تجر البشكير وراءها. رأت والدها راقدا على الديوان وعيناه مغمضتان فجرت إليه. رأيت الدم ينتشر على الأريكة تحت جسده الممدد فأمسكت بالطفلة. جاءني ميرغني وقال: «سأذهب لأحضر حسني بك» وقالت آنا: «ادع الطبيب، أحضر ملتون بك وسعد بك الخادم. بسرعة» هبت واقفة تفك أزرار قميصه: «هل تستطيع أن تنقلب على جنبك يا حبيبي. اسمح لنا أن نقلبك على جنبك» تملصت نور من ذراعي، قلت لها «بابا مجروح» كانت تقبل وجهه وتحاول الوصول إلى الجرح. «أبوسك؟ أبوس الجرح ليشفي؟» فتح عينه «بوسي خدي يا حبيبتي، روحي البسي ملابس نومك».

كان فضيل قد أحضر صندوق الأدوية، وآنا تخرج منه أربطة وزجاجات وقطعا من القطن، رأي شرائط الشاش في

يد آنا وهم يقلبونه على جنبه فقال: «هل تعودين لربط شعرك وتقييده؟» وأغمض عينيه. مزقت قميصه وكانت تحدثه طول الوقت وهي تغسل جرحه وتحشوه بالقطن وتظل تضغط عليه بيدها. اقتربت منهما وناديته «آبيه!» فتح عينيه. قال «ليلي؟ عملوها.. الكلاب» فقلت «من يا آبيه؟ من؟» فقال «الكلاب كثير. لا تخافي. أرسلي إلى أمي والتفتوا إلى صابر» كان جرح صابر في الكتف فقد ألقى بنفسه على أخي عندما دوت طلقات الرصاص. كانت أمي في زفاف ابنة مصطفى باشا فهمي الصغرى، فأرسلت من يحضرها.

وضعت نور في فراشها ونبهت على حسناء أن تبقي معها، فلم يكن منها نفع في الدور الأرضي، ولم تكف عن الصياح: «سيدي! سيدي الباشا!» قلت لنور إن والدها بخير وأمها تعني به، وهو يحتاج فقط للنوم. كنت أتكئ على أحمد وأنا أهبط الدرج، لكن قلبي كان مخلوعًا، يكبو ويخبط جدران صدري، وأنفاسي تنقطع وتخرج بصعوبة وأنا أهمس يارب، يارب بلا انقطاع. وضعت ماء على الموقد ليغلي وقلت لأحمد «إنه جرح، وخالو قوي والأطباء في الطريق..» لكن الخوف كان يطوق صدري بقيد من حديد، وقلبي لا يتوقف عن الخبط فيه.

سمعت ركض الجياد وأنا أهبط الدرج، لم يتوقف الركض طول الليل من وإلي البيت. وأنا أدخل السلاملك رأيت ملتون بك يسرع داخلا وقد بدأ يفتح حقيبته.

ثلاث رصاصات، اثنتان في البطن وواحدة في الظهر، وقال الطبيبان إنهما مضطران لإخراج الرصاص. أرسلت ميرغني ليحضر الماء المغلي، جاء حسني وأشعلوا مصباح كحول،

وطلبوا أن يبقى ميرغني وفضيل وصابر، لكن على أنا وآنا مغادرة الحجرة، ورفض أحمد أن يترك مكانه بجانب خاله. خرجنا إلى الفناء ووقفنا لصق الجدار ونحن ندعو ونصلي. عندما سمعنا صرخه الألم المقبوضة ألقت آنا بنفسها بين ذراعي، وأمسكت كل منا بالأخري ونحن ننتفض لصق ذلك الجدار حتى جاءنا حسني وقال: «لقد فعلا كل ما في وسعهما، سينتظران في الخارج إذا رغبتما في الدخول».

مكث ميلتون بك وسعد بك طول الليل معنا، في البدء كان غائبا عن الوعي ثم أفاق وتحدث مع حسني، ثم حدثني وقال لي ما يقوله أخ كريم شجاع لأخته التي يعرف أنها تفديه بحياتها.

ثم تحدث مع آنا وكانت راكعة بجواره.

ـ آنا. أنصتي لي..

ـ أحبك..

ـ آنا، اسمعي، لقد جعلتني.. يتوقف..

ـ أرجوك لا تتكلم. من فضلك، أرجوك لا تتكلم..

ـ اسكتي، اهدئي واسمعي. كنا سعداء معا. نعم؟

ـ نعم، تهمس نعم ويغص الكلام في حلقها: كنت سعيدة معك. كم كنت سعيدة... تقبل يديه وتمسح جبينها في ذراعه. تمسح نفسها فيه.

ـ أريدك أن تعيشي حياتك..

ـ أحبك، أحبك..

ـ أعرف. شش لا بد أن تتحلي بالشجاعة الآن. من أجل نور. تذكري وعدك.

ـ هذا بيتي..

ـ كان بيتك. حين كان بيتي. لا أريد لها حياة المجاهدة..

ـ لكني أريد البقاء هنا..

ـ لا يا آنا. لن تفلحي. كان مشروعنا ناجحا بي أنا..

ـ ما أشد كبرياءك، يرفع شريف باشا حاجبا ويحدجها بنظرة. تضع يديها في شعره وتتوسل:

ـ أرجوك، تتوسل إليه أرجوك، حاول..

ـ ربيها، أنشئيها لتكون مثلك..

ـ حبيبي، يا حبيبي، آه يا حبيبي...

دخلت أمي الحجرة فرفع إليها عينيه «ماما؟»

انحنت عليه وأمسكت يديه:

شريف حبيبي، ابني...

رفع يدها إلى شفتيه: ادعي لي يا أمي

وتنهد وكأنه يجلس في قاعة المدخل بعد ركض طويل على جواده في يوم صيف حار ويخلع حذاء الركوب.

وضعت أمي يدها الأخري على عينيه وقرأت له الشهادة قبل أن تخر على الأرض لا تقوي ساقاها على حملها.

يطلع الفجر وتشرق الشمس على بيت يرتفع فيه عويل النساء. تصعد أصواتهن من السلاملك عالية مكلومة ثم تتضاءل حتى

تتلاشي في يأس: يا حبيبي، يا حبيبي، يا بني يا حبيبي، ابني، أخويا، حبيبي، يا حبيبي، يا حبيبي.

عن نفسي أنا أذكره مائة بل ألف مرة في اليوم.

يمر بخاطري سأسأل آبيه عن. أو آبيه سيضحك كثيرًا عندما يسمع عن - أترقب خطواته عندما أسمع صوت العجلات على حصي الممشي. عندما يقل مخزون البن أقول لنفسي ينبغي أن نشتري لوازم ضيوف آبيه، ثم أتذكر. أرى الشبه بينه وبين أحمد في لفتة رأسه، في نظرته إلى، فأضمه إلى صدري وأقبله ثم أبعده قبل أن يلحظ دموعي، لقد حزن طويلا لوفاة خاله، وشق عليه فراق نور، وكثيرا ما يسألنا إذا كان يمكنه الذهاب للدراسة في إنجلترا. آنا تكتب لنا كثيرا بأخبار نور، أما عن نفسها فليس لديها أخبار إلا ما يخص نور. تشغل نفسها بالرسم وبالعناية بقريبها العجوز سير تشارلز، وبحديقتها.

أبي في خلوته. لا نعرف هل فهم ما حدث، أمي لا تتحدث كثيرا، تقضي معظم وقتها في الصلاة، لكن أحمد ومحروس مازالا ينتزعان منها الابتسام.

مبروكة شابت فجأة. في ليلة واحدة. تجلس بجانب الباب المؤدي إلى خلوة أبي حيث كان موضع نول آنا في الماضي، تتمتم بلا انقطاع: آيات من القرآن أم أدعية وتعاويذ لا ندري. في يوم من الأيام بعد مقتل أخي لفت نسجية آنا في ثلاثة أكياس من الموسلين أعطتني واحدا قائلة «لأحمد وأبنائه من بعده» وأعطت الثاني لآنا من أجل نور، ولا أدري ماذا فعلت بالكيس الثالث. أما النول فأدخلناه إلى خلوة أبي لأنه لم يسمح لنا بنقله، وهو أحيانا يجلس إليه ويلضم الخيط

من بكرة من الحرير كما كانت آنا تفعل وهو يرقبها، لكنه لم يصنع شيئًا.

صابر حزين جدا ويلوم نفسه، مع أنه ألقى بنفسه على أخي وجرح في كتفه، ماذا كان له أن يفعل أكثر من ذلك؟

حسني يعاملني بحنان ويرعاني في حزني. لم يكتشفوا بعد مرتكبي الحادث. يقال ربما كانوا من الأقباط المتعصبين، ردا على اغتيال بطرس باشا. ويقال لعلهم مسلمون متعصبون اغتالوه بسبب دفاعه عن حقوق المرأة ولزواجه من آنا وقيل إنه يرتدي صورتها في سلسلة حول رقبته، وحتي تلقي المسئولية على الأقباط. ويقال كذلك إنهم عملاء الإنجليز قتلوه حتى يتهم فيه الأقباط وتتسع شقة الخلافات في البلاد ويتخلصوا في نفس الوقت من زعيم وطني. ويقال لعله الخديو فعلها حقدا بلا خوف من النتائج لعلمه أن لورد كتشنر يسعده أن يزيح أخي من الساحة. ويقال لعل وراء اغتياله شخصيات أكبر وأهم من كل هؤلاء. يقولون ويقولون حتى توقفت أمي عن الإنصات.

يقول حسني إن وصية أخي الأخيرة كانت عدم السماح باستغلال مقتله لصالح أي من كان.

يقول حسني إن حربا على وشك الوقوع وإنها ستكون فرصتنا للتخلص من الاحتلال. دعاني أن أحاول تنظيم مزيد من المحاضرات للنساء في الجامعة، وإلي إصدار مجلة جديدة وأطلب من آنا أن تكتب لنا من إنجلترا، وجوليت من فرنسا. يقول إن آبيه كان يحبذ ذلك لو عاش. «الباشا كان سيعجبه هذا».

الباشا. أخي. أحيانا أزيح الستائر وأطل من المشربية على السلاملك، وكأنني قد أجده هناك، وكأنني لو انتظرت، لو انتظرت طويلا سيفتح الباب الكبير وأراه يناول عصاه وطربوشه لميرغني، ورأسه مرفوعة ينصت لطنين الحياة، لأصواتنا نحن النساء، في الداخل، هنا في البيت.

تم في الثلاثاء الثاني من صفر ١٣٢٢، الموافق ٣٠ ديسمبر ١٩١٣.

نهاية

أراني أتوسل إلى الظلماء

أين أنت يا رجلي الحبيب

لم ذهبت عن امرأتك، أختك

التي يحملك حبها خطوة خطوة إلى مشتهاك؟

أغنية من مصر، ١٣٠٠ ق م

ويموت. وأمل، التي كانت تعرف النهاية مسبقا، وأحبته كما أحبته أمه وأخته وزوجته، تتفجع عليه بطاقة جديدة من الحزن. تقرأ آخر ما خطته آنا في مفكرتها وتعيد القراءة مرات ومرات.

ـ حاولت، حاولت بصدق أن أخبرها. لكنها لا تستطيع ـ أو لا تريد ـ أن تفهم وتتخلي عن الأمل. إنها تنتظره في كل لحظة....

تفحص الصفحة والصفحات التي تليها تتمني وتلح أن تعود آنا تكتب لها. لكنها لا تجد شيئا. أين رسائل آنا إلى ليلي؟ وماذا عن نور؟ وأحمد، والدها هي؟ ومحروس؟ ما من مزيد.

تضطر أمل أخيرا لإغلاق المذكرات، تُسوّي كل ورقة من كل خطاب وكل قصاصة وترتبها كلها بنظام في ملفات، لكن قلبها لا يطاوعها أن تعيد دفنها في الصندوق، فيبقي كل شيء في حجرة نومها على المنضدة إلى جانب الشباك. لا بد أن أخاها سيرغب في الاطلاع عليها. تذهب إلى القرافة وتزور مقبرة الأسرة، زيارة لقبر شريف باشا البارودي بالذات، ويقرأ الشيخ المقيم هناك سورة ياسين على روحه.

القاهرة، ٢١ أغسطس ١٩٩٨

يثبت عينيه في عيني أمل وهو يرضع، يمص بقوة وبسرعة من الرضَّاعة، يداه مقبوضتان ومن وقت لآخر تضربان الهواء. وجهه رائق صبوح وعيناه مركزتان في عينيها، عندما تلتصق حلمة البزازة وتنطبق بسبب الضغط وتخرجها برفق من فمه، يحتج ويتلوي للحظة التي تستغرقها الحلمة لتمتلئ ثانية بالهواء ثم يشهق بلهفة عندما تعيدها إلى شفتيه. يرضع قليلا ثم يترك الحلمة ساكنة في فمه، تليها دفعة حاسمة بلسانه ويدير رأسه بعيدا، وقد عاد للاهتمام بالضوء والخيالات المتحركة. تحمله أمل ملتصقا بكتفها وتربت على ظهره، تمشي به في الحجرة وهي تناغيه بصوت خافت حتى يصدر عنه صوت تكريعة عميقة ويطمئن كل منهما أن كل شيء على ما يرام.

تنزل أمل شريف من كتفها إلى ذراعيها وتنظر إليه، يحدق فيها بعيون سوداء متيقظة «يعني لا تريد النوم الآن؟» تهز له رأسها فيمد إليها يده. ابنها الأكبر كان يفعل ذلك: يستيقظ في الثالثة صباحا يرضع ثم يتململ ويتشكي حتى تجلسه في كرسيه وتجلس قبالته تحدثه وتغني له وتلعب معه. «طيب!تعال نغير حفاضتك إذن». تمسكه إليها وتسير في الممر الطويل، تعبر بهدوء الحجرة التي تنام فيها إيزابل إلى حجرة نومها. تضعه على الفراش وتزرع قبلة على باطن كل قدم ناعمة من قدميه: «ماشي يا بن عمر الغمرواي. إياك إياك أن تبلل فراشي!»

فيما بعد تقف إلى جوار النافذة. الزجاج مغلق لكن الشيش مفتوح. تنزل الطفل حتى تلامس قدماه المنضدة وتمسكه إليها

قائما حتى ينظر إلى النجوم في الخارج. اليوم التاسع والعشرون من ربيع الثاني ولا قمر يمكن رؤيته في السماء. غدا يولد هلال ضعيف نحيف حتى لا تكاد تتبينه، ويعود يرتفع في السماء، أما الليلة فظلام دامس. يضرب الطفل بقدمه العارية على المائدة، يضرب مذكرات آنا والملفات المتراكمة. يطيل النظر إلى أسفل فتتبع أمل وجهة تحديقه وتلتقط تمثالا صغيرا من البرونز. في كفها تجلس القطة البرونزية منتصبة، الساق الأمامية قائمة والظهر منحدر رشيق من طرف الأذنين إلى الذيل المطوي بأناقة حول الردفين. تقول: «هذه ملك ابن عمتك. نعم! نعم! أنت لا تعرف بعد لكن لك أقارب كثيرون: أبناء عمة وأخ وأخت وكلهم سيحبونك جدا ـ إنها ثقيلة عليك فلا تحاول..» تبعد تمثال القط عن يد الطفل التي تحاول الإمساك به. تنحني لتضعه تحت المنضدة بحيث لا يراه، وهي تعود للوقوف يعود للالتفات إلى ما على المائدة. تلفت نظره زلطة بيضاوية سوداء لامعة: «أبوك أعطاني هذه..» تمسكها في باطن يدها والطفل في أمان تحيطه بذراعها... «نعم! كنا نمشي على الشاطئ ووجدها وأعطاها لي.» تمتد اليد الصغيرة وتتحسس قطعة الحجر، لكن الأصابع تنزلق على السطح الأملس عندما يحاول أن يقبض عليها. ترفس قدماه المائدة وترتفع العينان إلى عيني أمل: «وأعطاني أشياء أخرى كثيرة» تقول له وهي تخفض وجهها قريبا من وجهه وتحك أنفها في أنفه برقة، ترفعه إلى صدرها وتتمشى به في الحجرة: «كان يلعب معي وأنا صغيرة، ويخف لمساعدتي عندما كبرت، وطول عمره أعز صديق وأحسن أخ، يعني أخي الوحيد،

وهو أبوك أنت أيضا، وهو شجاع ووسيم ويعزف الموسيقى» تتغني بصوت خفيض وهي تسير ببطء وتهدهد الطفل: «موسيقي رائعة..» وتهدهد الطفل.

تضع الطفل النائم بجوار أمه وتضع وسادة طويلة على الجانب الآخر منه. تتململ إيزابل في نومها وتضع يدها على ساق الطفل.

النور يصب في الطريق من الصيدلية المفتوحة حديثا أسفل البيت. عمال ينزلون كراتين من سيارة نصف نقل ويحملونها إلى السوبرماركت الجديد. في آخر الشارع مازالت دكانة البقالة الصغيرة مفتوحة والشباب يجلسون على السيارات، أيديهم في جيوبهم وأقدامهم ترفس الرفارف على الوزن، تلفهم دوامة من غناء وردة وموسيقي الطبول والصاجات: بطلت أحبك/ أحبك/ ما تحبنيش...

تجلس أمل في حجرة المعيشة وتلتقط الصحيفة التي لم تجد فرصة لقراءتها بعد. مونيكا لويسنكي وفستانها الأزرق تشغل صفحتين، لا يجب تقسيم السودان، كلينتون يقسم أن تنتقم أمريكا من بن لادن، أولبرايت تهدد بضرب العراق ـ التعذيب في سجون فلسطين. تطوي الصحيفة وتقذف بها في سلة الأوراق المهملة.

كتبت آنا منذ مائة عام: لا أجد مفرًا من الاقتناع بأننا نعيش في عصر فظيع الوحشية ـ ونحن لا نملك إلا ـ تدخل أمل *التغيير الطفيف ـ الانتظار إلى أن يدور التاريخ دورته.*

تضع الشريط الذي أحضره أخوها من رام الله في جهاز الكاسيت، وتتمدد على الأريكة تحت مروحة السقف وتشعل سيجارة.

عندي سفينة

جُوَّا المينا

والله ناسينا

جوا المينا

لم يسمعوا من عمر منذ غادر سراييفو. في ضوء المصباح الخافت على المائدة يبدو شراب الكركديه المثلج في لون الدم. هل سيبقي معها مدة تسمح بأن يقرأ الحكاية؟ يتخيل معها آنا، آنا على الباخرة عائدة إلى إنجلترا: الطفلة نائمة. نور الحياة: نور حياتي.. إنها تنتظره في كل لحظة... وليلي. بكت أمل وهي تقرأ الصفحات الأخيرة من مذكرات ليلي، بقي لها زوجها وابنها، لكن أخاها، آبيه شريف الحبيب، اختطفته يد القاتل. آنا أخذت ابنتها وذهبت. هل عاشت في إنجلترا؟ كيف التقت نور بالرجل الفرنسي الذي تزوجته؟ ألم تلتق هي وأحمد فيما بعد؟ هل اتخذت آنا قرارا أن تترك نور الشرق وراءها إلى الأبد؟ أن تقصر عالمها على مكان واحد؟ أم أن الحرب العالمية حسمت لها القرار، ولهم جميعا؟ والبيت الكبير، بيت البارودي، عاد يخيم عليه الصمت، هل يفكر عمر في زيارة البيت؟ إيزابل أكيد ستحب أن تصطحبه إلى هناك.

غليوني في إيدي

ولابس فرو

فيها فضه

وفيها مصاري

لوحة آنا النسجية على الجدار اكتملت أجزاؤها الثلاث معلقة في عارضة خشبية مؤقتة ثبتها مدني. تعود أمل للتساؤل عن ذلك المقطع الأوسط، عن حورس. من أين جاء؟ تحاول أن تطرد السؤال من ذهنها، وتذكر نفسها بخطاب هاري بويل وكيف كان لغزا شق على شريف باشا وأصدقائه تفسيره، وكان الحل موجودا عثرت هي به مصادفة بعد مرور تسعين عاما، إلا أنها تعود لاستعراض الإمكانيات. لم تكن هي التي وضعت المقطع الغائب في حقيبة إيزابل، على الأقل هذا مؤكد. لكن هل وضعته إيزابل؟ في تلك الحالة.. متى فعلت ذلك وأين وجدته أصلا؟ في الصندوق قبل أن تحمله إلى أمل؟ لكن عندما فحصت معها محتويات الصندوق ووجدتا مقطع أوزوريس لم تقل إيزابل شيئا، لم تقل آه هناك مقطع آخر تركته في نيويورك، هل وجدته بعد ذلك في نيويورك بين متعلقات أمها؟ ولماذا تخفي عنها ذلك؟ لا، إيزابل دهشت حقا عندما وجدت النسجية في حقيبتها. أمل متأكدة من ذلك. هل هي متأكدة حقا؟

عندي سفينة والله ناسينا

جوا المينا

ياللا يا وردة

يا للا معايا

أمل سريعة الحدس واسعة الخيال. هل مازالت تعتقد أن لكل سؤال حتما جواب؟ تعيد إلى ذهنها كلمات ليلي: في يوم من الأيام بعد مقتل أخي لفت (مبروكة) نسجية آنا في ثلاثة أكياس من

المورسلين أعطتني واحدا قائلة «لأحمد وأبنائه من بعده» وأعطت الثاني لآنا من أجل نور، ولا أدري ماذا فعلت بالكيس الثالث. ليلي أعطت مقطع إيزيس لأحمد الذي أعطاه لعمر، ويبدو أن آنا لم تعط مقطع أوزوريس لنور، وإذا فعلت فقد انتهي على أي حال ملفوفا في كيسه في صندوقها الذي ورثته ياسمين. ماذا فعلت مبروكة بالمقطع الثالث؟ لم يخبرا عمر بعد بظهوره. كان أمرًا غريبا لا يذكر على الماشي في حديث بالتليفون. فكرة! تعد أن له مفاجأة بخياطة الأجزاء معا، ثم تكوي اللوحة وتعلق على الجدار ليراها.

ياللا يا وردة

يا للا معايا

البحر ابويا.. وبتسليني

وانا قرصان تركي قديم

نيتي مليحة وقلبي سليم

متى يحضر؟ متى يتحدث التليفون؟ إيزابل ليست قلقة عليه، لكنها لم تعرفه طويلا بعد، لا تدرك أنه اليوم وحيد حقا على الساحة. أحباؤه كثيرون وأعداؤه كذلك، لكنه أساسًا منفرد، وإلا لما استطاع في النهاية أن يعيش حيث يعيش ويعمل ما يعمل وحده في المنطقة الحرام بين الشرق والغرب. كان الأمر مختلفًا بالنسبة لها، لم تكن شخصية في الحياة العامة، فركزت على أبنائها، وترجمت روايات، أو حاولت قدر جهدها أن تترجمها، من الصعب حقا أن تترجم بالصدق من لغة إلى أخرى، ومن ثقافة إلى أخرى، تقريبا مستحيل. خذ مثلا مفهوم الطرب، يلزمك فقرة كاملة لشرح

شيء بسيط كالنَفَس، نشوة في القلب، طرب، مطرب، شاب طرب، طربتاتا طربتاتي، طروب، جمال وطروب: اتمني منيه/ اتمنيت/ واستني عليه/ استنيت/ عديلي لمية/ عديت... يكاد يغلبها النوم، هل تذهب إلى الفراش أو تنتظر حتى لا يستيقظ الطفل ويوقظها في الحال؟ كم هي مشوقة لأن تري عمر مع الطفل. اعتادت أن تقلق على أخيها في السنوات الماضية، تقلق ثم يطلبها بالتليفون. سيحدثها بالتليفون قريبا. ترفع بصرها إلى لوحة النسيج على الجدار، غدًا، غدا تشبك المقاطع خياطة هي وإيزابل ثم ترسلها إلى الكواء. سوف يجلسان شريف في مقعده الهزاز تحتها، فينظر إليها كما اعتادت نور أن تنظر وهي وليدة ترقد عند قدمي أمها في الفناء ترقب كرات الحرير تقفز على خيوطها. تعود أمل في خيالها إلى آنا وتراها جالسة في الشمس تعمل على النول وبارودي بك العجوز وعيناه على مسبحته، والوليدة في السلة والأصوات تتسرب من داخل البيت إلى الفناء. تري شريف باشا يدخل من الباب، يتوقف ليستوعب المنظر ويشعر بقلبه يفيض بالحب. تري آنا تنزل عن النول كل مقطع فرغت من نسجه تري مبروكة تمسك بالطرف الآخر وهما تلفان النسيج في حرص بينهما. تري شريف باشا راقدا على الديوان في السلاملك وتري الأيدي تجر عليه ملاءة بيضاء وتسمع بكاء الرجال وعويل النساء تري مبروكة في حجرتها تربط أغلفة من الشاش وثلاث لفافات طويلة من القماش وهي تبكي، تتوقف لتمسح الدموع من عينيها وتتمتم، تتمتم طول الوقت، تتبين أمل بعض ألفاظها «يخرج الحي من الميت» «قطعوا الفرع لكن الشجرة باقية»، تبكي مبروكة وتلف الأربطة وتتمتم «الغالي

يروح والغالي يأتي» تصب الدموع في غضون الوجه العجوز «النيل ينقسم ثم يعود للتلاقي» ترن صرخة الطفل في البيت، ويدب خوف مفاجئ في قلب أمل تدفعها قوته لتهب إلى قدميها صائحة بجزع: «أخي! عمر!»

صندوق السفر البني القديم قائم بجوار الحائط وقد جردته الأيدي من كنوزه. المفكرات القديمة راقدة على المنضدة وقد فضت أسرارها، وإلي جوارها الصفحات التي سجلت فيها أمل حكاية ليدي آنا وشريف باشا مرتبة في نظام. في الحجرة المجاورة إيزابل مستغرقة في النوم. أمل تحمل شريف الصغير على ذراعها وتعود لتمشي به في الممر الطويل المظلم. تضمه إلى صدرها وتربت على ظهره. تلصق خدها برأسه وتهمس «نام يا حبيبي»، تهمس: «نام يا حبيبي... نام... شش... شش...»

عن المترجمة

الأستاذة الدكتورة فاطمة موسى (١٩٢٧ ـ ٢٠٠٧)

شغلت عدة مناصب، منها منصب رئيس قسم اللغة الإنجليزية وآدابها، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ومقررة لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة في مصر، ورئيس الجمعية المصرية للأدب المقارن، ونائب رئيس الفرع المصري لنادي القلم الدولي. كما كانت عضوا بالعديد من الهيئات العلمية الدولية، منها الاتحاد الدولي لأساتذة كرسي اللغة الإنجليزية بالجامعات، والاتحاد الدولي للأدب المقارن، والاتحاد الدولي لدراسات شكسبير.

حصلت على جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ١٩٩٧. لها مؤلفات عديدة بالعربية والإنجليزية، ومن الترجمات التي أنجزتها، من الإنجليزية إلى العربية «مأساة الملك لير»، و«هنري الرابع» لوليم شكسبير، ومن العربية إلى الإنجليزية، رواية «ميرامار» لنجيب محفوظ.



«رواية غنية.. قصة -حب- متشابكة ومؤثرة، تعكس صورة لمصر عند بزوغ القرن العشرين وأفوله».

ديلي نيوز - نيويورك

«رواية جارفة، مثيرة للشجن».

التايمز - لندن

«إنجاز كبير... جسور وينبض بالحياة.. وورومانسي دون خجل من وقع الكلمة».

ليتراري ريفيو - لندن

«رواية أخاذة كليًّا ومنجزة بإدهاش».

نيويورك تايمز بوك ريفيو

الحكاية التي تكتبها المصرية "أمل الغمراوي" في نهاية القرن العشرين، اعتمادا على شذرات حكاية تضمنتها رسائل وأوراق ومذكرات دونتها البريطانية "آنا ونتربورن" في مطلع القرن. لكنها أيضا حكاية ثانية، تكتب نفسها بنفسها من خلال امتداد الماضي إلى الحاضر، وارتداد شخوص الحاضر إلى شخوص الماضي، وتعاقب دورة القرن على هذه أو تلك من المشاهد والأحداثِ والوقائع التي تقول: ما أشبه اليوم بالأمس! إنها، ثالثا، الحكاية المضادة التى تقترحها أهداف سويف نفسها هذه المرة، وذلك حين تعيد قراءة الماضي في ضوء الحاضر والعكس، وحين تضع تنميطات الماضي أمام مرآة تنميطات الحاضر والعكس.

صبحي الحديدي

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

ولدت أهداف سويف في مصر ودرست الأدب في جامعة القاهرة والجامعة الأمريكية بالقاهرة، ثم درست اللغويات في جامعة لانكستر بإنجلترا.. عملت بتدريس الأدب الإنجليزي والأمريكي في جامعتي القاهرة والرياض، نشرت لها مقالات في كبريات الصحف والمجلات العالمية وصدرت لها بالإنجليزية بالإضافة إلى هذه الرواية الصادرة عام ١٩٩٩، «عايشة» ١٩٨٣، «في عين الشمس» ١٩٩٣، «ساند بايبر» ١٩٩٦، ومجموعة مقالات تروي رحلاتها لفلسطين عام ٢٠٠٠ تحت عنوان «في مواجهة المدافع».

6 221102 025423

دار الشروق
www.shorouk.com
تصميم الغلاف عمرو الكفراوى